
هاروكي موراكامي
@ketab_n
Follow Me
31.8.2021
رواية
مقتل الكومنداتور
II ـ مجازٌ يتحوَّل
ترجمة: ميسرة عفيفي

هاروكي موراكامي

مقتل الكومنداتور

II- مَجَازٌ يتَنقّلُ

ترجمها عن اليابانيَّة: ميسرة عفيفي

رواية

دار الآداب - بيروت



مقتل الكومنداتور

II ـ مَجَازٌ يتَنقّلُ

مقتل الكومنداتور

II ـ مَجَازٌ يتَنقّلُ

هاروكي موراكامي / كاتب يابانيّ

ترجمها عن اليابانيّة: ميسرة عفيفي

الطبعة الأولى عام 2020

ISBN 978-9953-89-699-1

Killing Commendatore

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com


Daraladab


@Daraladab


daraladab.com

الجزء الثاني

مَجَازٌ يتَنقّلُ

- 33 -
أحِبُّ ما يُرى بالعين وما لا يُرى بالعين أيضًا

كان يوم الأحد صحوًا وجميلًا. ما من رياحٍ تشبه الرياح. تألّق جمال أوراق الشجر التي بين الجبال وقد صبغتها شمس الخريف بألوانٍ متنوّعة. وتنقّلت العصافير ذات الصدر الأبيض بانسيابيّة من غصنٍ إلى غصن، وهي تلتقط الثمار الحمراء بمهارة. جلستُ في الشّرفة، وتأمّلتُ ذلك المشهد بلا كللٍ أو ملل. إنَّ الطبيعة تقدّم جَمَالها بمساواة، للغنيّ والفقير بلا أيّ تمييز بينهما. مثل الوقت تمامًا... لا؛ ربّما هذا لا ينطبق على الوقت. فالأثرياء، بأموالهم، يستطيعون شراء وقتٍ زائد.

في تمام الساعة العاشرة، صعدتِ المنحدرَ سيّارةُ «تويوتا بريوس» سماويّةُ اللّون. كانت شوكو أكيكاوا ترتدي سترةً خفيفة رمليّة اللّون بياقةٍ عالية، وبنطلونًا قطنيًا رقيقًا بلونٍ أخضر فاتح. وفي عنقها، تلمع سلسلةٌ من الذهب. وكانت قد سرّحت شعرها كالمرّة الماضية، بطريقةٍ تكاد تكون مثاليّة. فكلّما تماوج شعرها تبدّى جزءٌ بسيطٌ من رقبتها الجميلة. لم تأتِ بحقيبةِ يدٍ يومذاك، لكنَّ حقيبةً جلديّة تتدلّى من كتفها. وكان حذاؤها خفيفًا بنيّ اللّون بلا كعب. ملابسها لا تتعمّد لفت الأنظار، رغم أنّها توليها عنايةً فائقة بالتفاصيل. كان صدرها جميلًا بلا شكّ. ووفقًا للمعلومات التي سرّبتها لي ابنة أخيها، فهو صدرٌ طبيعيّ «غير محشوّ». لقد انجذب قلبي قليلًا - بمعنى جماليّ تمامًا - لذلك الصدر.

أمّا مارية أكيكاوا فكان مظهرها غير رسميّ ومختلفًا تمامًا عن المرّة السّابقة: بنطلون جينز أزرق ضيّق وباهت اللّون، وحذاء رياضيّ أبيض ماركة كونفيرس. وكان البنطلون مثقّبًا هنا وهناك (ثقوبٌ متعمّدة بطبيعة الحال، وفي منتهى الحرص). وترتدي بُرْنُسا رماديًا خفيفًا، وفوقه قميصٌ مشبَّكٌ سميك من النوع الذي يرتديه الحطّابون. وبالطبع ما من نهدٍ في صدرها. وكانت متجهّمة كالمعتاد: بتعبير وجهٍ كالقطّ الذي يُسحَب منه وعاء الطعام قبل أن ينتهي من تناوله.

حضّرتُ الشاي في المطبخ مثل المرّة السّابقة، وحملته إلى غرفة المعيشة. ثمّ عرضتُ عليهما المسوّدات الثلاث التي رسمتها في الأسبوع الماضي. ويبدو أنّ شوكو أكيكاوا أُعجبت بها.

«تضجّ جميعها بالحياة. تبدو مارية أكثر حقيقة من الصور الفوتوغرافيّة ذاتها».

سألتْ مارية أكيكاوا: «أيُمكن أن آخذها؟»

فقلت: «لا مانع بالتّأكيد. ولكن بعدما أُنجز اللّوحة الأساسيّة، لأنّني قد أحتاج إليها حتى ذلك الحين».

قالت لها عمّتها: «ماذا تقولين؟» ثمّ التفتت إليّ وسألتني بقلق: «ألا تمانع حقًّا من أن تأخذها؟»

«لا مانع. حالما تكتمل اللّوحة، لا حاجة لي بالمسوّدات».

سألتني مارية: «أيٌّ من تلك المسوّدات الثلاث ستستخدمها في اللّوحة؟»

هززتُ رأسي وقلت: «لن أستخدم أيًّا منها. فما رسمتُ هذه المسوّدات إلّا لاستيعاب منظركِ مجسّمًا في هيئةٍ ثلاثيّة الأبعاد. وأعتقد أنّني سأرسمكِ على لوح القنّب بهيئة مختلفة».

«أتعني يا أستاذ أنَّ الصُّورة اكتملت اكتمالًا محدَّدًا في ذهنك فعلًا؟»

نفيتُ برأسي: «لا، لم تكتمل بعد. سنفكّر فيها أنا وأنتِ معًا فيما بعد».

قالت مارية: «تستوعب منظري في هيئة ثلاثيَّة الأبعاد؟»

قلت: «أجل هو كذلك. إذا نظرنا إلى اللَّوح من الناحية الفيزيائيَّة بدا مسطَّحًا، لكنَّ اللَّوحة يجب أن تُرسَم مجسَّمة. هل فهمتِ كلامي؟»

تعقَّدت ملامحُ وجه مارية. فتصوَّرتُ أنَّ كلمة «مجسَّمة» جعلتها تفكِّر في نهود صدرها. وحقًّا، ها هي تلقي نظرةً على صدر عمَّتها الجميل والمرتفع تحت السُّترة الخفيفة، ثمَّ تعود بنظرها صوبي.

ـ «كيف أصبحُ قادرةً على الرَّسم بهذه البراعة؟»

ـ «تقصدين المسوَّدات؟»

أومأت مارية، وقالت: «أجل... المسوَّدات».

ـ «بالتَّدريب على الرَّسم. ستصبحين بارعة تدريجيًّا مع التَّدريب».

ـ «لكنِّي أعتقد أنَّ هناك كثيرين لا يصبحون بارعين مهما اجتهدوا في التَّدريب».

كان ما تقوله صحيحًا. فلقد درستُ في كليَّة الفنون الجميلة، ورأيت عددًا يفوق الحصر من الزملاء الذين كانوا يفشلون مهما تدرَّبوا. فالإنسان ـ مهما ناضل ـ يكون متأثِّرًا بما وُلد عليه. لكنِّي لو قلتُ لها ذلك فلن أستطيع السَّيطرة على مجرى الحديث.

ـ «هذا ليس سببًا للامتناع عن التَّدريب. فهناك مواهب وقُدراتٌ لا تبرز ولا تظهر إلَّا بالتَّدريب والتَّمرين».

أومأت شوكو أكيكاوا مؤكِّدةً كلامي بقوَّة، ولكنَّ مارية أكيكاوا مطَّت شفتيْها فقط، وكأنَّها تقول: أحقًّا هذا؟

سألتُها: «يبدو أنّك تريدين أن تبرعي في الرّسم! أليس كذلك؟»

أومأت وقالت: «أحبُّ ما يُرى بالعين، وما لا يُرى بالعين أيضًا».

نظرتُ إلى عينيْها. كان لتينك العينَيْن بريقٌ من نوع خاصّ. ولم أدرك ما الذي تحاول أن تقوله مطلقًا. ولكنّني انجذبتُ إلى بريق عينَيْها أكثر من كلامها.

قالت شوكو أكيكاوا: «إنّه رأيٌ عجيب جدًّا. وكأنّه لغزٌ من الألغاز».

لم تردّ مارية على ذلك بل ظلّت صامتةً تنظر إلى يدَيْها. وعندما رفعتْ رأسها بعد قليل، كان ذلك البريق الخاصّ قد انطفأ. لقد كان بريقًا لحظيًّا.

انتقلتُ بها إلى المرسم. وأخرجتْ شوكو أكيكاوا من حقيبتها الكتابَ نفسه - هكذا بدا لي من شكله - السّميك من طبعة الجيب، واستندت بظهرها إلى الأريكة، وبدأت القراءة على الفور. كانت تبدو مندمجةً بتلك الصّفحات. وكان لديّ فضولٌ أقوى من الأسبوع الماضي لمعرفة أيِّ كتابٍ هو، لكنّي أعرضتُ عن السّؤال، كما هو متوقَّع.

جلسنا أنا ومارية وجهًا لوجه على مسافة مترَيْن تقريبًا، كما في الأسبوع الماضي. ما طرأ هذه المرّة أنّني وضعتُ حامل اللّوح أمامي. لكنّني لم أمسك في يدي فرشاة الرّسم أو الألوان بعد. كنت أنظر إلى كلّ من مارية واللّوح الفارغ بالتبادل. وكنتُ أفكّر في أفضل طريقةٍ لنقل منظرها هذا إلى اللّوح «مجسّمًا في ثلاثة أبعاد». ثمّة ضرورةٌ لإيجاد ما يشبه «الحكاية» هنا. فالأمر ليس مجرّد نقلٍ لمنظر الموديل وهيئته إلى اللّوحة كما هي. فهذا لا يصنع منها عملًا فنّيًا. مجرّد رسمٍ بارع يُشبه الموديل فقط. يتعيَّن عليّ إذن أن أكتشف الحكاية التي يجب أن تُرسم في تلك اللّوحة؛ ما يجعل منها بالنّسبة إليّ نقطة انطلاقٍ لمباشرة الرّسم.

تأمّلت وجه مارية وأنا جالس طويلًا على المقعد العالي، بينما كانت جالسة على كرسي مائدة الطعام. لم تَحد عينَيْها عن عينيَّ إطلاقًا. كانت تحدّق إليّ طوال الوقت، بدون أن تطرف تقريبًا. لم تكن نظرة تحدٍّ، إنّما لسان حالها يقول: «لن أتراجع خطوةً واحدة من هنا». إنّ وجهها الشبيه بالدُّمية قد يعطي انطباعًا خاطئًا عنها، ولكنّها في الواقع طفلةٌ من صفاتها قوّة الشّخصيّة، تمتلك إرادةً لا تتزعزع. وإن مدَّتْ خطًّا مستقيمًا فمن الصّعب أن ينعرج.

وعندما تملَّيْتها جيّدًا اكتشفتُ أنَّ عينَيْها تُذكّرني بعينَيْ منشكي. كان الإحساس قد راودني في المرّة السّابقة أيضًا، لكنّي ذُهلت بالقاسم المشترك بينهما مجدّدًا. ثمّة بريقٌ عجيبٌ في عينَيْها قد أعرّفه على أنّه «لهبٌ متجمّدٌ لحظيًّا». بريقٌ يحتوي على حرارةٍ لاهبة، وفي الوقت نفسه يمتاز بهدوءٍ أبديّ. يوحي بجوهرةٍ ذات خصوصيّةٍ شديدة، تمتلك مصدر إشعاعٍ باطنيّ. ويشهد صراعًا عنيفًا بين طاقةٍ تتّجه إلى الخارج، وطاقةٍ أخرى تتّجه للاكتمال في الداخل.

ولعلّ مصدر إحساسي هذا ما باح به منشكي على مسمعي مسبقًا: أنَّ الفتاة التي تُسمّى مارية أكيكاوا قد تكون ابنته من دمه. بسبب هذا التّمهيد، ربّما كنتُ أسعى جاهدًا، وبشكلٍ لاإراديّ، للبحث عن شيءٍ مشترك بينهما.

وبأيّ حال، عليّ أن أرسم خصوصيّةَ بريق تينك العينَيْن على سطح اللّوحة باعتباره العنصر الجوهريّ لملامح مارية أكيكاوا، كشيءٍ يهزّ أركان وجهها المتناسق بشكلٍ جميل. لكنّي لم أكتشف سياق رسمي لتلك اللّوحة بعد. وإن فشلتُ في ذلك، سأكون قد صوّرتُ جوهرةً باردةً فقط.

من أين يأتي هذا اللّهب العميق؟ وإلى أين يذهب؟

استسلمتُ بعد أن حملقتُ في وجهها واللَّوح مرارًا. دفعتُ الحامل جانبًا، والتقطتُ نَفَسًا عميقًا عدَّة مرَّات.

ثمَّ قلتُ: «لنتبادل الحديث».

فقالت مارية: «لا مانع. أيُّ حديث؟»

«أريد أن أتعرَّف عليكِ أكثر. إن لم يكن لديكِ مانع».

«مثلًا؟»

«حسنًا، ماذا عن والدكِ؟ أيُّ الرجال هو؟»

عوجت مارية شفتَيْها قليلًا، وقالت: «أنا لا أعلم الكثير عن أبي».

«ألا تتحدَّثان كثيرًا؟»

«بل إنَّنا نادرًا ما نلتقي».

«هل هذا لأنَّ والدك مشغول في عمله؟»

«حتى عمله، لا أعلم عنه شيئًا. لكنَّني أعتقد أنَّه لا يهتمّ كثيرًا بأمري».

«لا يهتمّ؟»

«لطالما اعتمد على عمَّتي في كلِّ ما يتعلَّق بي».

لم أبدِ رأيي بصفة خاصَّة تجاه ذلك.

«إذن، هل تتذكَّرين والدتك؟ أذكر أنَّها توفيت وأنتِ في السادسة من العمر، أليس كذلك؟»

«لا أستطيع تذكُّر أمر أمِّي إلَّا كبُقَعٍ مُتناثرة».

«ماذا تقصدين ببُقع؟»

«لقد اختفت أمِّي من أمامي في لمح البصر. ولم أكن أفهم وقتها ماذا يعني موت الإنسان. لذا لم أفهم إلَّا أنَّ أمِّي غائبة. مثل الدخان الذي يتسرَّب من فُتحةٍ ما».

صمتت مارية قليلًا، ثمّ تابعت.

«كان رحيلها مفاجئًا، لم أستوعب أسبابه جيّدًا. لذا، أجد صعوبة في تذكُّر الظروف التي تحيط بموت أمّي».

«كنتِ وقتها في اضطرابٍ نفسيٍّ شديد».

«هناك جدارٌ عالٍ يفصل بين زمن حياتها وزمن غيابها. ولا أستطيع الرَّبط بين الزمنَيْن». صمتت وهي تعضُّ على شفتَيْها. «أتفهم ما أقول؟»

«أعتقد أنّني أفهمكِ. سبق وحدّثتكِ عن شقيقتي التي توفّيت في عمر الثانية عشرة، أتذكرين؟»

أومأت مارية.

«لقد وُلدت شقيقتي بمرضٍ في صمّامات القلب. وأُجريتْ لها عمليّة جراحيّة حسّاسة، ويُفترض أنّها نجحت. ولكنْ، لسببٍ ما، لم تحلّ المشكلة. أي أنّها كانت تعيش وكأنّها تحمل داخل جسمها قنبلة قابلة للانفجار في أيّ وقت. ولذلك كانت الأسرة كلّها مستعدّة بدرجةٍ ما لوقوع أسوء الحالات في أيّ وقت. أي أنَّ الأمر لم يكن مفاجأة مثل صاعقةٍ في سماءٍ صافية، كوفاة والدتك بلسعات الدبابير».

«صاعقة...».

«صاعقة في سماءٍ صافية. مثلٌ يُقالُ في حالة حدوث أمرٍ مفاجئ تمامًا لم يكن يتوقّعه أحد».

قالت: «صاعقة في سماءٍ صافية. كيف تُكتب بالرُّموز الصينيّة؟»[1]

---

(1) تُكتب اللغة اليابانية باستخدام بعض الرموز أو الحروف الصينية التي تُسمى باليابانية «كانجي»؛ وكلمة «صاعقة» في هذا المثل صعبة الكتابة بحيث لا يعرفها الصغار من سن مارية / المترجم.

«سماءٌ صافيةٌ تُكتب «سماء زرقاء». أمّا كلمة صاعقة فهي صعبة جدًّا: أنا نفسي لا أستطيع كتابتها. لم أكتبها من قبل. إن أردتِ معرفتها ابحثي عنها في المعجم عند عودتك للبيت».

كرّرتها مرّةً ثانية: «صاعقة في سماء صافية»، وكأنّها تحتفظ بتلك الكلمات في أحد أدراج مخّها.

«على أيّ حال، كنّا نتوقّع حدوث ذلك بدرجةٍ ما. ولكنْ في الواقع، عندما هاجمتها النوبة فجأةً، وعندما ماتت في ذلك اليوم نفسه، لم يُجدِ استعدادنا اليوميّ نفعًا. لقد وقفتُ متجمّدًا حرفيًّا. ولستُ وحدي، إنّما الأسرة كلّها تعرّضت للصدمة ذاتها».

«هل اختلفت أمورٌ عديدة داخلك قبل الحدث وبعده، يا أستاذ؟»

«أجل. لقد اختلفت عديدٌ من الأمور تمامًا، داخلي وخارجي، قبل الحدث وبعده. تغيّرت طريقة انسياب الزّمن نفسه. ثمّ إنّي، على حدّ وصفكِ، لا أستطيع الرّبط بين ما قبل وما بعد».

ظلّت مارية تنظر إلى وجهي مدّة عشر ثوانٍ تقريبًا، ثمّ قالت: «يبدو أنّ أختك كانت شخصًا مهمًّا لك يا أستاذ، أليس كذلك؟»

أومأتُ موافقًا، وقلتُ: «بلى. كانت شخصًا في منتهى الأهمّيّة».

نظرت مارية أكيكاوا إلى الأرض وهي تفكّر بعمق في أمرٍ ما. ثمّ رفعتْ وجهها وقالت: «بسبب انفصال الذاكرة هكذا، لا أستطيع تذكُّر أمّي جيّدًا. تُرى أيّ أمٍّ كانت؟ وكيف كان وجهها؟ وماذا كانت تقول لي؟ وأبي لا يحدّثني عن أمّي».

أمّا أنا، فكلُّ ما أعرفه عن والدة مارية هو ممارستها الجنس مع منشكي للمرّة الأخيرة، (بناءً على ما حدّثني به منشكي بالتّفصيل الدّقيق). الجنس

الهائج الذي قد تكون مارية قد خُصّبت بويضتها من خلاله، والذي مارساه على أريكة مكتبه في العمل. ولكنْ بالتّأكيد لن أُخبرها بذلك.

«ولكنْ ألّا تتذكّرين أيَّ شيء، ولو بسيطٍ، عن والدتك؟ فقد عِشتُما معًا حتى السادسة من عمرك».

قالت مارية: «الرّائحة فقط».

«رائحة جسد والدتك؟»

«كلّا، بل رائحة المطر».

«رائحة المطر؟»

«كانت السّماء تُمطر بشدّة لدرجة سماع صوت ارتطام قطرات المطر بالأرض. ومع ذلك، كانت أمّي تسير بلا مظلّة. وكنتُ أنا أيضًا أسيرُ معها تحت المطر مُمسكةً بِيَدها. أعتقد أنّه كان فصل الصّيف».

«هل هي الأمطار العنيفة المُفاجئة التي تهطل مساءً في أواخر الصيف؟»

«ربّما. إذ صدرتْ رائحة المطر التي تضرب سطح الأسفلت الذي لفحته الشمس. تلك هي الرائحة التي أذكرها. كان المكان يشبه برج مراقبة فوق قمّة جبل. وكانت أمّي تغنّي».

«أيُّ أغنية؟»

«لا أذكر اللّحن. ولكنّي أذكر الكلمات. كانت كلمات الأغنية تقول: «تمتدّ المروج الخضراء الرّحبة على الضّفّة الأخرى من النهر، وتسطع الشمس جميلةً على تلك الضّفّة كاملة، أمّا هذه الضّفّة ناحيتنا فالأمطار تواصل الهطول لوقتٍ طويل...» هل سبق لك أن سمعت مثل هذه الأغنية يا أستاذ؟»

لا أذكر أنّني سمعتها من قبل.

«لا أعتقد».

هزّت مارية كتفَيْها هزّة خفيفة تعبّر عن اليأس. «لقد سألتُ حتى الآن العديد من الأشخاص، وجميعهم لم يسمع تلك الأغنية من قبل. لماذا يا تُرى؟ أهي أغنيةٌ ألّفتُها أنا في رأسي؟»

«أو ربّما تكون والدتُكِ قد ألّفتها في ذلك الوقت، من أجلكِ؟»

رفعت مارية وجهها وابتسمت. «لم يسبق لي أن فكّرتُ في ذلك. ولكنْ لو كان كذلك فعلًا، ألا ترى أنّه أمرٌ رائع؟»

ربّما تكون تلك هي المرّة الأولى التي أراها تبتسم. ابتسامةٌ تشبه غيومًا كثيفة انشقّت نصفَيْن، وتسرّبَ من بينها شعاع ضوءٍ أنارَ قطعة أرض.

سألتُها: «هل ستتذكّرين المكان لو ذهبتِ إليه مرّة أخرى؟ المكان الذي يشبه برج مراقبة فوق قمّة جبل؟»

«على الأرجح. لا أثق بنفسي إلى هذه الدّرجة، ولكنْ قد أتذكّر».

«رائعٌ أن تحتفظي بمشهدٍ كهذا في قلبك».

أومأت مارية.

بعد ذلك، ولفترةٍ وجيزة، أصخيْنا السّمع أنا ومارية إلى تغريد الطيور في الخارج. كانت السّماء خريفيّة صافية صفاءً رائعًا. وكان كلٌّ منّا مسترسلًا في أفكاره بلا نهاية.

سألتني مارية: «ما هذه اللّوحة المسنودة إلى الحائط؟»

كانت تشير إلى لوحة [رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء] الزيتيّة التي رسمتُها (أو التي حاولتُ أن أرسمها). لقد كنتُ قد وجّهتُها ناحية الجدار كي لا أراها أبدًا.

«إنّها لوحة غير مكتملة. كنتُ أحاول رسمَ شخصٍ ما. ولكنّني توقّفتُ عن رسمها».

«هل يمكن أن أراها؟»

«لا مانع. ولكنّها ما زالت في مرحلة المسوّدة».

عدّلتُ وجهة اللّوحة ووضعتُها على الحامل. نهضتْ مارية من على كرسي المائدة، وجاءت قُبالة حامل اللّوحات، وتأمّلت اللّوحة من المقدّمة وهي تَعقد ذراعَيْها على صدرها. عندما وقفتْ أمام اللّوحة استعادت عيناها بريقهما الحادّ القاطع؛ وزمّت شفتيْها بحزم.

تتكوّن اللّوحة من اللّون الأحمر والأخضر والأسود فقط، والرجل المفترض أنّه رُسِمَ فيها، لم تتّضح ملامحه بعد. وتختفي صورة الرجل التي رُسِمَت بالفحم تحت تلك الألوان الثلاثة. فلقد رفض ذلك الرجل إضافة أيّ تجسيمٍ وتلوينٍ له. ولكنّني كنتُ أعرف أنّه موجود داخل اللّوحة. إنّي أمسك بتلابيب وجوده من جذوره، مثلما تُمسك الشِباكُ أسماكًا لا تُرى من وسط البحر. لقد عرقل محاولتي لاكتشاف طريقة سحبه وإخراجه؛ وتوقّفت العمليّة عندئذٍ.

سألتني مارية: «هل توقّفت عند هذا الحدّ؟»

«أجل. إنّني في مرحلة المسوّدة، ولا أستطيع التّقدّم خطوةً واحدة للأمام».

فقالت بهدوء: «ولكنّ اللّوحة تبدو أنّها اكتملت بالفعل».

وقفتُ بجوارها، وتأمّلتُ اللّوحة مجدّدًا من زاوية رؤيتها نفسها. تُرى هل تستطيع مارية رؤية صورة الرّجل المختفية في عمق الظلام؟

سألتُها: «هل تقصدين أنّه لا حاجة لإضافة أشياء أخرى على اللّوحة؟»

«أجل. أعتقد أنّها من الأفضل أن تبقى كذلك».

حبستُ أنفاسي لفترةٍ وجيزة، لأنَّ ما قالته مارية هو الكلام نفسه الذي قاله لي رجل سيّارة سوبارو البيضاء. دع تلك اللّوحة كما هي. إيّاك أن تلمس يدك تلك اللّوحة بعد.

سألتُها ثانية: «وما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك؟»

لم تجب مباشرةً. تأمّلت اللّوحة بتركيزٍ لبعض الوقت، وفكّت عقدة ذراعَيْها، ووضعت يدَيْها على خدَّيْها كأنّها تبرّد سخونتهما. ثمّ قالت:

«لأنَّ اللّوحة، بحالتها هذه، تمتلك قوّة كافية».

«قوّة كافية؟»

«أشعرُ بذلك».

«وهل تلك القوّة من نوع غير حميد؟»

لم تجب مارية على السّؤال، بل أعادت يدَيْها إلى خدَّيْها مرّة ثانية.

«هل تعرف جيّدًا هذا الرجل الذي رَسَمْتَه يا أستاذ؟»

هززتُ رأسي نافيًا: «كلّا. في الحقيقة لا أعرف عنه أيَّ شيء. لقد قابلته صدفةً منذ فترة في إحدى المدن البعيدة أثناء سفري وحيدًا في رحلةٍ طويلة. حتى إنّنا لم نتجاذب الحديث، ولا أعرف اسمه».

«لا أعلم ما إذا كانت القوّة التي تغمر اللّوحة قوّة خيرٍ أمْ شرّ. قد تصبح هذه أو تلك، تبعًا للوقت. انظر! يختلف منظرها باختلاف زاوية النظر إليها».

«ولكنّكِ تعتقدين أنّه لا يجب أن تظهر تلك القوّة على السّطح، أليس كذلك؟»

نظرتْ مارية إلى عينيّ، وقالت: «ماذا ستفعل يا أستاذ إن أخرجتَها وأصبحتْ شيئًا غير حميد؟ إذا امتدّت يداها ناحيتنا؟»

كان رأيي كذلك بالتّأكيد. ما الذي يمكنني فعله إن كانت تلك شيئًا غير حميد؟ إن كانت شيئًا شرّيرًا؟ ثمّ إذا مدَّ ذلك الشّيء يده ناحيتي؟

أنزلتُ اللّوحة من الحامل، وقلبتها وأرجعتها لموضعها الذي كانت عليه. فعَمّ شعورٌ بزوال التوتُّر كان قد ملأ أرجاء المرسم حتى ذلك الحين.

وعندها فكّرت أنّه ينبغي لي أن أغلّف اللّوحة بإحكام وأضعها في السّقيفة. بالضّبط كما فعل تومohيكو أمادا مع لوحة [مقتل الكومنداتور] عندما أخفاها عن عيون الناس.

أشرتُ إلى لوحة تومohيكو أمادا [مقتل الكومنداتور] المعلّقة على الحائط، وقلتُ لها: «حسنًا، ما رأيك في تلك اللّوحة؟»

أجابت مارية بلا أيّ تردُّدٍ: «أحبُّ هذه اللّوحة. لمن؟»

«رسمها تومohيكو أمادا. مالك هذا البيت».

«إنّ هذه اللّوحة تحاول إبلاغَ أمرٍ ما. إنّه إحساسٌ وكأنّ طائرًا محبوسًا في قفصٍ ضيّق يحاول الخروج إلى العالم».

نظرتُ إلى وجهها.

«طائر؟ تُرى أيّ نوع من الطيور؟»

«لا أعلم أيّ نوعٍ من الطيور وأيّ نوعٍ من الأقفاص. ولا أرى ذلك المنظر جيّدًا. ولكنّني أشعر به فقط. لعلّ اللّوحة صعبة الفهم عليّ».

«ليس عليكِ فقط. صعبة عليّ أيضًا. ولكنْ كما تقولين، لدى الرسّام أمرٌ ما يحاول إبلاغه للناس، وأودع في هذه اللّوحة ذلك الشعور الطاغي. أشعر به أنا أيضًا. ولكنّي مهما فعلت لن أدرك ما الذي يحاول إبلاغه».

«شخصٌ يقتلُ شخصًا آخر. بحماسٍ شديدٍ».

«بالضّبط. الشاب، بقرارٍ حاسم، يطعن صدر غريمه بالسّيف فيخترقه اختراقًا تامًّا. ومن جهةٍ أخرى، يندهش الشخص المقتول بشدّة من أنّه على وشك الموت. ويكتم المحاطون أنفاسهم لهذه النتيجة».

«هل هناك في هذا العالم ما يُسمّى القتل الخيِّر؟»

فكّرتُ في السّؤال.

«لا أدري. لأنّ طريقة اختيار المعايير تختلف: ما الخير وما الشرّ؟ ففي هذا العالم، يعتقد كثيرون أنّ الإعدام قتلٌ خيِّرٌ من أجل المجتمع».

قلتُ في سِرّي: «أو الاغتيال».

فقالت بعد أن صمتت للحظات: «لكنّ تلك اللّوحة لا تسبّب كآبة لمن يراها، مع أنّ هناك شخصًا على وشك الموت مقتولًا، ومع أنّها مليئة بالدّماء النازفة. إنّها تحاول أن تأخذني إلى مكانٍ ما، تختلف فيه المعايير، معايير الخير والشرّ».

لم أُمسك بيدي فرشاة الرّسم حتى نهاية ذلك اليوم. تحدّثتُ مع مارية أكيكاوا أحاديث لا نهاية لها في المرسم المضيء. كنتُ أثناء حديثي معها أُخزّن في عقلي الباطن تغيُّرات ملامح وجهها وإيماءاتها المختلفة كلًّا على حِدة. كان مخزون تلك الذاكرة هو ما سيكوِّن لحمَ ودمَ اللّوحة التي يجب أن أرسمها.

قالت مارية: «لم ترسم اليوم شيئًا يا أستاذ».

«يحدث هذا أحيانًا. يختطف شيءٌ ما الزمن منّا، ويُعطينا شيءٌ آخر غيره. والأمر الهامّ هو جعل الزّمن حليفًا».

نظرتْ مارية إلى وجهي من دون أن تقول شيئًا. كمن يلصق وجهه بزجاج النافذة ليتلصّص على البيت. كانت تفكّر في معنى الزّمن.

وعندما أصبحت الساعة الثانية عشرة، وسمعنا دقّات الجرس المعتادة، خرجنا أنا وماريا من المرسم وانتقلنا إلى غرفة المعيشة. وكانت عمّتها على الأريكة منهمكة في قراءة ذلك الكتاب، والنظّارة ذات الإطار الأسود على عينَيْها. تركّز في القراءة لدرجةٍ تُشعرك بأنّها لا تتنفّس.

سألتها بعد أن نَفَدَ صبري على عدم السُّؤال: «ما اسم هذا الكتاب الذي تقرأين؟»

ابتسمت ابتسامةً مُشرقة ووضعت علامة القراءة في الكتاب وأغلقته، وقالت: «في الحقيقة إنّني مُصابة بنوعٍ من التشاؤم. إن أخبرتُ أحدًا باسم الكتاب الذي أقرأه لا أستطيع إكمال قراءته حتى النهاية. دائمًا يحدث أمرٌ غير متوقَّع، وأتوقّف عن القراءة في منتصفها. أمرٌ عجيبٌ، ولكنّه حقيقيّ. ولذلك، قرّرتُ ألّا أخبر أحدًا باسم الكتاب الذي أقرأه. عندما أنتهي من قراءته يُسعدني جدًّا إخبارك».

«بالتّأكيد، لا مانع بعد الانتهاء من قراءته. فقط مجرّد أن أثار اهتمامي قراءتك له بحماسٍ وتركيز. وأردتُ معرفة اسمه».

«إنّه كتاب مُمتعٌ جدًّا. إن بدأت قراءته لن تستطيع التوقّف. لذا قرّرت ألّا أقرأه إلّا عندما آتي هنا فقط. وبذلك تمرّ الساعتان في لمح البصر».

قالت ماريا: «إنّ عمّتي تقرأ كتبًا كثيرة».

فقالت عمّتها: «لا شيء آخر أفعله، فقد أصبحت القراءة هي محور حياتي حاليًّا».

سألتُها: «ألا تعملين؟»

خلعت نظّارتها وبسطت التجاعيد التي بين حاجبَيْها بأصابعها، وقالت: «أقوم بالعمل التطوعيّ في مكتبة الحيّ مرّة في الأسبوع تقريبًا. قبل

ذلك، كنتُ موظَّفة في كلِّيَّة طبّ أهليّة في العاصمة. كنتُ أعمل سكرتيرة عميد الكليّة. ولكنّني تركتُ العمل بعد انتقالي للعيش هنا».

«انتقلتِ للعيش هنا عندما تُوُفِّت والدة مارية، أليس كذلك؟»

«كانت إقامةً مؤقّتة حتى تستقرّ الأمور حينها. ولكنْ بعد أن انتقلتُ فعلًا، وبدأتُ العيش مع مارية، لم يَعُد الرَّحيل سهلًا. ومنذ ذلك الحين وأنا أُقيم هنا طوال الوقت. بالطبع، لو تزوَّج أخي مثلًا لعُدتُ إلى طوكيو فورًا».

قالت مارية: «أعتقد أنّني سأذهب معكِ عندئذٍ».

أعرضت شوكو أكيكاوا عن الردّ، وابتسمت ابتسامةً دبلوماسيَّة عريضة.

وجَّهتُ سؤالي لهما قائلًا: «هلّا تناولنا الغداء معًا، إن لم يكن لديْكما مانع؟ يمكنني إعداد معكرونة سباجيتي وسَلَطة بسهولة».

بالطبع، كانت شوكو أكيكاوا متحفِّظة، لكنّ مارية أبدت اهتمامًا كبيرًا بتناولنا الغداء معًا نحن الثلاثة.

«لِمَ لا؟ فحتى لو عدنا إلى البيت، لن نجد أبي هناك».

قلتُ لهما: «إنَّها حقًّا وجبةٌ بسيطةٌ. فالصلصة معدَّة بالفعل بكمّيّة كبيرة. وليس هناك فرق بين إعداد وجبة لفرد أو لثلاثة أفراد».

قالت شوكو أكيكاوا بريْبة: «أحقًّا لا مشكلة؟»

«بالتَّأكيد. لا تشغلي بالك. أنا أتناول الطعام هنا وحيدًا على الدَّوام. أتناول ثلاث وجبات كلّ يوم بمفردي. وأتمنّى لو يُشاركني طعامي أحدٌ ما من حينٍ لآخر».

نظرت مارية إلى وجه عمّتها.

فقالت شوكو أكيكاوا: «لا يمكنني إلَّا أن أنزل عند رغبتها. أحقًّا لا نسبِّب لك إزعاجًا؟»

قلتُ لها: «مطلقًا. أرجو ألّا تشغلي بالك مطلقًا».

انتقلنا بعد ذلك إلى غرفة الطعامِ نحن الثلاثة. جلستا عند مقدّمة المائدة، وذهبت أنا للمطبخ وغليت الماء، ثمّ سخّنت الصلصة المُعَدَّة مسبقًا من نبات الهليون وشرائح اللّحم المقدَّد، وأعددتُ سَلَطةً خضراء من الخسّ والطماطم والبصل والفلفل الرُّوميّ. وعندما غلى الماء سلقتُ فيه المعكرونة، وفي تلك الأثناء قطّعتُ البقدونس قِطعًا دقيقة، وأخرجتُ من الثلّاجة الشاي المثلّج، وصَببْت منه في الأكواب. تأمّلتِ المرأتان حركاتي النشيطة في المطبخ كأنّهما تنظران إلى شيءٍ نادر الحدوث. سألتني شوكو أكيكاوا إن كنتُ بحاجةٍ إلى مساعدة، فأجبت أنَّ الأمر لا يحتاج إلى ذلك، وطلبتُ منها البقاء جالسة في مكانها.

قالت منبهرة: «يبدو أنَّ يديْكَ متعوّدتان جدًّا على الطبخ».

«لأنّني أفعل ذلك يوميًّا».

لم يكن الطبخ يسبّب لي أيّ معاناة. أنا أعشق العمل اليدويّ منذ زمنٍ طويل: فأنا أطبخ، وأقوم ببعض الأعمال البسيطة في النجارة أو الإنشاء، وأُصلح الدرّاجة العاديّة، وأقوم بأعمال الحديقة. أمّا ما أعانيه فهو التّفكير التجريديّ وعلم الرياضيّات. فالألعاب الفكريّة مثل الشوغي والشطرنج والبازل تسبّب صُداعًا في رأسي.

بعد ذلك، بدأنا بتناول الطعام على المائدة. وجبة غذاء بسيطة في يوم أحدٍ خريفيّ صحو. كانت شوكو أكيكاوا شريكًا مثاليًّا يجلس على المائدة نفسها. مواضيع الحديث غنيّة ووفيرة، وتمتاز بروح الدّعابة وغزارة المعرفة وحسن السلوك. وحركاتها على المائدة جميلة وليس فيها أيّ تصنُّع. إنّها امرأة نشأَتْ في أُسرةٍ راقية، وتلقّت تعليمها في مدارس تكلّف أموالًا طائلة.

أمّا مارية فلم تفتح فمها بالكلام تقريبًا، وتركت الحديث لعمّتها، وركّزت في تناول الطعام. وطلبت منّي شوكو أن أكتب لها طريقة صُنع الصلصة.

وعندما أوشكنا على إنهاء الطعام، رنَّ جرس الباب بصوتٍ مرحٍ. كان من السّهل عليّ أن أتوقّع مَن الذي يدقّ الجرس. لأنّني أحسستُ منذ دقائقَ بصوتِ محرّك الجاغوار العميق. وصل الصوت ـ الذي يقع على طرف النقيض من صوت سيّارة تويوتا بريوس الهادئ ـ إلى مكانٍ ما في الطبقة الرّقيقة بين الوعي واللّاوعي عندي. لذا، لم يكن دقّ جرس الباب «صاعقة في سماء صافية» مُطلقًا.

«المعذرة» قلتُ، ونهضتُ من على الكرسيّ، ووضعتُ المنديل جانبًا. وتركتُ ضيفيّ خلفي، واتّجهتُ إلى المدخل. ولم يكن من السّهل عليّ أن أتنبّأ بتطوُّرات الأمور من تلك اللّحظة فصاعدًا.

- 34 -
حقًّا! لم أقس ضغط الهواء مؤخَّرًا

عندما فتحتُ الباب، كان منشكي واقفًا.

كان يرتدي معطفًا من الجبردين (أو قُماش تويد: صوف ناعم الملمس) بلونٍ رماديّ يميل للزُّرقة وصدريّة من الصُّوف بها تصميم راقٍ دقيق فوق قميصٍ أبيض بأزرارٍ في ياقته، وبنطلونًا قماشيًا بلون الخردل الفاتح، وحذاءً جلديًا مزأبرًا (الشمواه: جلدٌ ناعمٌ مُزغّب). وكعادته، كانت ملابسه توحي بالطمأنينة. وشعره الأبيض الوفير يلمع مع أشعّة شمس الخريف، والجاغوار الفضّيّة من خلفه. وبجوارها تويوتا بريوس الزرقاء. بدت السيّارتان، بجانب بعضهما بعضًا، مثل رجلٍ يبتسم فاغرًا فاه بصفّ أسنان سيّئة التَّرتيب.

أدخلتُ منشكي البيت من دون أن أقول شيئًا. وبدا وجهه متشنّجًا من التوتُّر، ذكّرني بحائطٍ دُهِنَ للتوّ بملاط لم يجفّ بعد. وبالطبع، كانت المرّة الأولى التي أرى فيها منشكي بتلك الملامح. فقد كان من قبل يسيطر على نفسه دائمًا، ويجتهد في عدم إظهار مشاعره قدر الإمكان. حتى بعد أن حُبِسَ لمدّة ساعةٍ في قاع الحُفرة حالكة الظلام، لم تتغيّر تعبيرات وجهه مطلقًا. ولكنّه، الآن، كان وجهُه يقترب كثيرًا من الشحوب.

قال: «هل هناك مانع من دخولي؟»

قلتُ: «بتاتًا. نحن الآن على وشك الانتهاء من تناول الطعام، تفضَّل بالدُّخول».

«ولكنَّني لا أريد أن أزعجكم أثناء تناول الطعام».

ونظر في ساعته بحركة لاإراديَّة. ثمّ ظلَّ يُحملق في عقارب الساعة بلا معنى. وكأنَّه يعترض على طريقة حركتها.

قلتُ له: «سينتهي الطعام سريعًا. فهي وجبة خفيفة. فلنحتسِ القهوة معًا جميعًا. أرجوك أن تنتظر في غرفة المعيشة. سأُحضرهما هناك، وأُعرّفك إليهما».

هزَّ منشكي رأسه نافيًا، وقال: «كلّا، أعتقد أنَّ الوقت مبكّر جدًّا على تعريفي بهما. لقد ظننت أنَّهما غادرا بالفعل، لذا جئتُ لزيارتك. لم آتِ لكي تعرّفني إليهما. ولكنْ بعد أن جئت، رأيتُ سيّارة لم أرها من قبل، متوقّفة أمام البيت فاحترتُ فيما ينبغي فعله...».

قلتُ مقاطعًا كلامه: «بل إنَّها فرصةٌ ممتازة. دع الأمر لي، سأعمل على أن يبدو طبيعيًّا تمامًا».

أومأ منشكي وبدأ في خلع حذائه. لكنَّه بدا وكأنَّه لا يعرف طريقة خلعه مطلقًا. انتظرتُ حتى انتهى من ذلك، وأرشدته إلى غرفة المعيشة. أخذ ينظر في أرجاء الغرفة وكأنَّه يدخلها للمرّة الأولى في حياته، مع أنَّه دخلها مرّاتٍ عديدةً من قبل.

قلتُ له: «أرجو أن تنتظر هنا. اجلس وكُنْ على راحتك. لن يستغرق الأمر عشر دقائق».

تركتُ منشكي بمفرده هناك ـ مع إحساسي ببعض القلق ـ وعدتُ إلى غرفة الطعام. كانت الاثنتان قد أنهتا طعامهما أثناء غيابي، ووضعتا الشوكتَيْن فوق الطبقَيْن.

سألتني شوكو أكيكاوا بقلق: «هل حضر ضيوف؟»

«أجل. ولكن لا بأس. إنّه صديق يسكن بالجوار مرّ على البيت من دون موعد. جعلته ينتظر في غرفة المعيشة. ليس هناك أيُّ داعٍ للقلق، فهو شخصٌ ودود ولطيف. سأنتهي من طعامي».

ثمّ أنهيتُ القدْرَ البسيط المتبقّي من وجبتي. وأثناء ترتيب المرأتَيْن لأدوات المائدة، أعددتُ القهوة بآلة تحضير القهوة.

ثمّ قلتُ لشوكو أكيكاوا: «ما رأيكِ أن ننتقل لغرفة المعيشة ونحتسي القهوة معًا؟»

«ولكنْ، ألا نسبّب إزعاجًا لك ولضيفك؟»

هززتُ رأسي نافيًا، وقلتُ: «ليس هناك أيُّ إزعاج مطلقًا. فهذا ربّما يكون قدرٌ ما. سأعرّفكما عليه. قلتُ إنّه يسكن في الجوار، لكنّه في الحقيقة يسكن في الجهة المقابلة من الوادي، ولا أعتقد أنّكما تعرفانه».

«ما اسمه؟»

«اسمه منشكي. يُكتب برموز الهروب من اللّون».

قالت شوكو أكيكاوا: «اسمٌ نادر. لأوّل مرّة أسمعُ عن شخص باسم السيّد منشكي. وبالتّأكيد، إن كان يسكن في الجهة المقابلة فمن النادر الذهاب إلى هناك».

وضعنا أربعة أكواب قهوة والسكّر والحليب في آنية، وحملناها إلى غرفة المعيشة. وعندما دخلنا هناك أصابتنا الدّهشة لعدم وجود منشكي. كانت الغرفة خالية. ولم يكن في الشرفة. ولا يبدو أنّه ذهب إلى دورة المياه.

قلتُ بدون أن أوجّه كلامي لشخص معيّن: «تُرى أين ذهب؟»

سألتْ شوكو أكيكاوا: «هل كان هنا؟»

«حتى دقائق قليلة مضت».

عندما ذهبتُ إلى مدخل البيت لم يكن حذاؤه الجلديّ المزأبر موجودًا. ارتديتُ صندلي وفتحتُ الباب، كانت سيّارة الجاغوار الفضّيّة ما تزال مركونة في مكانها. بما يعني أنّه لم يَعُد إلى بيته. زجاج نوافذها يبرق لامعًا بأشعّة الشمس، فلم أستطع تحديد ما إذا كان داخلها أم لا. مشيت حتى السيّارة. كان منشكي يجلس على مقعد القيادة، ويبحث هنا وهناك عن شيءٍ ما. طرقتُ زجاج النافذة بخفّة. ففتح منشكي النافذة ونظر إليّ مشتّت الذهن.

«ماذا حدث يا سيّد منشكي؟»

«كنتُ أريد قياس ضغط هواء الإطارات، ولكنّني لسببٍ ما لا أعثر على جهاز قياس ضغط الهواء. يُفترض أنّني أضعه دائمًا في الصندوق الأماميّ بجوار مقعد القيادة».

«وهل هذا أمر من المحتّم فعله الآن، في هذه اللّحظة؟»

«كلّا، ليس محتّمًا فعله الآن، ولكنّني عندما جلستُ وحيدًا قلقتُ فجأةً بشأن ضغط الهواء. وانتبهتُ إلى أنّني لم أقس ضغط هواء الإطارات مؤخّرًا».

ـ «وهل تبدو حالة الإطارات غريبة؟»

ـ «كلّا. إنّ حالتها عاديّة وليس بها ما يُقلق».

ـ «إذن، ما رأيك أن تؤجّل موضوع ضغط الهواء مؤقتًا لما بعد، ونعود إلى غرفة المعيشة؟ لقد أعددتُ القهوة، وهما تنتظران بالداخل».

قال منشكي بصوت جافّ: «تنتظران؟ هل تنتظراني أنا؟»

ـ «أجل. فلقد قلتُ لهما إنّني سأعرّفك إليهما».

ـ «تلك مشكلة».

- «لِمَ؟»

- «لأنّني لم أستعدّ بعد لتعرّفني إليهما. أقصد الاستعداد النّفسيّ».

كانت عيناه تشعّان رعبًا وحيرة كعينَيْ رجلٍ قيل له أُقفز من الطابق السادس عشر في مبنى يحترق تجاه شبكة إنقاذ لا تبدو في عينَيْه إلّا في حجم كفّ اليد.

قلتُ له بنبرةٍ حازمةٍ: «من الأفضل أن تأتي. هيّا، فالأمر في مُنتهى البساطة».

أومأ منشكي صامتًا، ثمّ نهض من مقعد القيادة وخرج من السيّارة وأغلق بابها. وحاول أن يقفل السيّارة، لكنّه تذكّر أن لا ضرورة لذلك (فنحن فوق قمّة جبل لا يأتيه أحد)، فوضع المفتاح في جيب بنطلونه القماشيّ.

عندما دخلنا غرفة المعيشة، كانت شوكو وماريه جالستَيْن على الأريكة تنتظران. وعندما دخلنا، وقفتا بأدبٍ واحترام. قدّمتُ إليهما منشكي باختصار، وبطريقةٍ اعتياديّة.

«لقد سبق للسّيّد منشكي أن كان موديلًا للوحةٍ من لوحاتي. فسمح لي أن أرسم له البورتريه. وحكمت الصدفة أنّه يسكن في الجوار، فمنذ ذلك الحين ونحن أصدقاء».

سألته شوكو أكيكاوا: «سمعت أنّك تسكن على قمّة الجبل المقابل؟»

عندما ذُكِرَ أمر بيته، شحب وجه منشكي شحوبًا ظاهرًا للعيان.

«أجل. أسكن هناك منذ بضع سنوات. تُرى كم سنة؟! ثلاث سنوات أم أربع؟!»

نظر منشكي إليّ وكأنّه يوجّه لي السّؤال. لكنّني لم أقل شيئًا.

سألتْ شوكو أكيكاوا مجدّدًا: «هل يُرى بيتك من هنا؟»

قال منشكي: «أجل، يُرى»، ثمّ أضاف مسرعًا: «ولكنّه ليس بيتًا مهمًّا. بل إنّ موقعه مزعج».

فقالت شوكو أكيكاوا بلطف: «من حيث إنّ موقعه مزعج، فبيتُنا كذلك أيضًا. مجرّد التبضّع يصبح مهمّة صعبة. وليس هناك تغطية جيّدة لشبكة الهاتف الجوّال ولا شبكات الإذاعة. وعلاوة على ذلك، فالطريق تنحدر بزاوية شديدة، وإن سقطت الثلوج يسهل انزلاق الإطارات، ما يُصيبني بالرّعب، فلا أخرج بالسيّارة. ولكنْ لحُسن الحظّ، لم تسقط الثلوج لهذه الدّرجة إلّا مرّةً واحدة من خمس سنوات فقط».

قال منشكي: «أجل. من النادر تساقط الثلوج في هذه المنطقة. الفضل للرياح الدافئة التي تأتي من المحيط. إنّ قوّة البحر كبيرة. بمعنى...»

«نحن محظوظون بالفعل لعدم تراكم الثلوج في الشتاء» قاطعتُ كلامه، لأنّني لاحظتُ أنّ منشكي في وضعٍ مأزوم، ولو تركته لاسترسل في شرح منظومة التيّارات الدافئة للمحيط الهادئ بالتّفصيل!

كانت مارية أكيكاوا تقارن بين وجه عمّتها ووجه منشكي. وبدا أنّها لا تحمل انطباعًا معيّنًا تجاه منشكي. لكنّه من ناحيته لم ينظر إلى مارية ولو نظرة واحدة، بل ظلّ مثبّتًا نظره على وجه عمّتها فقط. وكأنّ ملامح وجهها تجذب قلبه جذبًا شخصيًّا عنيفًا.

قلتُ لمنشكي: «إنّني الآن أرسم بورتريه مارية. بعد أن طلبتُ منها أن تكون موديلًا».

قالت شوكو أكيكاوا: «ولذلك أُوصلها أنا بالسيّارة إلى هنا صباح الأحد من كلّ أسبوع. إنّ المسافة المباشرة قصيرة جدًّا. ولكنْ بسبب طبيعة الطريق يجب علينا قطع مسافةٍ طويلة. ندور ونلفّ حول الجبل».

نظر منشكي أخيرًا إلى وجه مارية مباشرة. ولكنْ كانت عيناه تتحرّكان بانشغال وعدم استقرار مثل حشرة زيز، محاولًا البحث عن مكانٍ حول وجهها يمكن أن تستقرّ عليه عيناه. غير أنّه لم يستطع العثور على ذلك المكان.

جئتُ بدفتر الرّسم لأُريه إيّاه وأنقذه من تلك الحالة. «هذه هي المسوّدات التي رسمتها لها حتى الآن. ما زلنا حاليًا في مرحلة الانتهاء من المسوّدات، ولم نبدأ بعد برسم اللّوحة ذاتها».

ظلَّ منشكي يتأمّل تلك المسوّدات الثلاث بتمعُّنٍ وتدقيق. وكأنَّ النظر فيها يحمل له معنًى عميقًا جدًّا أكثر من رؤية مارية ذاتها. ولكنَّ ذلك لم يكن صحيحًا بالتّأكيد، بل مجرّد أنّه لا يستطيع التّحديق مباشرةً في وجه مارية. لا تزيد المسوّدات عن مجرّد بديلٍ لها. سوى أنّه لا يستطيع ضبط مشاعره جيّدًا، لأنّها المرّة الأولى التي تقترب منه مارية بشحمها ولحمها. وكانت مارية تتأمّل حركات وجه منشكي تلك التي لا تستقرّ على حال، وكأنّها تُراقب حيوانًا نادر الوجود.

قال منشكي: «رائع!» ثمّ نظر إلى شوكو أكيكاوا، وقال: «إنَّ كلّ مسوّدة تفيض بالحياة. واستطاعت الإلمام جيّدًا بالجوّ العامّ».

قالت عمّة مارية مبتسمة: «حقًّا. كان ذلك رأيي أيضًا».

قلتُ لمنشكي: «ولكنَّ مارية يصعب التعامل معها. وليس من السّهل رسمها في لوحة. لأنَّ ملامح وجهها وتعبيراته تتغيّر وتتبدّل كلّ لحظة، وسيستغرق الأمر وقتًا حتى أستطيع الإلمام بجوهرها. ولهذا السّبب، ما زلتُ غير قادرٍ على الشّروع في الرّسم فعليًا».

قال منشكي: «صعب؟!»

ثمّ ضيّق حدقتَيْ عينَيْه ونظر إلى وجه مارية مجدَّدًا، وكأنَّه ينظر إلى شيءٍ مشعّ.

قلتُ: «يُفترض أنَّ تعبيرات الوجه في تلك المسوَّدات الثلاث تختلف كلّ واحدةٍ عن الأخرى. وبمجرّد اختلافٍ ضئيلٍ في تعبيرات الوجه، يختلف الجوّ العامّ للّوحة بشدّة. ولذا، بغية رسمها في لوحةٍ واحدة محدَّدة، يجب الإمساك بالجوهر المكنون في داخلها، لا تعبيرات الوجه التي تتغيّر. وإن لم أستطع فعل ذلك، أصبحت اللّوحة مجرّد جزءٍ واحدٍ من الصورة الشاملة لها».

قال منشكي بانبهار: «فهمت». ثمّ قارن لعدّة مرّات بين وجه مارية والمسوّدات الثلاث. وأثناء ذلك، عادت الدّماء تدريجيًا إلى وجهه الذي كان الشحوب قد بلغ به مداه. بدأت تلك الدّماء بما يشبه نقطة صغيرة، ثمّ أصبحت في حجم كرة البينغ بونغ، ثمّ في حجم كرة بيسبول، ثمّ أخيرًا امتدّت إلى كلّ أنحاء الوجه. كانت مارية تراقب ذلك التغيُّر في لون الوجه بما يبدو اهتمامًا عميقًا. أمّا شوكو أكيكاوا، فقد حرفت مسار عينَيْها عن تلك التّغيُّرات مراعاةً للتّهذيب. مددتُ يدي وأخذتُ الإبريق، وصببتُ مزيدًا من القهوة في كوبي.

قلتُ كي أبدّد فراغ الصمت، ومن دون أن أوجّه حديثي لشخصٍ بعينه: «أعتقدُ أنّني سأشرع في رسم اللّوحة الأصليّة بداية الأسبوع القادم، أيْ باستخدام الألوان الزيتيّة فوق لوح القنّب».

فسألتني عمّتها: «هل اكتملت الفكرة بالفعل؟»

هززتُ رأسي، وقلت: «ليس بعد. فلا يبرز في رأسي أيُّ شيءٍ محدَّد قبل أن أقف أمام اللّوح، وأُمسك فرشاة الرّسم بالفعل».

فسألتني مجدَّدًا: «ذكرتَ أنّك رسمت بورتريه للسيّد منشكي».

«أجل، حدث ذلك في الشهر الماضي».

فقال منشكي باندفاع: «إنّه بورتريه رائع. هناك ضرورة لتجفيف الألوان الزيتيّة لفترة، لذلك لم أضع اللّوحة في إطارٍ بعد. ولكنّها تُزيّن حائط المكتب في بيتي. ربّما كلمة [بورتريه] ليست الوصف الصّحيح، لأنَّ الذي رُسِمَ في تلك اللّوحة هو أنا وليس أنا في الوقت نفسه. أعجز عن وصفها بحقّ، لكنّها لوحة في غاية العمق. لا يُملّ النّظر إليها أبدًا».

سألته شوكو أكيكاوا: «أنت وليس أنت في الوقت نفسه؟»

«بمعنى أنّها ليست ما يُسمّى بورتريه، إنّما لوحةً رُسمت في مكانٍ أعمق من البورتريه».

قالت مارية: «أريد أن أراها».

كانت تلك الكلمة الأولى التي قالتها مارية منذ انتقالنا إلى غرفة المعيشة.

«هذا سوء أدب منك يا مارية، فهي في بيت شخصٍ غريب و...»

قطع منشكي كلامها بنبرة صوتٍ حادّة كنصل السّيف البتّار قائلًا: «كلّا. مُطلقًا».

وكتم الجميع أنفاسهم - بمن فيهم منشكي ذاته - إزاء حِدّة ذلك القول.

وبعد أن أَخَذَ نَفَسًا، واصل كلامه قائلًا: «إنّنا جيران. أرجو أن تتفضّلا بزيارة بيتي لرؤيتها. ليس هناك إحراجٌ لأحد، لأنّني أُقيم بمفردي. أرحّب بكما في أيِّ وقت تشاءان».

بعد أن نطق بذلك، أصبح وجهه أكثر احمرارًا. يبدو أنّه هو نفسه شعر بما في صوته من توتُّرٍ زائدٍ عن الحدّ.

بعدها، اتّجه ناحية مارية، وسألها: «هل تحبّين لوحات الرّسم يا مارية؟» كانت نبرة صوته قد عادت لطبيعتها.

أومأت مارية إيماءةً صغيرة وهي صامتة.

قال منشكي: «إن لم يكن لديْكما مانع، يُمكنني المجيء لاستقبالكما الأسبوع القادم يوم الأحد في التوقيت نفسه تقريبًا. فتأتيان إلى بيتي وتشاهدان اللّوحة، ما رأيكما؟»

قالت شوكو أكيكاوا: «ولكنْ لا يمكننا أن نزعجك بهذا...»

وعندها، قالت مارية بصوتٍ لا يسمح بالاعتراض: «ولكنّني أريد أن أرى اللّوحة».

وفي النهاية، تقرَّرَ أن يأتي منشكي بعد الظهيرة من يوم الأحد القادم إلى بيتي ليصحبهما. وعُرض عليَّ أن أذهب معهم، ولكنّني اعتذرتُ قائلًا إنّه لديَّ ما يجب أن أقوم به بعد ظهر ذلك اليوم. لأنّني لم أشأ أن أتورّط في ذلك الشأن أكثر. كنتُ أريد أن أعهد بالأمر لأهله. أريد بقدر الإمكان أن أبقى بعيدًا عمّا سيحدث. لقد كنتُ وسيطًا بين الطرفَيْن لا أكثر، ولم يكن ذلك مقصدي أصلًا.

خرجنا ـ منشكي وأنا ـ لتوديع العمّة الجميلة وابنة أخيها. تأمّلتْ شوكو أكيكاوا سيّارة منشكي الجاغوار الفضّيّة التي بجوار سيّارتها البريوس باهتمامٍ عميق. كانت عيونها مثل عيون محبٍّ للكلاب ينظر إلى كلب شخصٍ آخر.

ثمّ سألته: «هذه أحدث طراز من جاغوار، أليس كذلك؟»

أجاب منشكي: «بلى. حتى الآن هذه هي طراز كوبّيه أحدث طراز من جاغوار»، ثمّ سألها: «هل تحبّين السيّارات؟»

«ليس تمامًا. ولكنْ كان لدى أبي الراحل سيّارة جاغوار صالون فيما مضى. ولقد ركبتها كثيرًا وقدتُها أحيانًا. لذا أشعر بالحنين عندما أرى تلك العلامة التي على مقدّمة السيّارة. تُرى هل كان اسمها XJ6؟ إنّها السيّارة

المزوَّدة بأربعة مصابيح أماميّة دائريّة الشّكل. ومحرّكها ستّة سلندر متوازية بسعة 4.2 لتر».

«تقصدين سلسلة III. نعم؛ لقد كانت سيّارة من طراز فائق الجمال».

«كان أبي يعشقها، ولذا استعملها لفترةٍ طويلة. كان يضجر من استهلاكها المُبذّر للوقود وكثرة أعطالها، ولكنّه ظلّ يقودها».

«كان استهلاك الوقود من ذلك الطراز بصفةٍ خاصّة سيّئًا. وربّما كان نظام الكهرباء كثير التعطُّل أيضًا. إنّ شركة جاغوار من بدايتها لم تكن قويّة في نظم الكهرباء الخاصّة بسيّاراتها. لكنّها سيّارة رائعة من كلّ ناحية، في قيادتها عندما تكون بلا أعطال، وعندما لا يهتمّ صاحبها بتكلفة الوقود. تفيض بالجاذبيّة بقيادتها وتحريك المقود، شعورٌ لا يُمكن تحصيله من سيّارة أخرى. بالتّأكيد، يقلق معظم الناس من الأعطال وتكلفة الوقود؛ ولهذا السّبب، فإنّ مبيعات سيّارة تويوتا بريوس تفوق الوصف».

قالت شوكو أكيكاوا وهي تشير إلى سيّارة تويوتا بريوس وكأنّها تعتذر: «اشترى أخي الأكبر هذه السيّارة خصّيصًا لي. ولم أخترها بنفسي. قال إنّها سهلة في قيادتها وآمنة وصديقة للبيئة».

قال منشكي: «إنّ سيّارة بريوس متفوّقة. في الواقع، لقد فكّرتُ جدّيًا في شرائها».

تعجّبتُ في داخلي وفكّرتُ: تُرى هل هذا صحيح؟ لأنّني لم أستطع تخيُّل مشهد منشكي وهو يقود سيّارة تويوتا بريوس. تمامًا مثلما لا أستطيع تخيُّل مشهد فهد يطلب سَلَطة نيسواز في مطعم!

قالت شوكو أكيكاوا بعد أن نظرت إلى داخل الجاغوار: «إنّه طلب في غاية الوقاحة، ولكنْ هلّا سمحت لي في ركوبها بضع دقائق؟ للجلوس على مقعد القيادة ليس إلّا».

قال منشكي: «بالتّأكيد».

ثمَّ سعل قليلًا وكأنّه يضبط نبرة صوته، وقال: «تفضّلي بالرُّكوب للوقت الذي تريدين. وإن أردتِ فلا مانع من أن تجرّبي قيادتها».

لم أكن أتوقَّع أبدًا أن أرى شوكو أكيكاوا تُبدي هذا الاهتمام بسيّارة منشكي، لأنَّ مظهرها الخارجيّ الهادئ الأنيق لا يوحي بأنّها ممّن يهتمُّون بالسيّارات. لكنّها ركبت الجاغوار وجلست على مقعد القيادة، بعينَيْن تلمعان، وكيّفت جسدها على المقعد الجلديّ رمليّ اللّون. أخرج منشكي من جيب بنطلونه مفاتيح السيّارة، وأعطاها لها.

«جرّبي أن تُشغّلي المحرّك».

أخذت شوكو أكيكاوا المفاتيح صامتةً، وغرزتها في مكانها بجوار المقود، وأدارتها في اتّجاه عقارب الساعة. وفي لحظةٍ، استيقظ ذلك الوحش السنّوريُّ من سباته؛ وأصغتْ شوكو أكيكاوا في نشوة إلى صوت المحرّك العميق.

ثمَّ قالت: «أذكر صوت المحرّك هذا».

«إنّه محرّك V8 سعة 4.2 لتر. يختلف عن محرّك السيّارة التي كان والدُك يمتلكها XJ6 ستة سلندر، في عدد الصمّامات ونسبة الضغط، ولكن ربّما لهما الصوت نفسه. إنّها سيّارة لم تختلف مطلقًا منذ بدايتها في أنَّ محرّكها يحرق أكبر كمّيّة من الوقود الأحفوريّ بلا ندم».

رفعت شوكو أكيكاوا المِقبض، وأعطتْ إشارة الانعطاف يمينًا، فسُمِعَ صوت تكتكةٍ مميّز.

«وهذا الصوت يذكّرني بالماضي أيضًا».

ابتسم منشكي، وقال: «هذا الصوت لا يصدر إلّا من الجاغوار. ويختلف عن إشارة أيِّ سيّارة أخرى».

فقالت: «عندما كنتُ أصغر سنًّا، تعلّمتُ القيادة على سيّارة XJ6 سرًّا، وحصلت بذلك على رخصة قيادة. تختلف مكابحُها عن بقيّة السيّارات، لذا احترتُ كثيرًا عندما بدأتُ أقود سيّارةً مختلفة. لأنّني لم أعرف كيف أتصرّف».

ابتسم منشكي، وقال: «أتفهّم ذلك تمامًا. الإنجليز يهتمّون بأمورٍ في غاية الدّقّة».

«ولكنْ يبدو أنّ الرّائحة داخل السيّارة تختلف عن سيّارة أبي».

«ربّما كانت مختلفة للأسف. بسبب ظروف عديدة، لا يُمكن استخدام المواد نفسها التي كانت تُستخدم في الماضي في التّصميم الداخليّ للسيّارة، وبصفةٍ خاصّة منذ عام 2002، لم تَعُد شركة كونُوللي توفّر الجلود لسيّارات جاغوار، فغيّر ذلك كثيرًا من رائحة السيّارة من الداخل. إنّ شركة كونُوللي ذاتها اختفت من الوجود».

«هذا أمرٌ محزن. لقد كنتُ أعشق تلك الرّائحة. ماذا يُمكنني القول؟! لقد أصبحتُ متوحّدة مع ذكرى رائحة أبي».

قال منشكي وبدا أنّه يستصعب ما قال: «في الواقع، أنا أملك سيّارة جاغوار قديمة غير هذه. ربّما كانت السيّارة الأخرى لها رائحة سيّارة والدك نفسها».

«هل تملك سيّارة XJ6؟»

«لا، بل نوع E».

«ماذا تقصد بنوع E، أتلك التي يُفتح سقفها؟»

«أجل. السلسلة الأولى من طراز رود ستار التي صُنعت في منتصف الستينيّات، ولكنّها ما زالت تسير بلا مشاكل. إنّها السيّارة الأصيلة ذات

المقعدَيْن ومحرّك ستّة سلندر سعة 4.2 لتر. وبالطبع، كان لا بدّ من تجديد السقف المتحرّك، وهكذا قد لا يكون من الدّقّة وصفها بالأصيلة».

ولأنّني لستُ ملمًّا بتفاصيل السيّارات مطلقًا، لم أفهم تقريبًا عمّا كان يتحدّث، إنّما بَدَتْ شوكو بتعبيرات وجهها أنّها تحسّ بنوع من الانبهار. وعلى كلّ حال، بعد أن اتّضح أنّ لكليْهما اهتمامًا مشتركًا ـ في نطاقٍ ضيّق جدًّا على الأرجح ـ ألا وهو سيّارات جاغوار، أحسستُ بارتياحٍ نوعًا ما: إذ لم تعد هناك حاجة للبحث عن موضوع يتجاذبان فيه أطراف الحديث في أوّل لقاء بينهما. أمّا مارية، فهي مثلي، يبدو أنّها لا تهتمّ بالسيّارات، فبان عليها الملل الشّديد وهي تسمع حوارهما.

نزلت شوكو أكيكاوا من الجاغوار وأغلقت الباب، ثمّ أعادت المفاتيح إلى منشكي. فأخذ الأخير المفاتيح ووضعها في جيب بنطلونه القماشيّ. وبعد ذلك، ركبت هي ومارية سيّارة تويوتا بريوس. أغلق منشكي باب سيّارة بريوس من أجل مارية. انبهرتُ مجدّدًا للاختلاف التامّ بين صوت إغلاق باب سيّارة جاغوار وباب سيّارة بريوس. في هذا العالم أشياء مختلفة تمامًا حتى لو كانت مجرّد صوت! تمامًا مثلما لو لُمس الوتر الحرّ نفسه في الكونترباص لمرّة واحدة، سيُسمع صوتٌ يُصدره تشارلز مينغوس مختلفٌ بالتّأكيد عن صوتٍ يُصدره رِاي بروان.

قال منشكي: «حسنًا، لنلتقي يوم الأحد من الأسبوع القادم».

وجّهتْ شوكو أكيكاوا ابتسامةً عريضةً تجاه منشكي، وأمسكت بمقود السيّارة وغادرت المكان. وبعد أن اختفت سيّارة تويوتا بريوس المربوعة عن الأنظار، رجعنا منشكي وأنا إلى داخل البيت. احتسينا القهوة التي بردت. وظللنا لفترةٍ صامتيْن لا نتكلّم. وبدا أنّ كلّ القوى التي في جسد منشكي قد استُهْلِكَت، مثل عدّاء المسافات القصيرة القاسية الذي وصل توًّا إلى خطّ النهاية.

قلتُ بعد قليل: «إنّها فتاةٌ جميلة. أقصد مارية أكيكاوا».

فقال منشكي: «حقًّا. وأعتقد أنّها ستزداد جمالًا عندما تكبر». لكنّه بدا أنّه يفكّر في أمرٍ آخر أثناء قوله ذلك.

«بِمَ شعرتَ وأنت تراها عن قرب؟»

ابتسم منشكي ابتسامة مُبهمة، وقال: «في الواقع، لم أستطع النّظر إليها جيّدًا. لأنّني كنتُ في غاية التوتُّر».

«ولكنّك نظرتَ إليها ولو قليلًا؟»

أومأ منشكي وقال: «أجل بالتّأكيد».

سكتَ بعد ذلك، ثمّ رفعَ وجهه فجأةً ونظرَ إليّ بنظرة جدّيّة، وقال: «ولكنْ، بِمَ شعرتَ أنت إذن؟»

«أنا؟ بخصوص ماذا؟»

احمرّ وجهه قليلًا مرّة أخرى، وقال: «بمعنى هل رأيت شيئًا مشتركًا بين ملامح وجهها وملامح وجهي؟ فأنت رسّامٌ مُتخصّصٌ في رسم الوجوه، وتفهم هذا الأمر، أليس كذلك؟»

هززتُ رأسي قائلًا: «بالتّأكيد، لقد تراكمت تجربتي في إدراك ما يُميّز الوجوه سريعًا. ولكنّني لا أستطيع معرفة هل أنتما أبٌ وابنته أم لا! ففي هذه الدُّنيا أبناء وآباء لا يتشابهون إطلاقًا، كما أنّ هنالك غرباء يتشابهون تمامًا».

تنهّد منشكي تنهيدة طويلًا. كانت تلك التّنهيدة كأنّها تُخرج كلّ خلايا جسده. ثمّ فركَ كفّيْه أحدهما بالآخر.

«لاأطلب منك إصدارَ حكمِ خبير، بل أريد أن أسمع انطباعك الشّخصيّ. ولا مانع من أن يكون انطباعًا ضئيلًا. إن كان هناك شيء لفت انتباهك أريدك أن تُخبرني به».

فكّرتُ قليلًا بكلامه، ثمّ قلت: «إن تحدّثتُ عن تكوين ملامح الوجه كلٌّ على حدة، فربّما لا أجد شيئًا مشتركًا بينكما. لكنّي شعرتُ بوجود شيء متشابه بينكما في حركة العيون. أحسستُ بهذا الانطباع أكثر من مرّة».

زمّ منشكي شفتَيْه النّحيفتَيْن ونظر إلى وجهي، ثمّ قال: «هل تقصد أنّ هناك شبهًا في عيوننا؟»

«ربّما كانت النقطة المشتركة بينكما أنّ مشاعركما تظهر صراحة كما هي في العينَيْن. تظهر مشاعركما للخارج من خلال العينَيْن مهما كانت ضئيلة: مثل الفضول والحماس والدّهشة، أو ربّما شعور الريبة والرّغبة في المقاومة. لا يُمكن أن نصف مشاعركما بالغنيّة، إلّا أنّ عيونكما تتحرّك وكأنّها نوافذ تطلّ على القلب مباشرة. أمّا الآخرون، فبالعكس، مهما كانت مشاعرهم وفيرة، فإنّ عيونهم لا تقول شيئًا».

ظهر الاستغراب على وجه منشكي، وسأل: «أتبدو لك عيناي هكذا؟»

أومأتُ بنعم.

«ولكنّني لم أفطن لذلك من قبل».

«على الأرجح أنّك لن تستطيع السّيطرة عليهما حتى إن أردت ذلك. أو ربّما العكس: محاولة السّيطرة على المشاعر تجعلها تتركّز أكثر في العينَيْن. لكنّ هذا الأمر بدرجة لا يُمكن إدراكها إلّا لمن يراقبه بانتباهٍ عميق. وربّما لا ينتبه الشخص العاديّ مطلقًا إلى ذلك».

«ولكنّك تُدركه».

«يُمكن القول إنّ مهنتي هي إدراك تعبيرات وجوه الناس».

ظلّ منشكي يفكّر في الأمر، ثمّ قال: «نحن الاثنيْن لدينا هذا الشيء المشترك. ولكنْ لا يصل إلى حدّ التّأكّد من أنّنا أبٌ وابنته؟»

«إنّني أنظر إلى وجه الشخص وآخذ انطباعًا فنّيًا، وأنا أعطي أهمّيّة لهذا الانطباع. ولكنّ الانطباع الفنّيّ يختلف تمامًا عن الحقيقة المُحايدة. فلا يُبرهن ذلك الانطباع على شيء. إنّه مثل الفراشة النحيفة التي تحملها الرياح. حسنًا، ما رأيك أنت؟ هل راودك أنت شخصيًا أيُّ شعورٍ خاصّ عندما رأيتها أمامك؟»

هزّ منشكي رأسه عدّة مرّات، ثمّ قال: «لن أعرف أيّ شيء من مجرّد لقاءٍ قصير لمرّةٍ واحدة. أحتاج إلى وقتٍ أطول. يجب أوّلًا أن أعتاد على وجود تلك الفتاة الصّغيرة معي في مكانٍ واحد...»

ثمّ هزّ منشكي رأسه ببطءٍ ثانيةً، ووضع يدَيْه في جيبيْ معطفه كأنّه يبحث عن شيءٍ بداخلهما، ثمّ أخرجهما، وكأنّه قد نَسِيَ ما الذي كان يبحث عنه. ثمّ تابع كلامه: «كلّا، لعلّ المشكلة ليست في عدد المرّات. يبدو أنّه كلّما تلاقينا لا يزداد إلّا الاضطراب، وقد لا نصل إلى نتيجة نهائيّة. ربّما كانت تلك الفتاة ابنتي من دمي، وربّما لا. ولكنْ لا مشكلة عندي في الحالتَيْن. فمجرّد أنّني أفكّر في الأمر وأنا أقف أمامها، مجرّد أن أتصوّر أنّني والدها، تسري دماءٌ جديدة في أنحاء جسدي كلّه. ربّما لم أفهم معنى الحياة الحقيقيّ حتى الآن...»

التزمتُ الصّمت. لم يكن لديّ ما أقوله تجاه مشاعر منشكي أو تجاه تعريفه لمعنى الحياة. نظر إلى ساعة يده غالية الثمن، ونهض من على الأريكة بحدّةٍ كأنّه ينازع الأمواج.

«عليّ أن أشكرك. فإنْ لم تشجّعني لم أكن لأقوى على أيّ شيءٍ بمفردي».

قال ذلك وتوجّه نحو مدخل البيت بخطواتٍ غير مؤكّدة، وارتدى حذاءه مستغرقًا وقتًا طويلًا في شدّ أربطته، ثمّ خرج من الباب. تأمّلته من

أمام المدخل وهو يركب سيّارته ويغادر المكان. وبعد أن اختفت الجاغوار عن الأنظار، هبط الهدوء المُميَّز لظهيرة يوم الأحد على المكان من جديد.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر بقليل. وكان لديّ شعور بالإرهاق الشّديد. جلبتُ من خزانة الملابس بطّانيّةً قديمة ولففتُ بها نفسي، واستلقيتُ على الأريكة لفترةٍ من الزمن. ثمّ استيقظتُ بعد الساعة الثالثة. كانت أشعّة الشمس المتسرّبة إلى الغرفة قد تحرّكت قليلًا. كان يومًا عجيبًا. لا أستطيع الحكم أهو يتقدّم إلى الأمام، أم يتراجع للخلف، أم يدور ويلفّ في المكان نفسه! تملّكني إحساسٌ مضطربٌ نحو الاتّجاه. شوكو أكيكاوا وماريه، ثمّ منشكي. يصدر من كلّ منهم على حدة، ما يشبه القوّة المغناطيسيّة الخاصّة. يحيط بي الثلاثة، وأنا في المنتصف. لا يمتلك جسدي أيّ قوّة مغناطيسيّة. لكنّ يوم الأحد لم ينتهِ بعد، رغم ذلك الإرهاق. فعقارب الساعة تخطّت الثالثة بعد الظهر بقليل، والشمس لم تَغرب بعد. لا يزال هناك وقتٌ طويلٌ وفائض حتى يصبح يوم الأحد من الماضي، وحتى يأتي يومٌ جديد. ولكنّني لا أجد عزمًا لفعل أيّ شيء. وحتى بعد أن أخذتُ قسطًا من القيلولة، لا يزال رأسي سارحًا في أعماقه. إنّه شعور يشبه بَكَرة صوف قديمة «محشورة» في عُمْقِ دُرْجِ المكتب الضيّق. لقد وضعها شخصٌ ما في ذلك المكان عنوةً. وبسببها، لا يُغلق الدُرْجُ نهائيًا. ربّما كان عليَّ أنا أيضًا في يومٍ كهذا أن أقيس ضغط إطارات السيّارة. على الإنسان، إن لم يجد في نفسه رغبةً في صنع شيء، أن يحاول قياس ضغط هواء إطارات السيّارة على الأقلّ.

ولكنّي عند التّفكير بهذا، اكتشفتُ أنّني منذ ولادتي حتى اليوم، لم يسبق لي خوض تجربة قياس هواء إطارات السيّارة بنفسي ولو مرّةً واحدة. فأحيانًا، عندما أكون في محطّة الوقود، يُقال لي: «يبدو أنّ ضغط هواء

الإطارات منخفض ومن الأفضل قياسه»، وأجعلهم يقيسونه وقتها. وبالتأكيد ليس عندي جهاز قياس ضغط الإطارات. حتى إنّي لا أعرف شكله. يبدو لي أنّه ليس ضخمًا، ومن المُمكن وضعه في الصندوق الأماميّ لمقعد السيّارة. ومن المُفترض أيضًا أنّه ليس غالي الثمن، بحيث يُشترى بأقساطٍ شهريّة. سأجرّب أن أشتري واحدًا في المرّة القادمة.

عندما بدأ الظلام يحلّ على المكان، ذهبتُ إلى المطبخ، وأعددتُ العشاء وأنا أحتسي بيرةً من قنّينة معدنيّة. شويت سمك بياض منقوع في النخالة، وقطّعت المخلّل، وحضّرت سَلَطة خيار وأعشاب البحر بالخلّ، وحساء الميسو برأس الفجل. ثمّ أكلت تلك الوجبة بمفردي في صمت. فما من شريكٍ أناجيه، وما من كلامٍ يجب أن أقوله. وفي الوقت الذي كنت أوشك على إنهاء ذلك العشاء البسيط، دُقّ جرس الباب. يبدو أنّ الناس قرّروا في داخلهم أن يدقّوا جرسَ باب بيتي في الوقت الذي أوشك على الانتهاء من تناول الطعام.

وعندها، فكّرت أنّ اليوم لم يَنتهِ بعد، وشعرتُ أنّه سيكون يومَ أحدٍ طويلًا جدًّا، نهضتُ من على المائدة، وتوجّهتُ إلى مدخل البيت ببطء.

- 35 -

كان من الأفضل لو تُرك ذلك المكان على حاله

توجّهتُ نحو مدخل الباب بخطواتٍ وئيدة. لم أتمكّن من تخمين هويّة الشخص الذي يدقّ الجرس. إن كان قد جاء بسيّارة فيُفترض أن أسمع صوتَ محرّكها. ومع أنّ غرفة الطعام تقع في عمق البيت، فإنّ المساء كان هادئًا، وكلّما مرّت سيّارة سمعتُ صوتَ محرّكها وصوتَ احتكاك إطاراتها. حتى لو كانت سيّارة تويوتا بريوس التي تفخر بمحرّكها الهجين ذي الصوت الهادئ تمامًا. لكنّني لم أسمع ذلك الصوت مطلقًا. ثمّ إنّه ما من محبٍّ للغرائب يصعد المنحدر الطويل حتى هنا سَيْرًا على قدمَيْه بدون سيّارة! فالطريق بلا أعمدة إنارة تقريبًا، وهي مُظلمة للغاية، وليس فيها أثرٌ لإنسان. ولا يسكن حول البيت، الذي بُنِي منعزلًا على قمّة الجبل، مَن يُمْكن تسميته بالجيران.

فكّرت أنّه قد يكون الكومنداتور/قائد كتيبة الفرسان. ولكنْ لا، لا يمكن أن يكون هو. لأنّه يستطيع دخول البيت متى شاء وكيفما أراد، لا حاجة له في دقّ الجرس.

سحبتُ المزلاج، ثمّ فتحتُ الباب من دون التأكّد من هويّة القادم. كانت مارية أكيكاوا هي التي تقف أمام الباب. كانت بملابسها نفسها التي جاءت بها في الظهيرة، على أنّها ترتدي فوق البُرْنُس معطفًا خفيفًا كحليّ اللّون مصنوعًا من ريش الطيور، لأنّ درجة الحرارة تقلّ كثيرًا في المنطقة بعد غروب

الشمس. وكانت تعتمر أيضًا قبّعة فريق كليفلاند إنديانز للبيسبول (تُرى لماذا هذا الفريق تحديدًا!)، وفي يدها اليمنى مصباحٌ يدويٌّ كبير الحجم.

سألتني: «هل تمانع دخولي؟» بلا تحية [مساء الخير]، ولا اعتذار [آسفة على المجيء فجأة].

قلتُ لها: «لا مانع بالتّأكيد»، ولم أزد على ذلك، لأنّ الدُّرج الذي في رأسي كان مقفلًا بعناية. ولا تزال بَكَرة الصوف محشورةً في عمق الدُّرج.

أرشدتها إلى غرفة الطعام، ثمّ قلتُ: «كنتُ أتناول وجبة العشاء. هل تسمحين لي أن أنهيها؟»

أومأتْ موافقة. ليس هناك في رأس تلك الفتاة أيُّ فكرة عن الأعراف الاجتماعيّة المزعجة.

سألتها: «أتريدين بعض الشاي؟»

وكما هو متوقَّع، أومأت في صمت. ثمّ خلعت المعطف وقبّعة البيسبول، ورتّبت شعرها بيدها. سخّنتُ الماء في الغلّاية، ثمّ حضّرتُ الشاي الأخضر على عجل. فقد كان توقيته مناسبًا لي أيضًا.

جلستْ مارية أكيكاوا واضعةً مرفقَيْها على المائدة، تراقبني وأنا آكل سمك البياض وأشرب حساء الميسو وأتناول الرزّ الأبيض، كما لو أنّها تتأمّل شيئًا نادر الوجود، وكأنّها أثناء نزهتها في غابةٍ برّيّة وقعت صدفةً على مشهد ابتلاع ثعبان بايثون عملاق لحيوان غرير صغير، فجلستْ فوق صخرةٍ تتأمّل ذلك المشهد حتى النهاية.

قلتُ لها لتبديد الصّمت الذي كان يتعمّق ويطول: «لقد نقعتُ سمك البياض في النخالة بنفسي. فبهذه الطريقة يُحفظ لوقتٍ أطول».

ولكنّها لم تُظهر أيَّ اهتمام، بل إنّني لم أستطع التأكُّد: أسمعتْ ما قلتُه أم لا.

جرّبتُ أن أقول: «كان لإيمانويل كانط عادات يوميّة صارمة. لدرجة أنَّ أهل المدينة كانوا يضبطون ساعتهم عندما يرونه خارجًا للتريُّض».

كان كلامي بلا معنى بطبيعة الحال. أردت فقط أن أرى ردّ فعل مارية أكيكاوا على كلام بلا معنى، وأن أتأكّد من أنّها تسمع ما أقول أم لا. لكنّها لم تُبْدِ أيّ ردّ فعل، بل ازداد صمت المكان عمقًا. استمرّ كانط حتى النهاية صارمًا في تريّضه اليوميّ الصامت من شارعٍ إلى شارع في مدينة كونيغسبرغ. وكانت آخر كلمةٍ في حياته هي: «هذا جيّد (Es ist gut)». هناك حيوات مثل هذه الحياة أيضًا.

أنهيتُ طعامي، وحملتُ الأطباق التي استعملتها إلى الحوْض. ثمّ صببتُ الشاي، وعدتُ إلى المائدة حاملًا كوبَيْن. كانت مارية، كما هي جالسةً على كرسي المائدة، تتأمّل كلّ حركاتي وسكناتي، بعينيْن يقظتيْن تشبه عينيْ مؤرّخٍ يفحص جيّدًا الهوامش الدّقيقة لمخطوطةٍ عتيقة.

سألتها: «لم تأتي إلى هنا بسيّارة، أليس كذلك؟»

وأخيرًا، فتحت فمها وقالت: «أتيتُ ماشية على قدميّ».

«أتيتِ سيرًا بمفردك من بيتك إلى هنا؟»

«أجل».

التزمت الصمت منتظرًا أن تواصل حديثها، لكنّها سكتتْ هي أيضًا. واستمرّ الصّمتُ طويلًا بيننا ونحن نجلس إلى طرفَيْ المائدة. لكنّني لست ممّن يعانون الصّمت، إطلاقًا. فأنا أُقيم وحيدًا فوق قمّة جبلٍ مُنعزل.

قالت مارية بعد فترة: «هناك ممرٌّ سرّيٌّ. تكون الطريق طويلةً جدًّا عند المجيء بالسيّارة، ولكنْ باستخدام ذلك الممرّ، فالمكان قريبٌ جدًّا».

«إنّني أتريّض كثيرًا في هذه المنطقة، ولم أعثر من قبل على ذلك الممرّ».

قالت الفتاة ببساطة: «طريقة بحثك سيّئة. لا يمكنك العثور على الممرّ إن سِرْتَ سَيْرًا معتادًا، ونظرتَ نظرًا مُعتادًا، لأنّه مخبّأ بمهارةٍ شديدة».

«أيْ أنّكِ أنتِ من تخفينه؟»

أومأتْ وقالت: «لقد جئتُ إلى هنا بعد ولادتي مباشرةً، ونشأتُ هنا. ومن صغري وهذا الجبل بأكمله هو مكان لعبي. وأعرف هذه المنطقة من الركن إلى الركن».

«وتَخْفين ذلك الممرّ بمهارة».

أومأت بوضوحٍ مرّة أخرى.

«ثمّ أتيتِ إلى هنا مستخدمةً ذلك الممرّ».

«أجل».

تنهّدتُ وسألتها: «هل تناولتِ عشاءك؟»

«انتهيت لتوّي».

«ماذا أكلتِ؟»

«عمّتي لا تُجيدُ الطبخ» لم تكن إجابةً على سؤالي، لكنّني لم أسأل أكثر. فلا بدّ أنّها لا تريد أن تتذكّر ما تناولته منذ قليل.

«إذن، هل تعلم عمّتك أنّكِ أتيتِ إلى هنا بمفردك؟»

لم تجب مارية على السّؤال. أغلقتْ فمها بصرامة. ولذا قرّرتُ أن أجيب بنفسي.

«بالتّأكيد لا تَعْلم. فليس هناك شخصٌ كبيرٌ عاقل يسمح لفتاةٍ في الثالثة عشرة من عمرها بالتسكّع وحيدةً وسط الجبال ليلًا. أليس كذلك؟»

استمرّ الصّمتُ مرّة أخرى.

«ولا تعرف كذلك بوجود الممرّ السرّيّ».

هزّتْ مارية رأسها عدّة مرّات، بمعنى أنَّ عمَّتها لا تعلم بوجود الممرّ السرّيّ.

«وليس هناك شخصٌ آخر غيرك يعرف بذلك الممرّ».

نفتْ مارية برأسها مرارًا.

قلتُ: «على أيِّ حال، أعتقد أنّك إن أتيتِ من اتّجاه بيتك، من خلال الممرّ، فمن المؤكّد أنّك مررتِ على نموذج معبدٍ قديم في الغابة البرّيّة، أليس كذلك؟»

أومأت مارية وقالت: «أنا أعرف نموذج المعبد جيّدًا، وأعرف أيضًا أنّك حفرت بمعدّاتٍ ثقيلة تحت جثوة الأحجار التي كانت موجودةً خلفه منذ أيّام».

«وهل رأيتِ الحُفَر على أرض الواقع؟»

هزّت مارية رأسها بالنّفي، وقالت: «لم أشاهد الحُفَر، لأنّني ذهبت إلى المدرسة في ذلك اليوم. عندما شاهدتُ المكان كانت آثار المعدّات الثقيلة باقيةً بوضوحٍ على الأرض. لِمَ فعلتَ ذلك؟»

«بسبب ظروفٍ عديدة».

«أيُّ ظروفٍ؟»

قلتُ: «ستطول الحكاية جدًّا إن رَوَيتُها عليكِ من بدايتها».

ولم أطنب في الشرح. لم أشأ إخبارها أنَّ منشكي أيضًا اشترك في هذا الأمر.

قالت مارية فجأةً: «لم يكن عليك الحفر في ذلك المكان».

«لماذا تعتقدين ذلك؟»

هزّت كتفَيْها بلا مبالاة، وقالت: «كان من الأفضل لو تُرِك ذلك المكان على حاله. فالجميع فعل ذلك فيما مضى».

«الجميع فعل ذلك؟»

«لقد تُرِكَ المكان على ما هو عليه لفترةٍ طويلة من دون أن يُمَس».

ربّما تكون هذه الفتاة مُحقّة، فكّرتُ في نفسي. ربّما كان من الأفضل عدم لمس ذلك المكان. ربّما فعل الجميع ذلك فيما مضى. ولكنْ فات الأوان وحَدَثَ ما حَدَثْ. وقد أُزيلت جثوة الأحجار بالفعل، وفُتِحَت الحُفرة، وحُرِّرَ الكومنداتور.

سألتُ مارية: «هل هذا يعني أنّك أنتِ من رفع الغطاء عن تلك الحُفرة؟ نظرتِ إلى الحُفرة ثمّ أعدتِ الغطاء والأحجار الثقيلة عليه مرّة أخرى، أليس كذلك؟»

رفعت مارية وجهها ونظرتْ مباشرةً إلى وجهي، وكأنّها تسألني كيف عرفت؟

«لأنَّ طريقة ترتيب الأحجار فوق الغطاء قد اختلفت قليلًا. فأنا منذ زمنٍ بعيد لديَّ ذاكرة بصريّة قويّة متفوّقة جدًّا. أعرف هذا الاختلاف البسيط من أوّل نظرة».

قالت وكأنّها تُبدي انبهارها: «حقًّا!»

«كانت الحُفرة فارغة تمامًا عندما نظرتِ إليها. لم تجدي إلّا ظلامًا حالكًا وهواءً رطبًا فقط. أليس كذلك؟»

«وسُلّمٌ مُسندٌ على الجدار».

«ولكنّكِ لم تنزلي إلى قاع الحُفرة، أليس كذلك؟»

هزّت مارية رأسها بشدّة، وكأنّها تقول من المُستحيل أن تفعل ذلك.

قلتُ لها: «حسنًا، لماذا أتيتِ إلى هنا في هذا الوقت من اللّيل: أهناك أمرٌ جئتِ من أجله، أم أنّها زيارة اجتماعيّة فقط؟»

«زيارة اجتماعيّة؟»

«هل جئتِ مثلًا لإلقاء التحيّة بمناسبة مرورك صُدفةً على مقرُبةٍ من البيت؟»

فكّرتْ مارية قليلًا، ثمّ هزّت رأسها هزّةً صغيرةً علامة على النّفي، وقالت: «كلّا ليست زيارةً اجتماعيّة».

«فأيُّ نوعٍ من الزّيارات هي؟ بالتّأكيد يُسعدني أن تأتي إلى منزلي في أيّ وقت. ولكنْ، لو عرف والدك وعمّتك بهذا فيما بعد، فقد يَنجم عنه سوءُ فهمٍ مريبٌ».

«أيُّ سوء فهم؟»

«في هذه الحياة أنواعُ عدّة من سوءِ الفهم. وثمّة ما يفوق قُدرتنا على تخيُّلِه بكثير. وربّما يرفضون أن نواصل رسم لوحتك التي أعمل عليها. وهذا سيضعني في مأزقٍ حقيقيّ. ألن يُضايقك حدوث ذلك؟»

قالت مارية بنبرةٍ حاسمة: «مستحيل أن تعرف عمّتي شيئًا. فبعد انتهاء العشاء أظلُّ في غرفتي، ولا تأتي عمّتي إلى غرفتي إطلاقًا. إنّنا متّفقتان على ذلك. لذا، عندما أخرج من النافذة لا يَعْلم أحدٌ بالأمر، ولم يُكتشف الأمر من قبل قطّ».

- «هل كنتِ تسيرين وحيدةً في الجبل ليلًا من زمن؟»

أومأت مارية بنعم.

- «ألا تخافين من المشي بمفردكِ في الجبل ليلًا؟»

- «هناك ما هو أكثر رعبًا».

- «مثل ماذا؟»

لم تجب مارية، بل هزّت كتفَيْها بلامبالاة فقط.

فسألتُها: «بغضّ النّظر عن عمّتك، ماذا عن والدك؟»

ـ «لم يَعُد بعدُ إلى البيت».

ـ «مع أنّ اليوم هو الأحد؟»

لم تجب. كان يبدو أنّها لا تريد التّحدُّث عن والدها قدر المُستطاع.

قالت: «عمومًا، لا داعي للقلق يا أستاذ. لن يعرف أحدٌ أنّني خرجتُ من البيت بمفردي. ثمّ حتى لو عرفوا، فلن أذكر اسمك البتّة».

قلتُ: «حسنًا، لن أقلق بهذا الشأن. ولكنْ ما سببُ مجيئكِ إلى بيتي اللّيلة؟»

ـ «لأنّني أريدُ التّحدُّث معك في أمر».

ـ «أيُّ أمر؟»

مسكتْ مارية أكيكاوا الكوب بيدَيْها، ورشفت رشفةً من الشاي السّاخن. وبعد ذلك، دارت بعينَيْها تنظر في أرجاء المكان بنظراتٍ حادّة. وكأنّها تتأكّد أنّه ما من أحدٍ آخر يسمع كلامها. وبالتّأكيد لا أحد سوانا في المكان. اللّهمّ إلّا إذا عاد الكومنداتور وتربّص في إحدى الزوايا يتنصّت علينا. أدرتُ بصري أنا أيضًا. فلم أرَ الكومنداتور. ومع ذلك، لو لم يكن متجسّدًا في شكلٍ ما، فلن يستطيع أحدٌ رؤيته.

قالت مارية: «بخصوص صديقك يا أستاذ، الذي جاء هنا بعد ظهر اليوم. الشخص ذو الشّعر ناصع البياض. ماذا كان اسمه؟ اسمٌ نادرٌ قليلًا».

«السّيّد منشكي».

«أجل. السّيّد منشكي».

«إنّه ليس صديقي. سوى أنّي تعرّفتُ عليه منذ فترةٍ بسيطة».

«أيًّا يكن».

«حسنًا، ماذا عن السّيِّد منشكي؟»

ضيَّقتْ حَدَقة عينَيْها ونظرتْ إليَّ، ثمَّ خفَّضت قليلًا من صوتها وقالت: «أعتقد أنَّ ذلك الشخص يُخفي شيئًا ما في داخله».

«يُخفي ماذا على سبيل المثال؟»

«لا أدري. لكنَّني أعتقد أنَّ مجيئه بعد ظهر اليوم صدفةً غير صحيح. أشعر أنَّه جاء إلى هنا لسببٍ ما، سببٍ واضحٍ ومحدَّد».

سألتها وقد جفلتُ قليلًا من حِدَّة بصيرتها الفاحصة: «سببٌ ما، ما هو مثلًا؟»

قالت وهي تنظر إلى عينيَّ مباشرةً بثباتٍ راسخ: «لا أدري. ألا تعرف السّبب أنت يا أستاذ؟»

كذبتُ عليها قائلًا: «كلَّا، لا أعرف مطلقًا».

وأملتُ ألَّا ينكشف كذبي بسهولة أمام بصيرة مارية. فأنا منذ صغري لستُ ماهرًا في الكذب. وإن لفَّقتُ الأحداث، بان ذلك على وجهي فورًا. ولكنْ من المحال أن أبوح لها بالحقيقة.

«حقًّا؟»

قلتُ: «حقًّا. لم أكن أتوقَّع مُطلقًا أنَّه سيأتي اليوم لزيارتي».

يبدو أنَّها صدَّقتني حينذاك. وفي الواقع، لم يقل منشكي إنَّه آتٍ اليوم لزيارتي، كانت مفاجأةً غير متوقَّعة. فلم أكن أكذب فيما قلتُ.

قالت مارية: «عيناه غريبتان».

«غريبتان؟ كيف؟»

«تبدو لي عيناه أنَّ فيهما دائمًا مُرادًا محدَّدًا. كالذّئب في قصّة ذات الرّداء الأحمر. فحتى وإن تنكَّر في هيئة الجدَّة ونام في فراشها، تتبيَّن الذّئب بمجرّد النَّظر إلى عيْنَيْه».

الذّئب في قصّة ذات الرّداء الأحمر؟

«هل هذا يعني أنَّ لديْكِ مشاعر سلبيّة تجاه السّيّد منشكي؟»

«مشاعر سلبيّة؟»

«كما ينتابكِ حيال الأشياء الشرّيرة، أو التي تسبّب الضرر».

قالت: «سلبيّة؟» وبدا أنّها تخزّن تلك الكلمة في دُرج الذاكرة في عقلها. مثل كلمة «صواعق يوم صحو».

قالت مارية: «لا، ليس كذلك. لا أعتقد أنَّ لدَيْه نيّةً شرّيرة. سوى أنّي أعتقد أنَّ السّيّد منشكي صاحب الشعر ناصع البياض يُخفي شيئًا ما خلف ظهره».

«أهذا ما تشعرين به؟»

أومأتْ وقالتْ: «ولذلك جئت إلى هنا يا أستاذ، للتأكُّد منك، اعتقادًا منّي أنّك قد تعرف شيئًا بخصوص السّيّد منشكي».

سألتها كي أتجنّب الردّ على سؤالها: «وهل راود عمّتك الشعور نفسه تجاه السّيّد منشكي؟»

عوجت مارية رأسها قليلًا، وقالت: «لا. عمّتي لا تفكّر بهذه الطريقة. على الأغلب أنّها لا تحمل مشاعرَ سلبيّة تُجاه الآخرين. ثمَّ إنّها أَبْدَتْ اهتمامًا تجاه السّيّد منشكي. ويبدو أنَّ فارق السنّ بينهما كبير، لكنّه وسيم وأنيق المظهر، ويبدو أنّه غنيٌّ جدًّا، ولأنّه يُقيم بمُفرده...»

«هل أُعجِبت عمّتك به؟»

«أعتقد هذا. فعندما كانت تتحدّث معه، كانت تبدو في مُنتهى الاستمتاع. وجهها مُشرق، ونبرة صوتها مهتاجة قليلًا. كانت مختلفة تمامًا عن حالتها في المعتاد. وأعتقد أنَّ السّيّد منشكي كذلك قد لاحظ حالتها».

لم أعلّق بشيء، بل صببتُ الشاي مجدَّدًا في كوبينا، ثمّ رشفتُ منه.

ظلّت مارية تفكّر بمفردها لفترة من الوقت، ثمّ قالت أخيرًا: «ولكن، كيف عرف السّيّد منشكي أنّنا أتينا إلى هنا اليوم؟ هل أخبرتَه أنت يا أستاذ؟»

اخترتُ الكلمات بعنايةٍ شديدة، لأنّني أردت تجنُّب الكذب قدر الإمكان. «أعتقد أنّ السّيّد منشكي لم يكن في نيّته أن يقابلكِ أنتِ وعمّتكِ هنا اليوم. لأنّه عندما عرف أنّكما عندي حاول أن يعود مثلما جاء، لكنّني أنا الذي أقنعته بالعدول عن الفكرة. لقد جاء صدفةً إلى بيتي، وكانت عمّتك صدفةً في الداخل. وعندما رآها أُعجب بها، لأنّ عمّتك امرأة جذّابة جدًّا».

لم يبدُ على مارية أنّها اقتنعت بكلامي تمامًا، لكنّها لم تسأل مزيدًا. بل ظلّت مُسندةً مرفقَيْها على المائدة بوجهٍ عابس.

قلت لها: «على أيِّ حال من المقرّر أن تزوري أنتِ وعمّتك بيته يوم الأحد القادم».

أومأتْ مارية وقالت: «أجل. كي يُريني لوحة البورتريه التي رسمتَها أنت يا أستاذ. ويبدو أنّ عمّتي تنتظر تلك الزيارة بشغفٍ بالغ، زيارة بيت السّيّد منشكي يوم الأحد».

«حتى عمّتكِ تحتاج إلى شغف. فمهما كان الأمر، فهي تقيم في هذا الجبل الذي ما من أحدٍ فيه، وخلافًا عمّا كان الأمر عليه أثناء وجودها في المدينة، فليس هناك أيُّ فرصةٍ تقريبًا للتّعرّف على رجالٍ جُدُد».

صمتت مارية طويلًا ثمّ قالت وكأنّها تبوح بسرٍّ: «كان لعمّتي حبيبٌ لمدّةٍ طويلة. رجلٌ كانت لها به علاقةٌ جدّيّة. وذلك أثناء عملها سكرتيرة في طوكيو قبل أن تأتي إلى هنا. ثمّ حدثت عدّة أمور، وانتهت العلاقة، فأُصيبت عمّتي بجُرحٍ غائر. وربّما هذا ما دفعها للمجيء والإقامة معنا بعد وفاة والدتي. بالتّأكيد، لم أسمع ذلك منها شخصيًّا».

«ولكنّها حاليًا ليست مرتبطة بعلاقةٍ مع أحد».

أومأت مارية، ثمّ قالت: «أعتقد أنّها ليست مُرتبطة بأيّ رجل حاليًا».

«وأنتِ تشعرين بالقلق من أنّ عمّتك تحسُّ بالشّغف تجاه السّيّد منشكي. ولذا جئتِ لاستشارتي في الأمر. أهو كذلك؟»

«هل تعتقد أنّ السّيّد منشكي يريد إغواء عمّتي؟»

«يريد إغواءها؟»

«أي أنّه غيرُ جادٍّ في مشاعره».

قلتُ: «هذا ما لا أعرفه أنا أيضًا. فأنا لا أعرف السّيّد منشكي إلى هذا الحدّ. إضافةً إلى أنّه تعرّف عليكِ وعلى عمّتك للمرّة الأولى هذا اليوم، ولم يحدث شيءٌ مُحدَّد حتى الآن. ثمّ إنّ الأمر إشكاليّة بين قلب كلٍّ منهما، وربّما تختلف الحال قليلًا مع مرور الوقت. فأيُّ حركةٍ بسيطةٍ للقلب تتضخّم تضخُّمًا كبيرًا، والعكس بالعكس».

قالت مارية بحزم: «ولكنّني أملك ما يشبه النبوءة».

أحسستُ أنّه يجب عليّ الإيمان بما يُشبه النبوءة التي تملكها حتى ولو لم يكن ثمّة ما يعضدها. وكأنّ ذلك الإيمان هو ما يُشبه النبوءة التي أملكها أنا شخصيًا.

قلتُ: «أنتِ قلقة من حدوث شيءٍ يجعل عمّتك تُجرح جرحًا نفسيًا عميقًا مرّةً ثانية».

أومأت مارية إيماءةً قصيرة، وقالت: «إنّ عمّتي ليس من صفاتها الحذر من الناس، وغيرُ معتادة على الجراح النّفسيّة».

قلتُ لها: «عندما تقولين ذلك، تبدين أنتِ التي ترعين عمّتك».

قالت مارية في منتهى الجدِّيَّة: «قد يصحّ هذا بمعنى ما».

«حسنًا، ماذا عنك أنتِ؟ هل أنتِ معتادة على الجراح النَّفسيَّة؟»

«لا أدري. لكنّي على الأقلّ لا أحبّ أحدًا».

«ولكنَّكِ ستُحبِّين يومًا ما».

«ليس الآن. حتى ينْهَد صدري قليلًا».

«لا أعتقد أنَّ الأمر سيكون بعيدًا هكذا».

تجهّمت مارية. لا يبدو أنّها تثق بما قلت.

تولَّد في تلك اللَّحظة شكٌّ داخليّ. ألا يحاول منشكي الاقتراب عمدًا من شوكو أكيكاوا، وهدفه الأساسيّ من ذلك تأمينُ صلةٍ تربط بينه وبين مارية؟

لقد قال لي منشكي عن مارية ما يلي: لن يتغيّر شيءٌ إن كان الأمر مجرَّد لقاءٍ قصيرٍ لمرَّةٍ واحدة فقط. ثمّة ضرورةٌ لوقتٍ أطول.

يُفْترض أن تكون شوكو أكيكاوا بالنِّسبة لمنشكي الوسيط الذي يمكّنه من لقاء مارية باستمرار، من الآن وفيما يلي من السنوات، لأنّها وليّ الأمر الفعليّ لمارية. ومن أجل ذلك، ثمّة ضرورة لكي يُوقِع شوكو ـ كثيرًا أو قليلًا ـ بين يدَيْه. ولا يُمكن القول إنَّ ذلك الفعل يحتوي على مخاطرَ لرجلٍ بدرجة منشكي. حتى وإن لم يكن الأمر بمنتهى السُّهولة. ورغم ذلك، آثرتُ ألّا أفكّرَ في أنّه يُخفي مثل هذه النّيَّة. ولكنْ، ربّما كان مثلما يقول الكومنداتور: لا يستطيع إلّا أن يحمل خطَّةً في صدره دائمًا. مع أنّه لم يظهر في عينيّ رجلًا عديم الضَّمير لهذه الدَّرجة!

قلتُ لمارية: «إنَّ بيت منشكي يستحقّ الرؤية. فهو يُثير الاهتمام جدًّا، ولا خسارة من رؤيته عمومًا».

«هل سبق لك أن زرتَ بيت منشكي يا أستاذ؟»

«مرّةً واحدة فقط. دعاني للعشاء فيه».

«أهو على الجهة المقابلة من هذا الوادي؟»

«يقع قبالة بيتي تمامًا».

«أيمكن رؤيته من هنا؟»

تظاهرتُ أنّي أُفكّرُ قليلًا، ثمّ قلتُ: «أجل. لكنّه يبدو صغيرًا».

«أتمنّى لو أراه».

أخذتها وخرجنا إلى الشرفة. وأشرتُ إلى بيت منشكي الواقع في الجبل الذي يفصله الوادي عنّا. أبرزت مصابيحُ الحديقة ذلك البناء الأبيض وكأنّه سفينة رُكّابٍ فاخرة تمخر عباب البحر في اللّيل. ما زالت بعض نوافذ البيت الزجاجيّة مُضاءة، بإضاءةٍ خافتة وخجولة.

قالت مارية باندهاش: «أتقصد ذلك البيت الكبير ذا اللّون الأبيض؟»

ثمّ نظرت إلى وجهي غير مُصدِّقة، وأعادت نظرها إلى البيت البعيد من دون أن تقول شيئًا.

«ذلك البيت يُرى بوضوحٍ من بيتنا أيضًا. تختلف زاوية الرؤية قليلًا عن هنا. ولطالما كان لديَّ فضولٌ بهويّة ساكنيه».

قلتُ: «على كلِّ حال، فإنَّ البيت اللّافت للانتباه هو بيت السّيِّد منشكي».

استندت مارية بجسدها على الدرابزين، وظلّت لفترةٍ طويلة تُحَمْلق في ذلك البيت. يتلألأ عددٌ من النجوم فوق سماء سطحه. لا أثر للرّياح. وتتوقّف سحابةٌ صغيرة صلدة في المكان نفسه من السماء، كأنّها تُبِّتَتْ بمسامير على لوحٍ خشبيّ في خلفيّة مسرحٍ بهدف الديكور. كان شعر الفتاة الأسود السبط اللّامع يَبرق مع ضوء القمر كلّما حرّكت رأسها من حينٍ لآخر.

نظرتْ مارية نحوي، وقالت: «أحقًا يسكن السّيّد منشكي في ذلك البيت وحده؟»

«بالتّأكيد. يسكن بمفرده في ذلك البيت الواسع».

«أليس متزوّجًا؟»

«قال إنّه لم يسبق له الزواج».

«ماذا يعمل؟»

«لا أعرف بالتّحديد. قال إنّه يعمل في مجال تجارة المعرفة بمعناه الواسع. ربّما كان له علاقة بالمعلوماتيّة. لكنّه قال إنّه حاليًا لا يقوم بعملٍ مُحدَّد. يعيش حاليًا من عائد الأسهم والأموال التي حصل عليها من بيع الشركة التي أنشأها بنفسه. لا أعرف عنه أكثر من ذلك».

قالت مارية وهي تقطّب حاجبَيْها: «لا يعمل؟»

«لقد قال ذلك بنفسه. ولا يخرج تقريبًا من بيته».

ربّما كان منشكي الآن يرانا نحن الاثنَيْن ونحن ننظر إلى بيته بواسطة المنظار فائق القُدرات. تُرى ما الذي سيُفكّر فيه عندما يرانا نقف معًا في الشرفة في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل؟

قلتُ لمارية: «من الأفضل أن تعودي إلى بيتك. لقد تأخّر الوقت».

قالت بصوتٍ خافت وكأنّها تبوح بسرٍّ: «ما علينا من أمر السّيّد منشكي. أنا سعيدة جدًّا أنّك ترسمني في لوحة يا أستاذ. وكنتُ أريد أن أُخبرك بذلك في منتهى الوُضوح. وأتطلّع شوقًا للنّظر إلى اللّوحة بعد اكتمالها».

قلتُ وقد تأثّر قلبي جدًّا بما قالت: «أتمنّى أن تكون لوحةً جيّدة». عند الحديث عن الرّسم تصبح تلك الفتاة الصّغيرة ذات طبيعةٍ تلقائيّة وقلبٍ منفتح بدرجةٍ عجيبة.

ودَّعتها عند مدخل البيت. ارتدت مارية المعطف الخفيف واعتمرت قبّعة فريق إنديانز للبيسبول. وعندها، بدت قليلًا كأنّها فتًى صغير.

سألتها: «هل أذهب معكِ حتى منتصف الطريق؟»

«لا داعي لذلك. فأنا مُتعوِّدة على الطريق».

«حسنًا، إلى اللّقاء يوم الأحد القادم».

لكنّها لم تَرحل. بل وقفت في مكانها وهي تقبض على حافّة الباب بإحدى يدَيْها.

ثمّ قالت: «ثمّة أمر واحد يُقلقني. الجرس».

«الجرس؟»

«لقد شعرتُ أثناء قدومي في الطريق إلى هنا أنّني أسمع صوت جرس. لعلّه صوت الجرس نفسه الذي على الرّفّ في مرسمك يا أستاذ».

فقدت القدرة على النُّطق للحظات. وظلّت مارية تُحملق في وجهي.

سألتها: «أين؟»

«في الغابة البرّيّة. خلف ذلك المعبد مباشرة».

أصغيتُ وسط الظلام الحالك. لكنّني لم أسمع صوت الجرس، بل لم أسمع أيّ صوت على الإطلاق. فصمت اللّيل يُخيّم على المكان.

سألتها مجدّدًا: «ألم تخافي؟»

هزّت مارية رأسها نافيةً، وقالت: «لا أخاف إلّا من الأشياء التي ينبغي لي مواجهتها».

«انتظريني هنا قليلًا».

وذهبتُ بخطواتٍ سريعة إلى المرسم.

لا وجود للجرس الذي يُفتَرض أنّه في مكانه على الرّفّ. لقد اختفى.

- 36 -

هل تحدَّثنا، وإن لمرَّةٍ واحدة، عن قواعد هذه اللُّعبة حقًّا؟

بعد أن رحلتْ مارية أكيكاوا، رجعتُ إلى المرسم وأضأتُ كلّ الأنوار، وبحثتُ في كلّ أركان المرسم. لم أعثر على الجرس القديم في أيّ مكان. لقد اختفى الجرس تمامًا.

تُرى متى كانت آخر مرّة رأيتُ فيها ذلك الجرس؟ يوم الأحد من الأسبوع الماضي، المرّة الأولى التي جاءت فيها مارية أكيكاوا إلى بيتي، مسكت مارية الجرس الذي كان على الرّفّ، مسكَتْه بيدها وهزّته، ثمّ أعادته إلى مكانه. أذكر ذلك جيّدًا. تُرى هل وقعت عيناي على الجرس بعدها؟ لا أستطيع التّذكُّر. فأنا لم أدخل المرسم خلال هذا الأسبوع إلّا قليلًا. ولم أمسك بِيَدي فرشاة الرّسم مرّةً واحدة. لقد كنتُ في منتصف العمل على لوحة «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء»، ثمّ توقّفت عن الرّسم تمامًا، ولم أبدأ في رسم بورتريه مارية أكيكاوا بعد؛ أي أنّني كنتُ وسط وادٍ بين عملَيْن.

ثمّ اختفى الجرس من دون أن أنتبه لاختفائه.

لقد سمعتْ مارية أكيكاوا صوت الجرس خلف المعبد عندما مرّت بالغابة البرّيّة في اللّيل. تُرى هل أعاد شخصٌ ما الجرس لعمق تلك الحُفرة مُجدَّدًا؟ هل يجب عليّ الذهاب الآن إلى تلك الحُفرة للتّأكُّد من أنّ صوت الجرس يُسْمَع حقًّا؟

غير أنّي لم أجد في نفسي الرّغبة لدخول الغابة البرّيّة وحيدًا في هذا اللّيل المُظلم. لقد توالت الأحداث غير المتوقّعة في ذلك اليوم واحدًا بعد آخر، وكنتُ مصابًا ببعض الإرهاق. ومهما جادلني أحدهم، يُفترض أنّني اليوم أخذتُ نصيبي بالفعل من «الأحداث غير المتوقّعة».

ذهبتُ إلى المطبخ وأخرجت ثلجًا من الثلّاجة، ووضعتُ عددًا منه في كأس وصببتُ الويسكي في الكأس. كانت الساعة ما زالت الثامنة والنُّصف. تُرى هل مرّت مارية أكيكاوا من الغابة البرّيّة، ثمّ دلفت «الممرّ السرّيّ» وعادت إلى بيتها بسلام؟ على الأرجح ليس هناك مشكلة. ولا يجب عليَّ أنا أن أقلق بهذا الشأن، لأنّه كما قالت هي نفسها: تلك المنطقة بأكملها هي مكانُ لعبِها منذ طفولتها. ولأنّها طفلةٌ قويّة حتى النُّخاع أكثر بكثير ممّا تبدو في الظاهر!

شربتُ كأسَيْن من الويسكي الإسكتلنديّ على مَهَلٍ مستغرقًا ما شئت من وقت، وأكلتُ بضع قطعٍ من البسكويت، وبعد ذلك، نظّفتُ أسناني ونمت. فلربّما أيقظني صوت الجرس في منتصف اللّيل، في الساعة الثانية صباحًا تقريبًا؛ مثلما حدث في السّابق. ما باليد حيلة. وإن وقع هذا، فلكلِّ حادثٍ حديث. ولكنْ في النهاية لم يحدث شيء. أو هذا ما أظنُّه. فقد غرقتُ في نومٍ عميق بدون أن أستيقظ ولا مرّةً واحدة حتى الساعة السادسة والنُّصف صباحًا.

وعندما استيقظتُ، كانت الأمطار تهطل في الخارج. كانت أمطارًا باردة تُنبئ باقتراب الشتاء المحتوم. أمطار هادئة، وفي الوقت نفسه عنيدة لا تَلين. شكلُها في الهطول يشبه الأمطار التي هطلت في مارس عندما أخبرتني زوجتي عن رغبتها في الانفصال عنّي. وفي أثناء حديث زوجتي، كنت في أغلب الوقت مُشيحًا وجهي عنها أحملق في الأمطار.

بعد تناولي وجبة الفطور، ارتديتُ سترةً مطريّة، وقبّعةً واقية من المطر أيضًا (اشتريتُ كلاهما من محلّ ملابس وأدوات رياضيّة في مدينة

هاكوداتِه أثناء سفري)، وذهبتُ إلى الغابة البرّيّة. لم أستخدم المظلّة. درتُ خلف المعبد، وأزحت نصف الألواح التي تُغطي الحُفرة، وأنرتُ ما في داخل الحُفرة بالمصباح اليدويّ، لكنّها كانت خالية تمامًا. لا أثر للجرس ولا للكومنداتور. لكنّي قرّرت زيادةً في الاحتياط، أن أنزل إلى قاع الحُفرة باستخدام السُلّم المُسند إلى جدارها. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أنزل فيها إلى قاع الحُفرة. وكاد السُلّم المعدنيّ يلتوي بسبب وزني عند كلّ درجة أنزلها، ويصدر صريرًا يُشعرني بالقلق. لكنّني في النهاية لم أعثر على شيء. الحُفرة خالية تمامًا. كانت دائريّة الشّكل بدرجةٍ تامّة، ومن الوهلة الأولى تظنّ أنّها بئر، لكنّ قطرها أكبر من أن يكون لبئر. فإن كان الهدف رفع الماء فلا ضرورة لحفر حُفرة بهذا القُطر الكبير. وكذلك أحجار الجدار المحيط مبنيّة بدقّة عالية، كما قال مدير شركة إنشاءات الحدائق.

وقفتُ بثبات لمدّةٍ طويلةٍ هناك وأنا أفكّر. ولأنّي كنتُ أستطيع رؤية السماء على شكل نصف دائرة فوق رأسي، فلم أشعر لهذه الدّرجة برُهاب الاحتجاز في الأماكن الضّيّقة. أطفأتُ المصباح اليدويّ، واستندتُ بظهري إلى الجدار الصّخريّ الرّطب وسط الظلام الخافت، وأغمضتُ عينيّ وأنا أستمع إلى صوت تساقط الأمطار غير المُنتظم. لم أدرك جيّدًا أنا نفسي ما الذي كنت أفكّر فيه، ولكنّي على أيّ حال حاولت التّفكير في أمرٍ ما داخل ذلك المكان. تتّصل فكرةٌ بأخرى، ثمّ تتّصل الأخرى بفكرةٍ ثالثة مختلفة. ولكنْ كيف يُمكنني قول ذلك! كلُّ شيء في ذلك المكان له إحساسٌ غريب. كيف يُمكنني وصف ذلك! إنّه إحساسٌ وكأنّني ابتُلِعتُ كلّيًا بواسطة فعل «التّفكير» ذاته.

ومثلما أعيش وأتحرّك بفكرٍ مُعيّن، فإنّ هذه الحُفرة كذلك تفكّر وتعيش وتتحرّك. إنّها تتنفّس وتتمدّد وتنكمش. لقد أحسستُ داخلها بذلك. ثمّ بدا لي أنّ تفكيري وتفكير الحُفرة تتشابك جذورهما وسط الظلام

ويتبادلان النُسْغ معًا. امتزجت الذات مع الآخر، مثل الألوان الزِّيتيَّة الذائبة. وتباعًا، أصبحت الحدود بينهما غير واضحة.

وبعد ذلك، بدأ يُراودني إحساسٌ بأنَّ الجدران المُحيطة تضيق حولي تدريجيًّا. كان قلبي يتمدَّد وينكمش داخل صدري مُصدِرًا صوتًا جافًّا، حتى كدتُ أسمع أصواتَ صمَّاماتِ القلب وهي تُفتح وتُغلق. هناك إحساسٌ باردٌ في هذا المكان يشبه اقترابي من عالم الموتى. لكنَّ المكان لا يُشعرك بالامتعاض من عالم الموتى إطلاقًا، مع أنَّ الوقت لم يَحن بعد لكي أذهب إليه.

وعندها، استعدتُ وعيي فجأةً، وقطعتُ أفكاري التي كانت تطوف كما يحلو لها، ضغطتُ على زرّ المصباح اليدويّ مرّة أخرى، وأضأتُ حولي: السُلَّم في مكانه؛ السَّماء فوق رأسي على حالها. تنفَّستُ الصُّعداء حين رأيتها. لم أكن لأعجَبُ إن اختفت السَّماء أو اختفى السُلَّم، فقد كنتُ أتوقَّع حدوث أيّ شيء في ذلك المكان. صعدتُ السُلَّم بحرصٍ بالغ وأنا أقبض على كلّ درجةٍ بإحكامٍ أثناء صعودي. ثمّ وصلتُ إلى قمّة السُلَّم، واستطعتُ أخيرًا التَّنفُّس تنفُّسًا طبيعيًّا عندما داست قدماي الأرضَ المبتلَّة. وهدأ خفقان قلبي تدريجًا. ثمّ نظرتُ مرّةً أخرى إلى داخل الحفرة، وأضأتُ كلّ ركنٍ من أركانها بالمصباح اليدويّ. عادت الحُفرة كما كانت دائمًا مجرَّد حُفرةٍ عاديَّة. لم تكن حيَّة، ولا تفكّر، ولم يكن جدارها يضيق. كانت أمطار منتصف شهر نوفمبر الباردة تبلِّل قاعها في هدوء.

أعدتُ الغطاء كما كان، ووضعتُ أحجار التثقيل عليه. رتَّبتها تمامًا كما كانت بالضبط، لكي أتأكَّد على الفور إذا ما حرّكها أحد. ثمّ ارتديتُ القبَّعة من جديد، وعدتُ من حيث أتيت.

وأثناء سيري داخل الغابة، سألتُ نفسي: تُرى أين اختفى الكومنداتور؟ لم أره منذ أكثر من أسبوعَيْن. والغريب أنَّ اختفاءه لهذه

المدّة الطويلة نسبيًا جعلني أشتاق إليه بدرجةٍ ما. حتى وإن كان وجوده غير مفهوم، وطريقة كلامه غريبة جدًّا؛ حتى وإن كان يُشاهدني من مكانٍ ما من دون علمي وأنا أمارس الجنس، فلقد أصبحتُ أشعر من دون وعي منّي بما يُشبه الألفة تُجاه الكومنداتور الصغير الحجم الذي يُدلي سيفًا قصير النصل من خصره. وتمنّيت ألّا يكون قد حدث له مكروه.

بعد أن رجعتُ إلى البيت، دخلتُ المرسم وجلستُ على المقعد الخشبيّ القديم كالمعتاد (أرجّح أنّه المقعد ذاته الذي استخدمه توموهيكو أثناء عمله في الرّسم)، ثمّ ظللت فترةً طويلة أنظر إلى اللّوحة [مقتل الكومنداتور] المعلّقة على الحائط. كنتُ كثيرًا ما أتأمّل تلك اللّوحة هكذا بلا نهاية، عندما لا أجد ما أفعله. تلك اللّوحة التي لا يُملّ منها مهما نُظر إليها. تلك اللّوحة من فنّ النيهونغا التي تستحقّ أن تكون أحد أهمّ اللّوحات التي في أيّ متحفٍ للفنون. ولكنّها في الواقع كانت معلّقةً على ذلك الحائط المتواضع في هذا المرسم الضّيّق وأستمتع بها أنا وحدي. وقبل ذلك، كانت مخبّأة في السّقيفة لا تصل إليها عَيْن.

كانت مارية أكيكاوا قد قالت إنّ تلك اللّوحة تحاول أن تقول شيئًا ما. وكأنّها مثل طائرٍ يريد الخروج من قفصٍ ضيّق إلى العالم الواسع.

كلّما نظرتُ إلى تلك اللّوحة، أدركتُ أنّ كلمة مارية أصابت كبد الحقيقة. إنّها حقًّا كذلك. يبدو بالفعل أنّ شيئًا ما فيها يتلوّى بجسده يمينًا وشمالًا في محاولةٍ مستميتة للخروج من حبسه إلى الخارج؛ يطلب الحرّيّة ومكانًا أوسع وأرحب. وأنّ تلك الإرادة القويّة هي التي قد تجعل هذه اللّوحة الفنّيّة بهذه القوّة الجامحة. مع أنّي لا أعلم ماذا يعني ذلك الطائر، وماذا يعني القفص على وجه التّحديد؟

كانت لديّ رغبةٌ عارمة للرّسم في ذلك اليوم. وأحسستُ أنّ تلك الرّغبة تنمو في وجداني تدريجيًّا، كأنّ مدّ البحر في ساعة الغروب يغمر

الأرض شيئًا فشيئًا. لكنّي لم أكن راغبًا في العمل على بورتريه مارية أكيكاوا. فلا يزال الوقت مبكّرًا جدًّا لذلك. لننتظر حتى يوم الأحد القادم. وأيضًا لم تكن لديّ رغبة في وضع لوحة [رجل سيارة سوبارو فورستر البيضاء] على حامل اللّوحات مرّةً أخرى. فتلك اللّوحة ـ كما أشارت مارية أكيكاوا ـ تحتوي على قوّةٍ خطرة.

كنت قد وضعت على حامل اللّوحات لوحَ قنّبٍ جديد متوسّط الحجم بغية رسم بورتريه مارية أكيكاوا. جلستُ على المقعد الخشبيّ العالي أمام الحامل، وتأمّلت طويلًا الفراغ القابع هناك. ولكنْ، لم تطرأ على ذهني الصّورة التي يجب أن أرسمها. ظلّ الفراغ فراغًا حتى النهاية. تُرى ماذا يجب عليّ أن أرسم؟ وبعد التّفكير لمدّة من الوقت، توصّلتُ أخيرًا إلى معرفة ما الذي أريد رسمه هذه المرّة.

ابتعدتُ عن اللّوح، وأخرجت دفتر الرّسم الكبير، ثمّ جلستُ متربّعًا على أرضيّة المرسم واستندتُ إلى الحائط، وبدأتُ أرسمُ لوحةً للحُفرة الحجريّة باستخدام القلم الرصاص. ولم أستخدم قلم رصاص من نوع 2B كالمعتاد بل من نوع HB. تلك الحُفرة العجيبة التي ظهرت من تحت جثوة الأحجار وسط الغابة البرّيّة. أعدتُ إحياء ذلك المشهد ـ الذي ذهبتُ لرؤيته منذ قليل ـ داخل رأسي، ثمّ رسمته بمسوّدةٍ مفصّلةٍ بقدر استطاعتي: رسمتُ ذلك الجدار من الأحجار التي صُفّت بعضها فوق بعض بدقّة متناهية لدرجة مُريبة. ثمّ رسمتُ الأرض التي حول الحُفرة، وأوراق الشجر المبتلّة الساقطة التي تبدو وكأنّها تصميمٌ فنّيّ في غاية الجمال. وسقطت أغصان الغاب التي تُغطّي الحُفرة وكأنّها تُخفيها عن الأعين، منزويةً بعد أن داستها جنازير المعدّات الثقيلة.

أثناء الرّسم، اجتاحتني من جديد تلك المشاعر المريبة باتّحادي مع الحُفرة. من المؤكّد أنّها طلبت منّي بنفسها أن أرسمها. أن تُرسم بالضّبط

كما هي وبدقّةٍ متناهية. حرّكت يديّ لاإراديًا للاستجابة للطّلب. وشعرتُ بسعادة التّشكيل خالص النّقاء الذي لا تشوبه شائبة. تُرى كم مضى من الوقت؟ عندما انتبهتُ كنتُ قد ملأتُ صفحات دفتر الرّسم تمامًا بخطوط القلم الرّصاص السّوداء.

ذهبت إلى المطبخ وشربت عددًا من أكواب الماء، وسخّنتُ القهوة وسكبتُها في الكوب، ورجعتُ به إلى المرسم. وضعتُ دفتر الرّسم على الصّفحة المفتوحة فوق الحامل، وجلستُ على المقعد العالي وتأمّلت مجدّدًا المسوّدة من مسافةٍ قصيرة. لقد أُعيد تشكيل تلك الحفرة الدّائريّة بدقّةٍ وواقعيّةٍ فائقتَيْن. فبدَتْ وكأنّها تمتلك روحًا حيّةً حقًّا. بل لقد بَدَتْ أنّها أكثر حياةً من الحُفرة الحقيقيّة. تركت المقعد، واقتربتُ منها وتأمّلتها، ثمّ تأمّلتها من زاويةٍ مختلفة. وانتبهتُ إلى أنّها توحي بشكل العضو التناسليّ للمرأة. وبدت أغصان الغاب تشبه شعر العانة تمامًا.

هززتُ رأسي وحيدًا، وبدرت منّي ضحكةٌ ساخرة بشكلٍ عفويّ. إنّه تفسيرٌ فرويديّ بالضبط كما يقول الكتاب. ألا يشبه ذلك كلام ناقدٍ متعالم، يقول مثلًا: «إنّني أرى أنّ الذاكرة والرّغبة التي برزت من منطقة اللّاوعي عند الرّسام، عملت وظيفتها الرّمزيّة في جعل تلك الحُفرة المُظلمة التي حُفِرتْ في باطن الأرض، تُذكّره بالعضو التناسليّ المُوحش للمرأة». يا للسخف!

ومع ذلك، لم تبرح دماغي فكرةُ ربط تلك الحُفرة الدّائريّة العجيبة القابعة في الغابة البرّيّة، بالعضو التناسليّ للمرأة. لذا، عندما رنَّ الهاتف بعدئذٍ، وبمجرّد سماعي لصوت الجرس، عرفتُ أنّه اتّصال من صديقتي المتزوّجة.

«اسمع، لديَّ وقت فراغ، هل تُمانع في أن آتي إليك الآن؟»

نظرتُ إلى الساعة، ثمّ قلتُ: «لا مانع أبدًا. لنتناول الغداء معًا».

«سأشتري معي شيئًا بسيطًا يُمكن أن نتناوله معًا».

«فكرة رائعة. فأنا منذ الصباح منشغلٌ في العمل ولم أُعدَّ الطعام بعد».

أغلقتُ الهاتف. فذهبتُ إلى غرفة النوم ورتَّبتُ الفراش، ورفعتُ ملابسي المتناثرة على الأرضيَّة وطويتها ووضعتُها في دُرج الخزانة. ثمَّ غسلتُ أواني الفطور المتبقيَّة في حوض المطبخ وأعدتها إلى أماكنها.

ثمَّ ذهبتُ إلى غرفة المعيشة، ووضعتُ على الدَّوَّارة أسطوانة «فارس الورود» لريتشارد شتراوس (بقيادة المايسترو جورج سولتي)، وجلستُ على الأريكة أقرأ كتابًا بانتظار وصول صديقتي. ثمَّ فكَّرتُ فجأةً: تُرى ما الكتاب الذي تقرأه شوكو أكيكاوا؟ أيُّ نوعٍ من الكُتب هذا الذي يجعلها تقرأه على درجةٍ عالية من الحماس؟

جاءت صديقتي في الثانية عشرة والرُّبع. توقَّفت سيَّارتها الميني الحمراء أمام مدخل البيت، ونزلت منها وهي تحمل بيدها كيسًا ورقيًّا يحتوي على الوجبات. كانت الأمطار لا تزال تنهمر بهدوء، ولكنَّها لم تستخدم مظلَّة. كانت ترتدي بُرْنُسًا بلاستيكيًّا واقيًا من المطر أصفر اللَّون، وتضعُ قلنسوة البُرْنُس على رأسها. ودخلت البيت بخُطواتٍ مُسرعة. فتحتُ لها باب المدخل، وأخذتُ منها الكيس الورقيّ، وذهبتُ به إلى المطبخ. وعندما خلعت البرنس المطريّ، كانت ترتدي تحته سُترةً خضراء زاهية بياقةٍ عالية تغطِّي العُنق. ويتبدَّى ثدياها الناهدان الجميلان من تحت تلك السُّترة. لم يكونا بحجم صدر شوكو أكيكاوا، ولكنَّ حجمهما مناسب.

«هل كنتَ تعمل طوال الوقت منذ الصباح؟»

قلتُ لها: «أجل. ولكنَّه ليست طلبيَّة. لقد اجتاحتني رغبةٌ في رسم شيءٍ ما، ورسمت باسترخاء شيئًا ما خَطَر على بالي».

«قتلًا للملل!»

قلتُ: «ربَّما».

«هل أنت جائع؟»

«لا، ليس لهذه الدَّرجة».

فقالت: «جيِّد جدًّا. حسنًا، أنتناول الغداء فيما بعد؟»

«بالتَّأكيد».

سألتني بعد مرور فترةٍ داخل الفراش: «لماذا أنت اليوم بهذا الرَّغبة المحمومة؟»

فقلتُ لها: «تُرى لماذا؟»

ربَّما يكون السَّبب أنَّني منذ الصباح مُندمجٌ في رسم لوحةٍ لتلك الحُفرة العجيبة التي حُفرت في الأرض بقطرٍ أقلّ من مترَيْن. ولأنَّني أثناء الرَّسم، ظهرت لي الحُفرة على شكل العضو التناسليّ للمرأة، واستثار ذلك الشهوة الجنسيَّة لديَّ بدرجةٍ أو بأخرى... بالطبع، لا يُمكنني بأيِّ حال أن أُخبرها بذلك.

فقلتُ وأنا أختار طريقةً للتَّعبير أكثر دماثة: «أعتقد أنَّ السَّبب أنَّني لم أقابلك منذ فترة، ولذا اشتقتُ إليكِ بقوَّة».

قالت وهي تزحف بأناملها على صدري ببطء: «قولك هذا يُسعدني جدًّا. ولكنْ أليست الحقيقة أنَّك ترغب في احتضان فتاةٍ أصغر عمرًا منِّي؟»

قلتُ لها: «لا أرغب في ذلك مُطلقًا».

«حقًّا؟»

قلتُ: «لم يسبق لي التَّفكير في الأمر إطلاقًا».

وكانت تلك هي الحقيقة فعلًا. فلقد كنتُ أستمتع استمتاعًا خالصًا باللِّقاء الجنسيّ معها في حدّ ذاته، ولم أفكّر قطّ في طلب تلك المتعة من أحدٍ غيرها (ولكنْ كان ذلك الفعل بيني وبين يوزو مختلفًا كليًّا).

ومع ذلك، قرّرت ألّا أُخبرها أنّني أرسم حاليًا لوحة بورتريه لمارية أكيكاوا، لأنّني اعتقدتُ أنّ مسألة رسمي لوحةً لموديل جميلة في سنّ الثالثة عشرة من المُمكن أن يستثير غيرتها بطريقةٍ حسّاسة! فمهما كان العمر، كلّ الأعمار حسّاسة بالنّسبة إلى النساء، سواء أكانت في الواحدة والأربعين أم في الثالثة عشرة، فإنّ المرأة على الدّوام تواجه مرحلةً عمريّةً حسّاسة. كان ذلك أحد الدروس التي تعلّمتها بالتّجربة حتى ذلك الوقت من خلال خبراتي القليلة مع النساء.

قالت لي: «ولكنْ، ألّا تعتقد أنّ العلاقة بين الجنسَيْن أمرٌ غريب إلى حدٍّ ما؟»

«غريب؟! كيف؟»

«بمعنى أنّنا نتعانق بهذا الشّكل. مع أنّنا تعارفنا منذ فترةٍ بسيطة جدًّا، إلّا أنّنا نتعرّى أمام بعضنا بعضًا ونتضاجع. بلا أيّ حمايةٍ أو خجل. ألا ترى أنّه أمرٌ غريب، إن فكّرتَ فيه؟»

وافقتها بهدوء قائلًا: «ربّما كان أمرًا غريبًا حقًّا».

«اسمع، فكّر في أنّه لعبة. حتى لو لم تكن لعبةً بسيطة. وإلّا لن تفهم قصدي».

«سأحاول».

«حسنًا، لا بدّ للعبة من قواعد، أليس كذلك؟»

«طبعًا».

«للبيسبول وكرة القدم كتابٌ سميك يحتوي القواعد، كُتِبت فيه كلّ قاعدةٍ بالتّفصيل بكلماتٍ محدّدة، وعلى الحكّام واللّاعبين حفظ تلك القواعد وفهمها. أو لن تستقيم المباراة. أليس كذلك؟»

«هو كذلك».

صمتت لفترةٍ من الوقت. انتظرت أن تتجذَّر الصُّورة في رأسي.

«حسنًا، ما أريد قوله: هل تحدَّثنا، وإن لمرَّةٍ واحدة، عن قواعد هذه اللُّعبة حقًّا؟»

فكَّرتُ قليلًا، ثمَّ قلتُ: «لا أعتقد».

«ولكنَّنا، في الواقع، نستمرّ في اللُّعبة محافظين على نوعٍ من القواعد، في كتابٍ افتراضيّ. صحيح؟»

«إن قلنا ذلك، فربَّما يكون صحيحًا».

قالت لي: «أعتقد أنَّ هذا يعني ما يلي: أنا أتقدَّم في اللُّعبة متَّبعة القواعد التي أعرفها. وأنت تتقدَّم في اللُّعبة متَّبعًا القواعد التي تعرفها. ثمَّ يحترم كلٌّ منَّا بالغريزة قواعدَ الآخر. وتستمرّ اللُّعبةُ بلا عقباتٍ ما لم تتصادم قواعدنا وتُحدث فوضى مُزعجة. ألا توافق رأيي؟»

فكَّرتُ فيما قالت، ثمَّ أجبتُ: «ربَّما. يحترم كلٌّ منَّا قواعد الآخر».

«لكنَّني أعتقد أيضًا أنَّ الأمر لا علاقة له باحترام الطَّرف الآخر أو الثقة به، بل هي مسألة آداب السُّلوك».

كرَّرت كلمتها: «مسألة آداب السُّلوك؟»

«آداب السُّلوك في غاية الأهمّيّة».

اعترفتُ قائلًا: «هذا مؤكَّد».

«ولكنْ عندما لا يقوم ذلك بوظيفته ـ سواءً أكان ثقةً أم احترامًا أم آداب سلوك ـ وتتصادم قواعد كلٍّ منَّا، ولا يُمكن مواصلة اللُّعبة جيّدًا، فعلينا أن نوقف المباراة، ونقرّر قواعد اللُّعبة من جديد. أو ربَّما علينا أن نوقف

المباراة ونغادر الملعب تمامًا كما نحن. وبالتّأكيد، غنيٌ عن القول إنّ اختيار أحد الحلّين مهمٌ جدًّا».

فكّرتُ أنّ ذلك بالضبط هو ما حدث معي في حياتي الزوجيّة. أوقفتُ المباراة، وغادرت الملعب كما أنا بهدوء، في ظهيرة يوم أحدٍ تهطل فيه أمطارٌ باردة من شهر مارس.

قلت: «حسنًا، هل تطلبين أن نتناقش مجدّدًا عن قواعد لُعبتنا؟»

نَفَتْ برأسها، وقالت: «كلّا، أنت لم تفهم شيئًا. ما أطلُبه هو عدمُ النقاش مطلقًا في قواعد المباراة. ولهذا السّبب، أستطيع أن أتعرّى أمامك هكذا. هل تمانع في ذلك؟»

«لا أمانع مُطلقًا».

«مبدئيًا الثقة والاحترام. ثمّ الأهمّ هو آداب السّلوك بصفةٍ خاصّة».

كرّرتُ كلامها: «الأهمّ هو آداب السّلوك بصفةٍ خاصّة».

مدّت يدها وأمسكت بقضيبي. ثمّ همست في أذني قائلة: «يبدو أنّه استعاد عافيته مجدّدًا».

فقلتُ: «ربّما، لأنّ اليوم هو الاثنَين».

«هل تعني أنّ ثمّة علاقة بين هذا وبين أيّام الأسبوع؟»

«ربّما لأنّ الأمطار مستمرّة منذ الصباح. وربّما بسبب اقتراب الشتاء. وربّما بسبب أنّ الطيور المهاجرة بدأت تظهر في هذه المنطقة. وربّما لأنّ محصول الفطر وفير. وربّما بسبب أنّ في الكوب ما زال واحدٌ على ستّة عشر من كمّيّة الماء. ربّما لأنّ شكل صدرك الناهد في السّترة الخضراء كان مثيرًا».

عندما سمعتْ ذلك، ضحكتْ بصوت عالٍ. يبدو أنّ ردّي راق لها.

اتّصل بي منشكي في المساء، وشكرني على يوم الأحد الماضي.

فقلت له إنّني لم أفعل ما يستحقّ أن أُشكر عليه. ففي الواقع لم أفعل إلّا أنّني عرّفت الجانبَيْن بعضهما على بعض. فليس من شأني التّدخُّل في تطوُّر الأحداث بعد ذلك؛ وبهذا المعنى، كنت مجرّد طرفٍ خارجيّ في الموضوع. أو يجب القول إنّني أتمنّى أن أظلّ طرفًا خارجيًّا لا شأن له بالأمر (حتى لو كنتُ أتوقّع أنّ الأمور لن تسير على هذا النحو).

بعد المجاملات، بادر منشكي قائلًا: «في الواقع، سبب اتّصالي بك اليوم هو السّيّد توموهيكو أمادا. فقد حصلت على بعض المعلومات».

ما زال مستمرًّا في البحث! لم أكن أعلم من الذي كان يقوم بالاستقصاء، إلّا أنّه من البديهيّ أنّه عملٌ دقيق يكلّف أموالًا طائلة. منشكي لا يضنّ بضخّ الأموال إن شعر بضرورة ذلك. لكنّي لم أفهم تَوْقه لمعرفة ما الذي حدث لتوموهيكو أمادا في ڤينّا.

قال منشكي: «ليس للأمر علاقة مباشرة بأحداث فترة إقامة أمادا في ڤينّا. ولكنْ، بأحداث وقعت في الفترة نفسها، وأنا متأكّدٌ أنّها كانت خطيرة بالنّسبة لتوموهيكو أمادا. لذا ارتأيتُ أن أبلغك بها».

«حدثت في الفترة نفسها؟»

«كما ذكرتُ لك من قبل، لقد عاد توموهيكو أمادا إلى اليابان تاركًا ڤينّا في بداية عام 1939. شكليًّا، كان الرّحيلُ ترحيلًا قسريًّا، ولكنّه واقعيًّا كان [إنقاذًا] لتوموهيكو أمادا من الغيستابو. تفاوضت وزارة الخارجيّة اليابانيّة في السرّ مع وزارة خارجيّة ألمانيا النازيّة، وتوصّلا إلى قرار عدم اتّهام توموهيكو أمادا بشيء، وطرده خارج البلاد. وقعت محاولة الاغتيال عام 1939، ووقعت في العام ذاته سلسلة أحداثٍ هامّة على هامش تلك المحاولة. إنّها أحداث أنشلوس (اندماج ألمانيا والنمسا) وكريستال ناخت (ليلة البلّور). حدثت أنشلوس في شهر مارس، وحدثت الكريستال ناخت في شهر نوفمبر. من

خلال هاتَيْن الحادثتَيْن، اتَّضح لكلّ ذي عينَيْن نيّة العنف عند أدولف هتلر. وكانت النمسا كذلك في خضمّ ذلك العنف، بعمقٍ لا يُمكن الإفلات منه. وهنا، نشأت حركة مقاومةٍ سرّيّة تتكوّن من طلّاب الجامعة تحاول أن تمنع السّير في ذلك التيّار، وفي العام نفسه، قُبض على توموهيكو أمادا بتُهمة التّورُّط في محاولة الاغتيال. أنت متفهّمٌ لتفاصيل الظروف التي أحاطت بتلك الحادثة.. أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك».

«هل تحبّ التاريخ؟»

«لستُ على معرفة تفصيليّة به، ولكنّي أحبّ قراءة كتب التاريخ».

«إذا اتّجهنا بأنظارنا نحو تاريخ اليابان وجدنا أنّ أحداثًا مهمّة قد وقعت في الوقت نفسه. أحداثٌ مصيريّة. أحداثٌ تتّجه إلى الدّمار، ولم يكن يُمكن التراجع عنها. هل تذكر شيئًا عن ذلك؟»

حاولتُ أن أعيد فحص المعلومات التاريخيّة المدفونة خلال فترةٍ طويلة داخل رأسي. تُرى ما الذي حدث في عام 1938، أي في العام الثالث عشر من عصر شوا؟ في أوروبا، ازداد عنف الحرب الأهليّة الإسبانيّة. وعلى ما أذكر أنّه في تلك الفترة أيضًا، قام جيش الكندور بقصفٍ عشوائيٍّ عنيف على مدينة غرنيكا. ماذا عن اليابان...؟

قلتُ: «هل وقعت أحداث جسر ماركو بولو في ذلك العام؟»

قال منشكي: «كانت في العام السّابق. وقعت أحداث جسر ماركو بولو في السابع من يوليو عام 1937، وكانت السّبب في تحوُّل الصّراع بين اليابان والصين إلى حربٍ حقيقيّة. ثمّ في شهر ديسمبر من العام نفسه، وقعت أحداث مهمّة جدًّا تفرّعت من تلك الأحداث».

ماذا الذي حدثَ في شهر ديسمبر من ذلك العام؟

قلتُ: «الاستيلاء على قلعة نانكين!»

«بالضبط. أو ما تُسمّى مذبحة نانكين. احتلَّ الجيش اليابانيّ مدينة نانكين بعد معركة طاحنة، وعندها وقعت عمليّات قتل بأعدادٍ ضخمة. كانت هناك عمليّات قتلٍ لها علاقة بالمعركة، وأخرى بعد انتهاء المعركة. فلم يكن لدى الجيش الياباني متّسعٌ للسّيطرة على الأسرى، فقام بقتل الجنود والمدنيّين المستسلمين. هناك اختلافاتٌ كبيرة بين المؤرّخين في تحديد عدد القتلى بدقّة، ولكنْ على أيِّ حال، من الصّعب نفي أنَّ عددًا مهولًا من المدنيّين قد قُتِلَ في ذلك الصّراع. هناك بين الصينيّين من يقول إنَّ عدد القتلى أربعمئة ألف قتيل، ومن يقول إنَّ العدد مئة ألف قتيل. ولكن تُرى ما الفرق بين أربعمئة ألف ومئة ألف؟»

بالتّأكيد لم يكن لي أن أعرف ذلك.

سألته: «سقطت مدينة نانكين في ديسمبر، وقُتل عددٌ كبير من الناس. ولكن هل هناك علاقة لذلك بحادثة توموهيكو أمادا في ڤيِنّا؟»

«سأخبرك بذلك فيما يلي. وقّعت اليابان وألمانيا على اتّفاقيّة الدّفاع المشترك في نوڤمبر من عام 1936، ونتيجة لذلك دخلت اليابان مع ألمانيا في تحالفٍ واضح. هناك مسافة كبيرة على أرض الواقع بين ڤيِنّا ونانكين. وعلى الأرجح، لم يكن هناك انتشارٌ لأخبارٍ مفصّلةٍ في ڤيِنّا عن الحرب اليابانيّة الصينيّة. ولكنْ، في الواقع، لقد شارك شقيق توموهيكو أمادا الأصغر، تسوغوهيكو باعتباره جنديًا عاديًا في معركة نانكين. استُدعي للتّجنيد وشارك في الحرب. كان وقتها طالبًا في العشرين من عمره، يدرس في مدرسة طوكيو للموسيقى، أي كان ما زال طالبًا جامعيًا يدرس البيانو في المدرسة التي صارت الآن قسم الموسيقى في جامعة طوكيو للفنون الجميلة».

قلتُ: «هذا أمرٌ غريب! فعلى حدّ علمي، أنّه في ذلك الوقت، لم يُستدعَ طلّاب الجامعات للجيش».

«أجل، بالضبط. كان طلّاب الجامعات يُمنَحون تأجيلًا من الاستدعاء للجيش حتى التّخرّج. لكنّي لا أعرف سبب استدعاء تسوغوهيكو أمادا للتّجنيد وإرساله إلى ساحة المعركة في الصين. عمومًا، فقد جُنّد في شهر يونيو من عام 1937 وحتى يونيو من العام التالي، انتمى إلى كتيبة المشاة السادسة التابعة للقوّات البرّيّة في كوماموتو، جنديًّا من الدّرجة الثانية. كان محلّ إقامته في طوكيو، لكنّ سجلّه المدنيّ في كوماموتو. ولذا أُلحق بالكتيبة السّادسة. وهذا الأمر موثّق كتابيًا في السّجلّات العسكريّة. وبعد التّدريبات الأساسيّة، أُرسِل إلى القارّة الصينيّة. وفي شهر ديسمبر، شارك في معركة الاستيلاء على نانكين. ثمّ عاد إلى الدّراسة في شهر يونيو من العام التالي بعد تسريحه من الجيش».

التزمتُ الصّمت منتظرًا أن يُكمل حديثه.

«لكنّ تسوغوهيكو أمادا انتحر بعد تسريحه من الجيش، وبعد وقتٍ قصيرٍ من عودته إلى الدّراسة. عثرتْ عليه أسرتُه ميّتًا في السّقيفة بعد أن قطّع شرايين رسغه بالموس».

قطّع شرايين رسغه في السّقيفة؟

سألته: «إن قلنا في نهاية صيف عام 1938... فهذا يعني أنّ توموهيكو أمادا كان ما زال مقيمًا في ڤيێنّا للدّراسة عندما انتحر أخوه الأصغر في السّقيفة، أليس كذلك؟»

«بلى، هو كذلك. ولم يَعُد إلى اليابان من أجل حضور مراسم الجنازة. ففي ذلك العصر، لم تكن خطوط الطيران قد تطوّرت، ولم يكن أمامه إلّا العودة عن طريق الخطوط الحديديّة أو عن طريق السّفن. ولذا، كان من المستحيل أن يلحق مراسم الجنازة».

«ولكنْ، هل تفكّر يا سيّد منشكي أنَّ ثمّة علاقةً بين اشتراك تومهيكو أمادا في محاولة اغتيال في فيّنا في الفترة نفسها تقريبًا التي انتحر فيها شقيقه الأصغر؟»

قال منشكي: «ربّما نعم وربّما لا. فهذا الأمر في نطاق التّخمين. أنا أخبرك فقط بالنتائج التي اتّضحت من البحث والتّقصّي».

«هل كان لتوموهيكو أمادا أخوة وأخوات آخرون؟»

«له أخ أكبر. توموهيكو هو الابن الثاني. هم ثلاثة أخوة، وتسوغوهيكو هو الثالث. أُخفي أمر انتحاره عن الناس باعتباره فِعلةً تجلب العار. لقد كانت الكتيبة السادسة في كوماموتو تشتهر بالشجاعة والإقدام وعدم الرّهبة من القتال. فإن انتحر شخصٌ بعد تسريحه المجيد من الجيش، وعودته للبلاد مباشرةً، فلن تستطيع الأسرة مواجهة المجتمع وتهم العار. ولكنْ ـ كما تعلم ـ الشائعات تنتشر بسهولة».

شكرته على إخباري بتلك المعلومات، والتي لم أعرف معناها جيّدًا.

قال منشكي: «أعتقد أنّني سأواصل البحث عن تفاصيل الأمر. وإن توصّلتُ إلى شيءٍ سأُخبرك به».

«أرجو منك ذلك».

«حسنًا، سأزورك في بيتك بعد ظهيرة يوم الأحد القادم. ثمّ أصحب المرأتَين إلى بيتي. كي أُريهما اللّوحة التي رسمتَها. بالطبع لا مانع لدَيك، أليس كذلك؟»

«بالتّأكيد لا مانع. فتلك اللّوحة أصبحت من ممتلكاتك يا سيّد منشكي. وأنت حرّ تمامًا في أن تُريها أو لا تُريها لأيِّ شخص».

صَمَتَ منشكي لحظات، وكأنّه يبحث عن أصحّ الكلمات ليقولها. ثمّ قال وكأنّه يئس من البحث: «دعني أكون صادقًا معك: أحيانًا أشعر بالغيرة منك».

يشعر بالغيرة منّي؟

لم أفهم ماذا يريد أن يقول. إذ لا أستطيع تخيُّل وجود شيءٍ لديَّ يُشعِر منشكي بالغيرة. فهو يَملك كلّ شيء في حين لا أملك أيَّ شيء.

سألته: «تُرى ما الذي أملكه ويشعرك بالغيرة؟»

«لا بدَّ أنّك لم تشعر بالغيرة في حياتك تجاه أحد، أليس كذلك؟»

قلتُ بعد أن أخذت وقتًا بسيطًا للتّفكير: «ربّما فعلًا لم أشعر بأيّ غيرة من أحد حتى الآن».

«وهذا ما أقصده بالضّبط».

فكّرتُ: ولكنّني فقدتُ يوزو أيضًا ولم تَعُد معي. إنّها حاليًا في مكانٍ ما، يحتضنها رجلٌ آخر بين ذراعَيْه. بل لدرجة أنّني أشعر أحيانًا أنّني تُركتُ وحيدًا في نهاية الكون. ومع ذلك، لم أشعر في أيّ وقتٍ بالغيرة من أيّ إنسان. تُرى هل هذا أمرٌ غريبٌ كلّيًا؟

بعد أن أنهيتُ المكالمة، جلستُ على الأريكة، وفكّرتُ في أمر شقيق توموهيكو الأصغر الذي انتحر بقطع شرايين رَسغه في السّقيفة. ليست هذه السّقيفة بالتّأكيد. لأنّ توموهيكو أمادا لم يشترِ هذا البيت إلّا بعد الحرب. انتحر تسوغوهيكو أمادا في سقيفة بيته. على الأرجح، بيت العائلة في أسُو. ومع ذلك، فالسّقيفة، ذلك المكان السرّيّ المعتم، تربط موت شقيق توموهيكو الأصغر بلوحة [مقتل الكومنداتور]. ربّما كانت مجرّد صدفة. أو ربّما أخفى توموهيكو لوحة [مقتل الكومنداتور] في سقيفة هذا البيت وهو يعي ذلك الأمر. ولكنْ في كلا الحالتَيْن، تُرى لِمَ اضطُرَّ تسوغوهيكو أمادا إلى إنهاء حياته بنفسه بعد تسريحه من الجيش بوقتٍ قصير؟ لِمَ فعل ذلك مع أنّه استطاع بشكلٍ ما أن يبقى على قيد

الحياة خلال المعارك الطاحنة في الجبهة الصينيّة، وعاد إلى البلاد سالمًا غانمًا؟

رفعتُ سمّاعة الهاتف، واتّصلتُ بماساهيكو أمادا.

قلتُ له: «ألا يمكن أن نلتقي مرّة في طوكيو؟ فلقد حان الوقت لكي أذهب إلى محلّ بيع أدوات الرّسم، وأشتري خزين الألوان وأدوات الرّسم الأخرى. أودُّ أن ألقاك حينها ونتحادث».

قال: «لا مانع بالتّأكيد».

ثمّ فَحَص جدول مواعيده. وفي النهاية، تقرّر أن نلتقي ظهر يوم الخميس، ونتناول الغداء معًا.

«هل ستذهب إلى محلّ أدوات الرّسم المعتاد في حيّ يوتسويا؟»

«أجل، بالضّبط. عليّ أن أشتري ألواح القنّب أيضًا، كما أنّ الزيوت تكاد تنفد. والمشتريات ستكون ثقيلة إلى حدٍّ ما. سأذهب بالسيّارة».

«هناك بالقرب من مكان عملي مطعمٌ هادئ نسبيًا يُمكننا الحديث فيه. دعنا نتناول الطعام هناك».

قلت له: «بالمناسبة، لقد أرسلتْ يوزو منذ أيّام أوراق الطلاق، فختمتُها وأعدتُها إليها. أعتقد أنّ الطلاق رسميًا سيتمّ خلال أيّام».

قال أمادا بصوتٍ كئيبٍ نسبيًا: «حقًّا؟»

«لا حيلة في ذلك، فلقد كانت مسألة وقتٍ فقط».

«ولكنّني شخصيًا حزينٌ لسماع ذلك. كنتُ أظنُّ طوال الوقت أنّ علاقتكما ناجحة».

قلتُ: «حين كانت العلاقة ناجحة، كنّا في غاية النجاح».

مثل الجاغوار القديمة. تسير بشكلٍ عظيم قبل أن تحدث بها أعطال.

«وعليه، ما الذي تنوي فعله في المستقبل؟»

«لا شيء. سأعيش كما أنا لفترةٍ من الزمن. فلا شيء يطرأ في بالي لأفعله».

«حسنًا.. هل ترسم لوحات؟»

«ثمّة لوحاتٌ عدّة في طور الرّسم حاليًا. لا أدري ستكتمل أم لا، ولكنّي أرسم على أيِّ حال».

قال أمادا: «هذا جيّد». ثمّ أضاف بعد تردُّدٍ وجيز: «لقد جاء اتّصالك هذا في وقتٍ مناسب، لأنّني أنا أيضًا لديَّ ما أُخبرك به».

«شيءٌ جيّد؟»

«سواء أكان جيّدًا أم سيّئًا، لكنّه في كلا الحالتَيْن حقيقةٌ ناصعةٌ بلا شوائب».

«بشأن يوزو؟»

«من الصّعب الحديث عن الأمر من خلال الهاتف».

«حسنًا، لنتحدّث عنه يوم الخميس».

أنهيتُ المكالمة، وخرجتُ إلى الشرفة. توقّف المطرُ تمامًا. كانت سماء اللّيل قد بردت بوضوح، ثمّ صفت. وظهرت نجومٌ عدّة من بين ثغرات الغيوم. وبدت النجوم متناثرة مثل قطعٍ من الثلج. ثلجٌ صلد لا يذوب وإن مضت عليه مئات الملايين من السنين. ثلجٌ متجمّدٌ من البرودة حتى النخاع. كما برز على الجهة المقابلة من الوادي بيتُ منشكي على حاله، ضبابيًا بسبب إضاءة مصابيح الزّئبق الباردة.

فكّرتُ وأنا أتأمّل ذلك البيت بمسألة الثقة والاحترام وآداب السّلوك. وبصفةٍ خاصّة في آداب السّلوك. ولكنْ بالطبع، لم أصل إلى نتيجةٍ نهائيّة رغم التّفكير بالأمر.

- 37 -
في أيِّ شيءٍ جانبٌ مضيء

كانت المسافة من قمّة الجبل في أوداوارا إلى طوكيو طويلةً وشاقّة. وأخطأتُ الطريق مرّاتٍ عدّة، فزاد ذلك من الوقت المستغرق. بالطبع، لم يكن في سيّارتي المستعملة نظام ملاحة، ولا نظام دفعٍ آليّ للطرق السّريعة (ممتنٌ جدًّا لوجود حامل الأكواب!). في البداية، استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أعثر على مدخل الطريق السّريع أوداوارا ـ أتسوغي، وبعد أن دخلت من طريق طوكيو ـ ناغويا إلى العاصمة، واجهتُ زحامًا رهيبًا. فقرّرتُ النزول من الخطّ الثالث في شيبويا، والذهاب إلى يوتسويا مارًّا من طريق أوْياما. وكما هو متوقّع، كانت الطريق العادية مزدحمةً أيضًا، ومن الصّعب اختيار المسلك المناسب الذي تسير فيها السيّارة. ولم يكن من السّهل كذلك العثور على مرأب. يبدو أنّ العالم يصبح مكانًا بائسًا ومُتعبًا أكثر وأكثر مع مرور السّنوات.

بعد أن اشتريتُ ما أحتاجه من متجر أدوات الرّسم، وضعت المشتريات على المقاعد الخلفيّة. وعندما ركنتُ السيّارة في مرأب بمنطقة أوْياما إيتشوميه، حيث تقع شركة أمادا، كنتُ قد بلغتُ قمّة التعب. مثل الفأر الرّيفيّ الذي أتى لزيارة أقاربه في المدينة. كانت عقارب السّاعة قد تخطّت الواحدة ظهرًا، وكنتُ متأخّرًا عن موعدي بنصف ساعة.

ذهبت إلى مكتب استقبال الشركة، وطلبته. نزل أمادا على الفور، فاعتذرت له على تأخُّري.

قال وكأنَّ الأمر هيِّن: «لا تشغل بالك. فالمطعم وكذلك عملي مرنان في التعامل مع الوقت إن كان في هذه الحدود».

ثمَّ صحبني إلى المطعم الإيطاليّ المجاور لعمله. كان المطعم يقع في طابقٍ تحت الأرض من مبنى صغير. ويبدو أنَّ أمادا يأكل فيه كثيرًا، فعندما رأى النادل وجهه أرشدنا سريعًا إلى غرفةٍ صغيرةٍ منفردة من دون أن نقول شيئًا. كانت الغرفة في منتهى الهدوء بلا موسيقى ولا ضجّة زبائن. وحائطها مزيَّن بلوحةٍ لمناظر طبيعيَّة لا بأس بجمالها: رأس برّ أخضر وسماء زرقاء وفنار أبيض. ثيمة رسم معتادة، ولكنَّها على الأقلّ، كانت توحي لمن يراها بأنَّه ليس من السيِّئ الذَّهاب إلى مكانٍ كذاك.

طلب أمادا كأس نبيذٍ أبيض، وطلبتُ مياه پيريه المعدنيَّة.

قلت له: «عليَّ قيادة السيَّارة والعودة إلى أوداوارا. وهي مسافة بعيدة جدًّا».

فقال: «بالتَّأكيد. ولكنَّها أفضل بمقارنتها بمدينة هاياما أو إيزو. لقد أقمتُ لفترة في هاياما، وكان مشوار طوكيو ذهابًا وإيابًا في الصَّيف هو الجحيم بعَيْنه. فكلُّ الطُّرق تزدحم بالمصطافين الذين يذهبون للسباحة في البحر. كان الذهاب والإياب يستغرق نصف يوم. مقارنةً بذلك، فإنَّ طريق أوداوارا مريحةٌ، وليست بذلك الازدحام».

جاءت قائمة الطعام، فطلبنا وجبة غداءٍ كاملة. المقبّلات، شرائح من لحم مملَّح، وسلطة من نبات الهليون ومعكرونة سباغيتّي بجراد البحر.

قال أمادا: «أخيرًا جاءتك الرَّغبة في رسم لوحاتٍ فنِّيَّة حقيقيَّة».

«ربَّما كان السَّبب أنّني أصبحتُ وحيدًا، ولا أحتاج إلى رسم لوحاتٍ من أجل كسب قوت اليوم. ربَّما كان ذلك هو السَّبب في ظهور رغبةٍ قويَّة في رسم لوحاتٍ فنِّيَّة من إبداعي».

أومأ أمادا موافقًا، وقال: «في أيِّ شيءٍ جانبٌ مضيء. ومهما تلبّدت الغيوم وأظلمت، فالجهة الخلفيّة منها تتلألأ بلونٍ فضّيّ».

«إنَّ الالتفاف كلَّ مرّةٍ حول الغيوم وتأمُّل الجهة الخلفيّة منها يبدو أمرًا مُتعبًا».

«أتكلَّم من الناحية النَّظريّة فقط».

«ربّما كان السّبب هو إقامتي في ذلك البيت فوق قمّة الجبل. لأنّه بالتّأكيد في بيئةٍ مثاليّة للتّركيز على رسم اللّوحات».

«أجل، فذلك المكان في غاية الهدوء، ولا يتشتّت الذّهن بزيارة أحد. ربّما كان مكانًا يسبّب الإحساس بالوحدة الشّديدة للشخص العاديّ، ولكنْ لا قلق من هذه الناحية لشخصٍ مثلك. ولذا عرضته عليك».

فُتح الباب وجيء بالمقبّلات ووُضِعَت على المائدة. التزمنا الصّمت نحن الاثنيْن أثناء ذلك.

قلتُ بعد أن غادر النادل الغرفة: «وربّما كان لوجود ذلك المرسم عاملٌ كبير. إنّني أشعرُ أنَّ تلك الغرفة تحثُّ الإنسان على أن يرسم لوحةً ما. وأحيانًا، أشعر أنّها مركز ذلك البيت».

«لو أعطينا مثلًا بجسم الإنسان تكون بمثابة القلب؟»

«أو ربّما بمثابة الوعي».

قال أمادا: «هارت أند مايند/قلبٌ وعقل. ولكنْ، لأكون صادقًا، أنا أكره تلك الغرفة جدًّا. فهي تصطبغ برائحة ذلك الشّخص أكثر من اللّازم. تفوح بطيفه حتى الآن. كان أبي أثناء إقامته في ذلك البيت يقضي أغلب اليوم في المرسم؛ يرسم وحيدًا في صمت. وبالنّسبة إلى الأطفال، فالمكان مقدّسٌ، يُمنعُ الاقتراب منه أو اقتحامه منعًا باتًّا. لا تزال تلك الذاكرة متبقّية

داخلي؛ وحتى الآن، إن ذهبتُ إلى ذلك البيت أحرص على عدم الاقتراب من المرسم. أنت أيضًا يجب عليك الحذر».

«الحذر؟! مِمَّ؟»

«من ألَّا تلبسك ما يشبه روح أبي. فلقد كان شخصًا ذا روحٍ طاغية».

«روح؟»

«يُمكن القول إنَّها روح، أو الأجدر أن نصفها بالنَّفس القويَّة. لقد كان إنسانًا قويّ العزيمة. وربَّما صبغت هذه الصِّفة ذلك المكانَ على مدى فترةٍ طويلةٍ من الزمن. مثل حُبَيْبات الرَّوائح».

«وتلبسني؟»

«قد لا يكون التلبُّسُ التَّعبيرَ الأنسب، ولكن يمكننا القول التأثُّر به. التأثُّر بما يُشبه قوَّة المكان».

«تُرى حقًّا؟ فأنا مجرَّد حارسٍ أثناء غياب السَّاكن، ولم أقابل والدك من قبل. ولذا، قد يمرّ الأمر من دون أن أشعر بمثل ذلك العبء».

قال أمادا: «هو ذلك».

ثمّ شربَ من النبيذ الأبيض، وقال: «ربَّما كنتُ حسَّاسًا بدرجةٍ ما لأنَّني ابنه. وإنَّ ذلك الطيف أمرٌ إيجابيٌّ في توجُّهك للرَّسم، فلن يكون لنا اعتراضٌ عليه».

«بالمناسبة، هل والدُك بصحَّةٍ جيِّدة؟»

«أجل، ليس هناك ما يُقلق في صحَّته. ولكنَّه قد تخطَّى التِّسعين من عمره على كلِّ حال، ولا يُمكن القول إنَّه بصحَّة جيِّدة. دماغه في طريقه إلى الفوضى التي لا يُمكن تلافيها، يستطيع بقدرٍ ما السَّيرَ مُتَّكئًا على عصًا، ولديْه شهيَّة للطعام لا بأس بها، وعيناه وأسنانه قويَّة. فلم يصب سنٌّ واحدٌ من أسنانه بتسوُّس. أسنانه أقوى من أسناني أنا».

«هل فقد ذاكرته كلّها؟»

«أجل، لا يتذكّر أيّ شيءٍ تقريبًا. لا يتذكّر وجهي أنا ابنه. لم يَعُد لديْه مفهوم الأبوّة والبنوّة أو الأسرة. ولعلّ الاختلاف بين الذات والآخر قد أصبح غامضًا عنده. ولعلّ ذلك الوضع أريحَ له على غير المتوقّع، لأنّه يجعل ذهنه خاليًا بدون الحاجة للتّفكير».

أومأتُ وأنا أشربِ من الكأس الرّفيعة التي صببت فيها مياه پيريه. تومو هيكو أمادا لا يتذكّر الآن حتى وجه ابنه الوحيد. ويُفترَض أنّ ذاكرة ما حدث له في ڤيننّا اختفت في أبعد آفاق النسيان.

قال أمادا بتأثّرٍ عميق: «ورغم ذلك، ما زال داخله حتى الآن الرّوح القويّة التي ذكرتُها منذ قليل. إنّه أمرٌ غريبٌ نوعًا ما. حتى لو اختفت أغلب ذاكرة الماضي، لا تزال قوّة الإرادة حاضرة. تُدرك ذلك عندما تراه. كان إنسانًا ذا عزيمةٍ قويّة جدًّا. يُؤسفني أنّني لم أرث تلك الصّفة منه، ولكنْ ما باليد حيلة. فلكلّ إنسانٍ قُدُراته التي يولد بها. ولا يرث الإنسان الصّفات نفسَها من مجرّد وراثة الدم».

رفعتُ رأسي ونظرتُ مجدّدًا إلى وجه أمادا مباشرةً. كان من النادر أن ينفّس عن مشاعره بتلك الطريقة.

قلتُ له: «من المؤكّد أنّه أمرٌ صعبٌ للغاية أن يكون والدُك إنسانًا عظيمًا. أنا شخصيًّا لا يُمكنني معرفة ذلك الشعور مُطلقًا. لأنّ أبي مجرّد مدير شركةٍ صغيرة لا تلفت الانتباه».

«عندما يكون والدُك مشهورًا، هناك أمورٌ تستفيد منها طبعًا، وهناك أمورٌ مزعجة. فمن الناحية الكمّيّة، الأمور المُزعجة أكثر عددًا. وأعتقدُ أنّك محظوظٌ جدًّا لعدم معرفتك ذلك الشعور، لأنّك تستطيع أن تكون نفسك بحرّيّةٍ ومن ودون قيود».

«ولكنْ يبدو لي أنّك تعيش حرًّا ومن دون قيود».

قال أمادا وهو يهزّ كأس النبيذ في يده: «حرٌّ بمعنى ما. وبمعنى آخر لست حرًّا».

لدى أمادا حاسّةٌ فنّيّةٌ حادّةٌ للغاية. بعد تخرّجه في الجامعة، توظّف في شركة دعاية وإعلان متوسّطة الحجم، وحاليًّا يحصل على مرتّب مرتفع جدًّا، ويبدو أنّه يستمتع بحرّيّة في حياة المدينة، أعزب بلا أعباء. هذا هو الظاهر. ولكنّي بالتّأكيد لا أعرف الحقيقة كاملةً.

بادرتُ إلى تغيير مجرى الحديث قائلًا: «أريد أن أسألك قليلًا عن والدك».

«تُرى عن أيّ شيء؟ فأنا لا أعرف عن أبي الكثير من الأمور».

«لقد سمعتُ أنَّ والدك كان لديْه شقيقٌ أصغر اسمه تسوغوهيكو».

«أجل. بالتّأكيد كان لدى والدي شقيقٌ أصغر. لكنّه مات منذ زمنٍ بعيد، قبل الحرب بين اليابان وأميركا».

«لقد سمعتُ أنّه انتحر».

خيّمت الغيومُ على وجه أمادا قليلًا، وقال: «أجل. كان ذلك يُعَدُّ من أسرار العائلة، ولكنْ بما أنّها قصّةٌ قديمة جدًّا، عُرِفَت بعض أجزائها. وأعتقد أنّه لا مشكلة من الحديث عنها. لقد انتحر عمّي بقطع شرايين رسغه. في العشرين من عمره تقريبًا».

«ما سبب انتحاره؟»

«لماذا تريد معرفة هذا الأمر؟»

«لأنّي كنتُ أريد معرفة والدك جيّدًا، فعندما بحثتُ حوله، توصّلت إلى معرفة أمر انتحاره».

«تريد معرفة والدي جيّدًا؟»

«عندما رأيت لوحات والدك، بدأتُ البحث عن تاريخه. وتدريجيًا، بدأتُ أهتمُّ به. فأردتُ معرفة تفاصيل عنه وعن شخصيَّته وصفاته».

ظلَّ أمادا ينظر إليَّ عبر مائدة الطعام، ثمَّ قال: «لا مانع من ذلك. قد يكون لاهتمامك بحياة أبي معنى. وربَّما لإقامتك في ذلك البيت علاقةٌ وثيقةٌ بالأمر».

شرب جُرعةً من النبيذ الأبيض، ثمَّ بدأ يتحدَّث: «كان عمِّي تسوغوهيكو أمادا في ذلك الوقت طالبًا في مدرسة طوكيو للموسيقى. ويُقال إنَّه كان عازف بيانو ذا موهبةٍ كبيرة. كان متميِّزًا في عزف أعمال بيتهوفن وديبوسي، وكان ينتظره مستقبلٌ باهر. من الصَّعب عليَّ قول ذلك، ولكن عائلتي يبدو أنَّها وُهبت جينات متميِّزة في الفنون. مع وجود فروقات طبعًا في درجة تلك الموهبة. غير أنَّه استُدعِي إلى الجيش أثناء دراسته الجامعيَّة في سنّ العشرين. ويبدو أنَّ السَّبب كان عدم كفاية أوراق تأجيل التَّجنيد التي قدَّمها عند التحاقه بالجامعة. لو قُدِّمت تلك الأوراق فقط كاملةً، لحصل على التأجيل وعومل بمرونةٍ أكبر. فجدِّي كان من كبار مُلَّاك الأقاليم، وكان لديْه معارف في عالم السِّياسة. ولكنْ على ما يبدو أنَّ خطأً قد حدث في الإجراءات الإداريَّة. فاجأه الأمر بطبيعة الحال. ولم يكن من السَّهل استدراك الأمر. فانتهى بعمِّي المطاف إلى التَّجنيد من دون جدال، والتحق بقوَّات المشاة كجنديّ مشاة. وبعد أن أنهى التَّدريبات الأوَّليَّة في اليابان، أُرسل بالنقل البحريّ ووصل إلى ميناء هانغ زهو في الصين. وقتها، كان أخوه الأكبر توموهيكو - أي أبي - يدرس في ڤيئّا متتلمذًا على يد رسَّامٍ شهير».

كنتُ أستمع لحديثه صامتًا.

«لم يكن عمِّي ذا جسدٍ متين. وكانت أعصابه حسَّاسة. وكان من البديهيّ أنّه لن يستطيع تحمُّل حياة الجيش القاسية ولا المعارك الدَّمويَّة الطاحنة. وكانت الكتيبة السادسة التي تكوَّنت من جنود منطقة كيوشو

الجنوبيّة مشهورةٌ بالعُنف والقسوة. لذا، تألَّم أبي كثيرًا عندما عرف أنّه سيق إلى الجيش فجأةً وأُرسل إلى ساحة القتال. أبي هو الابن الثاني، واشتُهر بقوّة الذّات وكراهية الهزيمة، إلّا أنّ أخاه الأصغر تربّى محبوبًا كأصغر الأبناء، وكانت شخصيّته هادئة تميل للعزلة والانطواء. ثمّ إنّه كان عليه أن يعتني بأصابعه جيّدًا لأنّه عازف بيانو. لذا، اعتاد والدي منذ صغره على حماية أخيه الأصغر منه بثلاث سنوات من مختلف الضغوط. أي أنّه كان له بمثابة الحامي والرّاعي. ولكنّه في تلك المرّة كان في ڤينّا بعيدًا عنه، ولم يكن بإمكانه فعلُ شيء. واقتصر على معرفة أخباره من خلال الرّسائل التي تصله من حينٍ لآخر.

كانت الرّسائل التي تُرسل من ساحة القتال تمرّ برقابةٍ شديدة طبعًا، ولكنْ بما أنّه الشقيق المحبّب، فكان يستطيع معرفة ما يفكّر فيه من خلال تلك الجُمل التي مرّت على الرقابة. استطاع التنبؤ وفهم ما يريد كتابته فعلًا بتلك الكلمات التي تنكّرت بمهارةٍ في ثوبٍ لا يتوقّف عنده الرّقيب. استطاع معرفة أنّ القوات كرّرت عمليّات القتل والسّلب في كلّ مكان مرّوا عليه أثناء التّقدّم، على امتداد الطريق من شانغهاي إلى نانكين بعد معارك عنيفة. وأدرك أنّ الأخ الأصغر ذا الأعصاب الحسّاسة قد جُرح قلبه جراحًا عميقة بسبب خوضه في تلك الدّماء الغزيرة.

كتب لأخيه في رسائله أنّه عثر في كنيسةٍ في مدينة نانكين التي احتلّتها القوّات التي انخرط فيها على أورغن هوائيّ رائع. بقي الأورغن سليمًا من دون أيّ خدش. ولكنّ الوصف المطوّل للأورغن في الرّسالة تمّ تسويده بالحبر الأسود بواسطة الرقيب (لماذا يصبح وصف أورغن في كنيسة مسيحيّة سرًّا عسكريًّا؟ إذا تحدّثنا عن تلك القوّات، فلقد كانت معايير الرقابة المعتمدة في غاية الغرابة والعجب. معلوماتٌ خطيرةٌ يجب إخفاؤها تمرّ مرور الكرام؛ ومعلوماتٌ لا حاجة لإخفائها يدمغونها بالحبر

الأسود الثقيل). ولذا انتهى الأمر من دون أن يعرف توموهيكو إن كان أخوه قد استطاع العزف على ذلك الأورغن في الكنيسة المسيحيَّة أم لا.

«أنهى عمّي تسوغوهيكو تجنيده لمدّة عام في شهر يونيو من عام 1938، وعمل إجراءات العودة للدراسة فورًا، ولكنّه انتحر في بيت العائلة قبل ذلك. شحذ موس الحلاقة، وقطع به شرايين رَسْغه. لا شكَّ أنَّ عازف البيانو يحتاج إلى عزيمةٍ هائلة لكي يقطع رَسْغه بنفسه. لأنّه حتى لو نجا لم يكن ليستطيع العزف على البيانو ثانيةً. عندما عُثر عليه، كانت السَّقيفة عبارةً عن بحرٍ من دماء؛ وأُخفي نبأ انتحاره عن الناس؛ وقيل في العلن إنَّه توفّي بمرض القلب أو شيءٍ من هذا القبيل. لقد جُرح عمّي تسوغوهيكو جراحًا هائلة من تجربة الحرب، ودُمِّرتْ أعصابه تدميرًا كاملًا، وكان ذلك سببَ إنهائه حياته بِيَده. الأمر واضحٌ لكلّ ذي عينَيْن. لقد كان مجرّد فتًى في العشرين من عمره لا يرغب إلّا في عزف البيانو، أُلقِيَ به في معركة نانكين التي غصَّت بالجثث هنا وهناك. ربَّما هذا ما نسمّيه في أيّامنا بالصدمة النَّفسيَّة، لكنَّ المجتمع وقتها كان خاضعًا للعسكرة الصارمة، فلا استخدام لكلمة «صدمة نفسيَّة» ولا وجود لهذا المفهوم أصلًا. يُعامَل الرَّجل المصدوم نفسيًّا على أنّه ضعيف الشَّخصيَّة، عديم العزيمة، ناقص الوطنيَّة. لم يكن هناك تفهُّمٌ وقبولٌ لذلك «الضعف» في اليابان حينذاك. إنَّما عارٌ للعائلة، تدفنه في الظّلام».

«ألم يترك رسالةً أو ما شابه؟»

«بالتَّأكيد. عُثر على رسالةٍ طويلة للغاية في أحد أدراج مكتبه. يبدو أنّها أقرب إلى المذكَّرات منها إلى الرِّسالة. يسطِّر فيها عمّي تسوغوهيكو تجربته أثناء الحرب. قرأ تلك الرِّسالة أربعة أشخاص فقط: والدا عمّي (أي جدّي وجدَّتي) والأخ الأكبر وأبي. وما إن قرأها أبي بعد عودته من ڤيِنَّا، حُرِقَت الرِّسالة في حضور الأربعة جميعًا».

لم أقل شيئًا، كنتُ أنتظر استكمال الحديث.

تابع ماساهيكو: «أغلق أبي فمه عن محتوى تلك الرّسالة. وخُتِم كلّ شيءٍ بختْم الأسرار العائليّة المظلمة - إن وصفنا بالمجاز - أغْرِقَت في قاع البحر بعد رَبْطها بثِقل. ولكنّه روى على مسمعي أغلب تلك الحكاية مرّةً واحدة فقط، عندما كان في حالة سُكر. كنتُ وقتها في المدرسة الابتدائيّة، وعرفتُ للمرّة الأولى أنّه كان لي عمٌّ مات منتحرًا. ولم أفهم ما إذا أخبرني أبي بتلك الحكاية لأنّه كان سكرانًا، أم لأنّه رأى أنّه يجب أن يُخبرني بها في وقتٍ ما».

رُفِعت أطباق السَّلَطة وأُحضرت أطباق السباغيتّي بجراد البحر.

مسك ماساهيكو الشوكة بيده، وأخذ يُحَملق فيها بنظرةٍ جادّة، كأنّه يفحص أداةً صُنِعت من أجل استخدامٍ خاصٍّ جدًّا. ثمّ قال: «ألا ترى أنّ هذه الحكاية لا تتناسب مع تناول الطعام؟»

فقلتُ له: «لنتكلّم في موضوع آخر إذن».

«عمّ نتكلّم؟»

«لنتكلّم على موضوع يبعد عن أمر الرّسالة قدر الإمكان».

تكلّمنا على الغولف ونحن نتناول السباغيتّي. لم يسبق لي ممارسة الغولف من قبل. وليس هناك حولي شخصٌ واحدٌ يمارس هذه اللُّعبة. ولا أعرف قواعدها. لكنّ ماساهيكو كان يُمارس هذه الرّياضة مؤخّرًا بكثرة بسبب العلاقات العامّة لعمله. وكذلك من أجل استعادة لياقته البدنيّة بعد سنواتٍ من عدم ممارسة أيّة رياضة. صرف مبلغًا كبيرًا في شراء الأدوات الضروريّة، وبات يتردّد على ملاعب الغولف في عطلات نهاية الأسبوع.

«لا بدّ أنّك لا تعلم، رياضة الغولف هي لعبةٌ مريبةٌ تمامًا. ليس هناك رياضة بتلك الدّرجة من الغرابة. لا تُشبه مُطلقًا أيّ رياضةٍ غيرها. بل حتى

وصفها بالرّياضة فيه تعنُّتٌ شديد. لكنَّ الأمر العجيب، أنّك عندما تعتاد على تلك الغرابة لا تستطيع أن ترى طريق العودة عنها».

حكى أمادا بإسهاب عن تلك الغرابة التي في لعبة الغولف. وأفصح لي عن العديد من النوادر الغريبة. ولأنَّ ماساهيكو رجلٌ بارعٌ جدًّا في الحديث، تناولتُ الطعام وأنا أستمتع بحديثه. وضحكنا معًا بعد فترة غيابٍ طويلة.

وبعد رفع أطباق السباغيتّي وإحضار القهوة (رفض ماساهيكو القهوة وطلب كأسًا أخرى من النبيذ الأبيض)، أعاد ماساهيكو الحديث إلى موضوعه الأصليّ.

قال بنبرةٍ شبه رسميّة فجأةً: «كنّا نتحدّث عن الرّسالة. بحسب ما حكى لي أبي، سجّل عمّي تسوغوهيكو فيها قصصًا عن إجباره على قطع رؤوس الأسرى. كتب بوضوحٍ وحيويّةٍ شديدة. بالتّأكيد لا يحمل الجنديّ العاديّ سيفًا عسكريًّا. ولم يسبق لعمّي أن مسك سيفًا يابانيًّا بِيَده. فهو عازف بيانو في المحصّلة. قد يستطيع قراءة نوتة موسيقيّة معقّدة، لكنّه لا يَعْلم أيّ شيءٍ عن طريقة استخدام السّيف القاطع لرؤوس البشر. سلّمه قائده سيفًا يابانيًّا في يده، وأمره أن يقطع به رأس أسير. مع أنّه لم يكن بالزيّ العسكريّ، ولا يحمل سلاحًا. وكان متقدّمًا في السنّ، ويقول إنّه ليس جنديًّا. لقد ألقي القبض على عامّة الناس، من هنا وهناك، عشوائيًّا. يقيّدونهم ويقتلونهم. ولو فحصوا أيديهم، وكانت مليئة بالثفن، لأدركوا أنّهم مزارعون. وفي بعض الحالات، كان يُفرج عنهم. أمّا إذا كانت يدا الأسير ناعمَتَيْن، يُعَدُّ جنديًّا نظاميًّا يخلع زيّه العسكريّ ويحاول الهرب بالتّنكّر ضمن المدنيّين، فيُقتل من دون أيّ اعتبار. وكانت طريقة القتل واحدة من اثنَتَيْن: إمّا بطعنه بحربة البندقيّة، أو بقطع رأسه بالسّيف. وإنْ كان بالقرب منهم فرقة بنادق آليّة،

يُوقف الأسرى في صف ويُقتَلون رميًا بالرصاص دفعةً واحدة. ولكنْ إن كان الأسرى جنود مشاة عاديّين كانوا يضنُّون عليهم بالرّصاص (لأنّ إمدادات الذخيرة كانت عادة ما تتأخّر)، فيستخدمون السّيف عندئذٍ. وتُجمع الجثث ويُلقى بها في نهر اليانغتسي. ثمّة أعداد كبيرة من أسماك القرموط في نهر اليانغتسي كانت تلتهم تلك الجثث ولا تترك منها شيئًا. وطبقًا لحكايةٍ لا يُعرَف صحّتها، أنّه بسبب ذلك أصبح سمك القرموط في نهر اليانغتسي وقتها ضخمًا بحجم حصانٍ صغير.

تسلّم عمّي السّيف العسكريّ من قائده، وأُجبر على قطع رأس الأسير. كان قائده ضابطًا شابًا تَخَرّج لتوّه من كلّيّة ضبّاط القوّات البرّيّة. بالطبع، لم يكن عمّي يريد فعل ذلك. ولكنّه إن رفض أمر قائده سيُصبح أمرًا جللًا. ولن يتوقّف ذلك بعقوبة. ففي الجيش الأمبراطوريّ كانت أوامر القائد تعني أوامر جلالة الأمبراطور نفسه. طوّح عمّي السّيف بيدٍ مُرتعشة، لأنّه لم يكن قويًّا من الناحية الجسمانيّة. علاوةً على أنّ السّيف العسكريّ كان رديئًا، من تلك السّيوف التي صُنعت بكثرة في وقتٍ قصير. ولم يكن من السّهل قطع رأس إنسان بتلك السّهولة والسلاسة. ولذا، تطوّر المشهد لكي يُصبح مأساويًا تمامًا، فلم يُنهِ حياته بسرعة وتدفّقت الدّماء بغزارة، وتلوّى الأسير من الألم هنا وهناك».

هزّ ماساهيكو رأسه، وكنتُ أشرب القهوة صامتًا: «بعد ذلك، تقيّأ عمّي. كان بطنه خاويًا، فتقيّأ عصارة المَعدة، ثمّ تقيّأ غازات المعدة. وبهذا أصبح مثار سخرية الجنود حوله. ركله القائد في بطنه بحذائه العسكريّ بكلّ ما أوتي من قوّةٍ واصفًا إيّاه بشخصٍ عديم النّفع. ولم يتعاطف معه أحد. وفي المحصّلة، أُجبر على قطع رؤوس ثلاثة أسرى. أُجبر على ذلك على سبيل التّدريب حتى يعتاد الأمر. كان ذلك يشبه طقوس العبور بالنّسبة إلى جنديّ الجيش. وكان

يُقال إنَّ اجتياز تلك التَّجربة العصيبة ضروريٌّ لكي يُصبح المرء جنديًّا حقيقيًّا على قدر تحمُّل المسؤوليَّة. لكنَّ عمِّي لم يَكن له أن يصبح جنديًّا حقيقيًّا من الأساس، لأنَّه لم يُخلَق ليكون على هذه الشاكلة، إنَّما ليَعزف مقطوعات بيتهوفن وديبوسي بجمال. لم يكن قد وُلد لقطع رقاب الناس».

«وأين ذلك الإنسان الذي خُلق لكي يقطع رقاب الناس؟»

هزَّ ماساهيكو رأسه مجدَّدًا، ثمَّ قال: «ليس لي علم بهذا. ولكنْ، يُفترض أن يكون هناك إنسانٌ يستطيع على الأقلّ أن يعتاد قطع الرقاب. فللإنسان قدرة التَّعوُّد على أمورٍ كثيرة. وبصفةٍ خاصَّة، إن وُضِعَ في ظروفٍ قاسية. بل ربَّما يتعوَّد على ذلك بسهولةٍ شديدة غير متوقَّعة».

«أو إذا أُعطي لذلك الفعل شرعيَّةً ومعنى».

قال ماساهيكو: «بالضَّبط. ويمكن إعطاءُ شرعيَّةٍ ومعنى لأيِّ فعل. وإن صدقتك القول، أنا شخصيًّا لا أثق في نفسي. إن أُلقي بي في تلك المنظومة الدَّمويَّة التي تُسمَّى الجيوش وأُمرت من القائد بأمرٍ ما، ربَّما لستُ بالقوَّة التي تجعلني أرفضه، حتى لو كان عجيبًا وغير إنسانيّ».

حاولتُ أن أفكِّر في حالتي أنا. إن وُضعتُ في الحالة نفسها، تُرى كيف سأتصرَّف؟ وعندها تذكَّرتُ فجأةً تلك المرأة الغريبة التي قضيتُ معها ليلةً في المدينة الساحليَّة بمحافظة مياغي. تلك المرأة الشابَّة التي أعطتْني حزام معطف الحمَّام أثناء ممارسة الجنس، وطلبت منِّي أن أخنُقَها به بكلِّ قوَّتي. على الأرجح أنَّني لن أنسى ملمس ذلك الحزام المصنوع من قماش المناشف ما حييت!

قال ماساهيكو: «لم يستطع عمِّي تسوغوهيكو عصيانَ أمرِ قائده. لم يكن يمتلك تلك الشَّجاعة ولا القدرة لتنفيذها. ولكنَّه فيما بعد، من خلال شحذه لنصل الموس وإنهائه لحياته بيده، استطاع أن يحسم الأمر بطريقته

الخاصّة. وأنا بهذا المعنى، أرى أنّ عمّي لم يكن إنسانًا ضعيفًا مطلقًا. كان إنهاؤه لحياته بيده الطريقةَ الوحيدةَ أمامه لاسترجاع إنسانيّته مجدّدًا».

«ثمّ سبّب موت عمّك تسوغوهيكو صدمةً هائلة لوالدك عندما علم به أثناء دراسته في ڤيِنّا».

قال ماساهيكو: «بما لا حاجة لِذِكره».

«سمعتُ أنّ والدك اشترك في حادثةٍ سياسيّةٍ أثناء دراسته في ڤيِنّا، ورُحّل إلى اليابان قسرًا، تُرى هل لذلك علاقة بانتحار أخيه الأصغر؟»

عقد ماساهيكو ذراعَيْه، وتجهّمت ملامح وجهه، وقال: «لا أعلم لهذه الدّرجة، لأنّ أبي عمومًا لم ينطق بأيّ كلمةٍ تتعلّق بحادثة ڤيِنّا مطلقًا».

«سمعتُ أيضًا أنّ حبيبة والدك كانت عضوًا في حركة المقاومة، وبهذه الصلة تورّط في محاولة اغتيال».

«أجل. بحسب ما سمعتُ أنّ حبيبة والدي كانت فتاةً نمساويّة تدرس في جامعة ڤيِنّا، وأنّهما كانا قد تواعدا بالزواج. ويُقال إنّه بعد اكتشاف خطّة الاغتيال قُبِض على الفتاة، وأُرسلت إلى معتقلات ماوتهاوزن. وعلى الأرجح، فقدت حياتها هناك. قبض الغيستابو على أبي كما هو متوقّع، ورُحّل قسرًا إلى اليابان في بداية عام 1939 بصفته [أجنبيّ غير مرحّب به]. وبالطبع، لم أسمع ذلك من أبي مباشرةً، بل من الأقرباء، لكنّي أعتقد أنّ درجة مصداقيّة تلك القصّة عالية».

«إن كان والدك لم يتكلّم بتلك الحادثة، هل هذا يعني أنّه كان تحت التّهديد إذا أفصح عنها؟»

«أجل. أعتقد أنّ ذلك هو السّبب. يُفترض أنّ أبي عندما رُحّل قسريًا شُدّد عليه من قِبل السّلطات الألمانيّة واليابانيّة ألّا يتحدّث عن تلك الحادثة مطلقًا. كان سكوته شرطًا هامًّا للحفاظ على حياته. ويبدو أنّه لم يكن يريد

التَّحدُّث بذلك الشأن، إذ لم يُفصح عنها حتى بعد انتهاء الحرب وانعدام الإجبار على الصَّمت».

توقَّف ماساهيكو عند هذا الحدّ للحظات، ثمّ أكمل كلامه بعدها قائلًا: «ولكنْ ربّما كان انتحار عمّي تسوغوهيكو أحد الدّوافع التي جعلت أبي يشترك في حركة المقاومة السرّيّة ضدّ النازيّة في فيِنّا. لقد جُنِّبت الحرب مؤقّتًا في مؤتمر ميونيخ، لكنّ برلين وطوكيو زادتا من علاقات التحالف بينهما، واتّجهت أوضاع العالم أكثر وأكثر في الاتّجاه الخطير. ويُفتَرض أنّ أبي كان يفكِّر في ضرورة عرقلة هذا التيّار المتسارع بأيّ شكل. فأبي كان يُعظِّم الحرّيّة أكثر من أيّ شيءٍ آخر، ولا تتوافق الفاشيّة والعسكريتاريا مع طبيعته مطلقًا. أعتقد أنّ موت أخيه الأصغر كان يحمل له معنًى عظيمًا بلا أيّ شكّ».

«ألا تعرف أكثر من ذلك؟»

«أبي لا يتحدَّث عن حياته كثيرًا. ولم يُجرِ لقاءات صحفيّة مع الجرائد والمجلّات، ولم يترك أيّ كتاباتٍ عن نفسه، بل على العكس، كان يسير بظهره مُمسكًا بمكنسةٍ يمسح بها آثار أقدامه جيّدًا».

قلت له: «ثمّ بعد أن عاد والدك من فيِنّا إلى اليابان، حافظ على صمته العميق حتى نهاية الحرب من دون أن يعلن عن أيّ عملٍ فنّيّ».

«أجل. حافظ أبي على صمته لمدّة ثماني سنوات تقريبًا. من عام 1947 وحتى عام 55. حاول خلال تلك الفترة الابتعاد قدر المستطاع عن عالم الرّسم واللّوحات. وكان يكره تلك الأوساط تمامًا، ولا يروق له أنّ الكثير من الرسّامين أيّدوا سياسة الدولة الحربيّة وامتدحوها بكلّ سرور من خلال لوحاتهم. ولحسن الحظّ أنّ أسرته كانت غنيّة، ولم يكن مُضطرًّا للخوف من أعباء المعيشة. وما يمتنُّ له أيضًا أنّه لم يُجنَّد في الجيش أثناء الحرب. ولكنْ على أيّ حال، عند ظهوره في عالم الرّسم واللّوحات، بعد

انتهاء الحرب، كان تومو هيكو أمادا قد تحوَّل تمامًا إلى النيهونغا ـ فنّ الرَّسم الياباني. تخلَّى تمامًا عن أسلوبه القديم، وتعلَّم طريقة رسمٍ جديدةً عليه كلِّيًا».

«ثمّ بعد ذلك أصبح أسطورة».

قال ماساهيكو: «بالضَّبط. أصبح بعد ذلك أسطورة النيهونغا».

وبعد ذلك، رفع يده في الهواء وكأنّه يدفع عنه شيئًا ما. وكأنَّ الأسطورة تطفو في هذه المنطقة مثل غبار القطن، وتعرقل تنفُّسه الطُّبيعيّ.

قلت له: «ولكنْ عند سماع القصّة، يبدو أنَّ فترة دراسة والدك في فيِنّا قد ألقت بظلالٍ كثيفة على حياته فيما بعد. أي أنّه بات محتوى تجربته».

أومأ ماساهيكو موافقًا، وقال: «أجل. بالتّأكيد أنا أيضًا لديَّ الإحساس نفسه. لقد غيَّرت الأحداث التي وقعت له في فيِنّا مستقبله تغييرًا هائلًا. وعلى الأغلب إنَّ فشل محاولة الاغتيال تلك تحتوي على حقائقَ عدَّة مُظلمة. حقائق مهولة لا يمكن التَّحدُّث عنها بنفسه بهذه السهولة».

«لكنّك لا تعرف عن تفاصيلها شيئًا».

«أجل، لا أعرف. لم أعرف عنها شيئًا في الماضي، ولا الآن. بل ربَّما هو نفسه لم يَعُد يذكر منها شيئًا».

فخطر في بالي تساؤل: تُرى أهذا صحيح؟ فالإنسان ينسى أحيانًا ما يُفترَض أنّه يحفظه، ويتذكَّر فجأةً ما يُفترَض أنّه نَسِيَه. وخاصَّةً عندما يواجه الموت الذي يقترب منه حثيثًا.

أنهى ماساهيكو كأس النبيذ الثانية، ثمّ نظر إلى ساعة يده. عقد حاجبَيْه قليلًا، وقال: «يبدو أنّه من الأفضل أن أعود إلى العمل».

سألته بعد أن تذكَّرتُ فجأةً: «ألم تقل إنّك تريد أن تحدِّثني عن أمرٍ ما؟»

طرق على المائدة طرْقةً خفيفة وكأنّه تذكّر فجأةً، وقال: «حقًّا. هناك أمرٌ يجب أن أتحدَّث معك بشأنه. ولكنَّ الحديث عن أبي استهلك الوقت كلَّه. سأحدِّثك عنه في المرَّة القادمة. فهو ليس عاجلًا على أيِّ حال».

نظرتُ مجدَّدًا إلى وجهه قبل أن أنهض من على المقعد، وسألته: «لِمَ تحدَّثتَ معي بتلك الصراحة؟ لدرجة الأسرار العائليّة الحسّاسة».

وضع ماساهيكو يدَيْه الاثنتَيْن منفرجتَيْن على المائدة، وفكَّر قليلًا فيما قلتُ. ثمّ حكَّ شحمة أذنه، وقال: «في الحقيقة، أعتقد أوّلًا أنّني قد أكون قد تعبتُ كثيرًا من الاحتفاظ بمفردي بتلك [الأسرار العائلية]. ربَّما كنتُ أريد البَوْح بها لشخصٍ ما. شخصٍ صارمٍ لا يُفشيها، ويكون أيضًا بمعزل عنها فعليًّا. وبهذا المعنى، تكون أنت المستمع المثاليّ. كما أنّني في الحقيقة، أحمل تجاهك دَيْنًا شخصيًّا، وأردت أن أردَّه لك بشكلٍ أو بآخر».

قلتُ مندهشًا: «دَيْن شخصيّ؟ أيُّ دَيْن هو؟»

ضيَّق ماساهيكو حدَقَتيْ عينَيْه، وقال: «في الواقع، هذا هو الموضوع الذي كنتُ أريد التَّحدُّث به معك. ولكنْ لم يَعُد لدينا وقت. لديَّ موعدٌ بعد قليل. لنتَّفق على اللِّقاء مرَّةً ثانية في مكانٍ ما لنتحدَّث على مهل».

دفع ماساهيكو الحساب قائلًا: «لا تهتمّ. فأنا لا أزال لديَّ بعض البراح»، فامتننته على ذلك.

عدتُ بعدئذٍ إلى أوداوارا بسيَّارتي كارولا واغن. وعندما أوقفت تلك السيَّارة التي يغطِّيها الغبار أمام بيتي، كانت الشمس قد اقتربت بالفعل من طرف الجبل الغربيّ، واتَّجهت أسراب الغربان الكثيرة إلى أوكارها على الجهة المقابلة من الوادي وهي تصيح عاليًا.

- 38 -
لا يستطيع بهذه الحال أن يصبح دُلْفِينًا

حتى صباح الأحد، كنتُ قد كوّنتُ فكرةً تقريبيّة عن كيفيّة رسم بورتريه مارية أكيكاوا مستقبلًا فوق اللّوح الجديد الذي جهّزته لها. لم أكن أعرف تفاصيل اللّوحة التي سأرسمها بعد؛ إنّما كيف سأبدأ الرّسم. في البداية، ما الألوان التي سأضعُها فوق اللّوح، وأيُّ الرِيَش سأستخدم وفي أيّ اتّجاه؟ ثمّ ولدت الفكرة في رأسي من دون تحديد موضعها. وتدريجيًّا، سيكون لها موطئ قدم؛ وشيئًا فشيئًا، يتأكّد وجودها وتستقرّ في داخلي كحقيقة. لقد كنتُ أعشق مراحل تلك العمليّة.

كان صباحًا باردًا. صباحًا يُخبرنا أنّ الشتاء على الأبواب. صنعتُ القهوة، وتناولت فطورًا بسيطًا، ثمّ دخلتُ المرسم وجهّزت الأدوات التي سأحتاجها، ووقفتُ أمام اللّوح الموضوع على الحامل. وكان أمام اللّوح ذاك دفترُ الرّسم الذي رسمتُ عليه مسوّدةً للحُفرة التي في الغابة بقلم الرصاص: المسوّدة التي رسمتُها في ذلك الصّباح منذ عدّة أيّام كما يحلو لي، بلا قصدٍ أو هدف. لقد نسيت أنا نفسي أنّني رسمتُها.

ولكنْ عندما وقفتُ أمام الحامل، وتأمّلتها عَرَضًا، بدأ قلبي ينجذب تدريجيًّا إلى المنظر الموجود فيها. منظر الغرفة الحجريّة الغامضة التي تفتح فمها وسط الغابة من دون أن يدري بها أحد. والأرض المُبتلّة المحيطة بها، وأوراق الشّجر المتساقطة المتراكمة بألوانها المختلفة. وأشعّة الشمس التي

تتسلّل كخيوطٍ من بين أغصان الشّجر. برزت تلك المناظر بألوانٍ زاهية في عقلي الباطن. نهضت قوّة الخيال من مرقدها، وملأت التّفاصيلَ الدّقيقةَ المُحدِّدة للمنظر. استطعتُ أن أستنشق الهواء الذي في ذلك المنظر، وأشمَّ روائحَ الأعشاب وأسمع تغاريد الطيور.

تلك الحفرة التي رُسِمت بدقّةٍ متناهية بالقلم الرصاص في دفتر الرّسم الضّخم، كأنّها تدعوني إلى شيءٍ ما ـ أو مكانٍ ما. لقد شعرتُ أنَّ الحُفرة تطلب منّي أن أرسمها. من النادر جدًّا أن أرغب في رسم المناظر الطبيعيّة. فأنا على مدار السنوات العشر الأخيرة لم أرسم إلّا وجوه الأشخاص. ربّما رسم المناظر الطبيعيّة من حينٍ لآخر ليس بالأمر السّيّئ. قد تصبح تلك المسوّدة لوحةً باسم «حُفرة داخل الغابة البرّيّة».

أنزلت دفتر المسوّدات من فوق الحامل، وأغلقت تلك الصّفحة. وبقي أمامي اللّوح الجديد ناصع البياض. لوح القنّب الذي يُفتَرض أن أرسم عليه لوحة بورتريه لمارية أكيكاوا.

قبل العاشرة بقليل، صعدت سيّارة التويوتا بريوس الزّرقاء المُنحدر كالعادة بهدوئها المعهود. فُتح الباب، ونزلت مارية أكيكاوا وعمّتها شوكو أكيكاوا. كانت شوكو ترتدي معطفَ هرنبورن طويلًا بلونٍ رماديٍّ فاتح، وتنّورة صوف بلونٍ رماديٍّ فاتح أيضًا، وجَوْربًا أسود عليه بعض الرّسومات. وتلفُّ حول رقبتها لفاحًا ميسونيًّا متعدّد الألوان. ملابس أنيقة تنمّ عن ذوقٍ مدنيّ في أواخر فصل الخريف. وكانت مارية ترتدي معطفًا رياضيًّا كبير الحجم وبُرْنُسًا وبنطلون جينز مثقّبًا وحذاءً رياضيًّا كُحليًّا / ماركة كونفيرس. أي ملابس المَرّة السّابقة نفسها تقريبًا. لكنّها لم تكن تَعْتمر قبّعة. كان الهواء باردًا قليلًا، وغيومٌ خفيفةٌ تغطّي السماء.

بعد التَّحيَّة البسيطة، جلست شوكو أكيكاوا على الأريكة، وأخرجت من حقيبتها الكتاب المعتاد، وركَّزت وَعْيَها في قراءته. تركناها أنا وماريةة في غرفة المعيشة، ودخلنا المَرْسم. وكالمعتاد، جلستُ على المقعد الخشبيّ العالي وجلست مارية على كرسيّ المائدة البسيط. كانت المسافة بيننا مِتْرَيْن تقريبًا. خَلَعتِ المعطفَ الرِّياضيّ، ثمّ طوَتْه ووضعَتْه عند قدَمَيْها. وخَلَعت البُرْنُس أيضًا. كانت ترتدي تحت ذلك قميصَيْن: واحدًا رماديًّا بكُمٍّ طويلٍ وآخر كُحليًّا بنصف كمّ. وصدرها كما هو، لم ينهد بعد. مشَّطت بأصابعها شعرها السبطَ الأسودَ الطويل.

سألتُها: «ألا تشعرين بالبرد؟»

هناك مدفأةٌ قديمة في المَرْسم تعمل بالوقود، ولكنّها لم تَكُن مُشتعلة.

هزّت مارية رأسها فقط. بمعنى لا أشعر بالبرد.

قلتُ لها: «سأبدأ من اليوم الرَّسمَ على اللَّوح. ليس عليكِ فعلُ شيء، سوى الجلوس في مكانك. وسأتولّى أنا الباقي».

قالت مارية وهي تُحملق في عينَيّ: «لا يمكن ألّا أفعل شيئًا».

نظرتُ إلى وجهها، واضعًا يديَّ فوق ركبتيَّ.

«ما معنى ذلك؟»

«أجل. فأنا أحيا وأتنفَّس وأفكِّر في أمورٍ عديدة».

قلتُ لها: «بالتَّأكيد. يُمكنك التَّنفُّس كما يحلو لكِ، ويُمكنك التَّفكير كما تشائين. ما أقصده أنّه ما من شيءٍ خاصّ يتوجَّب عليك فعله. إن بقيتِ كما أنتِ سيكون هذا أفضل بالنِّسبة إليّ».

لكنّ مارية ظلّت تُحملِق في عينيّ، كأنّها تقول إنّها غير مُقتنعة بذلك الشرح البسيط.

قالت: «أنا أريد أن أفعل شيئًا ما».

«ماذا، على سبيل المثال؟»

«أريد أن أساعدك في الرّسم يا أستاذ».

«هذا يجعلني أشكركِ جدًّا. ولكنْ كيف تُساعدينني؟»

«مساعدة معنويّة بالطبع».

قلتُ لها: «فهمتُ».

ولكنّي لم أتمكّن من تصوُّر كيف يُمكنها أن تُساعدني معنويًّا.

قالت مارية: «إن أمكن ذلك، أريد أن أدخل في قلبك يا أستاذ. أدخل داخلك وأنت ترسم لوحتي. أريد أن أرى ذاتي من خلال عينَيْك، ربّما إن فعلتُها استطعتُ فهم ذاتي بشكلٍ أعمق. وقد تستطيع أنت أيضًا يا أستاذ أن تفهمني بشكلٍ أعمق».

قلتُ لها: «أعتقد أنّه لو أمكن ذلك سيكون شيئًا رائعًا».

«هل تعتقد ذلك حقًّا؟»

«بالتّأكيد».

«ولكنْ ربّما يكون الأمر في بعض الحالات مخيفًا».

«أن تفهمي ذاتك فهمًا أفضل؟»

أومأت مارية، وقالت: «أخاف أنّه من أجل فهم ذاتي، أضطرُّ إلى جذب شيءٍ آخر من مكانٍ ما».

«شيء آخر! هل تقصدين أنّك لا تستطيعين فهم ذاتك فهمًا صحيحًا بدون إضافة طرفٍ ثالث؟»

«طرف ثالث؟»

شرحتُ لها: «بمعنى أنّه من أجل معرفة العلاقة بين أ و ب معرفةً صحيحة، هناك ضرورة لوجهة نظرٍ أخرى من ج. أي القياس من ثلاث نقاط».

فكّرتْ مارية فيما قلتُ، ثمّ رفعتْ كتفَيْها قائلة: «ربّما».

«وربّما كان ذلك الطرف المُضاف مُخيفًا في بعض الحالات، هل هذا ما تريدين قوله؟»

أومأت مارية موافقة.

«وهل جرَّبتِ ذلك الأمر المُخيف من قبل؟»

لم تجب مارية على هذا السّؤال.

فقلتُ لها: «إن استطعتُ أن أرسمك جيّدًا، قد تستطيعين أن تري بعينَيْكِ ذاتَكِ التي رأيتها أنا بعينيّ، شرط أن تسير الأمور على ما يُرام».

«أمن أجل ذلك نحتاج إلى اللّوحات؟»

«نعم، من أجل ذلك نحتاج إلى اللّوحات.. أو الكلمات، أو الموسيقى. نحن في حاجة إلى مثل تلك الأشياء».

قلتُ لنفسي: إن سارت الأمور على ما يرام.

«لنبدأ رسم اللّوحة» قلتُ لها، ثمّ بدأتُ أصنع لونًا بنّيًا لأرسم الخلفيّة وأنا أنظرُ إلى وجهها. واخترتُ فرشاةً رفيعة.

تقدّم العمل ببطء ولكنْ بلا ركود. رسمتُ النّصف الأعلى لجسم مارية أكيكاوا. كانت فتاةً جميلة، لكنّ لوحاتي لا تحتاج إلى عنصر الجمال خاصّة. ما أحتاجُ إليه شيءٌ مُختبئ في الأعماق. وإن صحّ التّعبير: اصطياد طبيعتها الحقيقيّة. عليّ العثور على ذلك الشيء ووضعُه على سطح اللّوحة. وليس هناك ضرورةٌ لأن يكون جميلًا. في بعض الحالات، قد يكون شيئًا قبيحًا. ومن نافل القول إنّي أحتاج لفهم مارية فهمًا صحيحًا كي أعثر على

ذلك الشيء، وأن أجمع شخصيَّتها في شكلٍ من اندماج الأضواء والظلال في تركيبٍ تشكيليٍّ واحد، لا من خلال المنطق والكلمات.

ركزتُ وعيي وأضفتُ الخطوطَ والألوان فوق اللَّوح. تارةً بسرعةٍ شديدة وتارةً بانتباهٍ وبطءٍ شديدَيْن، مستغرقًا ما يلزمُني من وقت. وأثناء ذلك، كانت مارية جالسة على الكرسيّ من دون أن تغيِّر من تعبيرات وجهها مُطلقًا. لكنّي عرفتُ أنّها تُجمّع قوّة إرادتها في شيءٍ واحد، وتحتفظ بها بثبات. لقد قالت مارية: «لا يُمكن ألّا أفعل شيئًا»، ولذلك فهي تفعل شيئًا ما. ربّما لكي تُساعدني. بلا أيّ جدال، هناك ما يُشبه التواصل المتبادل بيني وبين تلك الفتاة التي في عمر الثالثة عشرة.

تذكّرتُ فجأةً يدَ شقيقتي الصّغيرة. عندما دخلنا معًا أحد كهوف جبل فوجي، ظلّت أختي تُمسك يدي بقوّة وسط الظلام البارد. كانت أصابعها صغيرةً ودافئة، لكنّها أيضًا كانت قويّةً ومتينةً لدرجة تثير الدّهشة. لقد كان بيننا تواصلٌ متبادلٌ ومؤكّدٌ للحياة. كنّا في الوقت نفسه نُعطي شيئًا ما، ونأخذ شيئًا آخر. تواصلٌ متبادلٌ لا يحدث إلّا في وقتٍ محدّدٍ وفي مكانٍ محدّد. وفي النهاية، تخفُّ حدّته ويختفي، لكنّه يبقى في الذاكرة. تستطيع الذاكرة تدفئة الزمن. وبعد ذلك، يغيّر الفنّ ـ في حالة سير الأمور سيرًا جيّدًا ـ شكلَ تلك الذاكرة، ويُمكن التّوقُّف عندها. مثلما جعل ڤان غوخ ساعي البريد الرّيفيّ المجهول يعيش حتى الآن في الذاكرة الجماعيّة.

خلال ساعتَيْن تقريبًا، ركّز كلٌّ منّا في عمله من دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة.

رسمتُ منظرها على اللّوح بلونٍ واحد، بعد أن أذبتُ زيته بدرجةٍ فاتحة. ستكون تلك هي المسوّدة التحتيّة. وما زالت مارية على الكرسيّ تُجاهد في أن تكون ذاتها. وعند الظهيرة، سُمع صوت الجرس المُعتاد يأتي

من بعيد. وعندما سمعتُه عرفتُ أنَّ الوقت قد أُزِفَ، فأنهيتُ العمل. وضعت لوحة الألوان والفرشاة في الأسفل، وتمطَّيتُ بشدَّةٍ على مقعدي. وعندها، انتبهتُ أخيرًا إلى أنَّ الإرهاق وصل بي مداه. وبعد أن تنفَّستُ بعُمق، وتحلَّلتُ من تركيز الذهن، أرختْ مارية عضلاتِ جسدِها المشدودة.

برزت أمام عينيَّ صورةٌ لجذع مارية العلْويّ على اللَّوح مرسومةً بلونٍ واحد. إنَّها البنية التي ستُكوِّن هيكل البورتريه الذي سأرسمُه من الآن فصاعدًا. لا تزيد عن كونها الإطار العامّ للّوحة، ولكنْ في لُبّ ذلك الهيكل، ثمّة ما يُشبه مصدرًا للحرارة يجعلها هي ذاتها. أمّا ذلك الشيء، فما زال مُختبئًا في الأعماق. ما إن أُمسك به، أنتقل إلى الضبط والتَّنسيق. مجرَّد إضافة اللَّحم والدم اللّازميْن إلى ذلك.

لم تسألني مارية عن اللَّوحة حينذاك، ولم تطلب منّي أن تراها. كما لم أُحدِّثها عنها. كنتُ مرهقًا لدرجة عدم القدرة على الكلام. غادرنا المَرْسم ونحن صامتان، وانتقلنا إلى غرفة المعيشة. هناك، حيث شوكو أكيكاوا على الأريكة تقرأ الكتاب بشغف. وضعت دالَّة القراءة فيه وأغلقتْه، ثمَّ نزعت النظّارة ذات الإطار الأسود ورفعت رأسها إلينا. بَدَتْ على وجهها ملامح الدَّهشة. لا شكَّ أنَّ الإرهاق واضحٌ على وجهيْنا.

سألتني وعلى وجهها ملامح القلق: «هل العمل على ما يُرام؟»

«حتى الآن يسير سَيْرًا جيّدًا. لكنّنا ما زلنا في منتصف الطريق».

«هذا جيّد. هلّا سمحتَ لي بدخول المطبخ لإعداد الشاي؟ لقد غليتُ الماء فعلًا. وأعرف أين أجد أوراق الشاي».

نظرتُ إليها مُندهشًا. كان على وجهها ابتسامةٌ راقية.

قلتُ لها: «سأبدو وقحًا قليلًا، ولكنّي سأكون مُمتنًّا لو فعلتِ ذلك».

في الواقع، كنتُ أرغب بشدّةٍ في أن أشرب الشاي السّاخن، وليس لديَّ قُدرةٌ كافية للنهوض من على المقعد والذهاب إلى المطبخ لغلي الماء. كنتُ مرهقًا إلى تلك الدّرجة. لم أتعب من الرّسم هكذا منذ فترة طويلة جدًّا. لكنَّه كان إرهاقًا مُمتعًا بالفعل.

بعد عشر دقائق تقريبًا، عادت شوكو أكيكاوا حاملةً آنيةً عليها التّرمس وثلاثة أكواب. شرب كلٌّ منّا الشاي في هدوء. ولم تَنْبس مارية بكلمة في غرفة المعيشة. ترفع أحيانًا يدها فقط لتزيح خصلة شعرها التي تدلَّت على جبهتها. كانت قد ارتدت المعطفَ الرياضيّ السّميك ثانيةً. وكأنّها تُحاول حمايةَ جسدها من شيءٍ مجهول.

سرحنا في تيّار وقت ظهيرة الأحد الجاري، ونحن نشرب الشاي في هدوء (لم يُصدر أيٌّ منّا صوتًا) في ذلك المكان مُتَّبِعين السّلوك الرّاقي. لم يتكلّم أحدٌ منّا لفترة، وكانت فترة الصّمت تلك طبيعيّة ومنطقيّة تمامًا. وأخيرًا، وصل إلى سمْعي صوتٌ أعرفه جيّدًا. كان في البداية صوتًا يُسمع وكأنّه أشبه بالأمواج التي تقترب من ساحل البحر بكسلٍ وظيفيٍّ بحتٍ من دون أن تكون لديها رغبةٌ في ذلك. يكبُرُ الصّوتُ تدريجيًّا، ويُصبح أخيرًا صوتَ آلةٍ مستمرّ. إنّه صوت محرِّكٍ بسعة 4.2 لتر وثمانية سلندرات، يستهلك الوقود الأحفوريّ عالي الأوكتانيّة الفاخر جدًّا. نهضتُ من المقعد وذهبتُ تجاه النافذة، وراقبتُ ظهور السيّارة الفضّيّة من بين فراغات الستائر.

كان منشكي يرتدي معطفًا من الصوف بلونٍ أخضر فاتح، وتحت المعطف قميصًا رمليّ اللّون، وبنطلونًا من الصُّوف الرّماديّ. جميع ملابسه في غاية النّظافة، من دون أيّ تجعيد، بَدَتْ وكأنّها عادت توًّا من المصبغة. ولكنّها لم تكن جديدة إنّما مُستخدمة من قبل. وكان ذلك سببًا لكي تُبرز نظافتها أكثر. ثمّ الشّعر الوفير الذي يتألّق متلألئًا في بياضٍ ناصعٍ كالعادة. لا

بدً أنَّ شعره يتألّق دائمًا من دون أيّ علاقةٍ بالفصول أو الطقس، سواء كان الوقت صيفًا أو شتاءً، وسواء صَفَتْ السّماء أم غامت. إنّما تختلف طريقة التّألّق قليلًا في كلّ مرّة.

نزل من السيّارة وأغلق بابها، ورفع رأسه ناظرًا إلى السّماء الغائمة، وفكّر قليلًا في أمر الطقس (بدا في نظري أنّه يفكّر في أمرٍ ما)، ثمّ قرّر شيئًا في قلبه، وأتى ماشيًا ببطء تجاه المدخل. ضغط على جرس الباب، مُستغرقًا في ذلك وقتًا كافيًا، كالشاعر الذي يختار كلماتٍ متميّزةً بحَذَرٍ وانتباه، مع أنَّ الجرس كان عاديًا وقديمًا.

فتحتُ الباب وأدخلته إلى غرفة المعيشة. ألقى التّحيّة على المرأتَيْن بابتسامةٍ عريضة. استقبَلته شوكو أكيكاوا بالوقوف. لكنّ مارية ظلّت جالسةً على الأريكة، تلفُّ خُصلةَ شعرها حول إصبعها. لم تنظر إليه. طلبتُ من الجميع الجلوس، وسألتُ منشكي أيريد شايًا، فقال لا تشغل بالك، وهو ينفي برأسه ويده عدّة مرّات.

سألني: «كيف الحال؟ هل العمل يسير على ما يُرام؟»

فأجبته بنعم.

فوجّه السّؤال إلى مارية قائلًا: «ما رأيكِ، ألا ترين أنَّ عمل الموديل شاقّ؟»

بحسب ذاكرتي، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يَنظر فيها منشكي إلى عينيْ مارية مباشرةً. ومن خلال صدى صوته، بدا أنّه متوتّرٌ قليلًا، لكنَّ لونَ وجهه لم يتغيّر يومها لا إلى الأحمر ولا إلى الأزرق. ولم تختلف تعبيرات وجهه أيضًا. أصبح قادرًا على السّيطرة على عواطفه. وعلى الأرجح أنّه تدرّب كثيرًا في سبيل تحقيق ذلك.

لم تجب مارية على السّؤال. لكنّها تفوّهت بما يُشبه الهمهمة. كانت أصابع يدَيْها مُشبكة بحزمٍ فوق ركبتها.

قالت شوكو أكيكاوا لكي تملأ الصّمت: «ولكنّها دائمًا تأتي إلى هنا صباح كلّ أحد بشوْقٍ ولهفة».

حاولتُ التعاون معها في ملء الصّمت من دون أن أصل إلى قدرتها نفسها على ذلك، فقلتُ: «إنّ العمل موديلًا مُرهقٌ كثيرًا. وأعتقد أنّ مارية تبذل كلّ جُهدها في ذلك».

قال منشكي ضاحكًا: «لقد قمتُ بدور الموديل هنا لفترة، عملٌ مُريبٌ وغريب. كنتُ أحيانًا أحسُّ أنّ روحي تكاد تُسلَب منّي».

قالت مارية وكأنّها تهمس تقريبًا: «ليس صحيحًا».

نظرتُ أنا ومنشكي وشوكو أكيكاوا إلى وجه مارية في آنٍ واحد.

بدت شوكو كمَنْ تلقّف شيئًا لم يكن يتوقّعه. فيما بَرَزَ وجه منشكي بفضولٍ خالص. أمّا أنا، فكنتُ مُشاهدًا مُحايدًا تمامًا.

سأل منشكي: «ماذا تقصدين؟»

قالت بنبرة صوتٍ خاملة ورتيبة: «لا يؤخذ منّي شيء. إنّني أعطي شيئًا بنفسي وآخذ شيئًا مكانه».

انبهر منشكي وقال بصوتٍ هادئ: «بالضّبط كما تقولين. يبدو أنّ قولي كان مبسّطًا تبسيطًا مُخلًّا. بالتّأكيد يجب أن يَحدث تبادل. أخذٌ وعطاء. لأنّ الفعل الفنّيّ ليس فعلًا في اتّجاه واحد على الإطلاق».

ظلّت مارية صامتة. كانت تتأمّل ترمس الشاي فوق الطاولة، وكأنّها طائر بلشون في اللّيل وحيدًا يقف على ساحل البحر لساعاتٍ طويلة، لا يتحرّك قَيْد أنملة بل يُحَمْلق في سطح الماء. تُرمس الشاي مصنوعٌ من

خزفٍ أبيض، بلا أيّ زينة، وهناك مثله في كلّ مكان. قديمٌ للغاية (كان تومويكو أمادا يَستخدمه) صُنع من أجل الاستخدام اليوميّ، فليس فيه ما يُميّزه ويرغّب في التّحديق إليه بلا انقطاع. بل إنّ طَرَفه كُسِر قليلًا. لكنّ مارية كانت في حاجةٍ إلى التّركيز في شيءٍ ما.

تنزّل الصّمت على المكان. صمتٌ يُذكّر بلوحة إعلاناتٍ بيضاء تمامًا لم يُكتبْ فيها شيء.

فكّرتُ في كلمة «فعل فنّيّ». وكأنّ في تلك الكلمة صدًى استدعى الصّمت المُحيط. وكأنّ الهواء يملأ وسطًا مخلخلًا من الهواء. بل إنّ الوسط المُخلخل يملأ الهواء.

في وسط ذلك الصّمت، بدأ منشكي حديثه مُتردّدًا ومُتوجّهًا إلى شوكو: «هل تُمانعين من ركوب سيّارتي؟ سأعود بكُما بعد ذلك إلى هنا مرّة أخرى. المقعد الخلفيّ ضيّق نسبيًّا، لكنّ الطُّرقات حتى بيتي مُنعرجةٌ جدًّا، فأعتقد أنّه من الأسهل الذّهابُ بسيّارةٍ واحدة».

ردّت شوكو بلا أيّ تردُّد: «بالتّأكيد، لا مانع. يُسعدنا الذّهاب بسيّارتك يا سيّد منشكي».

كانت مارية لا تزال تُحملق في تُرمس الشاي الأبيض، تفكّر في شيءٍ ما بتصميم. ولم أعرف ما الذي يجول في ذهنها! ولم أعرف ما خطّتهم لوجبة الغداء! لكنّ منشكي متّقِدُ الذّهن لا تفوته فائتة. ومن المؤكّد أنّه أعدّ العِدّة لمواجهة هذا الأمر، حتى قبل أن أقلق بشأنه.

جلست شوكو أكيكاوا على المقعد الأماميّ المُجاور للسّائق، ومارية على المقعد الخلفيّ. الكبار في الأمام والأطفال في الخلف. لم يَحدث ترتيبٌ أو مشاورةٌ بينهم، إنّما وُزّعت المقاعد تلقائيًّا. وقفتُ أمام مدخل الباب أُودّع تلك السيّارة وهي تختفي عن الأنظار هابطةً المنحدرَ

بهدوء. ثمّ دخلتُ إلى البيت، وحملتُ الأكواب وتُرمس الشاي إلى المطبخ وغسَلتها.

بعد ذلك، وضعتُ أسطوانة «فارس الورود» على الدوّارة، واستلقيتُ على الأريكة أستمع إلى تلك الموسيقى. كان من عادتي أن أستمع إلى أسطوانة «فارس الورود» عندما لا يكون لديّ ما أفعله. وقد زَرَع منشكي فيّ تلك العادة. فعلى حدّ قوله، من المؤكّد أنّ في تلك الموسيقى نوعًا من أنواع الإدمان. أحاسيس مستمرّة بلا انقطاع أو توقُّف. صدى الآلات الموسيقيّة المُبهر حتى النهاية. وكان ريتشارد شتراوس هو من قال متفاخرًا: «يُمكنني التّعبير بالموسيقى حتى عن المكنسة». ربّما لم يَقُل مكنسة، لكنّ موسيقاه تحمل في ثناياها عناصر تعبير بألوانٍ فاقعة، على الرّغم من وجود اختلاف في التّوجُّه بينه وبين اللّوحات التي أهدف إلى الوصول إليها.

عندما فتحتُ عينيّ بعد فترة، كان الكومنداتور أمامي، بملابس عصر أسُكا المعتادة، ويُدلّي السّيف من خصره، ويجلس على المقعد المواجه لي، بقامته التي تبلغ ستّين سنتيمترًا تقريبًا. بهدوء. على ذلك المقعد المريح.

قلتُ له: «لم نتقابل منذ زمن. هل أنت بخير؟»

كان صوتي يبدو كأنّه يُسحَب غصبًا من مكانٍ آخر.

فقال الكومنداتور بصوتٍ واضح: «سبق وأخبرتُك أنّ الفكرة ليس لديْها مفهوم الزمن. وبالتالي، لا أشعر أنّنا لم نلتقِ منذ زمن».

«إنّها كلمة تُقال على سبيل العادة. لا تشغل بالك بها».

«أنا لا أفهم العادة كذلك».

هذا صحيح. لا تولد عادةٌ في مكانٍ ليس فيه زمان. نهضتُ من مكاني وذهبت حتى المشغل، فرفعتُ الإبرة وأرجعت الأسطوانة إلى صندوقها.

قرأ الكومنداتور أفكاري، فقال: «بالضّبط. في العالم الذي يسير فيه الزمن بحرّيّة في كلا الاتّجاهيْن، لا يُولَد ما يُسمّى عادات».

سألتُه عن أمرٍ يُشغلني منذ فترة: «هل تحتاج الفكرة إلى مصدرٍ للطاقة؟»

فقال بوجهٍ بدا على درجةٍ كبيرة من التّعقيد: «هذا صعبٌ. أيُّ شيء مهما كان، يحتاج إلى طاقةٍ ما لكي يُولَد ويستمرّ في الوجود. هذه إحدى قواعد الكون العامّة».

«أهذا يعني أنّ الفكرة لا تستطيع الاستغناء عن مصدرٍ للطاقة، تبعًا لتلك القاعدة العامّة؟»

«بالضّبط. ليس هناك استثناءات لقواعد الكون. وبالتالي، أفضليّة الفكرة أنّها لا تَمْلك شكلًا في الأصل. تصبح الفكرة فكرةً لأوّل مرّة عندما يتعرّف عليها الآخر. وحينذاك تأخذ الشّكل المُناسب لها. وبالطبع، لا يزيد ذلك الشّكل عن كونه مُجرّد وسيلة نفعيّة».

«بمعنى أنّه لا وجود لفكرةٍ لا يُعترَف بها من الآخر».

رفع الكومنداتور سبّابة يده اليُمنى عاليًا وأغمض إحدى عينَيْه، وقال: «أيُّ قياسٍ تريد القيام به من خلال هذا الحديث؟»

فكّرتُ بقياسٍ ما. استغرق ذلك وقتًا، لكنّ الكومنداتور احتمل وانتظر بصبر.

فقلتُ: «ما أفكّرُ فيه أنّ الفكرة تتّخذُ من اعتراف الآخر بها مصدرًا للطاقة».

قال وهو يومئ برأسه مرّاتٍ عدّة: «بالضّبط. أنت فَطِنٌ جدًّا. فلا وجود للفكرة بدون اعتراف الآخر بها، وفي الوقت نفسه، تتّخذ من اعتراف الآخر بها مصدرًا لوجودها».

«إذن، لو فكّرتُ أنا أنّه لا وجود للكومنداتور، لن يكون لك وجود».

«هذا صحيح نظريًا. لكنّه كلامٌ نظريّ. لا يحدث فعليًا في الواقع. لأنّ المرء عندما يفكّر في أمرٍ ما، من المستحيل أن يتوقّف عن التّفكير فيه حتى لو أراد التّوقّف. لأنّ التّفكير في عدم التّفكير فيه هو نوع من أنواع التّفكير؛ وطالما كانت لدَيْه تلك الفكرة، فهذا يعني أنّه يفكّر فيها. ومن أجل التّوقّف عن التّفكير فيها، يجب التّوقّف عن التّفكير في التّوقّف نفسه».

«بمعنى أنّ الإنسان لا يستطيع الهروب من الفكرة ما لم يُصب بفقدان ذاكرةٍ لسببٍ ما، أو يفقد الاهتمام بالفكرة فقدانًا تلقائيًا».

قال قائد كتيبة الفرسان: «الدُلْفين يستطيع ذلك».

«الدُلْفين؟»

«هل تعرف أنّ الدُلْفين يستطيع جعل جزأيْ المُخّ الأيمن والأيسر ينامان في أوقاتٍ مختلفة؟»

«لا، لم أكن أعرف».

«ولهذا ليس لدى الدُلْفين أيّ اهتمام بالفكرة. ولهذا توقّف الدُلْفين عن التّطوّر عند نقطةٍ معيّنة. لقد بذلنا ما نستطيع من جهد، ولكنّنا للأسف لم نستطع إقامة علاقةٍ مُفيدة مع الدُلْفين. مع أنّه كان فصيلةً واعدة جدًّا. فقبل ظهور البشر فعليًا على الأرض، كان الدُلْفينُ ذو الحجم الأكبر للمخّ بين الثديّيات».

«ولكنْ، هل استطعتم إقامة علاقة مُفيدة مع البشر؟»

«البشر يختلفون عن الدُلْفين بأنّهم لا يَملكون إلّا مخًّا متّصلًا بعضه ببعض. فعندما تتولّد فكرةٌ ما مرّةً، لا يستطيعون التّخلّص منها بعد ذلك.

وهكذا، استطاعت الأفكار الحصول على طاقةٍ من البشر، واستطاعت الحفاظ على استمرارها في الوجود».

قلتُ له: «مثل الطفيليّات».

هزّ الكومنداتور إصبعه يُمنَةً ويُسْرةً، وقال بنبرةِ معلّمٍ يزجر تلميذه: «تلك الكلمة وقْعُها سيّئ على الأسماع. فحتى لو قلنا إنّنا نحصل على الطاقة، فنحن لا نحصل على كمّيّةٍ كبيرة بتلك الدّرجة، بل مجرّد قدْرٍ ضئيلٍ جدًّا ـ قدرٍ لا ينتبه إليه الإنسان العاديّ تقريبًا. ولا يسبّب ذلك أيَّ مشاكل صحّيّةٍ للإنسان أو عوائق في حياته اليوميّة».

«ولكنّك قلتَ إنّ الأفكار ليس لدَيْها ما يشبه القانون الأخلاقيّ. فالأفكار في نهاية الأمر هي مفهومٌ محايد، وإنّ الإنسان هو الذي يجعلها خيّرةً أو يجعلها شرّيرة. فإن كان الأمر كذلك، فالإنسان ربّما يجعل الأفكار خيّرة، وأحيانًا يجعلها شرّيرة. أليس صحيحًا؟»

«مفهوم معادلة: ($E=mc^2$) هو مفهوم محايد في الأصل، ورغم ذلك، تولّد عنه صناعةُ القنبلة الذرّيّة كمحصّلةٍ نهائيّة. ثمّ أُلقيت القنبلة الذرّيّة على هيروشيما وناغاساكي. هل هذا ما تريدون قوله؟»

أومأتُ موافقًا.

«إنّ قلبي يتقطّع من الألم على هذا (إنّها كلمةٌ تُقال، فنحن الأفكار ليس لدينا جسدٌ، وبالتالي ليس لدينا قلبٌ). ولكنْ اعلموا أنّ كلّ ما في هذا الكون هو caveat emptor».

«ها؟»

«caveat emptor كافيت إمبتور، تعني باللّاتينيّة [مسؤوليّة المشتري] ليس من شأن البائع أن يتدخّل في الطريقة التي يستخدم بها المشتري ما اشتراه. مثلًا، هل تستطيع الملابس التي في المحلّات أن تختار من يرتديها؟»

«يبدو لي هذا الكلام مجرَّد حجَجٍ واهية تستخدمُها كما يناسبك».

«لا تنكر أنَّ مفهوم ($E=mc^2$) كما تسبَّب في صناعة القنبلة الذرِّيَّة، تسبَّب من ناحيةٍ أخرى في صناعة العديد من الأشياء الجيِّدة».

«مثل ماذا؟»

فكَّر قائد كتيبة الفرسان قليلًا، ويبدو أنَّه لم يستطع إيجاد مثالٍ مناسب على الفور، فظلَّ يفرك وجهه براحةِ كفَّيْه وهو صامت. أو قد يكون قد اكتشف أنَّ مواصلة هذا النقاش ليس لها معنى.

تذكَّرت فجأةً أمر الجرس، فسألته: «بالمناسبة، هل تعرف مصير الجرس الذي كان في المَرْسم؟»

رفع رأسه متسائلًا: «جرس؟ ماذا يعني الجرس؟»

«الجَرَسُ العتيق الذي كنتَ تدقُّه باستمرار وأنت في قاع الحُفرة. لقد وضعتُه على الرَّفّ في المَرْسم، ولكنَّني انتبهتُ منذ مدَّةٍ أنَّه اختفى».

هزَّ رأسه نافيًا بحزم: «آه، أتقصد ذلك الجرس؟ لا أعرف. لم ألمسه في الفترة الماضية».

«تُرى من الذي أخذه؟»

«ليس لديَّ علم».

«لقد أخذ شخصٌ ما الجرس ودقَّه من مكانٍ مجهول».

«حقًّا! هذه ليست مشكلتي. فلم يَعُدْ ذلك الجرس مهمًّا بالنِّسبة إليَّ. وفي الأصل، لم أكن أنا مالكه الحقيقيّ. بل كان يُشاركني المكان. وبأيِّ حال، فإن كان قد اختفى، لا بدَّ أنَّ هناك سببًا منطقيًّا لهذا الاختفاء. وقد يظهر بعد قليل في مكانٍ ما. من الأفضل الانتظار».

قلتُ له: «شيءٌ تشترك معه في المكان؟ هل تعني تلك الحُفرة؟»

لم يجب الكومنداتور على سؤالي. لكنَّه قال: «بالمناسبة، يبدو أنَّكم تنتظرون عودة شوكو ومارية، لكنَّ الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا. على الأرجح لن يعودا أثناء النهار».

حاولتُ أن أسأله أخيرًا: «هل لدى السَّيِّد منشكي حساباتٌ معيَّنة؟»

«أجل، لدى السَّيِّد منشكي حساباتٌ دائمًا. يضع خطَّةً مُحكمة بشكلٍ مؤكَّد، ولا يتحرَّك من دون حسابات. ويبدو أنَّ ذلك مَرَضٌ وُلد به. أن يعيش وهو يستخدم نصفيْ مخِّه الأيمن والأيسر بكامل طاقتهما دائمًا. فلا يستطيع بهذه الحال أن يصبح دُلْفينًا».

فقد الكومنداتور ظلال جسمه تدريجيًّا، واختفى في النهاية مُبعثَرًا مثل بخار الصباح في ذروة شتاءٍ لا رياح فيه. وبقي أمامي الكرسيُّ المُريح القديم فارغًا. كان ذلك الفراغ عميقًا لدرجةٍ كبيرة، لم أتيقَّن ما إذا كان الكومنداتور جالسًا أمامي منذ قليلٍ أم لا. ربَّما كنت أواجه الفراغ فقط. ربَّما كنت أتحدَّثُ مع صوتي أنا. ومثلما تنبَّأ الكومنداتور، لم تظهر سيَّارة منشكي الجاغوار. يبدو أنَّ المرأتَيْن الجميلتَيْن من عائلة أكيكاوا تقضيان وقتاً طويلًا في بيت منشكي. خرجتُ إلى الشُّرفة، وتأمَّلت ذلك البيتَ الفخمَ الواقع على الجهة المقابلة من الوادي. ولكنْ لم أرَ أثرًا لأحد. وأثناء الانتظار، ذهبتُ إلى المطبخ وبدأتُ في إعداد الطعام. سلقتُ الخضروات وصنعت حساءً، وجمّدتُ ما يُمكن تجميده منها. فعلتُ كلّ ما طرأ على ذهني، ورغم ذلك ما زال لديَّ وقتٌ كثير. رجعتُ إلى غرفة المعيشة واستلقيتُ على الأريكة، أقرأ في كتاب، وأستمع إلى بقيَّة أسطوانة «فارس الورود» لريتشارد شتراوس.

يبدو أنَّ شوكو أكيكاوا تحسّ بالاهتمام تجاه منشكي. على الأرجح أنَّه أمرٌ مُؤكَّد. يختلف بريق عينَيْها وهي تنظر إليه عنها وهي تنظر إليَّ. فقد

كان منشكي بمنتهى الحياد، رجلًا جذّابًا في منتصف العمر. كان وسيمًا وثريًّا وأعزب. حسن الملبس، راقي السُّلوك، ويسكن في بيتٍ فخمٍ فوق قمّة جبل، ويمتلك أربع سيّارات إنجليزيّة الصُّنع. لا جدال أنَّ ذلك يجعل الكثير من النساء يُبْدَيْن اهتمامًا تجاهه (بالنِّسبة نفسها التي لا يُبْدَيْن فيها تجاهي أيّ اهتمام). ولكنَّ مارية أكيكاوا تحمل شعورًا بالحذر تجاه منشكي بدون أيّ شكّ. للفتاة حساسيّة حادّة جدًّا. وربّما تكون قد لاحظتْ عفويًّا أنّ منشكي يتحرّك وفي قلبه هدفٌ مجهول. لذا، تعمد إلى وضع مسافةٍ معيّنة بينها وبين منشكي. أو هذا ما ظهر لي على الأقلّ.

تُرى كيف ستتطوّر الأحداث في المستقبل القريب؟ يتصارع داخلي شعورٌ بالفضول بالرّغبة في معرفة ذلك ورؤيته، وخوفٌ غامضٌ من أنَّ النتيجة المُتولّدة لن تكون سعيدةً مُطلقًا، مثل اصطدام النهر عند المصبّ وتلاطمه مع مدّ البحر.

عندما عاد منشكي صاعدًا المُنحدر بسيّارته الجاغوار، كانت عقارب الساعة قد تخطّت الخامسة والنّصف بقليل. وكما توقّع الكومنداتور، كانت المنطقة وقتها قد غرقت في ظلامٍ تامّ.

- 39 -
الوعاء المتنكّر الذي صُنع من أجل هدفٍ محدّد

توقّفت الجاغوار ببطءٍ أمام بيتي، وفُتح الباب ونزل منشكي أوّلًا؛ ثمّ لفّ للجهة الأخرى، وفتح الباب لشوكو أكيكاوا؛ ثمّ طوى المقعد الأماميّ المُجاور لمقعد السّائق، فنزلت مارية أكيكاوا من المقعد الخلفيّ. نزلت المرأتان من سيّارة الجاغوار، وركبتا سيّارتهما البريوس الزرقاء. أنزلت شوكو أكيكاوا زجاج النافذة وألقت تحيّةً حارّة لمنشكي (بالطبع كانت مارية تَنْظر للجهة الأخرى وتتظاهر بالتجاهل التامّ). ثمّ عادت كلتاهما إلى بيتهما مباشرةً من دون المرور على بيتي. وقف منشكي يودّع سيّارة البريوس حتى اختفت عن الأنظار، ثمّ توقّف قليلًا، (ربّما) لتغيير زرّ الوعي، وإعادة تنظيم تعابير وجهه، وسار متوجّهًا إلى مدخل البيت.

سألني عند الباب بخجل:

«لقد تأخّر الوقت قليلًا، ولكنْ هل تسمح لي بالدخول لبعض الوقت؟»

فقلتُ له وأنا أُدخله البيت:

«بالتّأكيد. تفضّل بالدُّخول. فأنا لا أفعل شيئًا الآن».

جلسنا في غرفة المعيشة: منشكي على الأريكة وأنا على المقعد المقابل، الذي جلس عليه الكومنداتور حتى دقائق مَضَتْ. كان يبدو وكأنّ صدى صوته الحادّ ما زال متبقّيًا حول المقعد.

قال لي منشكي: «أشكركَ على كلّ ما فعلتَه لي اليوم. لقد أسديتَ لي خدماتٍ كثيرة».

أجبته أنّني لا أعتقد أنّني فعلتُ ما أُشكَر عليه. وفي الواقع، لم أفعل شيئًا.

فقال: «ولكنْ لولا اللّوحة التي ترسمها... أو بالأحرى لولا وجودك أنت لترسم هذه اللّوحة، لما تسنّت لي الفرصة أبدًا للاقتراب من مارية. أن أعرفها شخصيًا، وأن أنظر إلى وجهها. لقد كان دورك في هذه المرّة يشبه محور المروحة بالضبط. مع أنّك قد تكون غير راضٍ عمّا فعلت».

قلت له: «مطلقًا، لست غير راضٍ، بل يُسعدني أنّني ساعدتك. سوى أنّني لا أستطيع أن أقيس أيّ الأمور كانت طبيعيّة وأيّها كان مخطّطًا لها مسبقًا. ولكي أكون صادقًا معك، تولّد لديّ إحساسٌ لا يوحي بالرّاحة».

فكّر منشكي في كلامي، ثمّ أومأ موافقًا وقال: «ربّما لن تصدّقني إن قلتُ لك إنّني لم أخطّط لكي تتمّ الأمور بهذا الشّكل. لن أقول إنّ كلّ شيء حدث تلقائيًا من دون تدخّلٍ منّي، ولكنْ أغلب ما حَدَثَ كان عفويًا ووليد لحظته من دون تخطيطٍ سابق».

سألته: «هل تقصد أنّني قمتُ بدور العنصر المحفّز فيما يحدث عفويًا؟»

«عنصرٌ محفّز! حقًّا، يُمكننا قول ذلك».

«ولكنْ للأمانة، أشعر أنّني [حصان طروادة] أكثر من عنصر محفّز».

رفع منشكي وجهه، ونظر إليّ وكأنّه يرى شيئًا مشعًّا، وقال: «ماذا يعني ذلك؟»

«الحصان الخشبيّ الشّهير في الأساطير اليونانيّة الذي حُمِلَ إلى داخل قلعة العدوّ متنكّرًا في هديّة وهو يُخفي جماعةً من الجنود المدجّجين بالسّلاح في بطنه المُفرّغ. ذلك الوعاء المُتنكّر الذي صُنع لغرض محدّد».

أخذ منشكي وقتًا ليختار كلماته بعناية، ثمَّ قال: «أتعني أنّني استخدمتك بمهارة بعد أن جعلتك تبدو بمظهر حصان طروادة؟ من أجل أن أقترب من مارية أكيكاوا؟»

«ربَّما يسبِّب لك ذلك استياءً، ولكنَّ هذا الشُّعور هو الذي يُراودني حقًّا».

ضيَّق منشكي حَدَقتيْ عينَيْه، وعَلَتْ الابتسامة وجهه.

«حقًّا! ربَّما لا مناص لك من هذا الشعور. ولكنْ كما أخبرتُك منذ قليل: كان الأمر تراكمًا لمجموعة من الصُّدَف العارضة المتوالية. وإن تحدَّثتُ بصراحةٍ شديدة، فأنا أشعر تجاهك بودٍّ كبير. وهذا الأمر لا يَحدُث لي كثيرًا، ولكنْ إن حدث فأنا أتعامل معه باهتمامٍ شديدٍ قدرَ الإمكان. فلا أستغلّك من جانبي لمصلحتي الخاصَّة من دون أيِّ اعتبار لك. أنا في أحد جوانبي إنسانٌ شديد الأنانيّة، ولكنّني قادرٌ على تمييز ذلك الحدّ الأدنى من أدب السُّلوك. فلا يُمكن أن أجعل منك حصان طروادة. أرجو منك أن تصدِّقني في ذلك».

شعرتُ أنَّ ما قاله ليس به كذب. فسألته: «حسنًا، هل أريتَهما اللَّوحة؟ لوحة البورتريه المعلَّقة على جدار المكتب؟»

«أجل بالتَّأكيد. فلقد زارا بيتي خصِّيصًا من أجل ذلك. لقد رأتا البورتريه وانبهرتا جدًّا. ورغم ذلك، لم تَقُل مارية أيَّ شيءٍ ينمُّ عن انطباعها. إنَّها قليلة الكلام عمومًا. لكنّي لا أشكُّ أنَّ اللَّوحة جذبت قلبها بشدَّة. ولقد عرفتُ ذلك عندما نظرتُ إلى تعبيرات وجهها: وقفتْ أمام اللَّوحة مُنبهرةً لوقتٍ طويل. ولم تتحرّك من أمامها لفترةٍ طويلةٍ وهي صامتة».

وفي الحقيقة، أنا نفسي لم أَعُد أذكر حينها أيَّ لوحة رسمتُ، مع أنّني انتهيت من رسمها منذ أسابيع قليلة. هذا يحدث دائمًا: عندما أنتهي من

لوحةٍ وأبدأ في رسم لوحةٍ جديدة، أنسى اللُّوحة السّابقة تمامًا. لا أذكر منها إلّا منظرًا ضبابيًا غير واضح المعالم. ولكنْ، يتبقّى إحساسي عندما كنتُ أرسم تلك اللّوحة كذاكرةٍ جسديّة فقط. وإنّ هذا الإحساس لأهمُّ عندي من اللّوحةِ ذاتها.

قلتُ لمنشكي: «لقد قضت مارية وشوكو وقتًا طويلًا في بيتك».

أمال رأسه في خجل، وقال: «بعد أن شاهدا اللّوحة، قدّمتُ لهما وجبة خفيفة، ثمّ أخذتهما في جولةٍ داخل البيت. ما يُشبه الرّحلة السياحيّة للمنازل. كان يبدو أنّ لشوكو فضولًا تجاه البيت. فمرّ الوقت من دون أن ننتبه».

«بالتّأكيد، انبهرتا ببيتك، أليس كذلك؟»

«شوكو تحديدًا. لاسيّما بسيّارة جاغوار من طراز E. لكنّ مارية ظلّت صامتة طوال الوقت كعادتها. وربّما لم نهتمّ كثيرًا بالبيت، أو لم يكن لدَيْها فضولٌ تجاه البيت من الأصل».

من المُحتمل أنّها هكذا ـ فكّرت ـ لا همّ لها بالبيت من الأساس.

سألته: «هل كانت هناك فرصةٌ للحديث مع مارية؟»

هزّ رأسه قليلًا، وقال: «كلّا، لم نتبادل إلّا كلمتَيْن أو ثلاث. ولم يكن للكلام أهمّيّة. لأنّها لا تجيب في المُطلق على أيّ حديثٍ أوجّهه إليها».

لم أُبدِ رأيي إزاء ذلك، لأنّني استطعتُ أن أتخيّل المشهدَ بوضوحٍ تامّ، ولم يَكُن لديّ انطباعٌ أقوله بصفةٍ خاصّة. فمهما كان منشكي سيكلّمها، لن تتفاعل معه. سوى أنّها تُغمغم بكلمةٍ أو كلمتَيْن بلا معنى وكأنّها تَهمس. وعندما لا يكون لديْها رغبةٌ في الحديث إلى الطّرف الآخر، يُصبح الحوار

معها وكأنّك تنثر المياه حواليك بملعقةٍ صغيرة في منتصف صحراءٍ ملتهبةٍ ممتدَّة.

مسك منشكي زينةً مصنوعةً من خزفٍ لامع على شكل حلزون كانت موضوعةً فوق الطاولة، وتأمّلها بالتّفصيل من زوايا مختلفة. كانت تلك إحدى الزّينات القليلة في هذا البيت. قطعة قديمة ماركة مايسن، على الأرجح. وحجمها يعادل حجمَ بيضةٍ صغيرة تقريبًا. ربّما اشتراها توموهيكو أمادا من مكانٍ ما قديمًا. أعادها منشكي فوق الطاولة بحرصٍ شديد. ثمّ رفع وجهه ببطء ونظر إليّ أنا الجالس قدّامه.

قال وكأنّه يتحدّث إلى نفسه: «ربّما يستغرق الأمر وقتًا حتى نعتاد. فنحن لم نتقابل إلّا منذ مدّةٍ قصيرة. ويبدو أنّها طفلةٌ قليلةُ الكلام بطبعها، في الثالثة عشرة من عمرها، وعلى أعتاب البلوغ، وهي مرحلةٌ حسّاسة بشكلٍ عام. ولكنّ وجودي معها في غرفةٍ واحدة واستنشاقي للهواء نفسه يمثّل بالنّسبة إليّ وقتًا ثمينًا لا يُعوّض».

«وعلى هذا، ألَم تختلف الآن مشاعرك السّابقة؟»

ضيّق منشكي حَدَقَة عَيْنه، وقال: «أيُّ مشاعر تَقْصد؟»

«أنّك تتعمّد عدم معرفة إن كنتَ والد مارية أكيكاوا حقًّا أم لا؟»

أجاب من دون أيّ تردُّد: «أجل. لم تتغيّر تلك المشاعر قَيْدَ أنملة».

وسكت لفترةٍ وهو يعضُّ على شفته قليلًا، ثمّ قال: «كيف أعبّر عن ذلك؟ تجتاحني مشاعرُ وأحاسيسُ غريبةً جدًّا عندما أكون معها، ورؤية وجهها ومظهرها بقربي. أشعر أنّني ربّما أضعتُ كلّ الشهور والأعوام الطويلة التي عِشْتها حتى الآن سُدى. وأصبحتُ لا أفهم معنًى واحدًا لوجودي وسبب حياتي هنا بهذا الشّكل. وكأنّ القِيَم التي كنتُ أعدُّها قِيَمًا مؤكّدة حتى الآن أصبحت غير مؤكّدة فجأةً».

سألته من أجل التأكُّد من كلامه، وخاصّة أنّني شخصيًا لا أعتقد أنّ مشاعره تلك [مشاعر وأحاسيس غريبة]: «هل تلك المشاعر والأحاسيس غريبة فعلًا بالنّسبة إليك يا سيّد منشكي؟»

«أجل. لأنّني لم يسبق لي الشعور بها».

«هل معنى ذلك أنّ تلك [المشاعر والأحاسيس الغريبة] نشأت داخلك من خلال قضائك عدّة ساعات مع مارية أكيكاوا؟»

«أعتقد ذلك. وقد أبدو لك أحمق».

هززتُ رأسي نافيًا، وقلتُ: «لا أعتقد أنّك أحمق. أعتقد أنّني أنا أيضًا أحسستُ بمشاعر مشابهة عندما وقعتُ في حبّ فتاةٍ معيّنة في فترة مراهقتي».

ابتسم منشكي مكوّنًا تجاعيدَ صغيرةً على حوافّ فمه. كانت ابتسامةً مريرةً بدرجةٍ ما. ثمّ قال لي:

«هل تعلم ما الذي شعرتُ به عند لحظةٍ معيّنة؟ شعرتُ: أنّي مهما أنجزتُ في هذه الدُّنيا، ومهما كوّنتُ ثروةً وحقّقت نجاحًا، فأنا لا أزيد في النهاية عن وجودٍ عابرٍ مساعدٍ فقط من أجل وراثة مجموعةٍ واحدة من الجينات من شخصٍ ما وتسليمها إلى شخصٍ ما. وإن تغاضيْنا عن تلك الوظيفة العمليّة فلن يزيد وجودي عن مجرّد كتلة طين».

قلت بصوتٍ عالٍ: «كتلة طين!»

كانت تلك الكلمة تحتوي على صدًى غريبٍ نوعًا ما.

قال منشكي: «في الواقع، عندما نزلت إلى قاع الحُفرة منذ أيّام، وُلدتْ داخلي تلك الفكرة، وألقتْ بجذورها. تلك الحُفرة الموجودة خلف مجسّم المعبد والتي كشفنا عنها غطاءها من الأحجار. هل تذكر هذا الأمر؟»

«أذكره جيّدًا».

«أثناء الساعة التي قضيتُها في الظلام الحالك، علمتُ تمامًا حتى النخاع ضعفي وقلّة حيلتي. لو كانت لديك الرّغبةُ فقط لاستطعتَ أن تتركني في قاع تلك الحُفرة وحيدًا، بلا ماءٍ أو طعام، فأعود كما أنا لأصبح كتلةَ طينٍ بعد أن يذبُلَ جسدي ويُنهك. أنا بشريًّا لا أزيد عن ذلك الوجود».

التزمتُ الصَمت، لأنّني لم أعرف ماذا أقول. فقال منشكي: «أنا حاليًا أكتفي بمجرّد احتمال أنَّ مارية أكيكاوا، ربّما تكون ابنتي من دمي. ولا أريد أن أتعمّد توضيح الحقيقة. إنّني أعيد تأمُّل ذاتي في ضوء ذلك الاحتمال».

قلتُ له: «لقد فهمتُ ذلك. لا أستطيع فهمَ منطق الأمر بتفاصيله الدَّقيقة، ولكنني فهمتُ أنّك تفكّر هكذا. حسنًا يا سيّد منشكي، ما الذي تطلبه من مارية أكيكاوا على وجه التّحديد؟»

«لقد فكّرت في هذا بطبيعة الحال» نظر إلى يدَيْه؛ يدَيْه الجميلتَيْن بأصابعهما الرّفيعة والطويلة. «إنّني إنسانٌ يُكثر التّفكير في الأمور داخل عقلي. لا أستطيع الكفّ عن التّفكير. ولكنْ، لا يُمكن معرفة كيف سيسير منطق الأمور في الواقع إلّا بعد مرور الوقت. كلُّ شيءٍ مآله في المستقبل».

التزمتُ الصَمت. لم أتمكّن من معرفة ما الذي يجول في رأس منشكي، ولم تكن لديَّ رغبة في معرفته من الأصل. فقد يزداد موقفي صعوبةً إن عرفتُ ذلك!

ظلَّ منشكي صامتًا لفترةٍ من الوقت، ثمّ سألني: «ولكنْ، يبدو أنَّ مارية أكيكاوا، عندما تكونا بمفردكما، تتكلّم بإيجابيّةٍ كبيرة. لقد أخبرتني شوكو بذلك».

أجبت بحذرٍ شديد: «قد يكون كذلك. عندما نكون معًا في المَرْسم، نتحدّث بأريحيّة عن أمورٍ متنوّعة».

لم أقل له بالطبع إنّ مارية جاءت لزيارتي فجأةً في اللّيل من طريق الممرّ السّرّيّ في الجبل المجاور للجبل الذي أسكنه. فهذا سرٌّ بيني وبين مارية.

«هل تقصد أنّها اعتادت عليك؟ أم أنّها تحمل تجاهك ألفةً بصفةٍ شخصيّة؟»

شرحتُ له الأمر قائلًا: «لهذه الفتاة اهتمامٌ شديدٌ جدًّا برسم اللّوحات أو التّعبير من خلال اللّوحات الفنّيّة. ما يعني أنّ الرّغبة في الكلام تُراودها دائمًا، تقريبًا، إذا كان الحديث يخصّ اللّوحات. بالتّأكيد، هي طفلةٌ غريبة الأطوار قليلًا. لا تتحدّث مُطلقًا مع زملائها في فصول الرّسم».

«هل تقصد أنّ علاقتها بالأطفال من عمرها لا تسير على ما يُرام؟»

«هذا احتمالٌ وارد. بناءً على ما قالَته عمّتها، ليس لمارية أصدقاء حتى في المدرسة».

صمت منشكي لفترة، وفكّر ثمّ قال: «ولكنْ، يبدو لي أنّها تفتح قلبها لعمّتها شوكو إلى حدٍّ ما».

«بدا لي ذلك أيضًا. طبقًا لما سمعت، فهي تألف عمّتها أكثر من والدها».

أومأ موافقًا في صمت. وأحسستُ أنّ صمته هذا يحتوي على شيءٍ ما. فسألته: «ماذا عن والدها، أيُّ الرجال هو؟ لديك فكرةٌ عنه، أليس كذلك؟»

أدار وجهه عَرَضًا، وظلّ يضيّق حَدَقتيْ عينَيْه، ثمّ قال: «إنّه يكبرها بخمسة عشر عامًا. أقصد زوجته التي ماتت». زوجته التي ماتت هي حبيبة منشكي السّابقة بطبيعة الحال. «لا أعلم الظروف التي تعارف فيها الاثنان ثمّ

قرّرا الزواج. بل لا أهتمّ بمعرفة ذلك. وأيًا كانت الظروف، لا شكّ أنّه وَضَعَها موضع الاهتمام الشّديد. ثمّ سبّب موتُها المفاجئ صدمةً كبيرةً له. ويُقال إنّه تغيّر تمامًا بعد موتها»

وفقًا لرواية منشكي، كانت عائلة أكيكاوا هي أكبر مالك للأراضي في تلك المنطقة سابقًا (مثلما كانت عائلة تومو هيكو أمادا أيضًا). ومع أنّ مساحة الأراضي التي كانت العائلة تَملكها انخفضت لما يقرب النّصف، من خلال الإصلاح الزراعيّ الذي حدث بعد الحرب العالميّة الثانية، ظلّت تتمسّك بثروةٍ كبيرة. واستطاعت الأسرة العيش في رفاهية من خلال عائد تلك الأملاك فقط. كان يوشينوبو أكيكاوا (اسم والد مارية أكيكاوا) الأخ الأكبر لعائلةٍ لديْها طفلان ذكر وأنثى فقط، وهو الذي ورث والده الذي مات مبكرًا، وأصبح كبير العائلة. يسكن في البيت الذي بناه فوق قمّة جبلٍ يملكه، ويمتلك مكتبًا في إحدى البنايات المملوكة له في مدينة أوداوارا. ويدير ذلك المكتب منشآت تجاريّة وشققًا سكنيّة عدّة وفيلات وأراضيَ، كلّها للإيجار في مدينة أوداوارا وضواحيها. وغالبًا ما كان يتعامل ببيع العقارات وشرائها، ولم يكن يتوسّع في أعماله كثيرًا، وكانت وكالته تعتمد بشكلٍ أساسيٍّ على إدارة العقارات والأراضي التي تمتلكها عائلة أكيكاوا.

تزوّج يوشينوبو أكيكاوا متأخّرًا، في منتصف الأربعينيّات من عمره، وولدت له طفلة في العام التالي مباشرةً (أيْ مارية أكيكاوا. الفتاة التي يعتقد منشكي أنّه قد يكون هو والدُها الحقيقيّ). وبعد ستّ سنوات، توفّيت زوجته بعد أن لَسَعها سربُ الدّبابير، عندما كانت تتنزّه في بداية الرّبيع وحدها في غابات أشجار البرقوق الواسعة التي تحيط ببيتهم. لَسَعَتْها دبابيرُ ضخمةٌ شرسة. وسبّبت تلك الحادثة صدمةً شديدةً ليوشينوبو أكيكاوا. وكم رَغِبَ في مسح هذه الذكرى التّعيسة من ذاكرته! بعد انتهاء مراسم الجنازة، طلب

من إحدى الشركات أن تقتلع كلّ أشجار غابة البرقوق من جذورها من دون ترك شجرةٍ واحدة. وجعل الغابة مجرَّد أرضٍ فضاء لا معنى لها ولا روح. ولقد تألّم العديد من الجيران لذلك المآل لأنّها كانت غابةَ برقوق عظيمةً وفي أقصى درجات الجمال. وكانت كذلك تُنتج كمّيّةً كبيرة من ثِمار البرقوق، المناسب لصنع مخلّلات البرقوق وخمر البرقوق. وكان مسموحًا للجيران منذ زمن بعيد أن يقطفوا تلك الثمار بحرّيّة إلى حدٍّ ما. ونتيجة لذلك العمل الانتقاميّ الهمجيّ، حُرِم أغلبُ هؤلاء من تلك المتعة البسيطة التي اعتادوا عليها كلَّ عام. ولكنّهم في نهاية المطاف، تفهّموا أنّ غابة البرقوق تقع في جبلٍ يمتلكه يوشينوبو أكيكاوا ـ وتفهّموا غضَبَه الشّخصيّ تجاه الغابة وأوكار الدَّبابير ـ لذا لم تصدر منهم أيّةُ شكوى علنيّة تجاه ذلك.

وأصبح يوشينوبو أكيكاوا شخصًا كئيبًا جدًّا بعد موت زوجته. لم يكن إنسانًا مَرِحًا واجتماعيًّا في الأصل، إنّما ازدادت شخصيّته الانطوائيّة حدّة. ومع الوقت، بدأ اهتمامه بالعالم الرُّوحانيّ يتعمّق، وأصبحت له علاقة بإحدى الجماعات الدِّينيّة (لا أذكر أنّني سمعتُ اسمها من قبل). وذهب إلى الهند لفترةٍ من الوقت. ثمّ أنشأ قاعةَ مراسمَ كبيرة لتلك الجماعة في ضواحي المدينة مُستخدِمًا فيها ماله الخاصّ، وأصبح دائم التّردُّد والإقامة فيها. ولا يُعرَف جيّدًا ما الذي يُجرى داخل تلك القاعة. ولكنْ يبدو أنّ يوشينوبو أكيكاوا بعد وفاة زوجته، عثر على هدفٍ لحياته في تراكم «تمارين روحيّة» دينيّة قاسية.

وبفضل ذلك، أصبح لا يندمج كثيرًا في عمله مثلما كان في الماضي، ولكنْ شركته في الأصل ليست على هذه الدَّرجة من الانشغال. كان يُمكن للموظّفين الثلاثة الذين يعملون فيها منذ فترةٍ طويلة تسييرُ أعمالها بجدارةٍ من دون الحاجة لوجود رئيس الشركة شخصيًّا. أصبح لا يعود إلى البيت إلّا

نادرًا. وإن عاد فلكيْ ينام فقط، ولا يُعرف السَّبب؛ ولكنْ بعد وفاة زوجته، ضعف اهتمامه بابنته بسرعةٍ متوالية. ربَّما لأنَّها تُذَكِّره بزوجته الراحلة، أو لأنَّه لم يكن شديد الاهتمام بالأطفال. وفي كِلتا الحالتَيْن، من الطبيعيّ جدًّا ألَّا ترتبط الابنة بوالدها عاطفيًا. فتولَّت شقيقته الصُّغرى شوكو أكيكاوا مؤقَّتًا مسؤوليَّة رعاية مارية، الطفلة اليتيمة.

أخذت شوكو في البداية إجازةً من عملها كسكرتيرة لعميد كلِّيَّة الطبّ في طوكيو، وانتقلت للعيش معهما مؤقَّتًا في بيتهما فوق الجبل في مدينة أوداوارا، ثمَّ تركت عملها رسميًّا واستقرَّت في الإقامة معهما. وعلى الأرجح أنَّها شعرت بتعاطُفٍ مع مارية، أو ربَّما لأنَّها لم تستطع أن تتجاهل وضع ابنة أخيها.

بعد أن تحدَّث منشكي إلى هذا الحدّ، لَمَسَ شفَتَيْه بباطن أصبعه وقال: «هل لديْك ويسكي؟»

فقلت له: «ثمَّة نصف زجاجة تقريبًا من نوع سينغل مولت».

«سأبدو وقحًا، ولكنْ هل لي بكأسٍ منه على طريقة أون ذا روك؟»

«بالتَّأكيد لا مانع، ولكنَّك يا سيِّد منشكي أتيت إلى هنا وأنت تقود السيَّارة و...»

«سأطلب سيَّارة أُجرة. لأنَّني لا أريد أن أفقد رخصة القيادة بسبب القيادة تحت تأثير الخمر».

حملتُ من المطبخ زجاجة الويسكي وكأسَيْن ووعاءً خزفيًّا وضعتُ فيه ثلجًا. وأثناء ذلك، وضع منشكي أسطوانة «فارس الورود» التي كنتُ أستمع إليها منذ قليل على الدوَّارة. ثمَّ تناولنا الويسكي ونحن نستمع إلى موسيقى ريتشارد شتراوس كاملة النضوج.

سألني منشكي: «هل تحبّ نوع سينغل مولت؟»

«لا، إنّه هديّة. أحضره لي صديقٌ حين جاء لزيارتي هنا. ولكنْ لا بأس بطَعْمِه».

«لديّ في بيتي نوعٌ نادرٌ من سينغل مولت صُنع في جزيرة أيلاي، أرسله لي صديقٌ يُقيم في إسكوتلندا. من البرميل نفسه الذي كسر أمير ويلز غطاءه بالمطرقة شخصيًّا عندما كان في زيارةٍ لمصنع إنتاج الخمور هذا. سأحضرها معي المرّة القادمة إن أردت».

قلتُ له إنّي لا أريد أن يكلّف نفسه عناء ذلك.

قال: «بالمناسبة، جزيرة أيلاي تقع بالقرب من جزيرة صغيرة تُسمّى جزيرة جورا، هل تعرفها؟»

«لا، لا أعرفها».

«إنّها جزيرة، عددُ سكّانها قليلٌ جدًّا، وليس فيها شيءٌ تقريبًا. عددُ الغزلان فيها أكبر بكثير من عدد السّكان. وفيها عددٌ كبيرٌ من الأرانب وطيور الحجل وحيوان الفقمة. وفيها مصنع خمورٍ عتيق أيضًا. وتنبع بجوارِ المصنع عينُ مياهٍ طبيعيّة طيّبة المذاق، تُناسب صناعة الويسكي. وإن شربت سينغل مولت المصنّع في جزيرة جورا، مخفّفًا بمياه نبع جورا، ستشعر بمذاقٍ رائع. مذاقٍ لا يستطيع المرء تجريبه إلّا في تلك الجزيرة».

قلتُ له إنّه من الشرح يبدو لذيذًا.

«تشتهر تلك الجزيرة كذلك بأنّ جورج أورويل كتب فيها روايته [1984]. لقد انعزل أورويل لكي يكتب تلك الرّواية في بيتٍ صغير بالإيجار، يقع في الطّرف الشمالي لتلك الجزيرة المنعزل حرفيًا عن البشر، وبسبب ذلك، أصابه المرض أثناء الشتاء. لقد كان بيتًا بدائيًا ليس فيه أجهزة حديثة.

لكنّه ربّما كان يحتاج إلى تلك البيئة الإسبرطيّة القاسية تحديدًا. لقد سبق لي أن قضيتُ أسبوعًا في تلك الجزيرة. كنتُ أشرب كلَّ ليلة من الويسكي اللّذيذ وأنا جالس بجوار المدفأة».

«ولِمَ قضيتَ أسبوعًا كاملًا في مكانٍ ناءٍ إلى تلك الدَّرجة؟»

قال منشكي بإيجاز: «من أجل العمل»، ثمّ ابتسم.

لم يكن لديْه نيّةٌ لشرح تفاصيل ذلك العمل على ما يبدو. ومن جهتي أيضًا، لم يكن لديَّ رغبةٌ في معرفة الأمر.

قال: «اليوم، لسببٍ لا أعرفه، لديَّ شعورٌ بعدم القدرة على الامتناع عن الشرب. ربّما لأنَّ مشاعري لا تجد سبيلها للهدوء. ولهذا طلبتُ منك هذا الطلب الأنانيّ رغمًا عنّي. سآتي غدًا لآخذ السيّارة. هل تمانع في ذلك؟»

«بالتّأكيد، لا مانع لديَّ مُطلقًا».

استمرَّ الصّمت بعد ذلك لفترة. ثمّ سألني: «هل تُمانع أن أسألك سؤالًا شخصيًّا؟ وأرجو ألّا يسبّب لك استياء».

«لو كنتُ أستطيع الإجابة عليه سأجيب، ولن أستاء منه».

«لقد كنتَ متزوّجًا على ما أذكر، أليس كذلك؟»

أومأتُ موافقًا، وقلت: «كنتُ متزوّجًا. ولقول الصّدق، لقد ختمتُ على أوراق الطلاق منذ أيّامٍ قليلة، وأعدتُ إرسالها إلى الطرف الآخر. لذا، لا أعرف تمام العلم ما وضعي الرّسميّ حاليًّا. ولكنْ، على أيّ حال كنتُ متزوّجًا في الماضي. لمدّة ستّ سنوات تقريبًا».

«والأطفال؟»

قلتُ: «ليس لديَّ أطفال».

«ألم تفكّر في إنجاب أطفال؟»

«فكّرتُ، لكنّ زوجتي لم تكن تفضّل حينها. فكنّا نؤجّل الأمر مرّةً بعد مرّة. وبعد ذلك، لم تمضِ حياتنا الزّوجيّة نفسها على ما يُرام».

كان منشكي يفكّر في أمرٍ ما وهو ينظر إلى الثلج داخل كأسه، ثمّ سألني: «إنّه سؤالٌ مُحرج، ولكنْ هل أنت نادمٌ على مآل الأمر إلى الطلاق بذلك الشّكل؟»

أخذتُ رشفةً من الويسكي، ثمّ سألته: «ماذا كانت الكلمة اللّاتينيّة التي تعني [مسؤوليّة المشتري]؟»

أجاب منشكي دون أيّ تردُّد: «caveat emptor»

«ما زلتُ عاجزًا عن حفظها تمامًا، ولكنّني أفهم مدلول هذه الكلمة».

ضحك منشكي.

أكملتُ كلامي: «بالطبع، هناك أشياء في الحياة الزّوجيّة أندم عليها. ولكنْ إن رجع بي الزمن لنقطةٍ محدّدة في الماضي واستطعتُ إصلاح خطأٍ ما، أعتقد أنّ النتيجة ستكون نفسها على الأرجح، ألا ترى ذلك؟»

«هل تقصد أنّك كنت تُقاوم التّغيير، وأنّ هذا كان عَقَبةً في سبيل الحياة الزوجيّة؟»

«أو ربّما العكس، ربّما لم أكن أقاوم التّغيير، وهذا ما زرع عَقَبةً في سبيل الحياة الزوجيّة».

«ولكنّك لديْك الرّغبة في رسم اللّوحات. ويُفتَرض أنّ تلك الرّغبة ترتبط عندك بقوّةٍ بالرّغبة في الحياة نفسها».

«ولكنّي ربّما لا أقدر على تخطّي العقبات التي يجب تخطّيها من قبل. هذا هو انطباعي».

قال منشكي: «إنَّ المحنة تأتي دائمًا. المحنةُ فرصةٌ جيّدة لصنع تحوُّلٍ في مسار الحياة. وكلَّما كانت المحنةُ قاسيةً كانت مُفيدةً لك».

«إن لم أنهزم وينكسر فؤادي».

ابتسم منشكي. ولم يشر بعد ذلك إلى أمر الطلاق أو الأطفال.

أحضرت من المطبخ زيتونًا مُعلَّبًا، لكي نتناوله مع الشراب. وبقينا صامتيْن نحتسي الويسكي ونأكل الزيتون المملَّح. وعندما انتهى وجه الأسطوانة، قلبها منشكي على وجهها الآخر. واستمرَّت قيادة جورج سولتي لأوركسترا ڤيينّا الفيلهارمونيّة.

أجل، لدى السّيّد منشكي دائمًا حساباتٌ ما. يضع خطَّة مُحكَمة بشكلٍ مؤكَّد. ولا يتحرَّك من دون حسابات!

لا أعرف ما الخطَّة التي يضعها منشكي الآن أو التي يفكِّر فيها. ولعلَّه لم يكن قادرًا على وضع خطَّةٍ لكلّ تلك المسألة بعد أن وصلت إلى ذلك الحدّ! لقد قال إنَّه ليس لديْه نيَّةٌ لاستغلالي. أرجِّح أنَّه لم يكن يكذب في ذلك. لكنَّها تبقى نيَّة. لقد حقَّق هذا الرجل نجاحاتٍ كبيرةً في عالم الأعمال، في أكثر المجالات تقدُّمًا، معتمدًا على ذكائه ومهارته. ولو كان لديْه غَرَضٌ ما (وإن كان مستترًا مثلًا)، فمن المُحال أن أتجنَّب الوقوع فيه.

قال منشكي بلا مقدِّمات: «أنت في السادسة والثلاثين من عمرك، أليس كذلك؟»

«بلى».

«إنَّه على الأرجح أروع عمرٍ في الحياة على الإطلاق».

لم أكن أعتقد ذلك مُطلقًا، ولكنَّني تعمَّدتُ عدم إبداء رأيي.

«لقد أصبحتُ في الرَّابعة والخمسين من عمري. لقد تخطَّيتُ العمرَ الذي يعمل فيه الإنسان كالنَّحلة، ومن جهةٍ أخرى، لا يزال السنّ مبكّرًا كي أصبح أسطورةً في مجال عملي. لذا تراني هكذا أتسكّع من دون فعلِ شيء».

«هناك مَن أصبح أسطورةً وهو لا يزال شابًّا».

«بالتَّأكيد، لكنَّ عددهم قليل. ليس هناك أيُّ ميزةٍ من أن تصبح أسطورةً في عمرٍ صغير. أو من وجهة نظري، ربَّما كان ذلك كابوسًا. فإن أصبحتَ أسطورةً، عليك أن تسير على خُطَى الأسطورة لآخر يومٍ في عمرك، وليس هناك ما هو أكثر إملالًا من أمرٍ كهذا».

«ألا تشعر بالملل يا سيّد منشكي؟»

ابتسم وقال: «في حدود ما أذكر، لم أشعر بالملل ولو مرّة واحدةً في حياتي. بل لم يكن لديَّ وقتٌ لأشعر بالملل».

هززتُ رأسي منبهرًا. فسألني منشكي: «ماذا عنك أنت؟ هل سبق أن شعرت بالملل؟»

«بالتَّأكيد. أشعر به دائمًا. أصبح الملل الآن جزءًا من حياتي، ولا يمكنني الاستغناء عنه».

«هل يعني ذلك أنَّ الملل بالنِّسبة إليك لا يعني المعاناة؟»

«يبدو أنَّني تعوّدتُ على الملل. لا أشعر معه بالمعاناة».

«لا بدَّ أنَّ سبب ذلك إرادتك القويَّة التي لا تتزعزع في رسم اللَّوحات. أصبحتْ هي نخاع حياتك، فيما أصبح المللُ ما يُمكن تسميته حاضنةً لرغبة الإبداع. فإذا انعدم النخاع لا يُمكننا تحمُّل الملل يومًا أبدًا».

«ولكنَّك يا سيِّد منشكي لا تعمل حاليًّا، أليس كذلك؟»

«بلى، إنّني متقاعدٌ بشكلٍ أساسيّ. وكما ذكرتُ لك من قبل، أقوم بالتجارة قليلًا في العملات والأسهم، فقط من خلال الإنترنت، ولكنْ ليس بدافع الحاجة، بل على سبيل اللّعب لتمرين الدّماغ».

«وتعيش في ذلك البيت الواسع وحدك».

«بالضبط».

«ومع ذلك، لا تشعر بالملل».

هزَّ منشكي رأسه، وقال: «لديَّ الكثير ممّا أفكّر فيه. كُتُبٌ يجب قراءتها، موسيقى يجب الاستماع إليها. بيانات يجب جمعها وتحليلها. كي أمرّن دماغي، كما قلت لك. ثمّ أقوم أيضًا بالتّمرينات الرّياضيّة، وأتدرّب على عزف البيانو للتّرويح عن النّفس. وبالتّأكيد، عليّ القيام بأعمال البيت. ليس لديّ وقتٌ للملل».

«ألا تخاف من الشيخوخة؟ أن يكبر بك العمر وأنت وحيدٌ منعزل؟»

«لقد كبر بي العمر بشكلٍ مؤكّد. وسوف يضعف جسمي مستقبلًا، وبالطبع ستزداد وحدتي وعُزلتي أكثر وأكثر. لكنّي لم يسبق لي أن جرّبت العمر المتقدّم؛ أتوقّع ما سيكون عليه الوضع، لكنّي لم أخض التّجربة في الواقع. فأنا في الأساس لا أؤمن إلّا بما تراه عيناي على أرض الواقع. ولذا أنتظر أن أرى ماذا سيحدث لي مستقبلًا. لا أخافه بصورةٍ خاصّة. لا أتوقّع منه خيرًا، ولكنْ لديّ بعض الفضول تجاهه».

هزَّ منشكي كأس الويسكي في يده ببطءٍ ونظر إلى وجهي، وقال: «ماذا عنك أنت؟ هل تخاف من الشيخوخة؟»

«لقد فشلت في النهاية بعد ستّ سنوات من الحياة الزوجيّة. وأثناء ذلك، لم أنجح في رسم لوحةٍ واحدة من إبداعي. إن فكّرنا تفكيرًا مُعتادًا،

وجدنا أنَّ تلك السّنوات كلَّها كانت هباءً. لأنّني كان يجب أن أرسم عددًا كبيرًا من اللَّوحات التي لا تتوافق مع ما أريد رسمه لمجرَّد الحصول على قوت اليوم. ولكنّي في النهاية بتُّ أرى العكس: ربّما كانت النتيجة أنَّ ذلك الجزء هو الأسعد في حياتي».

«أستوعب ما تريد قوله. أحيانًا، يكون التُّخلّي عن الذات له معنى عظيمٌ في إحدى فترات الحياة. أهذا ما تعنيه؟»

ربّما. ولكنْ في حالتي، ربّما استغرقتُ وقتًا طويلًا لكي أعثر عمّا بداخلي. وربّما أكون قد ورَّطتُ يوزو معي في تلك الطريق الضائعة التي بلا جدوى.

جرّبتُ أن أوجّه السّؤال إلى نفسي: «هل تخاف من الشيخوخة؟»

تُرى هل أنا أرتعب من أن يمرّ بي العمر؟

«لأكون صادقًا، لا أشعر فعليًا بهذا الإحساس. ويبدو من الحمق أن يقول هذا الكلام رجلٌ بدأ النصف الثاني من ثلاثينيّات عمره. لكنّي أشعر أنّني بدأتُ رحلة الحياة الآن».

ابتسم منشكي وقال: «لستَ أحمق إطلاقًا. قد تكون رحلتك قد بدأت للتوّ فعلًا».

«لقد ذكرتَ يا سيّد منشكي موضوع الجينات الوراثيّة منذ قليل. أي أنّك مجرَّد وعاء ورث مجموعةً من الجينات الوراثيّة، وأرسلها إلى الجيل التالي. ثمّ إنْ وضعنا تلك الوظيفة جانبًا، فأنت مجرَّد كتلة طين. لقد قلتَ شيئًا بهذا المعنى، أليس كذلك؟»

أومأ منشكي، وقال: «بلى، لقد قلتُ ذلك».

«ولكنْ ألا تشعر بالخوف من أن تكون مجرَّد كُتلة طين؟»

ضحك منشكي وهو يقول: «إنّني كتلة طين، ولكنّه ليس طينًا رديئًا. سيبدو غرورًا، لكنّي أقول إنّه طين ممتاز. له قُدُراتٌ خاصّة على الأقلّ. قُدُراتٌ محدَّدة بالتّأكيد، ولكنْ لا خلاف على أنّها قُدُرات. ولذا تراني أعيش بكلّ ما لديَّ من قوّة. أريد أن أتأكّد من ماهيّة قُدُراتي وسِعَتها. ليس لديَّ وقتٌ للملل. بالنّسبة إليّ، أفضل الطرق لعدم الشعور بالخوف أو الفراغ هو عدم الملل».

شربنا الويسكي حتى الساعة الثامنة. فرغت الزجاجةُ أخيرًا. وعندئذٍ، نهض منشكي، وقال: «حان وقت الرَّحيل. لقد بقيتُ وقتًا طويلًا من دون أن أنتبه لذلك».

استدعيتُ سيّارة أُجرة بالهاتف. وعندما قلت بيت توموهيكو أمادا، عُرِفَ العنوانُ على الفور. توموهيكو أمادا رجلٌ شهير. قال موظّف توزيع السيّارات إنّ السيّارة ستصل خلال خمس عشرة دقيقة. شكرته وأغلقت الهاتف.

وأثناء الانتظار، قال منشكي كأنّه يبوح بسرّ: «لقد ذكرتُ لك منذ قليل أنّ والد ماريه أكيكاوا غارقٌ حتى أُذُنَيْه في جماعةٍ دينيّة، صحيح؟»

أومأتُ برأسي.

«إنّها جماعة من جماعات الكلت الدّينيّة المُريبة. عندما بحثتُ على الإنترنت، عرفتُ أنّها أحدثت عددًا من المشاكل المجتمعيّة حتى الآن. ورُفع ضدّها عددٌ من القضايا المدنيّة. وإن نظرنا إلى تعاليمها نجدها غامضة، وإن قلتُ رأيي الشّخصيّ فهي خليطٌ مزيّف لا يرقى إلى وصفه بديانة. ولكنْ بالتّأكيد، لا داعي للقول إنّ السّيّد أكيكاوا حرٌّ تمامًا فيما يؤمن به. لكنّه خلال الأعوام القليلة الماضية، أنفق أموالًا طائلة على تلك الجماعة، بعد أن خلط بين ثروته الخاصّة وممتلكات الشركة بحيث لا يُمكن الفصل بينهما.

إنّه في الأصل صاحبُ أملاكٍ هائلة، ولكنّه يعيش في الواقع من الحصيلة الشهريّة لإيجار العقارات والأراضي التي يَمْتلكها. إن لم يبع الأراضي والعقارات التي لدَيْه، فمن الطبيعيّ أن يبقى دخله محدودًا. وهو يسرف مؤخّرًا في بيع الأراضي والعقارات التي يَمْلكها. علامةٌ واضحةٌ على وجود شيءٍ غير طبيعيّ! مثل الأخطبوط الذي يأكل أرجله لكي يطيل أمد حياته».

«هل يعني ذلك أنّ تلك الجماعة الدّينيّة تستنزفه؟»

«بالضبط. وربّما يسعنا أن نقول إنّها تراه دجاجةً تبيض لها ذهبًا. وإنّ مثل تلك الزمرة، عندما تلتقط فريسةً، تمتصُّها بلا رحمة حتى آخر قطرةٍ من دمائها. ثمّ إنّ السّيّد أكيكاوا في الأصل ابنٌ مرفَّه لعائلةٍ غنيّة، ولديْه جانبٌ ساذجٌ بعض الشيء».

«وأنت قَلِقٌ حيال ذلك».

تنهّد منشكي بعمق، وقال: «أيًّا كان ما سيُلاقيه السّيّد أكيكاوا، فتلك مسؤوليّته هو، لأنّه إنسانٌ راشدٌ يفعل ما يفعل وهو عالِمٌ بنتائجه. ولكنْ، عندما يصل الأمر إلى الضّرر بعائلته التي لا تعرف عن الأمر شيئًا، ستتعقّد الأمور. إلّا أنّ قلقي لن يفيد بشيءٍ ولن يحلّ مشكلة».

قلتُ: «أبحاث تناسخ الأرواح».

«فرضيّةٌ تلفت النّظر...» قال وهزّ رأسه بهدوء.

وصل التاكسي أخيرًا. وقبل أن يركب، شكرني منشكي بأدبٍ بالغ. لا يتغيّر لونُ وجهه ولا سلوكُه المؤدّب مهما شرب من خمر.

- 40 -

يستحيل أن أخطئ في معرفة ذلك الوجه

بعد أن غادر منشكي، غسلتُ أسناني في حوض الحمّام، ودخلت الفراش وخلدتُ إلى النوم. إنّي أنعس سريعًا بالعادة، فما بالك إن شربتُ من الويسكي!

ثمّ استيقظتُ في منتصف تلك اللّيلة على صوتِ ضوضاءٍ عنيفة. أعتقد أنّني سمعتُ صوتًا في الواقع. وربّما كان الصوت في الحلم. صدًى لصوتٍ متخيّلٍ نشأ داخل وعيي. شعرتُ عمومًا بصدمةٍ كبيرة كأنّها هزّةٌ أرضيّة، لدرجة أنّ جسدي قفز في الهواء. كانت الصّدمة حقيقيّةٌ بالتّأكيد، لم تكن حلمًا ولا خيالًا. لقد كنتُ نائمًا نومًا عميقًا، فاستيقظت عيناي وكنتُ على وشك الوقوع من السرير!

نظرت إلى الساعة بجوار السّرير، فعرفتُ أنّه التّوقيت الذي يرنّ فيه الجرس دائمًا. ولكنّي لم أسمع رنّات الجرس، ولم أسمع صوت الحشرات كذلك لأنّ الشتاء كان قد اقترب بالفعل. كان الصّمت يتنزّل على أرجاء البيت فقط، والغيوم الكثيفة تغطّي أغلبَ مساحاتِ السّماء. أصختُ السّمع، فتناهى إليّ صوتٌ خافتٌ جدًّا.

تحسّستُ جوار السّرير بيدي وضغطتُ على زرّ المصباح، فأضأتُ النور، وارتديتُ معطفًا صوفيًا فوق ثياب النوم، وقرّرت أن أتفحّص كلّ أرجاء

البيت تفحُّصًا سريعًا. لعلّ شيئًا طارئًا وغريبًا قد حدث! ربَّما دخل خنزيرٌ برِّيٌّ كبير قفزًا من النافذة، أو ربَّما سقط نَيْزَكٌ صغيرٌ فوق سطح هذا البيت! الحالتان مستحيلتان بالطبع، ولكنْ من الأفضل فحص المكان والبحث عن أمرٍ غير معتاد. فلقد كنت موكَّلًا بمسؤوليَّة حماية هذا البيت وحراسته، إضافةً إلى أنَّه من الصَّعب عليَّ أن أنام مجدَّدًا حتى لو أردت ذلك. فجسدي لا يزال يشعر بتوابع الصَّدمة الضَّخمة، ويخفق نبضُ قلبي بشدَّة.

تأكَّدتُ من حالة غرف البيت بالتَّرتيب وأنا أُضيء أنوارها تباعًا. لم أعثر على أيِّ شيءٍ غريب في أيِّ غرفة. كانت الغُرَف على حالها. ولأنَّه ليس بيتًا واسعًا، لن أغفل عن وقوع شيءٍ غريب. تبقَّى لي المَرْسم. فتحتُ الباب الذي يؤدِّي إلى المَرْسم من غرفة المعيشة، ودخلتُ. مددتُ يدي إلى الحائط مُحاولًا إضاءةَ النور؛ ولكنْ في تلك اللَّحظة، أوقفني شيءٌ ما. وكأنَّه يهمس لي بصوتٍ خافتٍ لكنَّه حاسمٌ وواضحٌ، قائلًا: من الأفضل ألَّا تُضيء النور. من الأفضل أن تَدَعَ المكانَ في ظلامه كما هو. أطعتُ ذلك الهمس وأبعدتُ يدي عن زرّ الإضاءة، وأغلقتُ الباب خلفي في هدوء. ثمَّ ركَّزتُ نظري في ظلام المَرْسم الحالك، وكتمتُ أنفاسي حتى لا يَصْدر عنِّي صوت.

مع تعوُّد عينيَّ على الظلام شيئًا فشيئًا، تيقَّنت من وجود شخصٍ ما غيري في المَرْسم. ثمَّة طيفٌ مُؤكَّدٌ له. ويبدو أنَّ هذا الشخص المجهول يجلس على المقعد الخشبيّ الذي أستخدمُه دائمًا أثناء الرَّسم. اعتقدتُ في البداية أنَّه الكومنداتور بلا شكّ. ولا بدَّ أنَّه قد عاد مرَّةً أُخرى بعد أن [تجسّد]. إلَّا أنَّ الطَّيفَ كان لشخصٍ أضخم من أن يكون الكومنداتور. تُظهر الظلالُ المظلمة التي برزت كالضَّباب أنَّه رجلٌ طويلُ القامة نحيفُ الجسم. طول الكومنداتور لا يزيد عن ستِّين سنتيمترًا فقط. ويبدو أنَّ طول

هذا الرجل يقترب من المئة والثمانين سنتيمترًا. كان جالسًا مُنحنيَ الظهر مثلما يفعل أغلب طوال القامة، ثابتًا على تلك الوضعيّة لا يتحرّك مُطلقًا.

وقفتُ أتأمّله بلا حراك، مُتّكئًا بظهري إلى حلقة الباب، ويدي اليُسرى على الحائط لإشعال الإضاءة فورًا في حال حدث شيء. توقّفت حركتنا نحن الاثنيْن تمامًا، بعد أن أخذ كلٌّ منّا وضعيّةً واحدةً مختلفةً عن الآخر وسط ظلام منتصف اللّيل. لم أدرِ ماذا أفعل، لكنّي لم أشعر بالخوف. أصبح التّنفُّس شحيحًا وقصيرًا، ويُصدر القلبُ نبْضًا صلْدًا جافًّا. ولكنْ لا رعب هناك. لقد تسلّل رجلٌ مجهولٌ إلى البيت من دون إذنٍ في منتصف اللّيل. قد يكون لصًّا. وربّما كان شبحًا. ولكنّها حالةٌ يكون فيها الإحساس بالخوف أمرًا طبيعيًّا. أمّا أنا، حينذاك، لم تُراودني أيّة أحاسيس بالخوف أو بخطورة المَوْقف.

لقد وقعتْ أحداثٌ غريبة منذ ظهور الكومنداتور، وربّما اعتاد عقلي ذلك المنطق. إلّا أنّي حينها كنتُ أشعرُ بالفضول لمعرفة ما الذي يفعله ذلك الرجل الغامض في مَرْسمي في منتصف اللّيل. لقد تغلّب الفضول على الخوف. وبدا لي أنَّ الرّجلَ الجالسَ على المقعد الخشبيّ يُفكّر بعُمقٍ في أمرٍ ما. أو ربّما كان يُحملق في شيءٍ ما أمامه مباشرةً. كانت قوّة تركيزه تلك تبدو في عيون الآخرين عنيفةً للغاية. ويبدو أنّه لم ينتبه مُطلقًا لدخولي الغرفة، أو ربّما لا يَعْنيه أن أدخُلَ الغرفة أو أخرُج منها!

تنفّستُ بحيث لا يصدر عنّي أيُّ صوت، وأنا أحاول بكلِّ جهدي أن أكتمَ خفقانَ قلبي داخل قفصي الصّدري، وانتظرتُ أن تعتاد عينايَ على الظّلام أكثر وأكثر. ومع مرور الوقت، عرفتُ تدريجيًّا ما الشيء الذي يجعل الرّجل يركّز فيه. يبدو أنّه يحدّق باهتمام إلى شيءٍ معلّقٍ على الحائط المجاور. ويُفترض أنَّ هناك لوحة توموهيكو أمادا [مقتل الكومنداتور]. الرجل طويل

القامة يتأمَّل تلك اللَّوحة، جالسًا على المقعد العالي، مُحْدَودب الظهر، ولا يهتزّ له جفنٌ، ويضع كلتا يدَيْه على ركبتَيْه.

وقتها، بدأت الغيوم السّوداء التي كانت تُغطّي السّماء تنقسم أخيرًا وتتفرّق. فأضيئت الغرفة للحظةٍ بضوء القمر الذي تسلَّل من بين الغيوم، وكأنّه ماءٌ صافٍ انساب بصمتٍ ليغسل شاهد قبرٍ عتيق، فظهرت حروفٌ سرّيّةٌ منقوشةٌ فوقه. وسرعان ما عاد الظلام الحالك. لكنّه لم يستمرّ طويلًا، إذ انقشعت الغيوم مرّةً ثانية إلى قِطَعٍ صغيرة، وصبغ ضوءُ القمر المكانَ بلونٍ أزرق فاتح، لمدّة عشر ثوانٍ فقط. وأثناء تلك البرهة، استطعتُ أن أرى الشخص القابع هناك.

كان شعره الأبيض يصل حتى كتفَيْه. ويبدو أنّه لم يُمشّط شعره منذ وقتٍ طويل، فبدا أشعث. ومن خلال ما تسنّى لي رؤيته، بدا لي الرجل عجوزًا هرمًا؛ وكان نحيفًا جدًّا كالشّجرة الذابلة. لا بدَّ أنّه في الماضي كان ذا جسدٍ سليمٍ ونشيط بعضلاتٍ قويّة. ولكنَّ الشّيخوخة أسقطت لحمه، ومن المرجّح أنَّ المرض فعل به ما فعل. هذا هو الانطباع الذي يولّده.

ولأنَّ هيئته تغيّرت كثيرًا بسبب النّحافة، استغرق منّي وقتٌ كي أتعرَّف عليه. ولكنّني استطعتُ معرفته تحت ضوء القمر أخيرًا. حتى الآن، لم أرَ إلّا عددًا من صُوَرٍ فوتوغرافيّةٍ له، ولكنْ من المُستحيل أن أخطئَ في ذلك الوجه. إذ كان لأنفه المُدَبَّب من الجانب ما يميّزه، ناهيك أنَّ الهَيبة التي تشعُّ من كامل شخصيّته أخبرتني بالحقيقة الواضحة. كانت ليلةً تميل إلى البرد الشديد، لكنَّ العَرَق المتصبّب يُبلّل تحت إبطيّ، وازداد خفقان قلبي سرعةً. لم يكن من السّهل تَصديق ما يجري بسهولة، وبالمقابل لم يكن هناك شكٌّ.

ذلك العجوز هو مُبدِع تلك اللّوحة: تومو هيكو أمادا. لقد عاد تومو هيكو أمادا إلى مَرْسمه.

- 41 -
فقط عندما لا أنظر إلى الخلف

لا يُمكن أن يكون ذلك توموهيكو أمادا بلحمه ودمه. لأنَّ أمادا الحقيقيّ مُقيمٌ في مؤسَّسةٍ لرعاية المسنِّين بمرتفعات إيزو. تقدَّم به الخرف إلى درجةٍ كبيرة، وهو حاليًا طريحُ الفراش لا يتحرّك. ومن المُستحيل أن يأتي إلى هنا وحده معتمدًا على نفسه. إن كان الأمر كذلك، فإنَّ ما أراه الآن أمام عينيّ هو شبحه. لكنَّه لم يَمُت بعد على حدِّ علمي. لذا من الأصحّ أن نطلقَ عليه «شبحًا حيًّا». ربَّما لَفَظ أنفاسه الأخيرة فعلًا فتحوّل إلى شبحٍ، وجاء إلى هنا. هذا احتمالٌ واردٌ بالتَّأكيد.

بأيِّ حالٍ، أنا أعرف تمامًا أنَّ ما أراه ليس وهمًا، لأنَّه أكثر واقعيّة من أن يكون وهمًا، وبه إحساسٌ ماديٌّ كثيفٌ جدًّا. إنَّ المكان يشعُّ بأثرٍ لوجود إنسانٍ ووعيٍ إنسانيٍّ بلا أيِّ مجالٍ للشكّ. لقد عاد توموهيكو أمادا من خلال تأثيرٍ مميَّز، إلى غرفته الأصيلة، وجلس على مقعده ليتأمَّل لوحة [مقتل الكومنداتور] التي رسمها بنفسه. لا يهتمّ مُطلقًا بوجودي معه في الغرفة نفسها (وقد لا يكون قد انتبه أصلًا)، يُحملق بعينَيْن حادَّتَيْن تخترقان الظلام الدامس.

تبعًا لتدفُّق الغيوم، كان ضوء القمرِ المُتسرِّبِ من النافذة متقطّعًا يمنح جسم توموهيكو أمادا ظلالًا واضحة. كان وجهه جانبيًا بالنِّسبة إليّ. ويرتدي معطف حمّامٍ أو معطفًا قديمًا من الرّيش. حافي القدمَيْن. لا يرتدي

جوربًا أو صِندلًا. وشعره الأبيض الطويل مشعَّث، ولحيته البيضاء المهملة تمتدّ من خدَّيْه حتى فكَّيْه. كان وجهه واهنًا، لكنَّ بريق عينَيْه كان صافيًا حادًّا.

لم يُراودني الخوف، لكنّي كنتُ في مُنتهى الحيرة. فلا حاجة للقول إنَّ ما أراه أمامي ليس مشهدًا طبيعيًّا. ومن المُستحيل ألّا أُصاب بالحيرة. كانت إحدى يديَّ موضوعةً على زرّ المِصباح الكهربائيِّ في الحائط. لكنّي لم أنوِ أن أضيء النور. إنَّما كنتُ على تلك الحال لا أستطيع تحريكَ جسدي. لم أكن أنوي إعاقة توموهيكو أمادا ـ سواء أكان شبحًا أو وهمًا أو أيًّا كان ـ عمَّا يفعله هنا. فهذا المَرْسم له أساسًا، بل إنَّه المكان الذي يجب أن يكون فيه. كنت أنا الذي يقتحم عليه مكانه، وليس لديَّ أيُّ حقٍّ في إزعاجه إن كان لديْه ما يبتغي فعله هنا.

لذا نظَّمتُ أنفاسي، وأرخيت عضلاتِ كتفي، وخرجتُ من المَرْسم متراجعًا، حريصًا على عدم إصدار أيِّ صوتٍ بخطواتي. أغلقتُ الباب بِحِرصٍ بالغ. وفي أثناء ذلك، لم يُحرِّك توموهيكو أمادا جسمه على المقعد البتَّة. لقد كان تركيزه في منتهى الحِدَّة، حتى إنّي لو قلبتُ المزهريَّةَ التي فوق الطاولة بالخطأ وأصدرتُ صوتًا هائلًا ما كان لينتبه له. أضاء القمر الذي يشقّ طريقًا بين الغيوم جسمَ أمادا النَّحيف مجدَّدًا. نُقشت في النهاية ظلالُ تلك الحواف (الظلال التي كأنَّها تلخِّص حياته كلَّها)، مع ظلال اللَّيل الحسَّاسة التي تكوَّنت في عقلي الباطن. وأكَّدتُ لنفسي مرارًا بأنّي لن أنسى ذلك المشهد أبدًا. إنَّها صورةٌ يجب أن تظلَّ في الذاكرة حتمًا، وعليَّ أن أطبعها في شبكيَّة عينيّ.

عدتُ إلى غرفة الطعام وجلستُ أمام الطاولة، وشربتُ عدَّة أكوابٍ من الماء. كنتُ أريد شرب القليل من الويسكي، لكنَّ الزجاجة فارغةٌ تمامًا.

لقد أفرغناها أنا ومنشكي ليلة أمس. ولم يكن في البيت أيُّ نوعٍ آخر من الخمور.

وفي النهاية، لم يزرني النوم حتى الرّابعة صباحًا. جلستُ أمام الطاولة أفكّر إلى ما لا نهاية. كانت أعصابي متوتّرةً جدًّا، وليس لي رغبةٌ في القيام بأيّ شيء. لذا، لم يكن أمامي إلّا إغماضُ عينيّ والغَرَقُ في التّفكير، غير أنّي لم أستطع التّفكير في أمرٍ واحدٍ تفكيرًا متواصلًا. إنّما كنتُ ألاحقُ الأفكارَ المتنوّعة والمتفرّقة بلا غايةٍ لساعاتٍ عدّة. وكأنّي قطٌّ يدور حول نفسه مُلاحقًا ذيله.

وعندما تعبتُ من مُلاحقة الأفكار بلا غاية، أعدتُ في عقلي الباطن قيامة ظلّ توموهيكو أمادا الذي رأيته منذ قليل. ولكي أؤكّد ما رأيته في الذاكرة، رسمتُ له مسوّدة مبسّطة: رسمتُ صورةَ العجوز على دفتر المسوّدات الخياليّ في دماغي، مُستخدمًا قلم رصاصٍ خياليًّا. وهو ما أفعله كثيرًا في العادة حينما يتسنّى لي وقتُ فراغ. فلا ضرورة لأوراقٍ أو أقلام، بل على العكس، يسهّل عدم وجودها عليّ الرّسم. طريقةٌ شبيهة بما يفعله عالم الرياضيّات حين يحلّ المعادلات على سبّورةٍ خياليّة داخل مخّه. ربّما أرسم تلك اللّوحة ذات يوم حقًّا!

لم أفكّر في إلقاء نظرةٍ ثانية على المَرْسم. كان لديّ فضولٌ بالتّأكيد. تُرى هل ما زال العجوز - الذي يُرجّحُ أنّه توموهيكو أمادا - موجودًا داخل المَرْسم؟ تُرى هل ظلّ على حالِهِ جالسًا على المقعد العالي يُحدّق حتى الآن في لوحة [مقتل الكومنداتور]؟ لا يُمكنني نفي رغبتي في التّأكّد من ذلك. ربّما كنت في حالةٍ غريبة للغاية، شاهدًا عليها في أرض الواقع. وقد تُوفّر مفاتيحَ كثيرةً لحلّ اللّغز السّرّيّ في حياة توموهيكو أمادا.

وعلى الرّغم من ذلك، لم أكُن راغبًا في إعاقة تركيز وعْيِه. فهو، من أجل التّأمّل في لوحة [مقتل الكومنداتور] التي رسمها بنفسه تأمّلًا عميقًا، أو

من أجل تفحُّص شيءٍ ما فيها، عاد إلى هذا المكان متخطّيًا الزمان والمكان وخارقًا للمنطق. يُفتَرض أنّه استهلك في سبيل ذلك الكثير والكثير من الطاقات. طاقات الحياة النّفيسة التي لم يتبقّ لدَيْه الكثير منها على الأرجح. أجل، كان من الضروريّ أن يرى تلك اللّوحة مرّةً أخرى وأخيرة حتى يرتاح قلبه، أيًا كانت التّضحيات التي يقدّمها في سبيل ذلك الهدف.

استيقظتُ بعد العاشرة صباحًا بقليل. وكان ذلك نادرًا بالنّسبة إليّ ـ أنا المُعتاد على الاستيقاظ مبكّرًا. صنعتُ قهوةً بعد أن غسلت وجهي، ثمّ تناولتُ الفطور. كنتُ جائعًا بشدّةٍ لسببٍ ما. أكلتُ ما يقرب من ضعف كمّيّة الفطور التي أتناولها دائمًا. أكلتُ ثلاثة أرغفة وبيضتَيْن مسلوقتَيْن وسلطة طماطم. وشربتُ كوبَيْن كبيرَيْن من القهوة.

وبعد الطعام، اختلستُ النّظر على المَرْسم للاطمئنان، وبالتّأكيد لم يَعُدْ هناك أثر لتوموهيكو أمادا في أيّ مكان. كان المَرْسم هادئًا تمامًا في الصباح. لم يكن هناك إلّا حامل اللّوحات وعليه لوحة غير مكتملة (لبورتريه مارية أكيكاوا)، وأمامها المقعد العالي. وكُرسيٌّ واحدٌ من كراسي مائدة الطعام الذي تجلس عليه مارية أكيكاوا كموديل. وعلى الحائط الجانبيّ لوحة [مقتل الكومنداتور] التي رسمها توموهيكو أمادا. وبالطبع، لا أثر للجرس فوق الرفّ. وكانت السّماء فوق الوادي صافيةً جدًّا، والهواء باردًا نقيًّا، والطيور تخترق الهواء بأجنحةٍ حادّة حينما ترى الشتاء مُقبِلًا أمامها.

اتّصلت بشركة ماساهيكو أمادا. كانت الوقت قد اقترب من الظهيرة، لكنّ صوته كان يوحي بأنّه نعِس. استطعتُ من صوته أن أسمع صدى الخمول الناجم عن صباح يوم الاثنين. بعد أن تبادلنا التّحيّة البسيطة، سألته من دون أن ألفتَ انتباهَه عن حالة والده الصحّيّة. كنتُ أريد التّأكُّد

من بقاء والده على قَيْد الحياة، وإنْ كان ما رأيته ليلةَ أمسِ شبحَه بعد الموت أم لا. ولو افترضنا أنَّ والده قد مات فمن المُؤكَّد أنَّه على درايةٍ بالأمر.

«هل والدك بصحَّةٍ جيِّدة؟»

«ذهبت للقائه منذ أيَّام. لن يعود دماغه إلى ما كان عليه، أمَّا جسمه فبدا أنَّه بخير. أو فلنقل إنَّ حالته لن تتدهور في القريب».

قلتُ لنفسي إنَّ تومو هيكو أمادا لم يَمُتْ بعد. ولم يكن ما رأَتْه عيناي شبحه، بل كانت هيئةً مؤقَّتةً جَلَبَتْها إرادةُ إنسانٍ على قيد الحياة.

«اسمح لي أن أطرح عليك سؤالًا غريبًا، هل طرأ على والدك في الفترة الأخيرة تغييرٌ غير مألوف؟»

«على والدي؟»

«أجل».

«ولماذا تطرح هذا السُّؤال فجأةً؟»

قلتُ ما كنتُ قد حضَّرته مُسبقًا: «لقد رأيتُ حلمًا عجيبًا مؤخَّرًا. حلمتُ أنَّ والدك عاد إلى بيته في منتصف اللَّيل. ولقد رأيتُه. كان حلمًا في منتهى الواقعيَّة، حتى كدتُ أن أقفزَ مستيقظًا من الدَّهشة. لذا ساورني القلق على حالته».

قال منبهرًا: «حقًّا! هذا أمرٌ شائقٌ. هل عاد أبي إلى ذلك البيت في منتصف اللَّيل؟ وما الذي كان يفعله؟»

«كان جالسًا على المقعد العالي في المَرْسم لا يتحرَّك».

«هكذا فقط؟»

«أجل، لم يكن يفعل أيَّ شيء».

«أتعني بالمقعد العالي ذلك المقعد الدَّائريّ القديم ثلاثيّ الأرجل؟»

«بالضَّبط».

فكَّر ماساهيكو أمادا قليلًا، ثمّ قال بصوتٍ رتيبٍ خالٍ من أيّة مشاعر: «ربَّما أَجَله يقترب. يُقال إنَّ روح الإنسان في نهاية حياته تزور أكثر الأماكن التي تعلَّق بها قلبه. وعلى حدِّ علمي، فإنَّ المَرْسم في ذلك البيت هو أحبّ الأماكن إلى قلب أبي».

«ولكنْ ألم تَقُل إنّه فقد الذاكرة كلّيًا؟»

«بلى. لم يَعُدْ لدَيْه ذاكرة بالمعنى المعتاد. إلّا أنَّ روحه ما زالت حيَّة. سوى أنّها لا تعي. بمعنى أنَّ خطوط الاتّصال قد انقطعت، ولا تستطيع الوعي بالارتباط. ولكنْ يُفترض أنَّ الرُّوح مكنونةٌ في أعماقه. وعلى الأرجح، لا شيء يسبّب لها الضرر».

«فهمت».

«ألم تخف؟»

«أتقصد في الحلم؟»

«أجل. ألم تقل إنّه كان حلمًا يشبه الواقع؟»

«كلَّا، لم أخف بصفةٍ خاصّة. إنَّما تعجَّبتُ، لأنَّني كنتُ كأنَّني أراه شخصيًا على الطبيعة».

قال ماساهيكو أمادا: «ربَّما كان هو شخصيًّا».

لم أبدِ رأيي تجاه قوله هذا، إذ لم تكن اللَّحظة مناسبةً لأبوح له بأنَّ والده قد عاد خصّيصًا ليرى لوحة [مقتل الكومنداتور]، (فقد أكون أنا من استحضر روح تومويكو أمادا إلى هناك. لو لم أفكَّ الغلاف عن اللَّوحة لم يكن ليرجع إلى هنا مرّة أخرى). وإلّا كان ماساهيكو سيطلب تفسيرًا عن كلِّ شيء: بدايةً من اكتشافي للَّوحة في السَّقيفة، وفكّي للغلاف بدون

إذن، وحتى تعليقي لها على حائط المَرْسم بقرار منّي. من المؤكّد أنّه سيأتي الوقت الذي سأُخبره بكلّ تلك التّفاصيل، لكنّي لم أشأ إطلاعه عليها حينذاك.

قال أمادا: «بالمناسبة، كان لديّ ما أُخبِرُك به في المرّة السّابقة ولم يُسعفني الوقت. أتذكر؟»

«بالطّبع أذكُر».

«قد أمرّ عليك قريبًا ونتحدّث بالأمر. هل تمانع؟»

«هذا بيتك، ويمكنك المجيء وقتما تريد».

«أفكّر في زيارة أبي في مرتفعات إيزو نهاية هذا الأسبوع. هل تُمانع أن أمرّ عليك في طريق عودتي؟ أوداوارا تقع بالضّبط في طريق العودة».

قلتُ له إنّي لا أُمانع من ذلك ما لم يكن مساء الأربعاء والجمعة أو صباح الأحد. فأنا أذهب لتعليم الرّسم في الأربعاء والجمعة، وعليّ أن أرسم بورتريه مارية أكيكاوا صباح الأحد.

«قد أمرّ بعد ظهر السبت. وفي كلّ الأحوال، سأتّصل بك قبل ذلك».

بعد أن أغلقتُ الهاتف، دخلتُ المَرْسم وجلستُ على المقعد العالي؛ المقعد الخشبيّ الذي كان توموهيكو أمادا يجلس عليه وسط الظلام ليلة أمس. وإذ جلست، انتبهت على الفور أنّه لم يَعُدْ المقعد خاصّتي، إذ كان مقعده هو، الذي ظلّ توموهيكو أمادا يَستخدمه من أجل رسم اللّوحات على مدى شهورٍ وأعوامٍ طوال، ويُفتَرَض أنّه سيظلُّ المقعد خاصّته من الآن فصاعدًا. لا يبدو لمن لا يعرف الظروف إلّا مقعدًا دائريًّا ثلاثيّ الأرجل، قديمًا ومليئًا بالخدوش، ولكنّه كان متشبّعًا بإرادة أمادا. وكنتُ أسمح لنفسي باستخدامه من دون إذن، بناءً على تطوّر الظروف.

تأمّلت لوحة [مقتل الكومنداتور] المعلّقة على الحائط وأنا جالس هناك. لقد تأمّلت تلك اللّوحة لعددٍ من المرّات لا يُحصى ولا يَعُد حتى الآن. تَمْتلك اللّوحة قيمةً في مشاهدتها بهذا التّكرار. وبعبارةٍ أخرى: اللّوحة عملٌ فنّيٌ من المُمكن رؤيته بطُرُقٍ متنوّعة. ولكنّي الآن، أرغب في النّظر إليها مجدّدًا من زاويةٍ مختلفة وفحصها بدقّة. فلا بدّ أنّ فيها ما رَسَمه توموهيكو أمادا واضطرّه إلى التّحديق فيه مرّةً ثانية قبل أن يُنهي مشوار حياته.

تأمّلتُ اللّوحة لفترةٍ طويلة. من الموضع نفسه الذي ظلّت فيه روح توموهيكو أمادا الحيّة، أو جزءٌ من ذاته، لا أدري! تحدّق منه مباشرةً وهي جالسةً على هذا المقعد، وبوضعيّة جسمه نفسها، وأنا أركّز كاتم الأنفاس. ولكنّي لم أكتشف أيّ جديد، رغم التّركيز والانتباه الشّديدَيْن.

تعبتُ من التّفكير، فخرجتُ خارج البيت. كانت سيّارة منشكي الجاغوار الفضّيّة متوقّفةً أمام البيت، في مكانٍ يبعد قليلًا عن سيّارتي كارولا تويوتا واغن. لقد باتت تلك السيّارةُ ليلتها هنا، وكأنّها حيوانٌ ذكيٌّ أُحسِنَ تربيته، يأخذ قسطًا من الرّاحة هناك انتظارًا لمجيء صاحبه.

تنزّهت في المنطقة المُحيطة بالبيت شاردًا أفكّر في لوحة [مقتل الكومنداتور]. وعندما كنتُ أسيرُ في طريقٍ ضيّقة داخل الغابة البرّيّة، انتابني شعورٌ مُريبٌ بأنّ هناك من يُراقبني من وراء ظهري. وكأنّه «طويل الوجه» الذي يدفع غطاء الأرض المُربّع ويراقبني خِفْيةً من حافّة سطح اللّوحة. نظرتُ خلفي سريعًا لأرى ما ورائي. لم أجد شيئًا. ولم يكن في الأرض فُتُحات، ولم يكن «طويل الوجه» موجودًا. لا شيء سوى الطّريق الضيّقة الخالية من البشر، والتي تراكمت عليها أوراق الأشجار المتساقطة وسط الصمت. كرّرت ذلك مرارًا، ومهما التفتّ إلى الخلف بأقصى سرعةٍ لا أجد أحدًا، كما هو متوقّع.

ربَّما لا يكون لطويل الوجه والحُفرة وجودٌ إلّا عندما لا ألتفت أنا إلى الخلف. ربَّما يختفيان بأقصى سرعةٍ في اللَّحظة التي أحاولُ فيها الالتفات تمامًا. وكأنَّنا نلعبُ الغمَّيْضة.

اخترقتُ الغابة البرّيّة، وذهبتُ إلى طريق ضيّقة لم أذهب إليها من قبل. ثمّ بحثتُ بانتباهٍ عميق لعلّي أكتشف مدخل «الممرّ السرّيّ» الذي تحدَّثتْ عنه مارية أكيكاوا. لكنّي لم أعثر على مكانٍ يشبه ذلك الممرّ. لقد قالت: «لن يستطيع أحدٌ أن يعثر على الممرّ إذا كان ينظر نظرةً عاديّة». يبدو أنّه مخفيٌّ بتمويهٍ شديد المهارة. على أيِّ حال، جاءت مارية وحدها في ظلام اللَّيل بعد أن مرّت من خلال ممرٍّ سرّيٍّ، سائرةً على قدمَيْها من الجبل المُجاور، مخترقةً الغابة البرّيّة مرورًا بين الأشجار.

كانت نهايةُ الطريق الضيّقة أرضَ فضاءٍ صغيرةً دائريّة الشَّكل. انقطعت أغصان الأشجار المتشابكة التي كانت تغطّي ما فوق الرأس، وعند النَّظر إلى أعلى، أرى قطعةً صغيرةً من السَّماء. تسقط أشعّة شمس الخريف من ذلك المكان مباشرةً نحو الأرض. جلستُ فوق صخرةٍ مستويةٍ وسط تلك الأشعّة المتواضعة، أتأمّل منظر الوادي من بين جذوع الأشجار، وأتخيّل أن تظهر مارية أكيكاوا أثناء انتظاري فجأةً من الممرّ السّرّيّ الذي يقع في مكانٍ ما. ولكنْ، لم يظهر أحدٌ من أيّ اتّجاه. فأحيانًا تأتي الطيور فقط، وتتوقّف فوق الأغصان، ثمّ تطير مرّةً أخرى. تتحرّك الطيور دائمًا زوجَيْن معًا، ويُعلِمُ كلٌّ منهما الآخر عن مكان وجوده بالتّغريد بصوتٍ قصيرٍ واضحٍ ومسموع. لقد قرأت في مقالةٍ في جريدةٍ أو مجلّةٍ ما أنّ الطيور عندما يجد أحدها رفيقًا له يعيش معه العمر كلّه، وعندما يموت أحدهما، يعيش الآخر في وحدةٍ تامّة ما تبقّى من عمره. وبالطبع، لا داعي للقول إنّها لا توقّع على ورقة طلاقٍ تُرسَل لها في خطابٍ مسجّل بعلم الوصول من مكتب محاماة.

سمعت من مسافةٍ بعيدة جدًّا صوت سيّارة بيع متنقّل تُعلِنُ عن بيع شيءٍ ما. بدا الصوت موحشًا ووحيدًا للغاية، حتى تلاشى. وبعد ذلك، سمعت خشخشةً ضخمة لا يُعرَف لها أصل، تأتي من أعماق الغابة. لم يكن صوتًا يقدر الإنسان على إصداره، إنّما حيوانات بريّة. أصابتني رجفة بردٍ خوفًا من أن يكون صوت خنزيرٍ بريّ (فالخنازير البريّة تتنافس مع الدّبابير على لقب أخطر الكائنات الحيّة في تلك المنطقة)، لكنّ الصوت توقّف تمامًا، على حين غرّة، ولم أسمعه ثانيةً.

انتهزتُ الفرصة، فنهضتُ ومشيتُ عائدًا إلى البيت. وأثناء العودة، درتُ خلف المَعبد وتأكّدتُ من حالة الحُفرة. تغطّي الألواح الخشبيّة فُتحةَ الحُفرة من فوقها كالمُعتاد؛ وفوق الألواح، كانت الأحجار على حالها أيضًا. لا أثر يدلُّ على تحريكِ تلك الأحجار من مكانها على حدّ ما رأيت. تراكمت أوراق الشّجر المُتساقطة فوق الألواح التي استُخدِمَت بديلًا عن الغطاء. ابتلّت الأوراق بمياه الأمطار وفقدتْ لونها الزاهي. كلُّ الأوراق التي وُلدت يانعة في الرّبيع، استقبلتْ موتها المحتوم في أواخر الخريف.

أشعرتني إطالةُ النّظر إلى الحُفرة بأنّ الغطاء يوشكُ على التّحرّك إلى أعلى ليطلّ منه «طويل الوجه» بوجهه الطّويل الرّفيع الذي يُشبه الباذنجان. إلّا أنّ الغطاء لم يرتفع بالتّأكيد. علاوةً على أنّ «طويل الوجه» يَختبئ في حُفرةٍ مُربّعة الشّكل، وأصغر حجمًا وأكثر خصوصيّة. كما أنّ الذي كان مُختبئًا في هذه الحُفرة هو الكومنداتور لا «طويل الوجه». بل إنّها الفكرة هي التي استعارت هيئة الكومنداتور. وظلّ الجرسُ يرنّ في منتصف اللّيل لكي يستدعيني إلى هنا، ويضطرّني إلى فتح تلك الحُفرة.

عمومًا، كانت تلك الحُفرة هي بداية كلّ شيء. فبعد أن فتحناها، منشكي وأنا، باستخدام المعدّات الثّقيلة، بدأت الأحداث غير المعقولة

تتوالى من حولي. وقد تكون بداية كلّ شيء هي لحظة عثوري على لوحة [مقتل الكومنداتور] في السّقيفة وفتح غلافها. هذه الفرضيّة معقولةٌ أكثر نظرًا إلى تسلسل الأحداث. وقد يكون هذان الحادثان استدعى كلٌّ منهما الآخر منذ البداية بسرّيّةٍ تامّة. ربّما أرشدتْ لوحة [مقتل الكومنداتور] الفكرة للدخول إلى هذا البيت. وربّما ظهر الكومنداتور كتأثيرٍ مساعدٍ لتحريري لوحة [مقتل الكومنداتور]. ولكنْ، كلّما فكّرت أكثر عجزتُ عن التّوصّل إلى حُكمٍ أيّهما كان السّبب وأيّهما كان النتيجة.

عندما عدت إلى البيت، كانت سيّارة منشكي الجاغوار قد اختفت. على الأرجح أنّ منشكي جاء بسيّارة أجرةٍ أو ما شابه، وأخذ سيّارته أثناء وجودي خارج البيت. وربّما طلب من شركةٍ متخصّصة أن تُحضرها له. على أيّ حال، تُرِكَت سيّارتي كارولا واغن المغطّاة بالأتربة في المدخل المخصّص للسيّارات، يكتنفها ما يشبه الشعور بالوحدة. ففكّرت بما قال منشكي أنّه عليّ أن أقيس ضغط هواء إطاراتها ذات مرّة. لكنّي لم أشترِ مقياس ضغط الهواء بعد، وربّما لن أشتريه طوال حياتي.

عندما فكّرتُ في إعداد الطعام ووقفتُ أمام طاولة المطبخ، اكتشفتُ أنَّ شهيّتي للطعام التي كانت في أوجّها منذ قليل قد فُقِدت تمامًا. وانتابني النُّعاس بديلًا عنها. أحضرتُ بطّانيّةً ورقدتُ على أريكةِ غرفةِ المعيشة، ونمتُ على تلك الحال. ورأيت أثناء النّوم حلمًا قصيرًا. كان حلمًا واضحًا جدًّا وحيويًّا. ومع ذلك، لم أستطع أن أتذكّر مُحتواه. كلّ ما أتذكّره هو أن الحلم كان واضحًا وحيويًّا. أحسستُ أنّه ليس حلمًا بل قطعةً من الواقع اندسّت داخل النوم بسبب خطأٍ ما. وعندما استيقظتُ، اختفى ذلك الواقع في مكانٍ ما من دون أن يترك أثرًا، كأنّه حيوانٌ رشيقُ القوام سريعُ الهرب.

- 42 -
إذا سقطت على الأرض وانكسرت، فهي بيضة

مرّ ذلك الأسبوع بسرعةٍ شديدةٍ غير متوقّعة: كنتُ أركّز طوال الصباح أمام اللّوح، وبعد الظهر، أقرأ في كتابٍ أو أتنزّه، أو أُنهي أعمال البيت الضروريّة. وبهذه الحال، كانت الأيّام تمرّ يومًا بعد يوم من دون أن أشعر بها. جاءت صديقتي بعد ظهر الأربعاء، وضاجعتها على السّرير. أصدر السّرير القديم صريرًا صاخبًا كعادته، الأمر الذي أضحك صديقتي.

قالت أثناء استراحةٍ قصيرة وكأنّها تتنبّأ: «من المؤكّد أنّ هذا السّرير سيتفكّك في وقتٍ غير بعيد. أعتقد أنّه سيتحطّم إلى قطعٍ صغيرة لا يُمكن التّفريق بينها وبين أعواد شوكولاتة غليكو بوكّي».

«ربّما يجب أن نعامله بلطفٍ أكبر».

«ربّما كان يجب على القبطان آهاب ملاحقة سمك السّردين».

فكّرتُ فيما قالت، ثمّ قلت: «هل تقصدين أنّ ثمّة أشياء في هذا العالم تستعصي على التغيير؟»

«تقريبًا».

بعد الاستراحة، عدنا إلى مطاردة الحيتان البيضاء في أعماق المحيط الواسع. ثمّة أشياء في هذا العالم لا تستسلم للتّغيّر بسهولة.

كنتُ أضيف شيئًا على بورتريه مارية أكيكاوا كلّ يومٍ بشكلٍ تدريجيّ. ففي هيكل المسوّدة التي رسمتُها على اللّوح، كنتُ أضيف الجسد الضروريّ. أصنع عددًا من الألوان المطلوبة، ثمّ أستخدمها في رسم الخلفيّة. هذه عمليّة رسم القاعدة لإبراز الوجه على سطح اللّوحة إبرازًا طبيعيًّا. وهكذا، كنتُ أنتظر قدومها إلى المَرْسم في صباح يوم الأحد. ففي رسم اللّوحات، هناك أعمالٌ ينبغي فعلها في وجود الموديل حصرًا، واستعداداتٌ ينبغي تحضيرها في غيابه. وكنتُ أعشق كلا العملَيْن. أظلّ أفكّر وحيدًا لوقتٍ طويل في عناصر اللّوحة المختلفة، وأنا أُجهّز بيئة العمل باختبار الألوان والأساليب المتنوّعة. أستمتع بذلك العمل اليدويّ، كما أستمتع بالعمل الإبداعيّ في خلق تجسيدٍ ارتجاليٍّ وتلقائيٍّ ثلاثيّ الأبعاد.

وبالتوازي مع رسم بورتريه مارية أكيكاوا، بدأت رسم لوحة الحُفرة التي خلف المَعْبد، على لوح قنّبٍ مُختلف. لأنّ منظر الحُفرة كان منقوشًا في عقلي الباطن نقشًا واضحًا، فما من ضرورةٍ لوجود الحُفرة أمام ناظريّ فعليًّا. رسمت الحُفرة التي في ذاكرتي بتفاصيلها الدّقيقة تمامًا. رسمت تلك اللّوحة رسمًا شديد التّوصيف، وبواقعيّةٍ لامبالغة فيها. ففي العادة، لا أرسم صُوَرًا توصيفيّة (الأمر يختلف طبعًا بالنّسبة إلى البورتريهات التجاريّة)، لكنّي كنتُ ماهرًا أيضًا في ذلك النوع من اللّوحات. وإن عزمتُ على فعل ذلك، أستطيع رسم لوحاتٍ واقعيّة مجسّمةٍ بغاية الدّقّة، لدرجةٍ لا يُمكن التّعرُّف عليها أكانت لوحةً مرسومة أم صورةً فوتوغرافيّة. فإنّ الرّسم الأقرب إلى نوع الواقعيّة الشّديدة أعتبره تغييرًا للمزاج وتدريبًا على إعادة صقل المهارات الفنّيّة الأساسيّة. غير أنّها لا تَغْدو مجرّد متعةٍ شخصيّة، ولا يُمكنني إعلانُها على الملأ.

وهكذا، كانت [الحفرة في الغابة البرّيّة] تظهر من جديد بحيويّةٍ واضحةٍ أمامي يومًا بعد يوم. تلك الحُفرة الدّائريّة المُحاطة بالغموض في

الغابة البرِّيّة التي يُغطّى نصفها بغطاءٍ من ألواحٍ سميكةٍ عدّة. الحُفرة التي ظهر منها الكومنداتور قائد كتيبة الفرسان. رسمتُ في اللّوحة حُفرةً مظلمةً فقط، لا بشر فيها. وأوراق الشجر المتساقطة تتراكم على الأرض من حولها. منظرٌ ساكنٌ وهادئٌ تمامًا، إلّا أنّها تُعطي انطباعًا بوجود شخصٍ (أو شيءٍ) يوشك على الزّحف خارجًا من تلك الحُفرة. كلّما أطلْت النّظر إليها، استولى عليّ ذلك الانطباع. ومع أنّها رسمة تشكيليّة رسمتُها بنفسي، كانت تحتوي على شيءٍ يُشعرني شخصيًّا برعدة برد.

وعلى تلك الحالة كلَّ يوم، كنتُ أقضي الصباحَ وحيدًا في المَرْسم. ثمّ أحمل الفرشاة ولوح الألوان، وأرسم لوحتيَّ [بورتريه مارية أكيكاوا] و[حفرة في غابة برّيّة] ـ وهما نوعان مُختلفان تمامًا في خصائصهما ـ بالتناوب ما بينهما. فأجلس على المقعد العالي الذي جلس عليه تومو هيكو أمادا منتصف ليل يوم الأحد، وأعمل بتركيزٍ على اللّوحَيْن المُتجاورَيْن. وربّما بسبب ذلك التّركيز تلاشى الإحساس بطيف تومو هيكو أمادا الثقيل في غفلةٍ من الزمن من على ذلك المقعد صباح الاثنين. يبدو أنَّ المقعد قد عاد إلى حقيقته: مجرّد أداةٍ عمليّة. ولا بدَّ أنَّ تومو هيكو أمادا عاد إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه.

وكنتُ أحيانًا أستيقظ خلال هذا الأسبوع في منتصف اللّيل، وأذهب إلى المَرْسم وأفتحُ الباب فتحةً صغيرةً ببطء، وأختلس النّظر إلى المَرْسم من خلال تلك الثغرة. لكنَّ الغرفة خالية دائمًا. لا وجود لتومو هيكو أمادا ولا للكومنداتور. لا شيء سوى مقعدٍ قديم أمام حامل اللّوحات. تتّضح الأشياء الموجودة في وسط الغرفة بهدوءٍ من خلال ضوء القمر الخافت الذي يتسلّل من النافذة. ولوحة [مقتل الكومنداتور] على الحائط. ولوحة [رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء] التي لم تكتمل بعد، كانت مركونةً

نحو الجدار. ولوحتا [بورتريه مارية أكيكاوا] و[حُفرة في غابةٍ برّيّة] مُتجاورتان على حامل اللوحات. تفوح روائح الألوان الزيتيّة في الغرفة، إضافةً إلى زيت التربنتينة (turpentine أو زيت الراتينغ) وزيت بذر الخشخاش. أستنشق هواء المرسم وكأنّني أتأكّد من تلك الرّائحة، ثمّ أغلق الباب بهدوء.

اتّصل ماساهيكو أمادا مساء الجمعة. قال إنّه سيأتي بعد ظهر السبت. وقال إنّني لا يجب أن أقلق بشأن الغداء، لأنّه سيشتري سمكًا طازجًا من ميناء الصّيد القريب. وطلب منّي أن أنتظره.

«هل تحتاج إلى شيءٍ آخر كي أشتريه؟ سآتيك به إن أردت».

«لا أعتقد أنّني في حاجةٍ إلى شيء» ثمّ تذكّرتُ بعدها وأضفتُ: «آه، أجل، لقد انتهى الويسكي. والزجاجة التي أهديتَها لي في المرّة السّابقة، جاءني ضيفٌ وشربناها معًا. هلّا اشتريتَ لي زجاجة ويسكي أخرى أيًّا كان نوعه؟»

«أنا أحبّ نوع تشيڤاز. هل تمانع؟»

«لا مانع». كان أمادا منذ زمنٍ طويل رجلًا صارمًا تجاه طعم الخمور والمأكولات. لكنّني لستُ مثله. فأنا آكل وأشرب ما يُتاح لي من طعامٍ أو خمور.

بعد أن انتهى الاتّصال مع أمادا، أزلتُ لوحة [مقتل الكومنداتور] المعلّقة على الحائط، وحملتها إلى غرفة النوم، وغطّيتُها بغطاء. فلا يُمكن أن أجعل الابنَ يرى لوحةَ أبيه التي لم يُعلِن عنها للعامّة، والتي أخرجتها خِفيةً من السّقيفة. في الوقت الراهن على الأقلّ.

وبهذا، لن يرى الزوّار في المَرْسم سوى لوحة [بورتريه مارية أكيكاوا]، و[حُفرةً في غابةٍ برّيّة]. وقفتُ أمامهما، وتأمّلتُ هذَيْن العملَيْن الفنّيّيْن يمينًا ويسارًا. وبالمقارنة بينهما، برز في رأسي مشهدٌ لمارية أكيكاوا تدور حول المعبد وتقترب من الحُفرة. وجاءتني نبوءةٌ أنّ شيئًا ما على وشك

أن يحدث. فغطاء الحُفرة نصف مفتوح، وظلام الحُفرة يَسْتدعيها. تُرى هل «طويل الوجه» هو الذي ينتظرها هناك؟ أم أنّه الكومنداتور؟

وهل هاتان اللّوحتان مرتبطتان في مكانٍ ما؟

منذ أن أتيتُ إلى هذا البيت، كنتُ أرسم لوحةً بعد لوحة تقريبًا بلا توقُّف. في البداية، رسمتُ بورتريه منشكي بناءً على طلبٍ منه، وبعد ذلك، رسمتُ لوحة [رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء] (ولكنّني توقّفت عنها بعد إضافة الألوان ولا يزال العمل عليها متوقّفًا)، والآن، أرسمُ لوحة [بورتريه مارية أكيكاوا]، ولوحة [حُفرة في غابة بريّة] بالتزامن. كانت تلك اللّوحات الأربع تتشكّل معًا مثل لعبة البازل، وبدا لي أنّها بدأت تحكي حكايةً ما.

شعرتُ أنّني من خلال رسم تلك اللّوحات، أوثّق قصّةً ما. تُرى هل أعطاني أحدهم مهمّة توثيق الأحداث؟ وإن كان الأمر كذلك، فمَنْ يكون ذلك الشخص؟ ولماذا اختارني أنا؟

قبل الرّابعة من مساء السبت، جاء ماساهيكو أمادا بسيّارته الڤولڤو واغن السّوداء. كان يحب سيّارات ڤولڤو المربّعة المتينة وقديمة الطراز. وكان يستخدم تلك السيّارة منذ فترةٍ طويلة، ويُفترَض أنّها سارت مسافةً كبيرةً للغاية، لكنّه لا يبدو أنّه ينوي شراءَ طراز جديد. لقد حمل معه في ذلك اليوم سكّينًا حادّة النصل، مخصّصةً لتقطيع السّمك. دخل المطبخ واستخدمها بتقطيعِ سمكةِ أُسبور طازجة اشتراها من متجرٍ لبيع الأسماك في مدينة إيتو. ماساهيكو متعدّدُ المواهب وماهرٌ في استخدام يدَيْه. تخلّص من الحسك بعناية، وشرّح السّمكة جيّدًا من دون أن يهدر منها شيئًا، ثمّ صنع حساءً من بقايا السّمكة، وشوى الجِلدَ على النار وتبّلها بمشروب الساكيه. كنتُ واقفًا بجانبه أرى صنعه منبهرًا. ربّما لو أصبَحَ طاهيًا مُحترفًا لحقّق نجاحًا كبيرًا.

قال أمادا وهو يستخدم السكّين بمهارة: «هذا النوع من الساشيمي، من الأسماك ذات اللَّحم الأبيض، من الأفضل تناوله في اليوم التالي، حيث يطرى اللَّحم وينضج الطعم، ولكنْ ما باليد حيلة. تحمَّل ذلك».

فقلتُ له: «لن أطلب رفاهية».

«إن بقي شيء يُمكنك أن تتناوله بمفردك غدًا».

«سأفعل».

ثمّ سألني: «اسمع! هلّا سمحتَ لي بالمَبيت هنا اللَّيلة؟ أريد اليوم أن أشرب معك ونتحدَّث بأريحيَّة في أمورٍ عدَّة. ولكنِّي إن شربتُ الخمر فلن أستطيع القيادة. لا مانع في أن أنام على الأريكة في غرفة المعيشة».

«بالتَّأكيد. فهذا البيت بيتك. يُمكنك المكوث فيه كما تشاء».

«ألن تأتي لزيارتك امرأةٌ ما من مكانٍ ما؟»

هززتُ رأسي وقلتُ: «ليس لديَّ مثل هذا الموعد حاليًا».

«حسنًا، اسمح لي بالمبيت إذن».

«لا داعي لأن تنام على أريكة غرفة المعيشة، فهناك سريرٌ في غرفة الضيوف».

«كلّا، فالنوم على تلك الأريكة مُريحٌ جدًّا، على عكس ما يَبْدو مَظهرها. وأنا أحبُّ النوم عليها منذ زمنٍ طويل».

أخرج أمادا زجاجة تشيڤاز ريغال من الكيس الورقيّ، وقطع القفل وفتح غطاءها. وأحضرتُ كأسَيْن ثمَّ أخرجتُ ثلجًا من الثلّاجة. وعندما كان يصبّ الويسكي من الزجاجة، صدر صوتٌ محبَّب، يُشبه صوتَ شخصٍ يفتح قلبه لصديقِهِ الحميم. قُمنا بإعداد المائدة ونحن نتناول الويسكي.

قال أمادا: «منذ زمنٍ طويل لم نشرب الخمر معًا بتأنٍّ».

«حقًا، هذا صحيح. كنّا في الماضي نفعلها كثيرًا».

«كلّا. بل أنا الذي كنتُ أشرب كثيرًا. فأنت لم تكن تُكثر في الشرب».

ضحكتُ وقلتُ: «ربَّما هذا صحيح من وجهة نظرك. ولكنْ من وجهة نظري، كان ذلك كثيرًا جدًّا بالنّسبة إليّ».

أنا لا أشرب الخمر لدرجة الثمالة، لأنّي أسقط في النعاس قبل أن أسقط في السكر. ولكنْ أمادا لم يكن كذلك. كان إذا نوى الشربَ، يشربُ حتى يسكر.

جلسنا إلى المائدة نأكل الساشيمي ونشرب الويسكي. في البداية، أكل كلٌّ منّا أربع محارات حيّة اشتراها أمادا مع سمكة الأُسبور، وبعد ذلك، أكلنا ساشيمي الأُسبور، الذي كان مقطّعًا لتوّه لذيذًا وطازجًا. كان محقًّا، فالسّمكة لا تزال صلبةً نوعًا ما، لكنّنا أكلناها ببطء ونحن نشرب الويسكي. وفي النهاية، أتينا على الساشيمي كلّه ولم نُبقِ على شيء. فامتلأت بطننا كثيرًا. وأكلنا جِلدَ السّمك المشويّ المُقرمش، والمُخلَّلَ الحادّ وخميرة فول الصويا؛ وأخيرًا تناولنا الحساء.

قلتُ لأمادا: «كانت وجبةً فاخرة لم أتناول مثلها منذ فترة».

«من الصّعب تناول مثل هذه الوجبة في طوكيو. يبدو أنَّ الإقامة هنا ليست بهذا السّوء. من المُمكن تناول أسماكٍ بهذا المذاق الرّائع».

«ولكنّك إن سكنت في المنطقة على الدّوام، قد يشعر رجلٌ مثلك بالملل».

«هل هي مملّة بالنّسبة إليك؟»

«لا أعرف. فأنا منذ زمنٍ طويل لا أعاني من الملل. علاوةً على أنَّ في هذا المكان تحدث أمورٌ كثيرةٌ جدًّا».

بعد انتقالي للسّكن هنا في بداية الصيف بوقتٍ قصيرٍ، تعرَّفتُ على منشكي، واكتشفنا معًا الحُفرة خلف نموذج المَعْبد، وظهر الكومنداتور بعد ذلك، وأخيرًا اقتحمت مارية أكيكاوا وعمّتها شوكو أكيكاوا حياتي. ثمّ رفَّهت عنّي صديقتي المُتزوّجة الناضجة جدًّا جنسيًّا. بل إنَّ روح توموهيكو أمادا الحيّة جاءت لزيارتي. لذا، لم يكن لديَّ وقتٌ للشعور بالملل.

قال أمادا: «على غير المتوقَّع، أنا لا أشعر بالملل ربّما. إذ كنتُ في الماضي أُمارس رياضة ركوبِ الأمواجِ بحماس. ولقد ركبت الأمواجَ كثيرًا في شواطئ هذه المنطقة. هل كنتَ تعلم ذلك؟»

قلت إنّني لم أكن أعلم. فلم أسمع عن ذلك من قبلُ بتاتًا.

«وأنا أعتقد أنّه ربّما حان الوقت للابتعاد عن المدينة، والعودة إلى مثل تلك الحياة مرّةً أخرى. الاستيقاظ في الصباح وتأمُّل البحر، فإذا كان هناك أمواجٌ جيِّدة، أحمل لوحَ الأمواج وأخرج».

لا أعتقد أنّني أستطيع فعلَ ذلك الأمر المُرهق!

سألته: «وماذا ستفعل إزاء العمل؟»

«إنَّ الذهاب إلى طوكيو مرّتَيْن في الأسبوع سَيَفِي بالحاجة. فمُعظم عملي الحالي أقوم به على الكمبيوتر. وإذا سكنتُ بعيدًا عن مركز طوكيو فلن يتأثّر العمل بصفةٍ خاصّة. ألا ترى أنَّ الحياة أصبحت أسهل؟»

«لم أكن أعلم».

نظر إليّ نظرة اليائس من محدِّثه، ثمّ قال: «إنّنا في القرن الحادي والعشرين. هل تعلم ذلك؟»

قلت: «سمعت فقط».

بعد أن أنهينا وجبةَ العشاء، انتقلنا لغرفة المعيشة واستكملنا تناولَ الخمر. كان الخريف على وشك الانتهاء، ولكنْ تلك اللّيلة لم تكن باردةً إلى درجة الاحتياج إلى إشعال مدفأة الحطب.

سألته: «بالمناسبة، كيف حال والدك؟»

تنهّد أمادا تنهيدةً صغيرة، وقال: «لا تغيير. تقطّعت أسلاكُ رأسه بالكامل. لدرجةٍ لا يستطيع التّفريق بين البيضة والخصية».

قلتُ له: «فليسقطها على الأرض: إن انكسرت فهي بيضة».

ضحك أمادا بصوتٍ عالٍ، وقال: «عندما أفكّر مليًّا، أجد أنّ الإنسان كائنٌ عجيب. كان أبي حتى سنواتٍ قليلة مَضَتْ رجلًا صلدًا صعبُ المراس، لا يأبه لضربةٍ أو رفسة. وكان رأسه صافي الذّهن، مثل السّماء في ليل الشتاء. لدرجةٍ تصيبك بالحَنَق منه. لكنّ رأسه الآن أصبح شبيهًا بثقبٍ أسود للذاكرة. وكأنّه ثقبٌ فوضويٌّ كبير ومُظلم، ظهر فجأةً في الكون»! هزّ أمادا رأسه، ثمّ تابع: «من الذي قال [إنّ الشيخوخة هي أكثر الأمور فجائيّةً قد تحصل للإنسان]».

قلت له لا أعرف. لم يسبق لي أن سمعت هذا القول. ولكنْ ربّما يكون ذلك صحيحًا. قد تكون الشيخوخة حدثًا مُفاجئًا بالنّسبة للإنسان أكثر من الموت نفسه. ربّما كان حدثًا يفوق توقّعات الإنسان. يتّضح له في أحد الأيّام فجأةً أنّ انعدام وجوده أصبح أفضل من وجوده بالنّسبة لهذا العالم، بيولوجيًّا، وكذلك اجتماعيًّا!

سألني ماساهيكو: «هل كان الحلم الذي رأيتَ فيه أبي فعلًا بتلك الواقعيّة؟»

«أجل. كان واقعيًّا لدرجةٍ لم أعتقد أنّه حلمٌ مُطلقًا».

«وكان أبي موجودًا في مَرْسم هذا البيت، أليس كذلك؟»

ذهبنا للمَرْسم. أشرتُ إلى المقعد العالي في منتصف الغرفة تمامًا، وقلت:

«كان والدُك يجلس في الحلم على هذا المقعد من دون أن يتحرّك».

ذهب أمادا بقرب المقعد، ووضع عليه راحة يده.

«من دون أن يفعل شيئًا؟»

«أجل. كان يجلس هناك من دون أن يفعل شيئًا».

في الحقيقة، كان يحدِّق بتركيزٍ من هناك على لوحة [مقتل الكومنداتور] المعلَّقة على الحائط، لكنّي لم أقل ذلك.

قال أمادا: «كان هذا أحبَّ المقاعد إلى أبي. إنّه مقعدٌ قديمٌ لا يختلف عن المقاعد الأخرى كثيرًا، لكنّه لم يشأ التّخلُّص منه. كان يجلس على ذلك المقعد دائمًا وهو يرسم، أو وهو يقلّب في فكرةٍ ما».

قلتُ له: «عند الجلوس عليه فعليًا، هو مقعدٌ مريحٌ جدًّا بدرجةٍ رهيبة».

وقف أمادا هناك لفترةٍ من الوقت، وظلَّ يُفكِّر ويده على المقعد. ولكنّه لم يحاول الجلوس عليه. ظلَّ يتأمَّل في اللَّوحَيْن الموضوعَيْن أمام المقعد العالي: [بورتريه مارية أكيكاوا]، و[حُفرة في غابةٍ بريّة]. ظلَّ أمادا يَنظر بانتباهٍ عميقٍ إلى كليْهما مستغرقًا في ذلك وقتًا طويلًا. كانت نظرة عينَيْه كأنّها تشبه عينَي طبيبٍ يبحث عن ظلالٍ دقيقة داخل صورةِ أشعَّةٍ سينيّة.

ثمّ قال: «شائق جدًّا. رائع جدًّا».

«الاثنتان؟»

«أجل. كلاهما يثير الاهتمام العميق. خاصّةً عندما يصطفّان جنبًا إلى جنب، يشعر المرء بحركةٍ عجيبة. يختلف أسلوبُ رسمِ كلٍّ منهما تمامًا عن الأخرى، ولكنْ ثمّة أثرًا في مكانٍ ما يربط اللَّوحتَيْن».

أومأتُ صامتًا. لقد كان رأيه يُطابق ما كنتُ أشعر به شخصيًا خلال الأيّام الماضية ـ شعورًا مُبهمًا.

«أعتقد أنّك بدأت تدريجيًا تُدرك مسارَك الجديد. وكأنّك على وشك الخروج أخيرًا من أعماق غابةٍ كثيفة. من الأفضل لك أن تحرص على هذا المسار».

وبقوله هذا، أخذ رشفةً من كأس الويسكي التي كان يُمسكها في يده. فأحدث الثلج داخل الكأس صوتًا جميلًا.

وقعتُ تحت إغراءٍ شديدٍ لإطلاعه على لوحة [مقتل الكومنداتور] التي رسمها توموهيكو أمادا. كنتُ أريد أن أسمع انطباع ماساهيكو أمادا عن لوحة والده. فلعلّه يقول شيئًا يمدّني بتلميحٍ هامٍّ عنها. لكنّي دفعتُ ذلك الإغراء بعيدًا في أعماق قلبي وأوقفته بشكلٍ ما.

ما زال الوقت مبكّرًا. أقنعت نفسي بقول ذلك. ما زال الوقت مبكّرًا.

خرجنا من المرسم وعدنا إلى غرفة المعيشة. يبدو أنّ الرّياح بدأت تهبّ، فهناك غيومٌ ثقيلة تتحرّك متّجهةً ببطءٍ ناحية الشمال؛ ولا يُرى القمر في أيّ مكان.

بدأ أمادا الحديث وكأنّه قد قرّر قرارًا ما: «حسنًا. لنتحدّث في المهمّ».

قلت له: «يبدو أنّه حديثٌ صعب! أليس كذلك؟»

«أجل. إنّه كذلك. بل ربّما كان صعبًا جدًّا».

«ولكنْ ثمّة ضرورة في أن أسمع ذلك الحديث».

حكّ أمادا يدَيْه بعضهما ببعض، وكأنّه ينوء تحت حملٍ ثقيلٍ ضخمٍ للغاية. وأخيرًا بدأ يتكلّم:

«إنّه حديث يتعلّق بيوزو. لقد قابلتها مرّاتٍ عديدة. حتى من قبل أن تهجر أنت بيت الزوجيّة في بداية الرّبيع من هذا العامّ، وبعد ذلك أيضًا.

كانت تقول لي إنّها تريد لقائي، فتقابلنا وتحدّثنا خارج البيت، ولكنّها طلبت منّي ألّا أُخبرك عن لقاءاتنا تلك. لم أشأ أن أجعل بيني وبينك أسرارًا، ولكنّني وعدتها بفعل ذلك».

أومأت وقلتُ له: «الحفاظ على الوعد أمرٌ مهمّ».

«لأنّ يوزو أيضًا صديقةٌ مهمّةٌ بالنّسبة لي».

قلتُ: «أعرف». كان ماساهيكو يهتمّ بأصدقائه. وأحيانًا ما تكون تلك نقطة ضعفه.

«إنّها تُقيم علاقةً مع رجل. بمعنى: رجل غيرك أنت».

«أعرف. أقصد أنّي عرفتُ بالأمر».

أومأ أمادا وقال: «حدث ذلك قبل ستة أشهر من رحيلك عن البيت. أصبحت العلاقة بينهما كما علمتَ. وكانت يوزو تعاني في كيفيّة إبلاغك بذلك الأمر، وكنتُ أعرف الرجل. إنّه زميلٌ لي في العمل».

تنهّدتُ تنهيدةً صغيرة، وقلت: «أستطيع أن أتخيّل أنّه رجلٌ وسيم، أليس كذلك؟»

«أجل. بالضّبط. إنّه رجلٌ جميلُ الوجه جدًّا، لدرجةٍ أنّه اكتُشف أثناء دراسته في الجامعة وعمل لبعض الوقت موديلًا فنّيًا. ولكي أكون صادقًا، أنا السّبب في معرفة يوزو بذلك الرجل».

التزمتُ الصّمت.

فقال أمادا: «بالتّأكيد كان الأمر صدفةً عارضة، ولم يكن في نيّتي ذلك القصد».

«نقطة ضعف يوزو الأساسيّة منذ زمنٍ بعيد هي الرجل الوسيم. وهي تعترف بنفسها أنّ الأمر مرضٌ مزمنٌ لدَيْها».

قال ماساهيكو: «أعتقد أنَّ وجهك ليس بهذا السُّوء».

«أشكرك. أعتقد أنّني سأستطيع النوم نومًا عميقًا هذه اللّيلة».

التزمنا الصّمت لفترة، ثمّ تكلّم أمادا:

«على أيِّ حال، ذلك الرجل وسيمٌ جدًّا. وبالإضافة إلى وسامته، كان إنسانًا جيّدًا. لا أعتقد أنَّ قول ذلك سيُسعدك، ولكنَّ الرَّجلَ الوسيمَ أحيانًا ما يكون عنيفًا، أو يكون له علاقاتٌ نسائيّة كثيرة، ولكنّه ليس من هذا النوع من الرجال».

قلتُ: «هذا أفضل شيء»، كان في صوتي نبرةُ سُخرية، ولكنّني لم أقصد ذلك مُطلقًا.

قال أمادا: «حدث ذلك في شهر سبتمبر من العام الماضي على ما أذكر، كنتُ معه وتقابلنا عن طريق الصُّدفة البحتة مع يوزو في مكانٍ ما. كنّا في وقت الغداء، فقرَّرنا أن نتناول الطعام معًا في أحد المطاعم المجاورة. ولم يخطر ببال أحدٍ طبعًا أن يُصبح الاثنان على علاقة كتلك التي نشأت. فهو يصغر يوزو بخمس سنوات».

«ولكنّهما تحابّا بسرعة».

قام أمادا بحركةٍ صغيرة بكتفَيْه تدلّ على الاستهجان. يبدو أن تلاحق الأحداث كان سريعًا.

قال: «جاء الرجل ليستشيرني، وجاءت زوجتك كذلك لتستشيرني. وبذلك وُضِعتُ في موقفٍ بالغ الحساسيّة، لا أُحسَد عليه».

التزمتُ الصّمت، لأنّني أعلم أنَّ أيَّ شيءٍ كنتُ سأقوله سيجعلني أبدو غبيًّا.

سكت أمادا لفترةٍ، ثمّ قال: «في الواقع إنّها حامل الآن».

انعقد لساني لوهلة. ثمّ قلتُ: «حامل؟ يوزو حامل؟»

«أجل. في شهرها السابع».

«وهل حملت بناءً على رغبتها؟»

هزّ أمادا رأسه، وقال: «لا علم لي بذلك. ولكنْ يبدو أنّها قرّرت أن تَلِدَ الطفل على كلّ حال. فهي في الشهر السابع ولا يوجد حلول أخرى».

«لقد ظلّت طوال الوقت تقول لي إنّها لا تريد أن تنجب أطفالًا بعد».

نظر أمادا داخل الكأس، ثمّ تجهّم وجهه قليلًا، وقال: «أليس هناك أيّ احتمال أن يكون ذلك الجنين طفلك أنت؟»

حسبتُ الشهور في رأسي سريعًا، ثمّ هززتُ رأسي وقلتُ: «دعنا من الناحية القانونيّة، ولكنْ من الناحية البيولوجيّة فالاحتمال صفر. لقد رحلتُ عن البيت منذ ثمانية أشهر. ومنذ ذلك التاريخ، لم نتقابل مُطلقًا».

قال أمادا: «إن كان كذلك، فلا بأس. في أيّ حال، يوزو تستعدّ للولادة الآن، وطلبتْ منّي أن أخبرك بذلك، وأنّها لا تريد أن يُؤسفك الأمر».

«لماذا تريد أن تُخبرني بذلك على وجه الخصوص؟»

هزّ أمادا رأسه، وقال: «لا أدري. ربّما اعتقدتْ أنّ آداب السُّلوك تُحتّم إعلامك بذلك الخبر».

التزمتُ الصّمت. آداب السُّلوك؟!

قال أمادا: «على أيّ حال، أردتُ أن أعتذر لك بجدّيّة بهذا الخصوص. أعتذر لك أنّني لم أستطع إخبارك بمعرفتي بأنّ يوزو على علاقةٍ بزميلٍ لي في العمل. اضطرّتني الظروف لذلك».

«أمن أجل هذا سمحتَ لي بالإقامة في هذا البيت، تكفيرًا عن ذلك؟»

«إطلاقًا. ليس للموضوع شأن بيوزو. لقد عاش والدي هنا لفترةٍ طويلة جدًّا، يرسم اللُّوحات. ففكَّرتُ أنَّك ستُكمل تلك المسيرة على أكمل وجه. ولا يُمكن لي أن أؤمِّن على البيت مع أيِّ شخصٍ اعتباطًا».

لم أردَّ؛ لم يَبْدُ لي كلامه كذبًا.

أكمل أمادا:

«بغضِّ النَّظر، فلقد وضعتَ خاتمك على أوراق الطلاق التي أُرسلت إليك، وأعدتَ إرسالها إلى يوزو. أليس هذا ما حدث؟»

«إن شئت الدِّقة، أعدتُها إلى مكتب المحاماة. لذا، فالأرجح أنَّ الطلاق بيننا بات رسميًا. وقد يختار الاثنان الوقت المناسب للزواج قريبًا».

ثمَّ يؤسِّسان بيتًا وأسرةً سعيدة. يوزو صغيرة الحجم والأب الوسيم فارع القوام والطفل الوليد. ويتنزَّه الثلاثة في صباحِ يومِ أحدٍ صحو بانسجامٍ وسعادة في إحدى الحدائق العامَّة القريبة من بيتهم. يا له من مشهدٍ يُثلج الصدر!

صبَّ أمادا مزيدًا من الويسكي في كأس كلٍّ منَّا بعد أن أضاف قطعًا من الثلج فيهما. ثمَّ أخذ كأسه ورشف منها.

نهضتُ من على المقعد وخرجتُ إلى الشُّرفة، وتأمَّلتُ بيت منشكي الأبيض على الجهة المقابلة من الوادي. بدت بعضُ النوافذ مُضاءةَ الأنوار. تُرى ماذا يفعل منشكي هناك في تلك اللَّحظة؟ وما الذي يفكِّر فيه؟

لقد أصبح هواء اللَّيل حينها بالغ البرودة. تهتزّ أغصان الأشجار التي سقطت أوراقُها اهتزازًا ضئيلًا مع الرِّياح. عُدتُ إلى غرفة المعيشة، وجلستُ مرَّةً أخرى على الأريكة.

«هل ستغفر لي ما فعلتُ؟»

هززتُ رأسي، وقلتُ: «لم يحدث ما حدث بسبب خطأٍ من أحد».

«يؤسفني أن تصل الأمور إلى تلك الخاتمة. لقد كنتَ أنت ويوزو زوجَيْن مثاليَّيْن، وبدا أنّكما تعيشان في سعادة. يُؤسفني أن يؤول الأمر بينكما إلى هذا الشّكل المأسويّ».

قلت: «فلنُسقطها على الأرض: إن انكسرت فهي بيضة».

ضحك ماساهيكو ضحكةً لا قوّة فيها، وقال: «حسنًا، ما الوضع الآن؟ ألا ترتبط حاليًا بامرأةٍ أخرى بعد انفصالك عن يوزو؟»

«لا يعدم الأمر وجودُ امرأة».

«ولكنْ يوزو مختلفة؟»

«أعتقد أنّها مختلفة. ثمّة شيءٌ لا يتغيَّر هو ما أحتاجه من المرأة منذ وقتٍ طويل. وكانت يوزو هي من لدَيْها ذلك الشيء».

«ولم تعثر عليه عند امرأةٍ أخرى؟»

هززتُ رأسي، وقلت: «حتى هذه اللّحظة، لا».

قال أمادا: «حالتك صعبة. بالمناسبة، ما ذلك الشيء الذي تحتاجه من المرأة؟»

«لا أستطيع وصفه بالكلمات جيّدًا. ولكنّه شيءٌ فقدته في منتصف حياتي لسببٍ لا أعرفه، وأعتقد أنّني ظللتُ أبحث عنه بعد ذلك لفترةٍ طويلة. أليس جميع البشر يقعون في حبِّ شخصٍ ما بالطريقة نفسها؟»

قال ماساهيكو وعلى وجهه تعبيرات متجهّمة قليلًا: «ربّما لا يُمكننا القول: جميع البشر. بل على العكس: أليس ذلك النوع من البشر هم الأقليّة؟ ولكنْ إن لم تستطع وصفه بالكلمات، أليس من الأفضل التّعبيرُ عنه بالرّسم؟ ألستَ رسّامًا؟»

قلتُ: «من السّهل أن أقول إنّي قادرٌ على رسمه! ولكنْ من الصّعب تنفيذ ذلك على أرض الواقع».

«ربّما كانت المحاولة قيّمةً بحدّ ذاتها».

«ربّما كان على القبطان أهاب مطاردةُ سمك السّردين».

ضحك ماساهيكو عندما سمع ذلك، وقال: «قد يكون صحيحًا من وجهة نظر السّلامة. ولكنْ، لن يولد فنٌّ من ذلك».

«أرجوك، امتنع عن هذا. فبمجرّد ظهور كلمة «فنّ» سينتهي الحوار».

قال وهو يهزّ رأسه: «يبدو أنّه من الأفضل لنا تناول الويسكي»، ثمّ صبّ الويسكي في كأسَيْنا.

«لا أستطيع شرب كلّ هذه الكمّيّة. عليّ أن أعمل في صباح الغد».

«دع شأن الغد للغد. فليس هناك اليومَ إلّا اليوم، أليس كذلك؟»

كان لتلك الكلمات قوّةُ إقناعٍ عجيبة.

«لي عندك رجاء» قلتُ عندما حان موعد النوم وإنهاء السهرة. فعقارب الساعة تشير إلى ما قبل الحادية عشرة بقليل.

«اطلب أيّ شيء، إن كنتُ أستطيع فعله».

«أريد أن أقابل والدَك لو أمكن. هل يمكن أن تصحبني معك عند زيارتك له في المرّة القادمة؟»

نظر أمادا إليّ بعينيْن كأنّهما تنظران إلى كائنٍ حيّ نادر الوجود، وقال: «تريد أن تقابل والدي؟»

«إن كان ذلك لا يُحرجك».

«لا إحراج بالطبع. لكنّ أبي حاليًا ليس في وضعٍ يُسمح له بإجراء حوارٍ عقلانيّ. إنّه واقعٌ في فوضى عقليّة، حالة مخّه تشبه مستنقعَ وحلٍ تقريبًا. ولذا، إن كنتَ تأمل في حوارٍ معه... أيْ إن رغبتَ في تعلُّم شيءٍ له معنى من توموهيكو أمادا، ربّما تُصاب بخيبة أملٍ صاخبة».

«ليس لديَّ أملٌ في شيءٍ من هذا القبيل، سوى أنّي أمتلك رغبةً في لقاء والدك شخصيًّا ولو لمرّةٍ واحدة فقط ورؤية وجهه كما ينبغي».

«لِمَ؟»

أخذتُ نَفَسًا وجلتُ بنظري في غرفة المعيشة، ثمّ قلت: «لقد مرّت ستّة أشهر وأنا أعيش في هذا البيت. أرسمُ اللّوحاتِ في مَرْسم والدك جالسًا على مقعده الأثير، وأتناولُ الطعام بالأدوات التي كان يستخدمها، وأستمعُ إلى أسطواناته الموسيقيّة. وعندما أفعل ذلك أشعر بروحه عالقةً في كلّ مكان، وأشعر أنّه يتوجّب عليّ أن ألتقي تومو هيكو أمادا فعليًّا ولو مرّةً واحدة. بلا ضرورةٍ لإجراء حوار».

قال أمادا وقد بدا عليه الاقتناع: «إن كان الأمر كذلك فلا اعتراض. لن يستقبلك بترحاب، لكنّه لن يرفض مجيئك؛ لأنّه لم يَعُد يفرّق بين شخصٍ وآخر. لذا، لا مشكلة في أن أصحبك معي. أعتقد أنّني سأذهب إليه قريبًا. فلقد أخبرني الأطبّاء أنّه لم يَعُد أمامه وقتٌ طويل. فهو في حالةٍ قد يحدث فيها أيُّ شيء في أيِّ وقت. سأصحبك معي إن لم تكن مشغولًا».

أحضرت البطّانيّة والوسادة المجهّزة للطوارئ، وأعددتُ أريكة غرفة المعيشة للنوم. ثمّ نظرتُ مرّةً أخرى حولي في أرجاء الغرفة، وتأكّدتُ من عدم وجود الكومنداتور. فإن استيقظ أمادا ليلًا، ورآه ـ وهو بملابس عصر أسكا وطوله ستّون سنتيمترًا ـ فلا بدّ أنّه سيفقد الوعي من المفاجأة. وربّما يظنّ أنّه تسمّم من الكحول!

وإضافةً إلى الكومنداتور، كان في البيت أيضًا «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء». تلك اللّوحة مقلوبة على ظهرها حتى لا يراها أحد. ولكنّي لا يُمكن لي أن أعرف ما الذي يحدث خلف ظهري وسط ظلامِ منتصفِ اللّيل!

قلتُ لأمادا: «أتمنّى أن تنام نومًا عميقًا حتى الصباح»، وكانت تلك الكلمات من أعماق قلبي. ثمَّ أعرته منامةً زائدة لديَّ. لا مشكلة في المقاس لأنّنا من الحجم نفسه تقريبًا. نزع ملابسه وارتدى المنامة ودخل الفراش الذي أعددته له. كان هواء الغرفة قد بدأ يبرد، ولكنَّ الفراش بدا دافئًا بما فيه الكفاية.

سألني في النهاية: «ألستَ غاضبًا منّي؟»

فقلت له: «لا، لستُ غاضبًا».

«ولكنّك قد جُرحتَ قليلًا، أليس كذلك؟»

وافقته على ذلك قائلًا: «ربّما».

يُفترضُ أنّني لديَّ الحقّ في أن أشعر بأنّي جُرحت.

«ولكنْ ما زال في الكوب واحد على ستّة عشر من الماء».

قلتُ له: «بالضّبط».

بعد ذلك، أطفأتُ إضاءة غرفة المعيشة، وذهبت لغرفتي. خلدتُ سريعًا إلى النوم بقلبٍ جُرِحَ جِراحًا طفيفة.

- 43 -

يستحيل أن ينتهي ذلك بمجرَّد حلم

عندما استيقظتُ، كان النور قد عمَّ المكان تمامًا. كانت السّماء مغطَّاةً تمامًا بغيومٍ رقيقةٍ رماديَّةٍ متماسكة؛ ومع ذلك، كانت الشمس تَنْشر أشعَّتها العميقة المُباركة على الأرض بشكلٍ باهتٍ في هدوء. كانت السّاعة قبل السابعة بقليل.

بعد أن غسلتُ وجهي في الحمَّام أعددتُ آلة تحضير القهوة، ثمَّ ذهبت لرؤية الوضع في غرفة المعيشة. كان أمادا ينام نومًا عميقًا على الأريكة ملتحفًا بالأغطية. ولا يبدو عليه أيَّةُ بادرةٍ أنَّه سيستيقظ، وفوق الطاولة التي بجانبه، زجاجةُ تشيفاز ريغال التي فرغت تقريبًا. تركته على حاله، وأخذت الزجاجةَ والكأسَيْن.

على الرّغم من أنّي شربتُ كمّيَّةً لا بأس بها من الويسكي، ما من أثرٍ لبقاء سكْرة اليوم التالي. كان رأسي منتعشًا كما اعتدتُ في الصّباح. وكذلك ليس هناك إحساسٌ بحَرَقانٍ في الصدر. لم أمرّ بتجربة ما يُسمَّى سكرة اليوم التالي منذ ولادتي. ولم أعرف سببًا لذلك. قد يتعلّق الأمر بتركيبة جسمي التي وُلدتُ بها. أيًا كانت الكمّيّة التي أشربها، يختفي تمامًا أيُّ أثرٍ للكحول عندما أنام وأستقبلُ الصّباح. وأستطيع البدء في العمل مباشرةً بعد تناول الفطور.

حمَّصتُ شريحتَيْن من الخُبز وقليتُ بيضتَيْن، وتناولتُ الفطور وأنا أستمع إلى نشرة الأخبار ونشرة الأرصاد الجويّة من المذياع. تذبذبتْ أسعار البورصة تذبذبًا شديدًا، وتمّ الكشف عن تورُّط عضوٍ في البرلمان في فضيحة، ووقعتْ حادثة انفجارٍ إرهابيّة هائلةُ الحجم في مدينةٍ بالشرق الأوسط، مات وجُرِح جرّاءها عددٌ كبيرٌ من الناس. كالعادة، لا خبرًا يسعد القلب. لكنّ الأحداث لم يكن لها تأثيرٌ سلبيٌّ على حياتي مباشرةً. فحتى اللّحظة، كانت كلّ تلك الأخبار تأتي من عالمٍ بعيدٍ مجهول، لأناسٍ غرباءَ لا أعرفهم. أشعر بالأسى تجاههم طبعًا، لكنّي ليس بيدي شيءٌ أستطيع فعله لهم الآن. ألمحتْ نشرة الأرصاد الجويّة إلى أنّ الطقس سيكون معتدلًا. لن يكون طقسًا رائعًا وصحوًا، لكنّه ليس في غاية السّوء. ربّما تظلّ الغيوم الخفيفة طوال اليوم، وعلى الأرجح لن تسقط الأمطار. ربّما. ولكنْ لا يستخدم الأذكياء من موظّفي هيئة الأرصاد أو المذيعون كلمةَ «ربّما» مُطلقًا. فمن أجل هذا تحديدًا يُستَخدم التّعبير المُفيد (الذي لا يُحمّل أحدًا أيّ مسؤوليّة) ألا وهو «نسبة هطول المطر».

أطفأتُ المذياع بعد انتهاء نشرة الأخبار والأرصاد الجويّة، وغسلت الأطباقَ وأدواتِ الطعامِ التي استعملتها أثناء الفطور. وبعد ذلك، جلست إلى مائدة الطعام، أفكّر وأشرب الكوبَ الثاني من القهوة. إنّه الوقت الذي يفرد فيه الشخص العاديّ جريدة الصّباح التي وصلت إلى البيت توًّا، ويقرأها. ولكنّي لستُ مشتركًا بخدمة توصيل الصحف للمنازل. لذا، لم يكن أمامي سوى شرب القهوة والتّفكير والتّأمُّل بشجرة الصفصاف العملاقة خارج النافذة.

فكّرتُ أوّلًا في زوجتي التي (يُقال إنّها) على وشك أن تَلِد. وانتبهتُ فجأةً أنّها لم تَعُد زوجتي. لم يَعُد بيننا رابطٌ من أيِّ نوع. لا قانونيًّا، ولا حتى

إنسانيًا. لعلّي أصبحتُ إنسانًا غريبًا عنها تمامًا، لا أعني لها شيئًا. فراودني شعورٌ غريبٌ: على الرّغم من أنّنا كنّا نتناول الفطور كلّ صباح منذ أشهرٍ عدّةٍ فقط، ونستخدم الصابونة والمنشفة نفسها، ويرى كلٌّ منّا الآخر عاريًا، وننام على سريرٍ واحد؛ فقد صرنا الآن غرباء لا تربطنا أيُّ علاقة.

أثناء تفكيري في ذلك، بدأتُ تدريجيًا أفكّر في أنّ وجودي ليس له معنى، حتى بالنّسبة إليّ شخصيًا. وضعتُ يديّ على المائدة، وتأمّلتهما لفترةٍ من الوقت. هاتان اليدان يداي بلا شكّ. تأخذ اليد اليُمنى واليد اليُسرى الشكل المتناظر نفسه تقريبًا. إنّي باستخدام هاتَيْن اليدَيْن، أرسم اللّوحات، وأطبخ الطعام وآكله، وأحيانًا أداعبُ بهما النساء. ولكنّهما في ذلك الصباح، بدتا لإنسانٍ غريبٍ عنّي لا أعرفه ولم أره من قبل. توقّفتُ عن تأمّل يديّ. وتوقّفتُ عن التّفكير في المرأة التي كانت زوجتي في الماضي. ونهضتُ أمام مائدة الطعام، ثمّ ذهبتُ إلى الحمّام وخلعتُ المنامة، وأخذتُ حمّامًا ساخنًا. غسلتُ شعري بعنايةٍ بالغة، وحلقتُ لحيتي أمام الحوض. ثمّ فكّرتُ مرّةً أخرى في يوزو التي على وشك أن تَلِدَ طفلًا - ليس طفلي. لم أشأ التّفكير فيها، لكنّي لم أستطع.

إنّها حامل في الشهر السّابع تقريبًا. سبعة أشهر، أيْ في منتصف أبريل. أين كنتُ في منتصف أبريل وماذا كنتُ أفعل؟ لقد تركتُ بيت الزوجيّة بمفردي في منتصف شهر مارس، وخرجتُ وحيدًا في سفرٍ طويل. قدت سيّارة بيجو 205 القديمة من دون هدفٍ محدّد في إقليم طوهوكو وجزيرة هوكايدو. ثمّ أنهيتُ السّفر وعدتُ إلى طوكيو في بداية شهر مايو. أمّا منتصف أبريل، فكنتُ أعبر من هوكايدو إلى أوموري. استخدمتُ العبّارة البحريّة من مدينة هاكوداته إلى مدينة أوما في شبه جزيرة شيموكيتا.

أخرجتُ من عمق دُرْج المكتب اليوميّاتِ البسيطةَ التي كنتُ أسجّلها أثناء سفري، وبحثتُ فيها عن المكان الذي كنتُ فيه خلال ذلك الوقت

تقريبًا. كنتُ حينذاك قد ابتعدتُ عن ساحل البحر، أتنقّل بين هنا وهناك في المناطق الجبليّة بمحافظة أوموري. كان قد مرَّ على شهر أبريل نصفُه، لكنَّ المناطق الجبليّة كانت لا تزال باردة، والثلوج لا تزال تغطّيها. لا أذكر الآن سبب ذهابي إلى تلك المناطق الباردة تحديدًا. لا أذكر اسم المكان بدقّة، لكنّي أذكر أنّي أقمتُ لأيّامٍ عدّةٍ متتالية في فندقٍ صغير لا يرتاده أحد تقريبًا، بالقرب من بُحيرة. كان الفندق مبنيًا من الخرسانة الغليظة، وكان الطعام في غاية التواضع (ولكنّه لم يكن سيّئ الطعم)، لأنَّ أُجرة المبيت كانت رخيصةً بدرجةٍ تثير الدّهشة. بل وكان في الحديقة ينبوعٌ صغيرٌ للمياه السّاخنة يمكن الاستحمام بها طوال اليوم. وقد افتُتح في موسم الرّبيع توًّا، وأعتقد أنّه لم يكن فيه زبائن غيري تقريبًا.

لسببٍ مجهول، كانت ذاكرتي أثناء السّفر ضبابيّةً للغاية. وكلُّ ما كتبته في المُفكرة، التي كنتُ أستخدمها بدلًا من اليوميّات، عبارةٌ عن أسماء الأماكن التي زرتها، والمنشآت التي أقمتُ فيها، والوجبات التي تناولتها، والمسافة التي قطعتها بالسيّارة، ونفقات اليوم، فقط لا غير. وكانت الأوصاف بحسب المزاج، وفي منتهى الاقتضاب. لم أجد أثرًا للانطباعات أو المشاعر في أيِّ مكانٍ منها. على الأرجح، لم يكن هناك ما ينبغي كتابته في هذا المجال. لذا، عندما أعيد قراءة اليوميّات، لا أستطيع التّفريق بين يومٍ وآخر. وحتى مع قراءة اسم المكان، لا أستطيع تذكُّر أيِّ مكانٍ هو. بل هناك أيّامٌ كثيرة لم أسجّل فيها أسماء الأماكن التي زِرتها. المناظر المتشابهة نفسها، والأطعمة نفسها، والطقس نفسه (لم يكن هناك إلّا نوعان من الطقس: إمّا باردٌ جدًّا، أو ليس باردًا إلى هذا الحدّ). ما أستطيع تذكُّره الآن، هو ذلك الإحساس بالرتابة والتكرار.

أعادتْ مناظر الأشياء التي رَسمتها في دفتر الرّسم إليّ الذاكرة واضحةً أكثر من اليوميّات (لم أحمل كاميرا، لذا لم تتبقّ صورةٌ فوتوغرافيّةٌ واحدة.

لكنَّ الرُّسومات كانت بديلًا عن ذلك). ورغم هذا، لم أرسم كثيرًا أثناء تلك الرحلة. عندما كنت أجد وقت فراغ، أمسك قلمَ رصاصٍ قصيرًا أو قلمًا جافًا، وأرسم ما أراه أمام عينيّ كيفما اتّفق. الأزهار والأعشاب على قارعة الطريق، الكلاب والقطط، أو منظر سلاسل الجبال. وأحيانًا، عندما يخطر ببالي، أرسم وجوه الناس من حولي. وقد طلبها منّي معظم أصحابها فأعطيتها لهم.

في دفتر اليوميّات، بتاريخ 19 أبريل، وجدتُ عنوانًا: «اللّيلة الماضية ـ حلم». ولم أكتب تحته أيَّ شيء. كان ذلك أثناء إقامتي في الفندق. وقد ظلّلتُ العنوان بخطٍّ سميكٍ بالقلم الرصاص B2. فلا بُدَّ أنّه حلمٌ يحمل لي معنًى خاصًا، بما أنّني كتبته وظلّلته. ورغم ذلك، استغرقتُ وقتًا في تذكُّر الحلم الذي رأيته هناك. وبعدها، عادت الذاكرة عودةً كاملة: لقد رأيتُ في وقتٍ يقارب الفجر حلمًا جنسيًا في غاية الوضوح والواقعيّة.

كنتُ في الحلم في شقّة هيرُو: الشقّة التي عشتُ فيها مع يوزو ستّ سنوات. هناك سريرٌ وزوجتي نائمة عليه. وكنتُ أرى ذلك المشهد من أعلى السقف. كأنّي كنتُ طائرًا في الهواء. لكنّي لم أكن أشعر بأيّ غرابة في ذلك. ففي الحلم، كان من الطبيعيّ أنّني قادرٌ على الطيران في الهواء. ولم يكن الأمر مستغربًا. ولا حاجة للتّأكيد بأنّي لم أكُن أعتقد بأنّي أحلم. فكان طيراني أمرًا يحدث فعليًا على أرض الواقع تمامًا.

نزلتُ من السقف بهدوءٍ شديد كيلا أوقظ يوزو. ثمّ وقفتُ عند أقدام السّرير. كنتُ متهيّجًا اهتياجًا شديدًا، لأنّني لم احتضن جسدها لفترةٍ طويلة جدًّا. كشفتُ الغطاءَ عنها بِرفق. وكان يبدو أنَّ يوزو تنام نومًا عميقًا (ربّما تناولت أقراصًا منوّمة)، لذا لم يكن هناك أيّ بادرةٍ على استيقاظها رغم كشف غطائها تمامًا، ولم تُحرّك ساكنًا؛ لذا أصبحتُ أكثر جراءة. فخلعت عنها سروال منامتها وملابسها الداخليّة ببطءٍ مستغرقًا في ذلك وقتًا طويلًا.

كانت المنامة بلونٍ أزرق فاتح وملابس داخليّة قطنيّة بيضاء. ومع ذلك، لم تستيقظ. ولم تُقاوم أو يرتفع لها صوت.

باعدتُ بين فخذَيْها بلطف ولمستُ فرجها بأصابعي. كان مواربًا وحارًّا ورطبًا. وكأنّه كان ينتظر منّي أن ألمسه. وعندها لم أستطع الصَّبر، فأولجت فيه عضوي المُنتصب. أو بالأحرى، استقبل فرجُها ذَكَري وابتلعه كما لو كان زبدةً ساخنة. لم تستيقظ، لكنّها أطلقت تنهيدةً وصَدَرَ عنها صوتٌ خافتٌ. صوتٌ يدلُّ على أنّها كانت تنتظر بشوق أن يُفعَلَ بها ما فُعِل. وعندما لمستُ ثديَها بيدي، عرفتُ أنَّ حلمتها صلبةٌ مثلَ بذور الفاكهة.

عندها، فكّرتُ أنّها ربّما كانت تحلم حلمًا عميقًا. وربّما كانت في الحلم تخلط بيني وبين رجلٍ آخر. وذلك لأنّها كانت منذ وقتٍ طويل ترفض أن تُجامعني. ولكنْ أيًّا كان الحلم الذي تراه، وأيًّا كان خلطها بيني وبين رجلٍ آخر في الحلم، فأنا بالفعل كنت ألحُّ بها ولا أستطيع التوقُّف عمّا أفعله. لو استيقظت يوزو أثناء الجُماع، وعرفت أنّني أنا الذي يُجامعها ربّما أُصيبت بصدمة، أو ربّما تغضب غضبًا شديدًا. ولكنْ لم أكن لأفكّر في ذلك وقتها. ليس أمامي سوى المواصلة بما أنا فيه حتى النهاية. كان رأسي في حالةٍ تشبه فيضان نهرٍ بعد انهيار سدٍّ من شدّة الشهوة الطاغية.

كنتُ في البداية، لئلّا أوقظ يوزو النائمة، أتلافى الإفراط في الإثارة، وأحرّك ذَكَري ببطء. ثمّ أصبحت الحركة سريعة تلقائيًّا. فمن الواضح أنَّ لحم جسدها من الداخل يستقبل قدومي بترحاب، ويطلب حركةً أعنف. وبعد فترةٍ قصيرة، جاء وقت القذف. كنتُ أريد البقاء داخلها وقتًا أطول، ولكنْ من المُحال أن أسيطر على نفسي. فقد جاء ذلك الجُماع بعد فترةِ انقطاعٍ طويلة جدًّا بالنِّسبة إليّ. ورغم كونها نائمةً، فلقد أظهرت إيجابيّةً وتفاعلًا لم تُظهره لي من قبل.

كان القذف عنيفًا وتكرّر مرّةً بعد مرّة. فاض المنيُّ داخلها، وتدفّق خارج فرجها، وبلّل ملاءة السّرير بللًا لَزِجًا. ولم أكنِ قادرًا على إيقافه حتى لو رغبتُ. وكانت كمّيّة المنيّ كثيرةً حتى قلقتُ أنّي سأفرغ من كلّ محتواي لو استمرّ القذف بهذه الحال. ومع ذلك، ظلّت يوزو نائمةً بعمق، من دون أن تُصدر صوتًا أو تضطرب في تنفّسها. ومن جهةٍ أخرى، لم يُبادر مهبلها بإطلاق سراحي. كان ينقبض بعنف، بإرادةٍ واضحةٍ ومؤكّدة، عازمًا على حلب المنيّ منّي بلا توقّف.

وهنا، استيقظتُ من نومي فجأة. ثمّ انتبهت إلى أنّني قذفتُ بالفعل. وأنّ ملابسي الدّاخليّة مبلّلة جدًّا. نزعتها عنّي سريعًا كي لا تبلّل الفراش، وغسلتها في حوض الحمّام، ثمّ خرجتُ من غرفتي ودخلتُ ينبوع المياه الساخنة في الحديقة من الباب الخلفيّ. ولأنّه حمّام في الهواء الطلْق بدون جدران أو سقف، يشعر المرء بالبرودة حين يدخل الينبوع، وبمجرّد دخوله في الماء يدفأ جسمُهُ حتى النخاع.

غطستُ في الحمّام وحيدًا في وقت الفجر الهادئ، وأنا أستمع إلى قطرات الماء المتساقطة التي تنتج من ذوبان الثلوج بسبب بخار النبع السّاخن. تذكّرت ذلك المشهد مرّاتٍ ومرّات. ولأنّها كانت ذكرى متضمّنةً لأحاسيسَ حيّةٍ للغاية، فلم أعتقد مُطلقًا أنّها كانت حُلمًا. لقد ذهبتُ حقًّا إلى شقّة هيرُو، وجامعتُ يوزو حقًّا. لم أستطع إلّا تصديق ذلك. فلقد كانت يداي ما زالتا تتحسّسان مَلْمَس بشرتها الناعمة، وذَكَري ما زال يتحسّس لحمَ فرجها. كان مهبلها يطالب بي بإصرار، ويتشبّث بي بقوّة (أو ربّما كانت تخلط بيني وبين رجلٍ آخر، ولكنْ بأيِّ حالٍ، كنتُ شريكها). لقد قبض عضو يوزو التناسليّ حول ذَكَري بقوّةٍ محاوِلًا أن يحصل على كلّ منيّه بدون أن يترك منه قطرة.

ولم أتمكّن من إبعاد الشّعور بالذّنب فيما يخصّ ذلك الحلم (أو ما يبدو أنّه حلم). بمعنى أنّني اغتصبتُ زوجتي عنوةً في خيالي. خلعت عنها ملابسها وهي نائمة، وأدخلتُ فيها ذَكَري من دون موافقة منها. وفي بعض الحالات، يعتبر القانونُ الجنسَ الذي لا يحصل على قبول الشريك عنفًا حتى لو كان بين زوجَيْن. وبهذا المعنى، لا يُمدَح الفعل الذي ارتكبته. ولكنَّه في نهاية المطاف، وبنظرةٍ مُحايدة، مجرَّد حلمٍ ليس إلَّا. تجربةٌ خُضتَها أثناء نومي. ويطلق الناس على تلك التجربة اسم الحلم. ولم أصنعه بنفسي، ولم أتعمَّد صنعه. ولم أكتب نصَّه بنفسي.

ورغم ذلك، فمن المؤكّد أنّني كنتُ أبتغي ذلك الفعل وأريده. وإن وُضِعْتُ في الواقع ـ لا في الحلم ـ في الموقف نفسه، ربَّما فعلت الأمر ذاته. ربّما كنتُ سأنزع عنها ملابسها وهي نائمة، وألجُ بها من دون موافقتها المسبقة. فقد كنتُ أريد احتضان جسد يوزو والدخول فيه. لقد كنتُ غارقًا في تلك الرّغبة المحمومة. ولا بدَّ أنَّ تحقيق الرّغبة بالحُلم جاء بصورةٍ مُبالغٍ بها عن الواقع (أو لا يُمكن تحقيقُها إلّا في الأحلام).

لقد أعطاني هذا الحلم الجنسيّ شعورًا بتحقيق نوعٍ من أنواع السّعادة، خلال فترةٍ من الوقت كنتُ فيها أسافرُ بمفردي بوحدةٍ طاغية. هل يمكن القول إنَّه شعورٌ بالارتقاء؟ كلَّما تذكّرت ذلك الحلم أحسست أنّي مُرتبط عضويًا بهذا العالم ككائنٍ حيّ. ليس منطقيًا ولا نظريًا ولا فكريًا بل مُتَّصلٌ بهذا العالم من خلال شعورٍ حسّيّ حتى النهاية.

ولكنْ في الوقت نفسه، عندما أفكّر أنَّ شخصًا ما ـ رجلًا غيري لا أعرفه ـ يتذوّق ذلك الشعور على أرض الواقع، ألا وهو شريك يوزو، أحسّ بألمٍ يطعن قلبي. يلمس ذلك الرجل حلمةَ يوزو التي انتصبت، وينزع عنها ملابسها الدّاخليّة البيضاء الناعمة، ويُولج عضوه في فرج يوزو الرّطب، ويكرّر

القذف مرّاتٍ ومرّات. عندما أتخيّل هذا المشهد، أشعر بأنّ الدّماء تنزف في داخلي. وكان هذا الشعور يراودني لأوّل مرّةٍ في حياتي (على حدّ ما أذكر).

هو ذاك الحلم الغريب الذي رأيته في فجر يوم 19 أبريل. ثمّ كتبتُ في يوميّاتي كلمة «اللّيلة الماضية ـ حلم»، وظلّلته بقلم رصاصٍ سميك من نوع B2.

ثمّ حملتْ يوزو جنينًا في الوقت نفسه بالضّبط. بالتّأكيد، لا يُمكن تحديد يوم تخصيب البويضة بدقّةٍ متناهية. ولكنّه قد يكون في الفترة نفسها تقريبًا.

تذكّرتُ أنّ الأمر يشبه ما رواه لي منشكي. لكنّ منشكي جامع المرأة في مكتبه فعلًا. لم يكن حُلمًا. ثمّ حملتْ جنينًا في الوقت نفسه. وبعد ذلك مباشرةً، تزوّجت رجلًا ثريًا يكبرها في العمر، وبعد فترة، ولدت مارية أكيكاوا. لذا، هناك قرائن معتبرة لكي يفكّر منشكي بأنّ مارية قد تكون ابنته. ربّما كان احتمالًا ضئيلًا جدًّا، إلّا أنّه ليس مستحيلًا واقعيًا. أمّا في حالتي، فكان الجُماع في تلك اللّيلة، بيني وبين يوزو، لا يزيد عن مجرّد حدثٍ وقع في حلم. وكنتُ وقتها وسط جبال محافظة أَوموري فيما كانت يوزو (على الأرجح) وسط طوكيو. وعليه، ليس هناك أدنى احتمال لأن يكون الطفل الذي ستَلِدُه يوزو قريبًا طفلي. هذا أمرٌ محسومٌ تمامًا من ناحية المنطق. صفرٌ مطلق. إذا فكّرنا بالمنطق.

لكنّ الحُلمَ كان حيويًّا وواقعيًا إلى درجةٍ لا يُمكنني فيها تفسيره تفسيرًا منطقيًّا. إضافة إلى أنّ الجُماع، صاحبته متعةٌ تتخطّى جميعَ المرّات التي جامعتُ فيها يوزو طوال حياتنا الزّوجيّة لستّ سنوات. في اللّحظة التي استمرّ فيها القذف، شعرتُ بأنّ فواصم مخّي تتطاير. ذاب عددٌ من طبقات الواقع واختلط بداخل رأسي وتعكّر بها. وكأنّها الفوضى التي بدأ بها خلق الكون.

شعرتُ في الواقع أنَّ حدثًا بهذه القوّة والحيويّة لا يُمكن أن ينتهي بمجرّد حلم.

استيقظ أمادا من نومه قبل الساعة التاسعة. جاء إلى غرفة الطعام بملابس النوم، وشرب قهوةً ساخنة بلا سكّر. وقال إنّه لا يحتاج إلى الفطور، إنّما تكفيه القهوة. وثمّة انتفاخٌ طفيفٌ تحت عينَيْه.

سألته: «هل أنت بخير؟»

قال أمادا وهو يفرك جفنَيْه: «أنا بخير. لقد مرّت عليّ سكْراتٌ أكثر سوءًا. هذه المرّة أخفّ بكثير».

«لا مانع عندي أن تستريح قليلًا قبل الرحيل».

«لكنّ ضيوفك على وشك المجيء، أليس كذلك؟»

«سيأتي الضيوف في العاشرة. ما زال هناك وقت. كما أنَّ وجودك لن يسبّب مشكلة. سأعرّفك عليهما. فالاثنتان في غاية اللُّطف».

«اثنتان؟ أليس موديلَ تلك اللّوحة فتاةً واحدة؟»

«ترافقها عمّتها».

«ترافقها عمّتها؟ يبدو أنّها من عائلةٍ محافظة جدًّا. وكأنّها إحدى روايات جين أوستين. لن تأتيا على عربة يجرّها حصانان، ولا ترتديان مشدّ الخصر المنتفخ، أليس كذلك؟»

«ليس هناك عربةٌ بأحصنة، بل سيّارة تويوتا بريوس. ولا ترتديان مشدّ خصر. أرسم وجه الفتاة في المرسم، بينما تنتظر عمّتُها في غرفة المعيشة حوالى ساعتَيْن وهي تقرأ في كتاب. عمّتُها ما زالت شابّة».

«تقرأ في كتاب؟ أيُّ كتاب؟»

«لا أعلم. سألتها، لكنَّها رفضت أن تُخبرني».

قال: «حقًّا. أجل، أجل. بمناسبة الكتب، أذكر أنَّه في رواية [الشياطين] لدوستويفسكي، ينتحر رجلٌ بإطلاق الرصاص على نفسه، كي يثبت أنَّه حرّ. هل تذكُر ماذا كان اسمه؟ أشعر أنَّني لو سألتك ستعرف».

قلتُ له: «كريلوف».

«بالضَّبط. كريلوف. كنتُ أحاول أن أتذكَّره منذ فترةٍ ولكنْ عبثًا».

«ولماذا كنتَ تريد أن تذكره؟»

هزَّ أمادا رأسه، وقال: «لا أهمّيّة للأمر. طرأت تلك الشَّخصيَّة في ذهني فجأةً، بلا سبب. حاولتُ أن أذكر اسمها، ولكنَّني لم أستطع. لذا انشغلت بها. تمامًا كما تعلق شوكةُ سمكةٍ في الحلق. بأيِّ حال، هؤلاء الرؤوس تَخْطر في بالهم أشياءً عجيبة حقًّا».

«يظهر في روايات دوستويفسكي عديدٌ من الأشخاص الذين يقومون بأعمالٍ في غاية الغباء لمجرَّد أن يثبتوا أنَّهم أحرارٌ من ربقة الإله والمجتمع. إلَّا أنَّ تلك الأفعال قد لا تُعدّ غباءً إلى هذه الدَّرجة».

سألني أمادا: «ماذا عنك؟ بعد انفصالك عن يوزو، أصبحتَ حرًّا أخيرًا. فماذا أنت فاعل؟ حتى لو لم تكن تلك الحرّيّة التي طلبتَها بنفسك، فالحرّيّة هي الحرّيّة. ألم يَحُن الوقت لكي تقوم بأحد تلك الأفعال الغبيّة؟»

ضحكتُ وقلتُ: «حتَّى هذه اللَّحظة، ليس في نيَّتي فعلُ شيء. ربَّما أكون قد حصلتُ فعلًا على حرّيّةٍ ما؛ ورغم ذلك، ليس هناك ضرورةٌ لكي أثبت حرّيّتي للعالم».

قال أمادا بنبرةٍ متململة: «أحقًّا ما تقول؟ ولكنْ على الأقلّ، ألستَ رسّامًا؟ ألستَ فنّانًا؟ ففي العادة، يقوم الفنّان بأفعالٍ غريبة فالتة العيار. ومنذ

عرفتك وأنت رجل لا يفعل أفعالًا غبيّة مُطلقًا. تبدو في كلّ وقتٍ تفعل المنطقيّ. أليس من الأفضل أحيانًا أن تَفُكَّ عنك تلك القيود؟»

«أن أقتل مرابية عجوز مثلًا؟»

«فكرة لا بأس بها».

«أن أقع في حبّ بائعة هوى مخلصة؟»

«وهذا أيضًا لا يبدو فعلًا سيّئًا».

«سأفكّر في الأمر. وحتى لو لم أَقُم بأفعالٍ غبيّة، يبدو أنّ الواقع فالت العيار. أعتقد أنّني أريد أن أقوم بالفعل الصّحيح».

قال أمادا وقد بلغ به اليأس مداه: «حسنًا، ربّما كانت تلك أيضًا طريقة تفكير».

أردت أن أقول له إنّها ليست طريقة تفكير. فالواقع الذي يحيط بي قد أفلت منه العيار على الدوام، فإن أفلتُّ العيار أنا أيضًا، فلن يكون بمقدوري السّيطرةُ على المجريات. لكنّي استصعبت أن أشرح تفاصيل ما يحدث لأمادا حينها.

قال أمادا: «على أيّ حال سأرحل. كان يُسعدني التّعرُّف على المرأتيْن، ولكنْ لديّ عملٌ في طوكيو يجب أن أُنهيه».

شرب ما تبقّى من القهوة، وبدّل ملابسه وغادر مستقلًا سيّارته الفولفو المُربّعة السّوداء. وما زال الانتفاخ الطفيف تحت عينَيْه.

«لقد عطّلتكَ عن العمل. ولكنّني استمتعتُ بالحديث معك بعد غيابٍ طويل».

في ذلك اليوم، حدث أمرٌ غريبٌ غير مفهوم. لقد اختفت السكّين التي أحضرها أمادا معه لتقطيع السّمك. لقد غسلها بعد استخدامها، ولا

يذكر أنّه وضعها في مكانٍ معيّن. بحثنا عنها نحن الاثنيْن في جميع أرجاء المطبخ، ولكنّا لم نعثر عليها.

قال أمادا: «حسنًا، لا بأس. ربّما خرجتْ في نزهةٍ لمكانٍ ما. احتفظ بها عند عودتها. سأمرّ لآخذها في المرّة القادمة، فأنا لا أستخدمها إلّا بين حين وحين».

قلت له إنّني سأبحث عنها.

بعد أن اختفت سيّارة الڤولڤو عن الأنظار، نظرتُ إلى ساعة يدي. حان موعد مجيء المرأتيْن. عدتُ إلى غرفة المعيشة وأزلت الفراش من فوق الأريكة، وفتحتُ النوافذ على مصاريعها لتغيير هواء الغرفة الراكد. كانت السماء لا تزال مُغطّاةً بغيومٍ رماديّةٍ خفيفة. وليس هناك رياح.

أحضرتُ لوحة [مقتل الكومنداتور] من غرفة النوم، وعلّقتها على حائط المَرْسم في مكانها السّابق، ثمّ جلستُ على المقعد العالي، وتأمّلتُ اللّوحة مجدّدًا. ما زال الكومنداتور فيها ينزف الدّماء القانية من صدره، وما زال «طويل الوجه» يراقب المشهد بعينيْن حادّتيْن من أسفل الركن الأيسر للّوحة.

ولكنْ، في ذلك الصّباح، لم يغب وجه يوزو من رأسي وأنا أتأمّل اللّوحة. وعندها فكّرتُ أنّ ما رأيته لم يكن حُلمًا. من المؤكّد أنّني زرتُ شقّتنا في تلك اللّيلة. بالضّبط مثلما زار توموهيكو أمادا هذا المَرْسم منذ أيّام. أنا أيضًا تخطّيتُ القيود الفيزيائيّة للواقع، وزرتُ شقّة هيرو بطريقةٍ ما، وولجتُ في زوجتي فعليًا، وقذفتُ منيًا حقيقيًا. أستطيع تحقيق أيّ شيء أرغب فيه من كلّ قلبي. هكذا فكّرتُ. لقد مررتُ عبر قناة خاصّة، تُحوّل الواقع إلى لاواقع. أو تجعل اللّاواقع واقعًا. هذا مُمكن إن أراده الإنسان من كلّ قلبه، إلّا أنّه ليس دليلًا على أنّه أصبح حرًّا، لا بل على العكس، قد يثبت ذلك الحقيقة المضادّة.

إن قابلتُ يوزو ثانيةً سأسألها هل رأتْ حلمًا جنسيًا في منتصف شهر أبريل من هذا العام؟ هل رأتْ حلمًا مُحتواه أنّني زرتُ غرفتها قرب الفجر واغتصبتها وهي نائمة (أو ربّما كانت مقيّدة الحركة)؟ هل كان ذلك الحلم العجيب يتوقّف على جانبٍ واحدٍ هو جانبي أنا فقط؟ أم أنّه حلمٌ ثنائيٌّ متبادلٌ بين الطرفَيْن؟ كنتُ أريد التأكُّد من هذا الأمر. ولكنْ حتى لو سلّمنا بهذه الحقيقة، ولو كانت هي أيضًا قد رأت الحلم نفسه الذي رأيته أنا، فقد يبدو وجودي من جانبها مشؤومًا، مثل «شيطان الحلم»، أو مزعجًا. وأنا لا أريد أن يكون وجودي بهذا الشّكل، أو أن يصبح بهذا الشّكل!

هل أنا حرّ؟ لا يحمل هذا السُّؤال أيَّ معنى بالنّسبة إليّ. ما أحتاج إليه الآن، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، هو الحقيقة الواقعيّة التي أستطيع الحصول عليها في يدي بشكلٍ مؤكّد؛ هو الأرض الصّلبة تحت أقدامي التي أستطيع الاعتماد عليها. وليس الحرّيّة التي تُمكّنني من اغتصاب زوجتي في الحلم.

- 44 -
الميِّزات التي تجعل من الشَّخص ما هو عليه

لم تفتح مارية فمها في ذلك اليوم. جلست على الكرسيّ المتواضع مثل كلّ مرّة، وظلّت تنظر إلى الأمام وهي تؤدّي دورَ الموديل وكأنّها تتأمّل المنظرَ في الأفق البعيد. ولأنّ الكرسيّ كان منخفضًا عن المقعد العالي، كانت تنظر تجاهي رافعةً وجهها قليلًا إلى أعلى. وأنا أيضًا لم أتحدّث معها، لأنّي لم أجد ما أتحدّث فيه، ولم أشعر بأيّ ضرورةٍ لذلك. أخذتُ أُحرّك الفرشاةَ على اللّوح وأنا صامت.

كنتُ، بالطبع، أحاول أن أرسم لوحةَ مارية أكيكاوا، وكان يبدو أنّ في تلك اللّوحة امتزاجًا لصورة أختي (كومي) الرّاحلة وصورة زوجتي (يوزو) السّابقة. لكنّي لم أفعلها عمدًا، بل بكلّ عفويّة. لعلّي كنتُ أبحث في دواخل هذه الفتاة، مارية، عن المرأتَيْن اللّتَيْن أحببتهما وفقدتهما في رحلة حياتي. ولم أتمكّن من الحُكم على هذا الفعل، أكان صحّيًا أم لا! ولكنْ لم يكن أمامي حينها سوى الرّسم بهذه الطريقة. كلّا، ليس حينها فقط. فأنا منذ البداية أشعر أنّني كنتُ أرسم فيما مضى بالطريقة نفسها قليلًا أو كثيرًا، أيْ إظهار ما لا أستطيع الحصول عليه في الواقع من خلال اللّوحات. ومن أجل ألّا يستطيع الآخرون رؤيته، كنتُ أرسمه في العمق خفيةً باستخدام الرّموز السرّيّة الخاصّة بي.

على أيّ حال، كنتُ أتوجّه ناحية اللّوح، وأرسم لوحة مارية أكيكاوا بلا حيرةٍ أو تردُّد. كانت اللّوحة تكتمل خطوةً خطوة بشكلٍ مؤكّد. كالنّهر

الذي قد يلتوي أحيانًا عن مجراه بسبب تضاريس الأرض، ويتوقَّف أحيانًا ويتعكَّر أحيانًا أخرى، إلَّا أنَّه في النهاية يحمل المياه إلى المصبّ، ثمَّ إلى البحر ليزيد من حجم المياه تدريجيًّا. كان بوسعي تحسُّس تلك الحركة في داخلي مثلما أشعر بجَرَيان الدِّماء.

عندما اقترب الوقت من نهايته، قالت مارية بصوتٍ هامسٍ: «هل تُمانع إن جئتُك وحدي فيما بعد؟» لم يكن لكلماتها نبرةٌ استفهاميَّة، لكنَّ السُّؤال كان واضحًا. تسألني هل أمانع في أن تجيء إليَّ فيما بعد.

«تأتين فيما بعد؟ أيْ من خلال الممرّ السرّيّ؟»

«أجل».

«لا أمانع، ولكن في أيِّ ساعة؟»

«لا أعلم بعد».

قلتُ لها: «أرى من الأفضل ألَّا تأتين في الظلام. فلا أحد يَعْلم ما الذي قد يحدث في الجبال ليلًا».

ففي تلك المنطقة أشياء غامضة: الكومنداتور، و«طويل الوجه»، و«رجل سيَّارة سوبارو فورستر البيضاء»، وروح توموهيكو أمادا الحيَّة. بل وحتى شيطان الحلم الذي هو جزءٌ من شخصيَّتي الجنسيَّة. حتى أنا قد أتحوَّل في ظلام اللَّيل إلى شؤم. انتابتني رعدةٌ باردةٌ طفيفة في جسدي.

قالت مارية: «سآتي في النهار إن أمكن. هناك ما أريد الحديث فيه معك يا أستاذ. نحن الاثنيْن فقط».

«لا بأس. أنا في انتظارِكِ».

أخيرًا، دقَّ جرس منتصف النهار، فأنهيتُ العمل على اللَّوحة.

كانت شوكو أكيكاوا تجلس على الأريكة كالعادة، مُندمجةً في قراءة الكتاب. ويبدو أنّه أوشك على نهايته. نزعتْ نظّارتها، ثمّ وضعتْ مؤشّرة القراءة وأغلقتِ الكتاب، ورفعتْ وجهها ونظرتْ إليّ.

فقلتُ لها: «العمل يجري على قدمٍ وساق. إن هي مرّةٌ أو اثنتان تأتي فيهما مارية إلى هنا لتكتمل اللّوحة. أعتذر عن تسبُّبي في إضاعة وقتكما الثمين».

ابتسمتْ شوكو أكيكاوا ابتسامةً تُعطي انطباعًا حسنًا للغاية، وقالت: «لا عليك. مارية تستمتع بقيامها بدور الموديل، وأنا أيضًا أتوق لرؤية اللّوحة بعد اكتمالها. كما أنّ هذه الأريكة مُريحةٌ جدًّا للقراءة. لذا، لم أشعر بالملل مطلقًا وأنا أنتظر هنا. ثمّ إنّ البُعد عن البيت لفترةٍ أراه تغييرًا للمزاج».

كنتُ أريد أن أسألها عن انطباعها لزيارتها بيت منشكي يوم الأحد الماضي مع مارية. ما الإحساس الذي شعرتْ به إزاء ذلك البيت الفخم؟ وما انطباعها تجاه منشكي؟ لكنّي أحسستُ أنّه من سوء الأدب أن أسألها مثل تلك الأسئلة، ما لم تتحدّث بنفسها عن الموضوع.

كانت شوكو أكيكاوا في ذلك اليوم أيضًا ترتدي ملابسها بعنايةٍ فائقة واختيارٍ موفّق. لم يكن مظهرُها مطلقًا ينمّ عن شخصٍ عاديّ يزور بيتًا من بيوت الجيران في صبيحة يوم أحد. تنّورةٌ بلونٍ بنّيٍّ فاتح بلا أيِّ تجاعيد، قميصٌ من الحرير الأبيض الرّاقي، وعليه ربطةٌ كبيرة على شكل فراشة، وفي ياقة المعطف ذي اللّون الكحليّ الغامق دبّوسٌ ذهبيٌّ مزيّنٌ بالجواهر. بدت لي تلك الجواهر أنّها ماسٌ أصليّ. وشعرتُ نوعًا ما أنّ أناقتها أكبر من أن تقود سيّارة تويوتا بريوس. لكنّ ذلك ليس شأني بالطبع. وربّما كان لمسؤول الدعاية في تويوتا رأيٌ يختلف عن رأيي!

أمّا الفتاة، فكانت بملابسها المعتادة: المعطف الرّياضيّ وبنطلون الجينز الأزرق المثقوب، وحذاءٍ رياضيٍّ أبيض (ذي كعبٍ منحول) وكان متّسخًا أكثر من الحذاء الذي تنتعله عادةً.

نظرتْ مارية إليّ نظرةً لا تُلفت انتباه عمّتها حين الوداع عند مدخل البيت. كانت رسالةً سرّيّة بيننا نحن الاثنَيْن فقط، مفادُها «إلى اللّقاء بعد قليل». فأجبتُ عليها بابتسامة خفيفة.

بعد أن ودّعتُهما، عدتُ إلى غرفة المعيشة وغفوت بقيلولةٍ قصيرةٍ على الأريكة. ولم أتناول الغداء لأنّه لم تكن لديّ شهيّة. كانت قيلولةً عميقةً بسيطةً لنصف ساعةٍ بلا أحلام. وكم كنتُ ممتنًّا لذلك، إذ كنتُ أخاف ممّا يمكن أن أفعله في الحلم، والأكثر رُعبًا هو عدم معرفتي لما يمكن أن أكون عليه في الحلم.

قضيتُ عصر الأحد بمشاعر لا نهاية لها، كالطقس المُظلم الباهت ذاته. يومٌ هادئ بغيومٍ خفيفة، وبلا رياح. أقرأ قليلًا، وأستمعُ إلى الموسيقى قليلًا، وأعدُّ الطعام قليلًا، ولكنّي لم أستطع أن أركّز مشاعري في شيءٍ واحد. انتهت كلُّ الأشياء في عصر ذلك اليوم على أنصافها. سخّنت مياه الحمّام، واسترخيتُ لمدّةٍ طويلةٍ في حوض الاستحمام. ثمّ أخذتُ أتذكّر أسماءَ أبطال رواية [الشياطين] لدوستويفسكي الطويلة واحدًا بعد آخر. استطعتُ تذكُّرَ سبعِ شخصيّاتٍ، من بينهم كريلوف. لسببٍ لا أعلمه، منذ كنتُ طالبًا في المرحلة الثانويّة، أحفظ أسماء أبطال الرّوايات الرّوسيّة القديمة. ربّما جاء وقتُ إعادة قراءة رواية [الشياطين]. فأنا حرٌّ ولديّ فائضٌ من الوقت، وليس هناك ما أفعله. إنّها البيئة المثاليّة لقراءة الروايات الرّوسيّة القديمة الطويلة.

وبعد ذلك، فكّرت مرّةً أخرى في يوزو. معنى أنّها حامل في الشهر السّابع، أي أنّ بطنها كبرت بما يُلفت الانتباه. تخيّلتُ منظرها ذاك. تُرى

ماذا تفعل يوزو الآن؟ وما الذي تفكّر فيه؟ أهي سعيدة؟ من المستحيل أن أعرف ذلك!

ربّما كان الأمرُ كما قال ماساهيكو أمادا. قد أكون مثل المثقّفين الرُوس في القرن التاسع عشر: يجب أن أفعل شيئًا غبيًا كي أثبّت أنّني إنسانٌ حرّ. ولكنْ ما هذا الشيء؟ مثلًا... أحبس نفسي في قاعِ حفرةٍ عميقة ومُظلمة لمدّة ساعة؟ وهنا انتبهتُ فجأةً. إنّ ذلك ما يفعله منشكي فعلًا. أفعاله المتتالية قد لا تكون غبيّة. ورغم ذلك، فإذا وصفناها بكلماتٍ مُختصرة فهي فالتة العيار.

جاءت مارية أكيكاوا إلى بيتي بعد الرّابعة عصرًا. دقّ جرسُ الباب، وعندما فتحته وجدت مارية واقفةً هناك. دخلتِ البيتَ سريعًا من خلال التّسلُّل من الفتحة الضيّقة. وكأنّها جزءٌ من طَرَف سحابة. ثمّ أخذت تدور بنظرها في المكان بِحَذَر.

«ليس هناك أحد».

قلتُ لها: «بالطبع لا أحد هنا».

«جاء أحدٌ في الأمس».

كان ذلك سؤالًا، فقلتُ لها: «أجل، بات أحد أصدقائي هنا».

«صديقٌ رجل».

«أجل بالطبع. صديقٌ رجل. ولكنْ كيف عرفتِ أنّ أحدًا جاء هنا؟»

«لأنّي رأيت سيّارةً سوداء تقف أمام البيت لم أرها من قبل. سيّارة قديمة تُشبه الصندوق المربّع».

إنّها سيّارة ڤولڤو واغن القديمة التي يُطلِق عليها أمادا اسم «علبة وجبات سويديّة». سيّارة تبدو مُفيدة في حمل جُثث الأيل.

«هل أتيتِ أمس أيضًا لزيارتي؟»

أومأت مارية بصمت. لعلّها كانت تأتي لمراقبة الأوضاع هنا من طريق الممرّ السرّيّ كلّما تسنّى لها ذلك. أو قد تكون معتادةً للّعب في هذه المنطقة قبل مجيئي للإقامة هنا أساسًا. أو بالأحرى، كانت مُعتادةً على الصّيْد هنا. وإن كان الوضع كذلك، تُرى هل التقت بتوموهيكو أمادا الذي كان يسكن هنا؟ عليّ أن أسألها هذا السّؤال في وقتٍ ما.

صحبتُ مارية إلى غرفة المعيشة. جلستْ على الأريكة، وجلستُ أنا على المقعد. سألتها إن كانت تودُّ شرب شيء، فرفضت.

قلتُ لها: «لقد جاء صديقٌ من أيّام الجامعة للمَبيت هنا اللّيلة».

«صديقٌ حميم؟»

«أعتقد ذلك. بل قد يكون الصديق الوحيد بالنّسبة إليّ».

علاقتُنا جيّدة، ولن تتأثّر حتى لو كان قد عرّف زميله على زوجتي ونام الأخير معها، ثمّ لم يُطلعني على الأمر رغم معرفته به، وكان الأمر سببًا في إتمام الطلاق رسميًا بيني وبين زوجتي مؤخّرًا. لو قلتُ إنّه صديق فليس في ذلك ما يناقض الحقيقة.

سألتها: «هل لدَيْكِ أصدقاء على علاقةٍ جيّدة؟»

لم تردّ على السّؤال، ولم تغيّر ملامحها: لم تُحرّك حتى حاجبَيْها وكأنّها لم تسمع شيئًا. ربّما لم يكن من الضروريّ أن أسألها عن ذلك.

قالت: «السّيّد منشكي ليس صديقًا حميمًا لك يا أستاذ» لم تقُلها بنبرة استفهام، لكنّه كان سؤالًا خالصًا. إنّها تسألني أليس منشكي صديقًا جيّدًا بالنّسبة إليّ؟

فقلتُ: «كما أخبرتكِ من قبل، معرفتي بالسّيّد منشكي لا تجعلني أُطلق عليه وصفَ صديق. فلقد تعرّفتُ عليه بعد أن انتقلتُ للإقامة هنا بستّة

أشهر. تتطلَّب الصداقة الحميمة وقتًا أطول. ومع ذلك، فأنا أعتبر السَّيِّد منشكي شخصيَّةً جديرةً بالاهتمام».

«بالاهتمام».

«كيف أشرحها لكِ؟ أشعر أنَّ شخصيَّته تختلف قليلًا عن بقيَّة البشر. ربَّما ليس قليلًا بل تختلف كثيرًا. فهو ليس إنسانًا يُفهَمُ بسهولة».

«شخصيَّته».

«إنَّها المميِّزات التي تجعل من الشَّخص ما هو عليه».

ظلَّتْ مارية تَنْظر في عينيَّ وكأنَّها تختار كلَّ كلمةٍ ستنطق بها بعنايةٍ وحَذَر.

«يمكن رؤيةُ بيتنا من شُرفات بيت ذلك الرجل».

رددتُ عليها بعد أن مرَّرتُ لحظةَ صمت: «حقًّا! بالفعل، لأنَّه يقع في الجهة المواجهة بحسب التضاريس. لكنَّه بإمكانه رؤية بيتي أيضًا لا بيتك فقط».

«لكنِّي أعتقد أنَّ ذلك الشخص يَنْظُرُ إلى بيتي».

«ماذا تقصدين بقولك يَنْظر؟»

«كان في شرفته منظارٌ كبيرٌ، مُغطًّى بغطاءٍ بحيث لا يُمكن أن يراه الناس. ثلاثيّ الأرجل. بإمكانه التلصُّص على تفاصيل حياتنا في البيت».

لقد اكتشفتِ الفتاةُ ذلك الأمر! هذا ما فكَّرتُ فيه. إنَّها حذرةٌ جدًّا، ولدَيْها حسٌّ مراقبةٍ حادٌّ جدًّا. لا تفلت منها الأشياء المهمَّة.

«بمعنى أنَّ السَّيِّد منشكي يستخدم ذلك المنظار ويراقب بيتكم؟»

أومأتْ مارية بنعم.

تنفَّستُ الهواء بعمقٍ ثمَّ أخرجته ثانية، وقلتُ: «لكنْ ألستِ تبالغين في هذا التَّخمين؟ مجرَّد وجود منظار فائق القدرات في الشُّرفة لا يجعل منه شخصًا يتلصَّص على بيتك. ربَّما كان يُراقب القمر والنجوم».

لم تهتزّ نظرةُ مارية. وقالت: «لطالما شعرت أنّي مُراقبة منذ زمنٍ طويل. لكنّي لم أكن أعرف مَن الذي ينظر إليّ. أمّا الآن فأعرفه. أنا متأكّدة من أنّ ذلك الشخص يُراقبني».

تنفّستُ ببطءٍ مرّةً أخرى. إنّ ما خمّنته مارية صحيح. فلا جدال أن منشكي هو الذي يُراقب بيتها كلّ يوم بمنظارٍ عسكريٍّ فائق القُدُرات. ولكنْ على حدّ علمي أنّ منشكي ـ ولستُ هنا في إطار الدّفاع عنه ـ لا يتلصّص على البيت بنيّةٍ سيّئة. إنّه يتأمّل تلك الفتاة فقط. يتأمّل تلك الفتاة الجميلة ذات الثلاثة عشر ربيعًا، التي ربّما يكون والدها الحقيقيّ. وعليه، لا بدّ أنّه اشترى ذلك البيت الفخم الذي يقع على الناحية المقابلة تمامًا من الوادي لهذه الغاية فقط. استخدم وسيلةً قسريّة، وطرد العائلة التي كانت تسكن فيه. لكنّي لن أبوح بتلك الأمور لمارية.

قلتُ لها: «لو افترضنا صحّة ما تقولين، فما هدفه من مراقبة بيتك إلى هذه الدّرجة؟»

«لا أعلم. ربّما يكون مهتمًّا بعمّتي».

«مهتمًّا بعمّتك؟»

هزّتْ مارية كتفَيْها بلا مبالاة.

يبدو أنّ مارية لا تحمل شكوكًا بأنّها هي المستهدفة من التلصّص. لا تتصوّر هذه الفتاة بعدُ أنّها قد تكون هدفًا لاهتمام جنسيّ من الرجال. شعرت بالدّهشة من ذلك قليلًا، لكنّي تعمّدتُ ألّا أنفي شكوكها. إن كانت تعتقد ذلك، فربّما من الأفضل أن أتركها على اعتقادها.

قالت مارية: «أعتقد أنّ السّيّد منشكي يُخفي شيئًا ما».

«مثل ماذا؟»

لم تجب على هذا السّؤال. وبدلًا عن ذلك، قالت وكأنّها تُقدّم معلومةً مهمّة:

ـ «لقد تواعدتْ عمّتي خلال هذا الأسبوع مع السّيّد منشكي مرّتين».

ـ «تواعدت؟»

ـ «أعتقد أنّها ذهبت لزيارته في البيت».

ـ «بمعنى أنّها ذهبت وحدها إلى بيته؟»

«خرجتْ بعد الظهر وحدها بالسيّارة، ولم ترجع إلى البيت إلّا في وقتٍ متأخّرٍ من الغروب».

«ولكنْ ما من دليلٍ مؤكّد على أنّها ذهبتْ إلى بيت السّيّد منشكي».

قالت مارية: «لكنّي أعرف ذلك».

«كيف تعرفين؟»

قالت مارية: «إنّها لا تخرج هكذا في العادة. بالتّأكيد، تخرج إلى العمل التطوّعي في المكتبة العامّة، وإلى التّسوق أيضًا، لكنّها لا تستحمّ وتقلّم أظفارها بعنايةٍ كبيرة، ولا تضع عطرًا ولا تختار أجمل ثيابها الدّاخليّة».

قلتُ لها مُنبهرًا: «لدَيْكِ قوّة ملاحظة لأمورٍ عديدة. ولكنْ هل تُقابل السّيّد منشكي فعلًا؟ أليس هناك احتمال أن يكون رجلًا آخر غيره؟»

ضيّقت مارية حَدَقتَيْ عينَيْها، ونظرتْ إليّ. ثمّ هزّتْ رأسها قليلًا. وكأنّها تقول إنّني لستُ غبيّةً لهذه الدّرجة. ويبدو أنّه السّيّد منشكي بلا شكّ. فمارية أكيكاوا ليست غبيّةً بالطبع.

«ذهبت عمّتك إلى بيت منشكي، وقضى الاثنان ذلك الوقت وحْدهما».

أومأت مارية بنعم.

«بعد ذلك، أصبح الاثنان... كيف يُمكن قول ذلك! على علاقة حميمة».

أومأت مرّةً أخرى، ثمّ احمرّ خدّاها قليلًا، وقالت: «أجل. أعتقد أنّهما أصبحا على علاقةٍ حميمةٍ جدًّا».

«حسنًا، لكنّكِ خلال الظهيرة تكونين في المدرسة، صحيح؟ لستِ في البيت. فكيف عرفتِ هذا؟»

«أنا أعرف. بعض الأشياء تكون مكتوبةً على جبين المرأة».

ومع ذلك، لم أنتبه إليها. فعلى الرّغم من أنّ يوزو أقامت علاقةً جسديّةً مع رجلٍ آخر وهي تعيش معي في البيت نفسه، فقد غفلتُ عن ذلك لفترةٍ طويلة. وعندما أفكّر في الأمر، أجدُ أنّه كان ينبغي أن أنتبه. تُرى لماذا لم أشعر بما شعرتْ به فتاةٌ في الثالثة عشرة من العمر؟

قلتُ لها: «إنّ علاقتهما تتطوّر بسرعةٍ شديدة».

«عمّتي تزن الأمور بعقلانيّة، وليست غبيّة مُطلقًا. لكنّ قلبها ضعيفٌ نوعًا ما. وأعتقد أنّ للمدعوّ منشكي قوّةً تختلف عن البشر العاديّين. قوّةً متينةً لا يُمكن لعمّتي أن تُقاومها».

ربّما كانت محقّة. لمنشكي قوّةٌ من نوعٍ خاصّ بالتّأكيد. فإذا عزم على شيء، وقرّر الحركات المناسبة للحصول عليه، فلن يستطيع أكثر البشر مقاومته. بمن فيهم أنا. وربّما كان الحصول على جسد إحدى النساء لا يشكّل أيّ مشقّةٍ لشخصٍ مثله.

«وعلى هذا فأنتِ قلقة، أليس كذلك؟ قلقة من أنّ السّيّد منشكي يستخدم عمّتك كي يصل إلى هدفٍ معيّن؟»

أخذت مارية شعرها الأسود السبط بيَدِها، ولفّته خلف أُذنها. فكشفت عن أذُنٍ صغيرةٍ بيضاء. أذُنٍ جميلة. وأومأت بنعم.

قلتُ لها: «ولكنْ ليس من السّهل إيقافُ علاقةٍ بين رجلٍ وامرأة تتقدّم إلى الأمام».

وقلتُ لنفسي: ليس من السّهل على الإطلاق. فتلك العلاقة لا يعترضها شيء، بل وكانت قادرةً على تحطيم الأشياء حتميًا وقدريًا مثل عربة الاحتفالات العملاقة في الدّيانة الهندوسيّة. لا يُمكنها التقهقر إلى الخلف.

قالت مارية: «لذا جئت إلى هنا، لكي أستشيرك يا أستاذ»، ثمّ نظرتْ إلى عينيَّ تستطلع أعماقهما.

بعد أن أظلم المكان، مسكتُ المِصباح اليدويّ وأوصلتُ مارية إلى ما قبل مدخل «الممرّ السرّيّ». قالت إنّه عليها العودة إلى بيتِها قبل وجبةِ العشاء. فعادةً، تتناول العشاء في حدود السّابعة.

لقد جاءت تطلب نصيحتي. ولم تخطر في ذهني أيُّ فكرةٍ سديدة. فلا حيلة سوى الانتظار ومراقبة تطوُّر الأحداث لفترةٍ من الوقت. كان ذلك أقصى ما استطعت قوله. وحتى لو كان الاثنان على علاقة، فالأمر في النهاية يتمّ بناءً على موافقة كلّ منهما، وهما شخصان راشدان. فما الذي يُمكنني فعله حيال ذلك؟ ثمّ إنّي لم أستطع البوْح لأيِّ أحد (لا مارية ولا عمّتها) عن خلفيّة تلك العلاقة. من المُحال إعطاءُ نصيحةٍ مُفيدةٍ لأحدٍ وسط تلك الظروف. فذلك يُشبه الملاكمة مع تقييد الذراعَيْن.

مشينا معًا متجاورَيْن، مارية وأنا، على طريق الغابة من دون أن نقول أيّ شيء. مسكتْ مارية يدي في منتصف الطريق. كانت يَدها صغيرة، ولكنّها أقوى ممّا توقّعت. اندهشتُ قليلًا عندما مسكتْ يدي فجأةً، لكنّي لم أشعر بأنّ الأمر غير طبيعيّ، وربّما السّبب أنّ شقيقتي الصّغيرة كانت غالبًا ما تمشي وهي تُمسك بيدي. بل أمدّني ذلك بإحساسٍ طبيعيّ مُعتاد، أشعرُ نحوه بالحنين.

كانت يد مارية في غاية النعومة. دافئةً ولم تكن ممتلئةً بالعرق. ويبدو أنّها كانت تفكّر في أمرٍ ما، ووفقًا لما تفكّر فيه، كانت تشدّ قبضتها على يدي،

ثمَّ ترخيها ثانيةً برفق. وكانت أختي تفعل الشيء نفسه عندما تُمسك يدي في الماضي.

عندما مررنا أمام نموذج المَعْبد، تركت مارية يدي، ودخلتْ بمُفردها خلفه من دون أن تقول شيئًا.

بقيت آثار الجنازير التي دهست أغصانَ الغابِ النابتة في المكان. وكانت الحُفرة على حالها مخفيّةً بالجوار. الغطاء والألواح السّميكة، وأحجار التثقيل. تأكّدتُ بفضل المصباح أنَّ تلك الأحجار لم يتغيّر مكانها عن آخر مرّة. يبدو أنَّ أحدًا لم يُحرّكها منذ آخر مرّةٍ رأيتُها.

سألتني مارية: «هل تمانع في أن أنظر إلى الداخل؟»

«ستنظرين فقط».

«سأنظر فقط».

أزحتُ الأحجار، ثمّ أزحتُ أحد ألواح الغطاء. قرفصتْ مارية على الأرض، ونظرت إلى قاع الحُفرة من تلك الفتحة. أنرتُ لها ما في داخل الحُفرة. الحُفرة خاليةٌ بالطبع، لا شيء في قاعها. ما عدا السُّلَّم المعدنيّ مسنودًا إلى الجدار. بالإمكان استخدام السُّلَّم والنزول إلى القاع ثمَّ الصعود مرّةً أخرى. لا يصل العُمق إلى ثلاثة أمتار، ولكنْ من غير السُّلَّم، فالصعود إلى السّطح مستحيلٌ تقريبًا. فالجدار أملس جدًّا، ولا يُمكن للشخص العاديّ تسلُّقه.

ظلّت مارية أكيكاوا تنظر إلى قاع الحفرة وهي تُمسك شعرها بإحدى يديْها. تُضيّق حَدَقتيْ عينَيْها كأنّها تبحث عن شيءٍ ما في ظلام تلك الحُفرة. لا أعرف ما الذي يجذب اهتمامها هناك بالتّأكيد. رفعتْ وجهها ونظرت إليّ.

«مَن الذي صَنعَ هذه الحُفرة؟»

«لا أدري. تُرى مَن صَنَعها؟ في البداية، اعتقدتُ أنّها بئرٌ، لكنّها ليست كذلك. فلا معنى لحفر بئرٍ في هذا المكان النائي. وعلى أيِّ حال، تبدو أنّها حُفِرت منذ زمنٍ بعيد جدًّا، وأنّها صُنعت بحرصٍ بالغ. ويُفترَضُ أنّها استغرقت وقتًا وجهدًا كبيرَيْن».

لم تَقُل مارية شيئًا. بل ظلّت تنظُرُ إلى وجهي بثبات.

قلتُ لها: «هذه المنطقة هي مكانُ لعبك منذ الطفولة، أليس كذلك؟»

أومأتْ مارية بنعم.

«لكنّكِ لم تعرفي بوجود حُفرةٍ خلف نموذج المَعْبد إلّا مؤخَّرًا، صحيح؟»

نفت بهزِّ رأسها. لم تكن تعرف.

سألتني: «أنت من اكتشف هذه الحُفرة وفَتَحها، أليس كذلك يا أستاذ؟»

عزمتُ على البوْح لها بالصّدق. فالصّدقُ هو الأفضل دائمًا. «بلى. بإمكاننا أن نقول ذلك. لم أكن أعرف بوجودها، لكنّي فكّرت أنَّ شيئًا ما موجودًا تحت جثوة الأحجار. لكنّي لستُ من أزاح الأحجار وفتح الحُفرة، إنّما السّيِّد منشكي».

وقتها، صاح طائرٌ فوق رؤوسنا صيحةً حادَّة، وكأنّه يُحذِّر أقرانه من خطرٍ داهم. نظرتُ إلى أعلى، ولم أستطع رؤية الطائر. ليس هناك إلّا الأغصانُ الكثيفةُ المتشابكةُ التي تساقطتْ أوراقها. وتبدو السّماء فوقها مغطّاةً بالغيوم الرّماديّة التي تُنبئ باقتراب الشتاء.

تجهّمت مارية قليلًا، لكنّها لم تَقُل شيئًا.

قلتُ لها: «ولكنْ، يبدو أنَّ الحُفرة كانت تطلب أن يفتحها أحدٌ ما، إن صحَّ التّعبير. وأظنُّ أنّي أنا الذي استُدعيت من أجل ذلك».

«استُدعيت؟»

«دعاني شخصٌ ما كي أقترب».

عوجت مارية رأسها ونظرت إليّ. «طلبت منك أن تفتحها يا أستاذ؟»

«أجل».

ـ «هل الحُفرة هي التي طلبت؟»

ـ «ربّما لم تطلبه منّي بالتّحديد، ولكنْ أيًّا كان الشخص سَيَفي بالغرض. وربّما حكمت الصدفةُ أن أكون في هذا المكان».

ـ «ثمّ فتحها السّيّد منشكي فعليًّا».

ـ «أجل. لقد صحبتُه إلى هنا. ولم تكن الحُفرة لِتُفتَح لولاه أغلب الظنّ. إذ كان من المُحال إزاحة الأحجار بأيدٍ عارية، ولم يكن لديَّ المال الكافي لاستئجار العمّال والمعدّات الثقيلة لإزاحتها. أيْ أنَّ الأمر تمّ بناءً على القدر».

فكّرتْ مارية بذلك طويلًا، ثمّ قالت: «ربّما كان من الأفضل ألّا تقوما بذلك. أعتقد أنّني أخبرتك من قبل».

ـ «هل تعتقدين أنّه كان يجب ترك الأمور على حالها؟»

لم تقل مارية شيئًا، بل نهضت عن الأرض، ونفضت التراب الذي التصق على ركبتيْ بنطلونها. ثمّ غطّينا نحن الاثنيْن الحُفرة بالغطاء، ووضعنا عليها أحجار التثقيل. ونقشتُ وضعَ الحُفرة في ذاكرتي مرّة أخرى.

قالت وهي تنفض يدًا بِيَد: «أجل، أعتقد ذلك».

«أعتقد أنَّ هذا المكان يحفظ أسطورةً أو سيرةً شعبيّة؛ أو أنَّ له خلفيّةً دينيّة ذات طبيعةٍ خاصّة».

هزّت مارية رأسها، أي أنّها لا تعرف. ثمّ قالت: «ربّما والدي يعرف».

كانت عائلة والدها ممَّن يديرون المنطقة، وهم مُلَّاك الأراضي منذ عصر ميجي حتى الآن. وكان الجبل المجاور بأكمله مُلكًا لعائلة أكيكاوا. ولذا، ربَّما يعرف شيئًا ما عن معنى نموذج المعبد أيضًا.

ـ «هل يُمكنكِ أن تسألي والدكِ؟»

عوجت مارية شفتَيْها قليلًا، وقالت: «لا مانع». ثمَّ أضافت بعد أن فكَّرت قليلًا: «إن أُتيحت لي الفرصة».

ـ «ليتني أحصل على أيِّ معلومةٍ تقود إلى معرفة مَن الذي حفر تلك الحُفرة، ومتى، ومن أجل ماذا؟»

تمتمتْ مارية قائلة: «ربَّما حُبِسَ شيءٌ ما داخلها ووُضِعَت الأحجارُ الثقيلة كغطاءٍ فوقه».

ـ «هل تعنين أنَّ ذلك الشيء حُبس ووضعت فوقه جثوةُ الأحجار لكيلا يستطيع الإفلات والخروج؟ وأنَّ نموذج المَعْبد بُنِي بجواره، لاتِّقاء لعنته؟»

ـ «ربَّما».

ـ «لكنَّنا للأسف فتحنا الحُفرة وأطلقنا سراحه».

هزَّت مارية كتفَيْها لامباليَّة.

أوصلتُها إلى نهاية الغابة. قالت إنَّها تريد العودة وحدها. لا تريد أن يراها أحدٌ وهي تعبر «الممرّ السرّيّ» عائدةً إلى بيتِها، لأنَّه الطريق المُختصر الذي تعرفه هي فحسب. لذا، تركتها هناك وعدت وحيدًا إلى البيت. تلاشى النُّور في السَّماء، وعمَّ الظلام البارد أو يكاد.

عندما مررت أمام نموذج المَعْبد، صاح الطَّائرُ نفسه مرَّةً أخرى بالصَّيحة الحادَّة إيَّاها. لكنَّي لم أنظر عاليًا هذه المرَّة، بل مررتُ مباشرةً من هناك وعدتُ إلى البيت. ثمَّ أعددتُ لنفسي وجبة العشاء، وشربت في

تلك الأثناء كأسًا واحدةً فقط من تشيڤاز ريغال مخففةً بالماء. وبقي في الزجاجة مقدارُ كأسٍ أخيرة. كان اللّيل ساكنًا سكونًا عميقًا. وكأنَّ غيومَ السّماء تمتصّ الأصوات في كلّ أرجاء الكون.

ما كان ينبغي فتح تلك الحُفرة.

أجل، ربّما كانت مارية على حقّ. ما كان عليّ أن أتورّط في أمر الحُفرة. يبدو أنّني أخطأتُ التّقدير في كلّ ما فعلته في هذا المكان.

جرّبتُ أن أتخيّل مشهدَ احتضان منشكي لشوكو، على سريرٍ واسعٍ في إحدى غرف بيته الأبيض الفخم والكبير، يحتضن كلٌّ منهما الآخر عاريَيْن. كان ذلك أمرًا لا شأن لي به يحدث في عالمٍ لا شأن لي به. ولكنّي، كلّما فكّرتُ في أمرهما توالدت في دواخلي مشاعرُ لا أعرف كيف أتخلّص منها. تُشبه المشاعر التي أرى بها قطارًا طويلًا خاليًا من الرُّكّاب يمرّ مُسرِعًا من المحطّة.

زارني النُّعاس أخيرًا، وانتهى يوم الأحد. نمتُ نومًا عميقًا من دون أن أرى أحلامًا ومن دون أن يعوقني أحد.

- 45 -
شيءٌ ما على وشك الحدوث

من بين اللّوحتَيْن اللّتَيْن كنتُ أرْسُمهما بالتزامن، اكتملت لوحة [حُفرةٌ في غابةٍ بريَّة] أوّلًا. اكتملت في عصر يوم الجمعة. إنَّ اللّوحات شيءٌ عجيب، فعندما تقترب من الاكتمال تنال إرادةً ووجهةَ نظرٍ وقوّةَ تعبيرٍ خاصَّة بها. وفي اللّحظة التي تصل فيها إلى الاكتمال، تُخبر الرَّسّام أنَّ العمل انتهى (أو على الأقلّ هذا ما أشعر به أنا). ولا يُمكن لشخصٍ آخر يُشاهد اللّوحة (في حالة وجود مثل هذا الشّخص) أن يعرف في أيِّ مرحلةٍ من مراحلها هي، وهل أُنجزت أم ما زالت في مُنتصفها. ذلك أنَّ الخطَّ الذي يَفْصل بين اللّوحة المُكتَملة واللّوحة غير المُكتملة لا يظهر في أغلب الحالات للعيون. لكنَّ الرَّسام نفسه يعرف ذلك، لأنَّ اللّوحة تقول له بصوتٍ واضحٍ: من الأفضل ألّا تُضيف شيئًا آخر. يكفيه أن يُصغي أذنه ليسمع ذلك الصوت.

حدث هذا الأمر مع لوحة [حُفرةٌ في غابةٍ بريَّة]. اكتملتْ في لحظةٍ ما، ولم تقبل منّي أن أعمل عليها بالفرشاة أكثر من ذلك. وكأنّها امرأةٌ اكتفت جنسيًّا اكتفاءً تامًّا. أنزلتُ اللّوح من فوق الحامل، ووضعتُه على الأرض مسنودًا إلى الحائط؛ ثمّ جلستُ على الأرض، وظللتُ أتأمّل تلك اللّوحةَ لفترةٍ طويلة. لوحةٌ لحُفرةٍ غُطّيَ نِصفُها بغطاء.

لماذا فكّرت فجأةً في رسم مثل هذه اللّوحة؟ لم أتوصّل إلى الهدف من ذلك أو معناه. سوى أنَّ رغبةً عارمة في رسم لوحة [حُفرةٌ في غابةٍ بريَّة]

استبدّت بي. لا يُمكن أن أصِفها بكلامٍ آخر. أحيانًا يحدث لي مثل هذا. يُمسك شيءٌ ما ـ منظرٌ طبيعيٌ، أو كتلةٌ جامدة، أو إنسانٌ ـ بتلابيب عقلي بشكلٍ خالص وبسيطٍ للغاية، فأُمسك الفُرشاة وأبدأ الرّسم على لوح القنّب. وليس هناك معنًى لذلك ولا هدف. ما يشبه النزوةَ فقط!

لا، الأمر مختلفٌ تمامًا. هكذا فكّرت. ليس الأمر «مجرّد نزوة». لقد طلب شيءٌ ما منّي رسم تلك اللّوحة. طلبٌ شديدُ القوّة. حرّكني ذلك الطُّلب وجعلني أبدأ في رسم تلك اللّوحة، ودفعني بِيَده من ظهري، وأوصلني إلى إكمالها في مدّةٍ قصيرة. أو ربّما كانت تلك الحُفرة نفسها قد امتلكت إرادةً، واستخدمتني في رسم منظرها نفسه ـ لقصدٍ وهدفٍ معيّنَيْن. بالضّبط مثلما جعلني منشكي أرسم له البورتريه لهدفٍ معيّن (أغلب الظنّ).

عند النظر بحياديّةٍ تامّة، لا بأس بجودة اللّوحة. لا أعرف إن كان بالإمكان وصفها بالعمل الفنّيّ أم لا (ليس هدفي الدّفاع عن النّفس، لكنّي لم أبدأ في رسمها متقصّدًا رسم لوحةٍ فنّيّة). ولكنْ، من الناحية التقنيّة، لا وجود لأيّ عيبٍ فيها تقريبًا. فقد كان التّصميم في مُنتهى الكمال، وأُعيدَ تصويرُ أشعّةِ الشّمس المتسرّبة من بين الأشجار، وألوانِ أوراقِ الشجر المتساقطة والمتراكمة بواقعيّةٍ متناهية. وفي الوقت الذي كانت اللّوحة دقيقةً في واقعيّتها، كان يفوح منها انطباعٌ عن الرّمزيّة والغموض السّحريّ.

وبينما كنت أحدّق في تلك اللّوحة بعد اكتمالها، أحسستُ بشيءٍ ما يتحرّك فيها. لو اكتفينا بنظرةٍ سطحيّةٍ لوجدنا لوحةً تُجسّد منظرًا طبيعيًّا كما يُشير اسمها «حُفرةٌ في غابةٍ برّيّة». لكنّها على العكس، لم تكن تُجسّدها، بل كانت تُعيدُ تجسيدها بالأحرى. فبما أنّي كنت رسّامًا محترفًا بخبرةٍ طويلةٍ، واستفدتُ من تقنيّةٍ بثٍّ بارعًا فيها، أعدتُ تجسيد المنظر الطبيعيّ الموجود هناك، بإخلاصٍ كاملٍ قدر المستطاع، على اللّوح. كنتُ قد صوّرتها أكثر من كوني قد رسمتها.

ورغم ذلك، كنت أحسُّ بشيءٍ ما يتحرّك في ذلك المنظر الطبيعيّ. شعرتُ بوجود طيْفٍ داخل اللّوحة. شيءٌ يوشك أن يبدأ توًّا. ثمّ أدركتُ كلّ شيءٍ أخيرًا. فتلك النبوءة وذلك الطّيْف هو ما حاولتُ رسمَه في اللّوحة، أو هو ما طُلب منّي أن أرسمه.

اعتدلتُ في جلستي على الأرض، ونظرتُ مجدّدًا إلى اللّوحة نظرةً مباشرة.

تُرى، هل يمكنني رؤية تلك الحركة التي تُوشك على البدء؟ مَن الذي أو ما الذي سيخرج زاحفًا من داخل الظلام الدّائريّ المفتوح على نصفه؟ أو مَن الذي سيَنزل في ذلك الظلام؟ ركّزت في اللّوحة فترةً طويلة، لكنّي لم أستطع من سطح اللّوحة أن أُخمّن ما «الحركة» التي ستظهر. إنّما كان توقُّعًا قويًّا بوجود حركةٍ تتولّد هناك بلا أيّ شكّ.

لماذا ومن أجل ماذا طلبتْ منّي تلك اللّوحةُ أن أرسمها؟ هل كانت تريد أن تُخبرني بشيءٍ ما؟ هل كانت تُحاول أن تُعطيني ما يُشبه الإنذار؟ وكأنّ الأمر عبارةٌ عن لعبة ألغاز. هناك العديدُ من الألغاز، وليس هناك حلٌّ واحد. فكّرتُ في أنّي أريد أن أُريَ هذه اللّوحة لمارية أكيكاوا وأسألها عن رأيها فيها. ربّما تستطيع أن ترى فيها ما لا أستطيع رؤيته!

كان يوم الجمعة هو اليوم الذي أذهب فيه إلى العمل في تعليم الرّسم قرب محطّة أوداوارا. وهو اليوم الذي تأتي فيه مارية أكيكاوا كتلميذةٍ إلى صفّي لتعلُّم الرّسم. قد أتمكّن من الحديث معها هناك قليلًا بعد انتهاء الدرس. قُدتُ سيّارتي وتوجّهتُ إلى هناك.

ركنتُ السيّارة في مرأب. وكان عندي بعض الوقت قبل بداية الدرس، فدخلتُ أحد المقاهي كما أفعل دائمًا، وشربتُ قهوةً. لم يكن المحلّ مضاءً وحيويًّا مثل ستاربكس، بل كان مقهًى في الطُّرق الخلفيّة الضيّقة يُديره كهلٌ

في بداية شيخوخته وحده على الطريقة التّقليديّة. يصنعُ قهوةً شديدة السّواد ويُقدّمها في كوبٍ قهوةٍ بالغِ الثقل. وتنساب من سمّاعاتٍ عتيقةٍ موسيقى جاز من عصورٍ قديمة، لبيري هوليداي مثلًا أو كليفورد براون. وبعد ذلك، وأثناء سَيْري في سوق المتاجر المحيطةِ بالمحطّة، تذكّرتُ أنّ مرشح القهوة لم يتبقَّ منه في البيت إلّا قليلًا، فاشتريتُ بعضه. ثمّ عثرتُ على متجرٍ يبيع الأسطوانات القديمة فدخلته، وقضيتُ الوقت المتبقّي في تأمّل أسطوانات LP. وعندما فكّرت، تذكّرت أنّني لا أسمع إلّا الموسيقى الكلاسيكيّة منذ مدّةٍ طويلة، لأنّ رفوف أسطوانات توموهيكو أمادا لا تحتوي إلّا على الموسيقى الكلاسيكيّة. وكذلك لا أسمع من المذياع إلّا نشرةَ الأخبار والأرصاد الجويّة على الموجات المتوسّطة (فبسبب التضاريس الجغرافيّة، لا يستقبل المذياع الموجات المتردّدة FM على الأغلب).

ولقد تركت كلّ الأسطوانات والأقراص المدمجة (عددُها محدود أصلًا) التي كنتُ أملكها في شقّة هيرُو، لأنّ عمليّة الفصل بين أغراضي وأغراض يوزو شائكةٌ ومعقّدةٌ سواء بالنّسبة إلى الكتب أم إلى الأسطوانات. ليست شائكةً فحسب، بل مستحيلةً أيضًا. مثلًا أسطوانات [ناشڤيل سكاي لاين] لبوب ديلان، والمجموعة التي تحتوي «أغاني ألاباما»، تُرى هي لمن منّا؟ فالآن لا يهمّ من الذي اشتراها. لقد امتلكنا الموسيقى نفسها لفترةٍ محدُّدة، وقضينا حياتنا ونحن نسمعُها معًا. وحتى لو استطعنا فصل الأشياء الماديّة، فلن نستطيع فصل الذكريات المرتبطة بها. وإن كان الأمر كذلك، فليس هناك حلٌّ إلّا التّخلّي عنها كلّها.

حاولتُ البحث في متجر الأسطوانات عن أسطوانة [ناشڤيل سكاي لاين] والمجموعة الغنائيّة الأولى لفريق دورز (The Doors)، لكنّني لم أعثر على أيٍّ منهما. ربّما وُجدا في رُكن الأقراص المدمجة، ولكنّني كنتُ أريد

سماعهما على أسطوانات LP. كما أنَّ بيت أمادا ليس فيه مشغِّل أقراص مدمجة، بل ولا حتى مشغِّل شرائط الكاسيت. ليس هناك إلَّا عددٌ من مشغِّلات الأسطوانات فقط. يبدو أنَّ تومو هيكو أمادا كان من الأشخاص الذين لا يَحملون وُدًّا تجاه الأجهزة الحديثة أيًّا كان نوعُها. وأعتقد أنّه لم يقترب مسافةَ أقلّ من مترَيْن من فرن مايكروويف.

في النهاية، اشتريتُ أسطوانتَيْن LP وقعتْ عليهما عيناي في ذلك المتجر. أسطوانة [النهر] لبروس سبرينغستين، وأسطوانة ثنائي روبرتا فلاك ودوني هاثاواي. بعثتْ كلتا الأسطوانتَيْن فيَّ الحنين. في لحظةٍ عابرة، توقَّفتُ تمامًا عن سماع الموسيقى الجديدة، وأصبحتُ أسمع الموسيقى الكلاسيكيّة التي أُحبُّها مرّاتٍ ومرّات. والكُتب كذلك. أعيدُ قراءة الكتب التي قرأتها في الماضي مرّاتٍ ومرّات. لا أحملُ أيّ اهتمام بالكتب التي تَصْدر حديثًا، وكأنَّ الزمن قد توقَّف بي تمامًا في لحظةٍ من اللّحظات. أو لعلّ الزّمن قد توقّف بالفعل، أو أنّه يتحرّك بصعوبةٍ بالغة، لكنّه أنهى تطوّره وتقدُّمه. بالضّبط مثل المطعم الذي لا يقبل أيَّ طلباتٍ جديدة قبل إغلاقه بوقتٍ قليل. وقد أكون أنا الوحيد الذي لا ينتبه إلى ذلك!

وضعتُ الأسطوانتَيْن في كيسٍ ورقيٍّ ودفعتُ الحساب. وبعدها، ذهبتُ إلى متجر خمورٍ قريبٍ واشتريت الويسكي. احترتُ قليلًا في اختيار النوع، وفي النهاية، اشتريتُ نوع تشيڤاز ريغال. كان سعره أعلى قليلًا من أيّ ويسكي إسكوتلنديّ آخر، لكنَّ ماساهيكو سيفرح عندما يأتي في المرّة القادمة ويجده عندي.

ومع اقتراب درس الرّسم، وضعتُ الأسطوانات ومرشح القهوة والويسكي في السيّارة، ودخلتُ المبنى. في البداية، كانت حصّة الأطفال من الساعة الخامسة مساءً. إنّه الفصل الذي تدرس فيه مارية أكيكاوا. لكنّي لم أجدها هناك. وكان ذلك أمرًا غير عاديٍّ. إذ كانت تتردّد على الفصل

بحماسٍ شديد، وعلى حدّ علمي، كانت تلك أوّلَ مرّةٍ تغيب عن الدَّرس. لذا، حين لم أجد لها أثرًا، شعرتُ بعدم الاستقرار نوعًا ما. وأحسستُ بطيْفِ خطرٍ قادم. تُرى، هل حدث لها مكروهٌ؟ أن تكون حالتها الصحّيّة ساءت فجأةً، أو تعرّضت لحادثٍ غير متوقَّع.

تصرّفت كأنَّ شيئًا لم يكن، أعطيتُ الأطفال أحد المواضيع وجعلتهم يرسمون لوحاتٍ عنه، ودرتُ على كلّ طفلٍ واحدًا بعد آخر أُدلي له برأيي حول رسمه، وأُعطيه النصائح. وبعد أن انتهى الدَّرس، عاد الأطفال إلى بيوتهم.. وبعدها، بدأ فصل الكبار. أنهيتُ هذا الدرس أيضًا بلا عقبات. تحدَّثتُ في أحاديث عاديّة معهم (ليس المجال الذي أبرع فيه، لكنْ ذلك لا يعني أنّني لا أستطيع فعله). ثمّ عقدتُ اجتماعًا قصيرًا مع مدير فصول تعليم الرَّسم حول جدولي في المستقبل. ولم يكن المدير يعرف سبب تغيُّب مارية أكيكاوا يومها. لم يأتِ من أسرتها أيُّ اتِّصال.

بعد أن خرجت، دخلتُ بمفردي لمطعم معكرونة سوبا يابانيّة، وأكلتُ سوبا مع مقليّات التيمپورا. كانت تلك عادتي. آكل في المطعم نفسه دائمًا وجبة السوبا بالتيمپورا نفسها. وكانت تلك إحدى مِتَعي البسيطة. قُدتُ سيّارتي بعد ذلك وعدتُ إلى بيتي فوق الجبل. وعندما وصلتُ، كانت الساعة في حدود التاسعة ليلًا. لم يكن الهاتف المنزليّ مزوَّدًا بآلةٍ للردّ على المكالمات (يبدو أنَّ ذلك الجهاز الذكيّ لم يَرُق لمزاج توموهيكو أمادا أيضًا)، لذا لا أعرف إن اتَّصل أحدٌ بي أثناء غيابي أم لا. ظللتُ أتأمّل تلك الآلة القديمة البسيطة، لكنَّ الهاتف لم يُخبرني بشيء. إنّما حافظ على صمته المُطبق.

تحمَّمتُ بتأنٍّ ودفَّأتُ جسدي، ثمّ صببتُ آخر كأسٍ متبقيّةٍ في زجاجة تشيڤاز ريغال، ووضعتُ فيها مكعَّبَيْن من الثلج، ثمّ ذهبتُ إلى غرفة المعيشة. وضعتُ الأسطوانة التي اشتريتُها منذ قليل على الدوّارة. وعندما

انسابت أنغامٌ مختلفةٌ عن الموسيقى الكلاسيكيّة في هذا البيت فوق قمّة الجبل، لم أتمالك نفسي من الإحساس بأنّها لا تليقُ بالمكان. يبدو أنَّ هواء هذا البيت ظلّ لفترةٍ طويلةٍ من السنين والشهور ينظّم نفسه متماشيًا مع الموسيقى التقليديّة القديمة. لكنَّ الموسيقى التي تنساب آنذاك كانت هي التي اعتدتُ عليها حقًّا. لذا، مع مرور الوقت، تغلّب شعوري بالحنين على شعوري بأنّها غير لائقة. وبهذه الحال، ارتاح قلبي واسترخى كلُّ جزءٍ من عضلات جسمي. لعلّها كانت قد تصلّبت من دون حتى أن أنتبه إلى ذلك.

انتهى الوجه الأوّل من أسطوانة LP للثنائيّ روبرتا فلاك ودوني هاثاواي، وعندما كنتُ أستمع إلى الأغنية الأولى (for all we know، جوقة رائعة) في الوجه الثاني وأنا أُميّل كأس الويسكي، رنَّ الهاتف. لا يحدث مُطلقًا أن يرنَّ هاتف البيت في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل. ولم أتشجّع لتناول السمّاعة، غير أنّي أحسستُ من رنّة الهاتف كأنّه يرتدّ في القلب بصدى الطوارئ. وضعتُ الكأس ونهضتُ عن الأريكة، ورفعتُ إبرة الأسطوانة، ثمّ أمسكتُ بالسمّاعة.

«ألو» كان صوت شوكو أكيكاوا.

ألقيتُ عليها التّحيّة.

قالت: «أعتذر على الاتّصال في هذا الوقت المتأخّر». كانت صوتها يبدو متوتّرًا أكثر بكثير ممّا كان في الوضع العاديّ. «كنتُ أريد أن أسألك عن شيءٍ ما يا أستاذ. لم تحضر مارية حصّة الرّسم اليوم، أليس كذلك؟»

أكّدتُ لها ذلك. كان سؤالًا غريبًا نوعًا ما. تأتي مارية إلى فصل الرّسم بعد انتهاء دروسها في المدرسة (المدرسة الإعداديّة الحكوميّة في الحيّ الذي تسكن فيه). لذا تحضر درس الرّسم دائمًا بزيّ المدرسة الموحّد. وتأتي عمّتها لمرافقتها بالسيّارة بعد انتهاء الفصل. ثمّ تعود الاثنتان معًا إلى بيتهما. كانت تلك عادتهما.

قالت شوكو أكيكاوا: «مارية اختفت».

«اختفت؟»

«لا أثر لها في أيّ مكان».

سألتها: «متى حدث ذلك؟»

«لقد ودّعتها في الصباح مثل كلّ يوم على أنّها ستذهب إلى المدرسة. سألتها هل أوصلها بالسيّارة، فقالت لا داعي لأنّها ستمشي. فهذه الطفلة تحبّ المشي كثيرًا، ولا تحبّ ركوب السيّارات. كنتُ أوصلها بالسيّارة عند حدوث شيءٍ طارئ يؤخّرها عن المدرسة، لكنّها في الحالات العاديّة تهبط الجبل وتستقلّ الحافلة حتى محطّة القطار. ولقد خرجت مارية مثل عادتها في صباح كلّ يوم في السّابعة والنّصف».

بعد أن قالت شوكو أكيكاوا ما قالته دفعةً واحدة، سكتتْ لحظة. يبدو أنّها تنظّم أنفاسها على الطّرف الآخر من السمّاعة. أنا أيضًا، خلال تلك الفترة، نظّمتُ في رأسي المعلومات التي تلقّيتها.

تابعت شوكو كلامها:

ـ «اليوم هو الجمعة. وهو اليوم الذي تذهب فيه مارية إلى حصّة الرّسم بعد نهاية المدرسة. وعادةً، أذهب بالسيّارة لمرافقتها بعد نهاية الدّرس. لكنّها قالت لي اليوم إنّها سترجع بالحافلة فلا داعي لذهابي. لذا لم أذهب. فهي إن قالت شيئًا لا ترجع عنه أبدًا. كانت ستعود إلى البيت بين السّابعة والسّابعة والنّصف. ثمّ تتناول العشاء. لكنّها لم ترجع وقد تخطّت الثامنة ثمّ الثامنة والنّصف. فقلقتُ واتّصلت بالمركز لأتأكّد من الموظّف الإداري إن كانت مارية حضرت اليوم أم لا. النتيجة أنّها لم تحضر. فازداد قلقي، والساعة الآن العاشرة والنّصف ولم تعُد إلى البيت. ولم يأتِ منها أيّ اتّصال. فاتّصلت بك يا أستاذ، عسى تعرف شيئًا عنها».

- «لا علم لي أين تكون مارية. حتى إنّي دُهشتُ عندما دخلتُ الفصل ولم أجدها، لأنّها لم تتغيّب في السّابق ولا مرّة».

أخذت شوكو أكيكاوا نَفَسًا طويلًا، وقالت: «أخي لم يَعُد إلى البيت بعد. ولا أعلم متى سيعود. ولا يُمكن التواصل معه. وليس من المؤكّد إن كان سيعود اليوم أم لا. إنّني وحيدةٌ في هذا البيت ولا أدري ما أفعل».

- «لقد خرجت مارية من البيت في الصباح بالزيّ المدرسيّ على أنّها ذاهبةٌ للمدرسة.. أليس كذلك؟»

«بلى. ارتدت زيّ المدرسة، وحملت حقيبتها على كتفها. بالهيئة نفسها دائمًا. معطف وتنُّورة الزيّ المدرسيّ. لكنّي لا أعرف أَذهبت إلى المدرسة بالفعل أم لا. فالوقت قد تأخّر وما من وسيلةٍ للتأكُّد من ذلك. لكنّي أعتقد أنّها ذهبت إلى المدرسة. يُفترض أن تتّصل المدرسة بنا في حال لم تأتِ من دون إذنٍ مُسبق. ثمّ إنّها لا تحمل من النقود إلّا ما تحتاج إليه ليومها. لقد أعطيتها هاتفًا جوّالًا بشكلٍ مؤقت، ولكنّه مُغلق. فهذه الفتاة تكره الهواتف المحمولة وغالبًا ما تُغلقه إلّا إذا اتّصلت هي. ودائمًا ما كنتُ أُنبّهها على ذلك. وأخبرتُها ألّا تُغلقه لأنّه مُفيدٌ في الحالات الطارئة».

- «هل حدث مثل ذلك من قبل؟ أن تتأخّر في العودة إلى البيت؟»

- «إنّها المرّة الأولى حقًّا. فمع أنّ مارية ليس لها أصدقاءٌ حميميّون في المدرسة إلّا أنّها تتردّد على المدرسة بانتظام. يبدو أنّها لا تحبّ المدرسة كثيرًا، ولكنّها تفعل ما يجب فعله. ولقد حصلت على جائزة حضور جميع أيّام الدّراسة في المدرسة الابتدائيّة. فهي مُلتزمة ومُستقيمة. وبعد الدوام تعود إلى البيت مباشرةً. لا يحدث أن تذهب هنا أو هناك مطلقًا».

يبدو أنّ عمّتها لا تنتبه فعلًا إلى أنّ مارية تترك البيت وتخرج ليلًا!

- «ألم يحدث أمرٌ غير معتاد هذا الصباح؟»

ـ «لا، لم يحدث. كان صباحًا عاديًا، كأيِّ صباح. شربتْ حليبًا ساخنًا، وأكلتْ شريحة خبزٍ واحدة، وخرجتْ من البيت. لم تَنْطُق بأيِّ شيء خلاف التَّحيَّة المُعتادة التي تقولها دائمًا. أعددتُ وجبة الفطور كالمعتاد هذا الصباح ولم تتحدَّث معي مارية. ولكنْ هذا هو المعتاد دائمًا. أحيانًا، عندما تتحدَّث لا تتوقَّف عن الحديث، لكنَّها في العادة لا تردُّ حتى على السُّؤال».

أثناء سماعي لحديث شوكو، شعرتُ أنا أيضًا بالقلق تدريجيًا. فالسَّاعة تقترب من الحادية عشرة مساء، والمنطقة مظلمةٌ ظلامًا حالكًا. وكذلك يختفي القمر خلف الغيوم. تُرى ما الذي حدث لمارية أكيكاوا؟

قالت شوكو أكيكاوا: «أفكِّر في الانتظار ساعةً أخرى، فإن لم يأتني أيُّ اتِّصال استدعيتُ الشرطة».

قلتُ لها: «هذا أفضل ربَّما. إن كنت أستطيع مساعدتك، فأرجوكِ أن تبلغيني بلا خجل. ولا مانع في ذلك مهما تأخَّر الوقت».

شكرتني شوكو ثمَّ أغلقت الهاتف. أنهيتُ ما تبقَّى من الويسكي، وغسلت الكأس في المطبخ.

دخلتُ المَرْسم بعد ذلك. أضأتُ كلَّ الأنوار، وتأمَّلتُ لوحة [بورتريه مارية أكيكاوا] التي لم تكتمل بعد. أصبحت على وشك الانتهاء بعد إنهاء العمل على الرتوش الأخيرة. برزت هيئة تلك الفتاة قليلةَ الكلام ذات الثلاثة عشر عامًا. لم تُظهر اللَّوحة شكلها الخارجيّ فقط، بل احتوت كذلك على العناصر التي لا تظهر للعين لكنَّها تميِّز وجودها ذاته. إنَّ ما أحاول عمله في لوحاتي ـ بخلاف البورتريهات التجاريَّة ـ أن أوضِّح ما خَفِي تحت المظهر الخارجيّ، وأن أبدِّل الرِّسالة التي تُرسلها هذه العناصر المخفيَّة وأُجسِّدها في إطارٍ مختلف. بهذا المعنى، كانت مارية أكيكاوا موديلًا يُثير اهتمامًا عظيمًا بالنِّسبة إليّ، لأنَّ في هيئتها تلميحاتٍ مكنونةً لا تُرى وكأنَّها

صُوَرٌ خادعة. لقد اختفى أثر تلك الفتاة صباح هذا اليوم، وكأنَّ مارية أكيكاوا ذاتها قد اختفت داخل تلك الصُّورة الخداعيّة.

ثمّ تأمّلت لوحة [حُفرةٌ في غابةٍ برِّيّة] التي وضعتُها على الأرض؛ اللّوحةَ الزَّيتيَّةَ التي اكتملت عصر اليوم. تبوح لي لوحة الحُفرة بشيءٍ ما وبمعنًى يختلف تمامًا عن لوحة [بورتريه مارية أكيكاوا] ومن اتّجاهٍ مختلف.

لقد أحسستُ مجدَّدًا وأنا أتأمّل تلك اللّوحة أنَّ شيئًا ما على وشك أن يحدث. حتّى عصر اليوم كان مجرّد تخمين، ولكنّه الآن بدأ يَنتهكُ الواقع فعلًا. لم يَعُد الأمر مجرّد توقُّع. لقد بدأ شيءُ ما يحدث بالفعل. لا ريب أنَّ لاختفاء مارية أكيكاوا صلةً بلوحة [حُفرةٌ في غابةٍ برِّيّة]. هذا ما شعرتُ به. من خلال إكمالي للّوحة عصر اليوم بدأ شيءٌ ما يتحرّك. وعلى الأرجح، كانت نتيجة ذلك اختفاء مارية أكيكاوا في مكانٍ مجهول.

ومن المستحيل أن أشرح ذلك لشوكو أكيكاوا. فإن سمعتْ كلامًا كهذا، لن تفهم شيئًا، وسيزداد اضطرابُها أكثر وأكثر.

خرجتُ من المَرْسم، وذهبتُ إلى المطبخ، وشربتُ عدَّة أكواب من الماء، لغسل رائحة الويسكي المتبقّية في فمي. ثمّ أمسكتُ سمّاعة الهاتف واتّصلتُ بمنشكي. ردَّ الرجل عند منتصف الرنّة الثالثة. أحسستُ بصدى التيبُّس الضئيل في صوته وكأنّه كان ينتظر اتّصالًا مُهمًّا من شخصٍ آخر. وبدا أنّه اندهش من أنّني أنا الذي يتّصل به. انفرج ذلك التيبُّس في تلك اللّحظة، وعاد صوته لما هو عليه من هدوءٍ وبرود.

قلتُ له: «أعتذر عن الاتّصال في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل».

«لا مانع أبدًا. فأنا لا أنام إلّا متأخّرًا، ولديَّ الكثير من الوقت. والكلام معك أفضل من أيِّ شيءٍ آخر».

اختصرتُ التّحيّات، وأنبأته بموضوع اختفاء مارية أكيكاوا بإيجاز. وقالت إنّها ذاهبة إلى المدرسة في الصباح ولم تَعُد إلى البيت حتى الآن. وأنّها لم تحضر إلى درس الرّسم. يبدو أنّ منشكي اندهش ممّا سمع. ولم ينطق بشيءٍ لبعض الوقت.

سألني: «حسنًا، وأنت ألا تعرف أين هي؟»

أجبته: «لا أعرف مطلقًا. أنا مُندهش تمامًا. ماذا عنك يا سيّد منشكي؟»

ـ «بالطبع، ليس لديّ أيّ فكرة. لأنّها لا تتحدّث معي أبدًا».

كان صوته خاليًا من المشاعر. يتكلّم بالحقيقة كما هي.

قلتُ له: «الطفلة صموتة، ولا تتحدّث مع أحدٍ كثيرًا. لكنّ عدم عودتها إلى البيت حتى هذا الوقت المتأخّر جعل شوكو أكيكاوا في حالةِ اضطرابٍ شديدة. ويبدو أنّ والد مارية لم يَعُد بعد، وشوكو محتارةٌ في أمرها».

ظلّ منشكي صامتًا. من النادر أن يفقد القدرة على الكلام بهذا الشّكل.

ثمّ نطق أخيرًا، وقال: «هل هناك ما بوسعي فعله حيال ذلك؟»

ـ «إنّه رجاء مفاجئ! ولكنْ، هل يمكنك أن تأتي الآن إلى بيتي؟»

ـ «بيتك أنت؟»

ـ «أجل. فلديّ ما أستشيرك به بخصوص هذا الأمر».

صمت منشكي لحظةً، ثمّ قال: «فهمتُ. سآتي إليك فورًا».

ـ «لستُ أُشغلك عن شيء، أليس كذلك؟»

ـ «ليس هناك شيءٌ مهمّ. وأستطيع التّصرّف» ثمّ سعل سُعالًا خفيفًا. ربّما كان ينظر إلى الساعة، ثمّ قال: «سأصل خلال رُبع ساعةٍ تقريبًا».

أغلقتُ السمّاعة وتهيّأتُ للخروج. ارتديتُ السُترة وجهّزتُ المعطف الجلديّ، ووضعتُ المصباحَ اليدويّ الكبير بقربي. ثمّ جلستُ على الأريكة بانتظار قدوم سيّارة منشكي الجاغوار.

- 46 -

الجدار العالي المتين يسلب قوَّة البشر

وصل منشكي في الحادية عشرة والعشرين دقيقة. عندما سمعت محرّك الجاغوار، ارتديتُ المِعطف الجلديّ وخرجتُ من البيت، وانتظرت أن يخرج منشكي من السيّارة بعد أن يُطفئ محرّكها. كان منشكي يرتدي معطفًا سميكًا واقيًا للرّيح بلونٍ كحليّ وبنطلون جينز أسود ضيّقًا. ويلفّ حول عنقه لفاعًا خفيفًا، وينتعل حذاءً رياضيًا من الجلد. وكان شعره الأبيض الوفير ملحوظًا حتى في عيون اللّيل.

ـ «أريد أن نذهب معًا الآن لتفقُّد الحُفرة في الغابة. هل تمانع؟»

قال منشكي: «لا مانع مطلقًا. ولكنْ، ألتلك الحفرةُ علاقةٌ باختفاء مارية؟»

ـ «لا أعرف حتى الآن. لكنّي منذ فترةٍ رأيت نبوءةً مشؤومة. مفادُها أنَّ تلك الحُفرة ستتسبَّب في حدوث أمرٍ ما».

لم يزد منشكي من الأسئلة، وقال: «فهمتُ. فلنذهب معًا لتفقُّد المكان».

فتح صندوق السيّارة الخلفيّ، وأخرج منه شيئًا يُشبه القنديل. ثمّ أغلق الصندوق وتوجّه معي إلى الغابة. كانت ليلةً ظلماء يغيب عنها القمر والنجوم. حتى الرياح كانت غائبة!

قلتُ له: «أعتذر إليك اعتذارًا شديدًا لأنّي استدعَيْتُك في منتصف اللّيل بهذه الطريقة. شعرتُ أنّه من الأفضل أن تكون معي عند ذهابي لتفقُّد الحُفرة، وأنّه لن يُمكنني التّصرُّف وحدي في حال حدوثِ شيءٍ طارئ».

مدَّ يده وربَّت خفيفًا على ذراعي من فوق المعطف، على سبيل التَّشجيع. «لا مانع مُطلقًا. لا تشغل بالك بتاتًا. إنَّني على استعداد لفعل ما أستطيع».

كنَّا نمشي بحَذَرٍ بالغ على ضوء المصباح والقنديل حتى لا تشتبك أرجلنا في جذور الأشجار. يصل إلى أسماعنا وطءُ أحذيتنا على أوراق الشجر التي تساقطت من أغصانها وتراكمت على الأرض. ليس هناك في ليل الغابة البرِّيَّة إلَّا هذا الصوتُ تقريبًا. وهناك طيفٌ ثقيل الوطء كأنَّ الحيوانات حولنا تتوارى وتكتم أنفاسها وتراقبنا بصمت. يُولِّد ظلامُ منتصف اللَّيل الكثيف مثلَ تلك الأوهام. ولو رآنا مَن لا يتفهَّم الظرف لظنَّ أنَّنا في طريقنا إلى نبش القبور.

قال منشكي: «هناك شيءٌ واحدٌ فقط أريد أن أسألك عنه».

- «ما هو؟»

- «ما الذي يجعلك تعتقد أنَّ ثمَّة علاقةً بين اختفاء مارية وتلك الحُفرة؟»

أخبرتُه بأنِّي ذهبتُ معها منذ فترةٍ قصيرةٍ لرؤية الحُفرة، وأنَّها كانت تعرف بوجودها حتى قبل أن أُخبرها عنها، وأنَّ تلك المنطقة هي مكان لعبها. وأنَّه لا يحدث شيءٌ في هذه المنطقة لا تعرفه الفتاة.. ثمَّ قلتُ له ما قالته لي: «كان يجب ترك هذا المكان على ما هو عليه، ما كان ينبغي فتح تلك الحُفرة».

قلتُ: «كانت تكنُّ للحُفرة مشاعرَ غريبة. كيف يمكن شرح ذلك؟ ربَّما شيءٌ روحانيّ».

قال منشكي: «وقد أثارت اهتمامها؟»

- «بالضَّبط. في الوقت الذي أحسَسْتُ تجاه الحُفرة بالحَذَر، كانت منجذبةً جدًّا لشكلها ومنظرها. ولذا، فأنا قلقٌ من أن يكون قد أصابها مكروهٌ يتعلَّق بالحُفرة. لعلَّها في الحُجرة في أسفل ولا تستطيع الخروج».

فكّر منشكي قليلًا، ثمّ قال: «وهل أخبرت عمّتها بذلك؟ أي شوكو أكيكاوا؟»

ـ «كلّا. لم أقل لها شيئًا بعد. لا بدّ من شرح قصّة الحُفرة من البداية. والتّفاصيل التي دَعَتْ إلى فتح الحُفرة، وسبب علاقتك بالأمر يا سيّد منشكي. كان الحديث سيطول ولن أستطيع إبلاغَها مخاوفي».

ـ «ما سيؤدّي إلى نقل القلق إليها بلا داعٍ».

ـ «لاسيّما إذا تدخّلت الشرطة وأبدتْ اهتمامًا بالحُفرة، ستتعقّد الأمور أكثر».

نظر منشكي إليّ وقال: «وهل تدخّلت الشرطة في الأمر بالفعل؟»

ـ «عندما حدّثتني عمّتها، لم تكن قد اتّصلت بالشرطة بعد. لكنّها الآن على الأرجح قدّمت بلاغًا للبحث عن مفقود. أستوعبها، فالوقت منتصف اللّيل و....»

أومأ منشكي برأسه مرّاتٍ عدّة، وقال: «أجل هذا طبيعيّ. طفلة في الثالثة عشرة من عمرها لم تَعُد إلى بيتها والساعة تقارب منتصف اللّيل. ولا أحد يَعرف أين ذهبتْ. ليس أمام أُسرتها إلّا إبلاغ الشرطة».

ولكنّي أحسست في صدى كلامه أنّه لا يرحّب بتدخُّل الشرطة.

قال منشكي: «لندع أمر الحُفرة بيني وبينك ما استطعنا. من الأفضل ألّا يُشاع سرُّها بين الغرباء. سيزداد الأمر تعقيدًا فقط».

وافقته القول.

أكثر من ذلك، هناك الكومنداتور أيضًا. فالحديث عن هذه الحُفرة من دون ذكر الفكرة التي خرجتْ منها على شاكلة الكومنداتور أمرٌ شبهُ مستحيل. ولن يزيد الطين إلّا بِلّة كما يقول منشكي (ومن كان سيصدّقني إن بحتُ بوجود الكومنداتور؟ سيظنّون أنّي جُننت).

وصلنا إلى المعبد الصّغير ودُرنا خلفه. وتخطّينا أجمة الغاب التي ما زالت على حالتها المزرية وقد دهستها جنازير الجرّافة، ووصلنا إلى الحُفرة. سلّطنا الضوء على الغطاء أوّلًا. كانت أحجار التثقيب كما هي. فحصتُ بعينيّ ترتيب تلك الأحجار. هناك ما يدلّ على أنّ الأحجار تحرّكت من مكانها وإن بِقَدْرٍ ضئيل. لقد أزاح أحدٌ ما الغطاء بعد آخر مرّةٍ فتحتُه أنا ومارية وأغلقناه سويًّا، ثمّ أعاده إلى مكانه وحاول قدر الإمكان أن يُعيد الأحجارَ إلى ترتيبها السّابق. لكنّي استطعت تمييز ذلك الاختلاف الضئيل.

قلتُ: «لقد أزاح أحدُهم الأحجارَ ورفع الغطاء».

نظر منشكي نظرةً سريعةً إلى وجهي.

ـ «تُرى هل مارية من فعلها؟»

ـ «لا أدري. ربّما كان هذا هو الاحتمال الأكبر. فلا يأتي أحدٌ غريبٌ يجهل المكان إلى هنا خصّيصًا، وإن كان شخصٌ غيرنا يعرف بأمر الحُفرة، فليس إلّا مارية».

كان الكومنداتور أيضًا يعرف بأمر هذه الحُفرة؛ لأنّه خرج منها هو نفسه. لكنّه في النهاية مجرّد فكرة؛ وجودٌ لا شكل له. ولن يستطيع إزاحة أحجار التثقيل كي ينزل في الحُفرة.

أزحنا الأحجار من فوق الغطاء، ثمّ الألواح السّميكة التي تُغطّي الحُفرة كلّها. وعندها، ظهرت الحُفرة التي يقترب قطرها من مترَيْن. وبدت لي أكبر حجمًا وأكثر ظُلمة عمّا كانت في المرّة السّابقة. إلّا أنّ هذا التوهُّم سببه ظلامُ اللّيل أغلب الظنّ.

قرفصنا أنا ومنشكي على الأرض، وأنرنا داخل الحُفرة بالمصباح والقنديل. لا أثر لإنسان داخل الحُجرة. لا أثر لأيِّ شيء. سوى ما كان

موجودًا فيها مُسبقًا، وذلك الفراغ الأسطوانيّ الفارغ والمطوّق بالجدار الحجريّ العالي. ثمّة تغييرٌ واحدٌ فقط: لقد اختفى السُلّم. السُلّم المعدنيّ القابل للطيّ، الذي تركه لنا العمّال الذين أزاحوا جثوةَ الصخور تكرُّمًا منهم. كان معلّقًا على الجدار في آخر مرّةٍ رأيتُ الحُفرة.

قلت: «أين اختفى السُلّم؟» عثرنا عليه فورًا. كان مُلقًى على جَنبه في الأجمة التي دُهست تحت جنازير الجرّافة. رفع أحدهم السُلّم وألقاه هناك. ليس ثقيلًا ولا يحتاج إلى قوّةٍ كبيرةٍ لحمله. حملناه وأعدناه إلى المكان الذي كان فيه.

قال منشكي: «سأنزل إلى قاع الحُفرة لأفحصها، ربّما أعثرُ على شيء».

ـ «أليس هناك خطر؟»

ـ «ما من خطر. إن كنتُ أنا الذي سينزل فلا داعيَ للقلق. لأنّني نزلتُ مرّةً من قبل».

ثمّ نزل على السُلّم والقنديل بيده، وكأنّه لا يَعْبأ بشيء.

سألني وهو ينزل: «بالمناسبة، هل تعلم ارتفاع جدار برلين الذي كان يفصل شرقَها عن غربها؟»

«لا».

نظر منشكي عاليًا تجاهي، وقال: «ثلاثة أمتار. تختلف بحسب المكان أحيانًا، ولكنّ الارتفاع بشكلٍ عامّ كان ثلاثة أمتار. لذا فهو أطول قليلًا من ارتفاع هذه الحُفرة. كان الجدار يمتدّ على مدى مئة وخمسين كيلومترًا تقريبًا. لقد رأيتُ جدار برلين على أرض الواقع. في العصر الذي كانت برلين مُنقسمةً فيه إلى غربيّة وشرقيّة. كان مشهدًا مؤلمًا جدًّا».

وصل منشكي إلى القاع ووقفٍ عليه، وأنار المكان بالقنديل. ومع ذلك، ظلّ يُحدّثني وأنا واقفٌ على السّطح.

ـ «يُبنى الجدار في الأصل لحماية الإنسان. ولكنّه يُستخدم أحيانًا لحبس البشر. فالجدار الشامخ المتين يسلب البشر المحبوسين قواهم. سواءً جسديًا أم معنويًا. ثمّة جدرانٌ بُنيت من أجل ذلك الغرض تحديدًا».

سكت منشكي بعد ذلك طويلًا. ثمّ دار مُسلِّطًا القنديل على أركان الجدار الحجريّ المُحيط وأرض الحُفرة لفحصهما. بعنايةٍ بالغة، وكأنّه عالم آثارٍ يُجري أبحاثًا دقيقًا للغرفة الحجريّة التي في أعمق أعماق الهرم. كانت إضاءة القنديل قويّةً وتُنير مساحةً أوسع كثيرًا من المصباح اليدويّ. ثمّ بدا أنّه عثر على شيءٍ ما في القاع، فوضع ركبته على الأرض وأخذ يفحص ذلك الشيء بالتّفصيل. ولكنّي لم أُبصر ذلك الشيء من مكاني أعلى الحُفرة. ولم يقل منشكي شيئًا. ويبدو أنّه عثر على شيءٍ صغيرٍ جدًّا. نهض واقفًا، ثمّ لفّ الشيء في منديلٍ ووضعه في جيب المعطف الواقي. رفع القنديل حتى رأسه ونظر عاليًا تجاهي.

ـ «سأصعد الآن» قال.

ـ «هل عثرت على شيء؟» سألته.

لم يجب منشكي على سؤالي، وأخذ يصعد السُّلّم بحرصٍ شديدٍ. وكان السُّلّم يَصْدر صريرًا غير حادٍّ مع كلّ درجةٍ يطأ عليها بسبب ثقل جسمه. راقبتُ صعوده إلى الأرض وأنا أُنير له السُّلّم بالمصباح. وبالنظر إلى حركة جسمه، عرفتُ جيّدًا أنّه يُدرّب ويُقوّي عضلاتِ جسمِهِ يوميًا لتقوم بعملها كما ينبغي. كانت حركاتُه كلّها مدروسةً ومحسوبةً. يستخدم العضلاتِ الضروريّةَ بفاعليّةٍ شديدة. وقف على الأرض ثمّ تمطّى بجسده، ونفض الغبار الذي عَلِق على بنطلونه بعنايةٍ بالغة مع أنّه كان قليلًا جدًّا.

التقط نَفَسًا، وقال: «عندما ينزل المرء إلى أسفل يشعر بضغطٍ نفسيٍّ شديد يسبّبه ارتفاع الجدار. فيتولّد لديه أحدُ أنواع الضعف. لقد رأيت منذ

فترةٍ ما يشبه هذا الجدار في فلسطين. الجدار الخرساني الذي بَنَتْه إسرائيل. يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار. وفي أعلاه، سلكٌ شائكٌ يمرّ فيه تيّارٌ كهربائيٌّ بضغطٍ عالٍ. ويبلغ طوله خمسمائة كيلومتر. يبدو أنَّ الإسرائيليّين لم يكتفوا بارتفاع ثلاثة أمتار، مع أنّها تكفي وتزيد».

وضع منشكي القنديل على الأرض، فأنار موضعَ أقدامنا.

قال: «بالمناسبة، إنَّ ارتفاع جدران الزنازين الانفراديَّة في سجن طوكيو يقارب الثلاثة أمتار. لا أدري السَّبب، ولكنَّ ارتفاعها كان عاليًا جدًّا. مع مرور الأيّام، كلَّ يوم، كلَّ يوم، لا ترى عيناك إلّا ذلك الجدار العالي عديم الملامح. ليس هناك ما يُمكن رؤيته غير الجدار. وبالتَّأكيد، ليس هناك زينةٌ من لوحاتٍ أو غيرها على الجدار. مُجرَّد جدار أصمّ. تشعر وكأنّك قد وُضعت في قاعِ حفرةٍ عميقة».

سمعتُ حديثه صامتًا.

«لقد مرَّ زمنٌ على ذلك. دخلت سجن طوكيو المركزيّ مرّة لسببٍ ما. لم أتحدَّث معك بهذا الشأن من قبل، على ما أذكر. أليس كذلك؟»

قلتُ له: «لم أسمع منك ذلك». بالطبع، لم أقل له إنّني عرفتُ عن طريق صديقتي المتزوّجة أنّه دخل الحبس الاحتياطيّ.

ـ «كان يؤسفني أن تعرف هذه الحكاية من شخصٍ آخر. فكما تَعرف، الشائعات تحرّف الحقائق لجعلها مثيرةً وشائقة. لذا، أريد أن تعرف الحقيقة من فمي أنا. إنّه حديثٌ لا متعةَ فيه، ولكنّه جاء في سياق كلامنا عن الأمر، هل تمانع إن رَوَيْتها عليك الآن؟»

قلتُ له: «بالتَّأكيد، لا مانع. تفضّل!»

بدأ منشكي بالحديث بعد أن صمت للحظة، فقال: «لا أريدك أن تشعر أنّي أدافع عن نفسي بحججٍ واهية، لكنّي لم أقم بما يُثير الرّيبة. لقد مارستُ العديد من الأعمال حتى الآن. وأعتقد أنّه بوسعي القول إنّي عشتُ حاملًا لأعباء الكثير من المخاطر، لكنّي لستُ غبيًا على الإطلاق، فقد ولدتُ بشخصيّةٍ حَذِرَة جدًّا، لذا لم أمد يدي إلى أيّ شيءٍ يخرق القانون ولو خرقًا خفيفًا. لطالما كنتُ أنتبه إلى تلك الحدود. ولكنْ، وقتها كان شريكي الذي كنتُ أعمله معه لا يُحذّر ولا يُفكّر. وبسببه، لاقيتُ معاناةً شديدة. ومنذ ذلك الوقت، تجنّبتُ العمل مع أيّ شريكٍ تمامًا، وقرّرت العيش متحمّلًا مسؤوليّتي الشّخصيّة فقط».

ـ «ماذا كانت التُّهمة التي ألقتها عليك النّيابة؟»

ـ «تهرُّبٌ ضريبيّ وتعاملٌ غير مشروع في الأسهم. ما تُسمّى جرائم اقتصاديّة. وقُدّمت القضيّة في المحاكم، واستطعت التّوصُّل في النهاية إلى حكم بالبراءة. كانت تحقيقات النيابة في غاية الصرامة، ووُضعتُ في السجن المركزيّ لفترةٍ طويلة. جاؤوا بأسبابٍ ملفّقةٍ عديدة، ومدّدوا فترة الحبس الاحتياطيّ مرّةً بعد أُخرى. فترةٌ طويلةٌ لدرجة أنّي حتى الآن أشعر بالحنين إليها كلّما دخلت مكانًا مُحاطًا بالأسوار. وكما ذكرتُ لك منذ قليل، لم يكن ضدّي أيُّ شيء يُعاقب عليه القانون. كانت الحقيقة واضحةً وضوح الشمس. ولكنّ النّيابة كانت قد حدّدت سيناريو التقاضي، وكنتُ فيه مقترفًا للذنب بشكلٍ صريح. ولم يكن لديهم رغبةٌ في إعادة كتابة السيناريو من جديد بعد كلّ ذلك. هذه هي المنظومة البيروقراطيّة. عندما تُقرّر شيئًا، من المستحيل أن تُغيّره. وعندما ينقلب التيّار للاتّجاه المعاكس، يجب أن يتحمّل المسؤوليّة شخصٌ ما. ولهذا السّبب، وُضعتُ لفترةٍ طويلةٍ جدًّا في الحبس الانفراديّ بسجن طوكيو المركزيّ».

«إلى أيّ مدى طالت تلك الفترة؟»

قال منشكي وكأنّها لا شيء: «أربعمئة وخمسةً وثلاثون يومًا. لن أنسى هذه الرّقم ما حييت».

لا بدّ أنّ قضاء 435 يومًا في الحبس الانفراديّ هي فترةٌ طويلةٌ طولًا مهولًا.

سألني: «هل سبق لك أن حُبست في مكانٍ ضيّقٍ لفترةٍ طويلة؟»

أجبت نافيًا. فأنا أخاف من الأماكن المغلقة منذ أن حُبستُ في عربة نقل الأثاث، وأصبحت لا أستطيع حتى ركوبَ المصاعد. ولو وُضعتُ في مثل تلك الظروف ستُدمَّر أعصابي فورًا.

قال منشكي: «لقد تعلّمتُ هناك حيلةً لتحمّل البقاء في مكانٍ ضيّق. كنتُ أدرّب نفسي يوميًا عليها. تعلّمتُ عدّة لغات أثناء وجودي في السجن. الإسبانيّة والتركيّة والصينيّة. إنّ عدد الكتب التي يُمكن أن تحتفظ بها بجانبك في الحبس الانفراديّ محدود، ولأنّ القواميس كانت مُستثناة من ذلك، فإنّ فترة السجن هي فرصةٌ رائعة لتعلّم اللّغات. ولحسن الحظّ أنّي وُهبت قوّةَ تركيزٍ شديدة، وأثناء دراسة اللّغات استطعتُ نسيان وجود الجدار. لا بدّ لوجود جانبٍ إيجابيّ في أيّ شيء».

مهما كانت الغيوم متلبّدة وقاتمة فاللّون الفضّيّ يتلألأ على جانبها الخلفيّ.

تابع منشكي حديثه: «لكنّ أكثر الأمور رُعبًا هي الزلازل والحرائق. فإذا وقع زلزالٌ كبيرٌ أو شبّ حريقٌ ضخم، فأنت محبوسٌ داخل قفصٍ لا تستطيع الهروب مهما فعلت. وكنتُ إذا فكّرت بأنّي مسجونٌ، وانهار عليّ البناء أو متّ محروقًا، أُصاب أحيانًا بضيقٍ في التّنفّس بسبب الرُّعب. ولم

أستطع التّغلّب على هذا الرُّهاب بسهولة. خاصّة إذا استيقظتُ بسببه في منتصف اللّيل».

«لكنّك تحمّلت، أليس كذلك؟»

أومأ وقال: «بالتّأكيد. لا يُمكن لهؤلاء الشرذمة أن يهزموني، ولا يمكن لهذه المنظومة أن تُحطّمني. كنتُ أستطيع العودة إلى العالم الطبيعيّ والخروج من القفص بمجرّد التّوقيع على ما أعدّه الطرفُ الآخرُ من أوراق. ولكنْ، لو وقّعتَ مرّةً واحدة، فهي النهاية. سيكون اعترافًا منك بفعلٍ ما لم تَفعله. بتُّ أفكّر أنَّ تلك المحنة هي اختبارٌ مهمٌّ أعدّته لي السّماء».

«وهل تذكّرتَ ما حدث لك وقتها حين قضيتَ ساعةً واحدةً داخل الحُفرة وحيدًا؟»

«بالضّبط. من الضروريّ العودة إلى الجذور أحيانًا. إنّه المكان الذي صنع ما أنا عليه الآن. فالإنسان في البيئة المريحة يضعف سريعًا».

انبهرتُ مجدّدًا وقلتُ في نفسي: إنسانٌ في غاية الغرابة. ألا يرغب الإنسانُ العاديّ في نسيان المعاناة التي مرّ بها سريعًا؟

بعد ذلك، وكأنّه تذكّر فجأةً، وضع يده في جيب المعطف، وأخرج شيئًا ملفوفًا بمنديل.

«لقد عثرتُ على هذه في قاع الحُفرة منذ قليل»، قال ذلك، وفتح المنديل وأخرج منه شيئًا صغيرًا.

جسمٌ صغيرٌ مصنوعٌ من البلاستيك. أخذتُه منه وأضأتُه بالمصباح اليدويّ: دميةٌ بطريقةٍ ملوّنة بالأبيض والأسود بطول سنتيمتر ونصف تقريبًا. معلّقة بخيطٍ أسود. دميةٌ من النوع الذي تعلّقه التلميذات في حقائبهنّ أو هواتفهنّ الجوّالة. لم تكن مُتّسخة. وبدا أنّها جديدةٌ تمامًا.

قال منشكي: «عندما نزلت الحُفرة سابقًا لم تكن هذه الدُّمية موجودة».

«حسنًا، هل معنى ذلك أنَّ أحدًا ما نزل إلى الحُفرة وسقطت منه هذه الدُّمية الصَّغيرة؟»

«لا أدري. أعتقد أنَّ هذه تعليقة للزينة في هاتف جوّال. وخيطها ليس مقطوعًا. ولذا، على الأرجح أنّه خلعها بنفسه. أيْ أنّها لم تقع منه بل تركها متعمّدًا، ألا ترى ذلك؟»

«شخصٌ ينزل الحُفرة ويترك هذه متعمّدًا؟»

«أو ربَّما رماها من أعلى من دون أن ينزل».

سألته: «ولكنْ من أجل ماذا؟»

هزَّ منشكي رأسه بمعنى لا أعلم. «ربَّما تركها هنا على أنّها تميمة حماية. هذا مجرّد ظنّ».

«تقصد مارية أكيكاوا؟»

«على الأرجح. لأنّه ليس هناك شخصٌ آخر يُمكنه الاقتراب من هذه الحُفرة».

«أودعتْ دميةَ الهاتف الجوّال التي تمتلكها، على أنّها تميمةُ حماية؟»

هزَّ منشكي رأسه مجدّدًا، وقال: «لا أدري. لكنَّ الأطفال في سنّ الثالثة عشرة يفكّرون بأشياء غريبة. ألا ترى ذلك؟»

نظرتُ إلى الدُّمية الصَّغيرة التي على شكل البطريق وأنا أحملها بيدي. وبدت لي بالفعل أنّها قد تكون تميمةَ حمايةٍ من خطرٍ ما. كانت تبثُّ طيفًا بريئًا إلى حدٍّ ما.

قلتُ له: «ولكنْ، من الذي سحب السُّلَّم إلى أعلى وحمله إلى هناك؟ ولماذا؟»

هزَّ منشكي رأسه. علامةً على أنّه لا يَعْلم.

قلتُ له: «عمومًا، عندما نعود إلى البيت نتّصل بشوكو ونتأكّد، إن كانت تميمة البطريق تخصّ مارية. ربّما إن سألناها اتّضح الأمر».

قال منشكي: «على أيِّ حال، احتفظ بها عندك». أومأتُ موافقًا، ووضعتُ التّميمة في جيب البنطلون. ثمّ أعدنا الغطاء إلى الحُفرة وتركنا السُّلّم معلّقًا. ورتّبتُ أحجار التثقيل فوق الغطاء الخشبيّ. ومرّةً ثانية، من أجل التّأكُّد، نقشتُ توزيع الأحجار في ذاكرتي. اخترقنا الطريق الضيّقة في الغابة البرّيّة، وعدنا إلى البيت. وعندما نظرتُ إلى الساعة، كانت قد تخطّت الثانية عشرة ليلًا. ولم نتبس ببنت شفة خلال طريق العودة. نحمل أقدامنا صامتيْن، وكلٌّ منّا يُنير طريقه بالمصباح الذي يحمله، غارقًا في أفكاره.

وعندما وصلنا إلى أمام البيت، فتح منشكي صندوق السيّارة الخلفيّ وأعاد القنديل. وأخيرًا، وكأنَّ التوتُّر قد زال عنه، استند بجسمه إلى صندوق السيّارة بعد أن أغلقه، ونظر عاليًا إلى السّماء. السّماء التي لا يُرى فيها أيُّ شيء.

قال منشكي: «هل تُمانع أن أدخل بيتك، لأنّي لن أستطيع الهدوء إن عدتُ هكذا إلى بيتي؟»

«بالتّأكيد، لا مانع. تفضّل بالدُّخول. فأنا أيضًا، لا يبدو أنّني سأنام بسرعة».

لكنّه ظلّ واقفًا على حاله، لا يتحرّك، كأنّه يفكّر في أمرٍ ما.

قلتُ له: «لا أعرف كيف أقول، لكنّي لا أستطيع كتم إحساسي بأنَّ أمرًا ما شرّيرًا تعرّضت له مارية أكيكاوا. وأنّه وقع في مكانٍ قريب».

«ولكنْ ليس في تلك الحُفرة».

«بالضّبط».

سألني منشكي: «أيُّ نوعٍ من الشرور تقصد؟»

«هذا ما لا أعرفه. لكنّي أشعر أنَّ ضررًا قد أصابها».

«وأنّه أصابها في مكانٍ قريب، أليس كذلك؟»

«بلى. قريب من هنا. ثمّ إنَّ السُّلّم المسحوب من الحُفرة، يُقلقني جدًّا. شخصٌ ما سحبه بعيدًا وأخفاه خصّيصًا في الأجمة. تُرى ماذا يقصد بذلك الفعل؟»

أنهضَ منشكي جسمه ولَمَس بيده كتفي بِرِفق، ثمّ قال: «حقًّا! حتى أنا لا أعثر على معنًى لذلك الفعل. وعلى الرّغم من قلقنا من هذا الشأن، فإنّنا لن نعثر على حلّ. دعنا ندخل البيت».

- 47 -
هل اليوم جُمُعة؟

دخلنا البيت ونزعتُ المعطف، واتَّصلتُ بشوكو أكيكاوا مباشرةً. رفعتْ شوكو السمَّاعة عند الرنَّة الثالثة.

سألتها: «هل توصَّلتِ إلى شيءٍ منذ آخر اتِّصال بيننا؟»

- «لا شيء بعد. ولم يأتِ أيُّ اتِّصال». كانت صوتها كمَنْ يَعجز عن ضبط إيقاع أنفاسه.

- «وهل اتَّصلتِ بالشُّرطة؟»

- «لا، لم أفعل بعد. لا أدري السَّبب، ولكنِّي ظننتُ أنَّ التريُّث أفضل. أشعر أنَّها ستدخل عليَّ الآن وكأنَّ شيئًا لم يكن...»

حدَّثتها عن تميمة البطريق التي عثرنا عليها في قاع الحُفرة، بدون التَّطرُّق إلى تفاصيل العثور عليها، سوى أنِّي سألتها إن كانت مارية تُعلِّق مثل تلك التميمة على أحد أغراضها.

- «تضع مارية تميمةً على هاتفها الجوَّال. أذكر أنَّها على شكل بطريقٍ فعلًا... أجل إنَّها كذلك. دُمية بطريقٍ من دون أدنى شكّ. دُميةٌ صغيرةٌ مصنوعةٌ من البلاستيك. أعتقد أنَّها هديَّة من متجر دونتس، ولكنَّ مارية كانت لسببٍ ما تحرص عليها بشدَّة. وتعتبرها تميمةً حاميةً لها».

- «وكانت مارية تتحرَّك دائمًا وهي تحمل الهاتف الجوَّال أليس كذلك؟»

قالت شوكو أكيكاوا: «بلى. تحمله وهو مُغلقٌ على الدَّوام. لكنَّه لا يُفارقها، حتى لو لم تردَّ على الاتِّصال. تستخدمه بالاتِّصال عند الضرورة» ثمَّ سكتتْ لحظةً، وأكملتْ بعدها: «هل يعني ذلك أنَّك عثرتَ على تلك التميمة في مكانٍ ما؟»

احترتُ في الإجابة. إن بُحتُ لها بالحقيقة، سيتوجَّب عليَّ إخبارها بوجود تلك الحُفرة في وسط الغابة. وإذا وصل الخبر إلى الشرطة، سأضطرُّ إلى تقديم شرحٍ أكثر إقناعًا. وإن عرف رجال الشُّرطة بالعثور على شيءٍ يخصُّ مارية أكيكاوا، سيقومون بفحص الحُفرة فحصًا دقيقًا، وقد يصل بهم الأمر إلى فحص الغابة برمَّتها. وستستجوبنا الشرطة عن كلِّ شاردة وواردة، وسيُقلب ماضي منشكي رأسًا على عقب. ولا أعتقد أنَّ ذلك سيعود بفائدة. بل كما قال منشكي، سيعقِّد الأمر فقط.

قلت: «كانت ملقاةً على أرض المَرْسم في بيتي». لا أفضِّل الكذب في موقفٍ كهذا، ولكنِّي لا أستطيع قول الحقيقة. «عثرتُ عليها وأنا أنظِّف المكان. ففكَّرتُ أنَّها قد تخصّ مارية».

قالت عمَّة مارية: «أعتقد أنَّها لها، بلا شكٍّ. حسنًا، ماذا عليَّ أن أفعل الآن، هل أتَّصل بالشرطة؟»

ـ «هل تواصلتِ مع أخيك، أيْ والد مارية؟»

قالت كمَنْ يَصْعب عليه الكلام: «ليس بعد. لأنَّني لا أعرف أين هو الآن. فهو لا يعود إلى البيت بتوقيتٍ اعتياديّ».

ظروفٌ معقَّدة في المحصِّلة، ولكنْ لا فائدة من فتح النقاش حينذاك. قلتُ لها بإيجاز إنَّها يجب أن تتَّصل بالشرطة. فالوقت تخطَّى منتصف اللَّيل بالفعل، وأصبحنا في يومٍ جديد. ولا يُمكن استبعادُ احتمالِ حدوثِ مكروهٍ في مكانٍ ما. فقالت إنَّها ستتَّصل بالشُّرطة فورًا.

- «بالمناسبة، أما زال هاتف مارية مغلقًا؟»

- «أجل. اتّصلتُ بها عدّة مرّات، ولكنْ عبثًا. يبدو أنَّ الهاتف مُغلقٌ أو أنَّ البطاريّة نفدت. أحد الأمرَيْن».

- «قالت مارية إنّها ذاهبة إلى المدرسة في الصباح، ثمَّ اختفى أثرها بعد ذلك، صحيح؟»

- «هذا ما حدث بالضّبط».

- «يعني أنّها ما زالت بزيّ المدرسة حتى الآن؟»

- «يُفترض ذلك. معطفٌ كحليّ وقميصٌ أبيض وصدريّةٌ كحليّةٌ من الصُّوف، وتنُّورةُ مربّعاتٍ حتى الرُّكبتَيْن وجواربَ بيضاءَ طويلة، وحذاء أسود بلا رباط. وحقيبة كتف بلاستيكيّة وهي الحقيبة الرّسميّة للمدرسة، عليها شعار المدرسة واسمها. لم تستخدم المعطف الشتويّ بعد».

«إضافةً إلى حقيبة أدوات الرّسم؟»

«في العادة، تضعها في خزانتها الخاصّة في المدرسة، لاستخدامها في حصّة الرّسم في المدرسة أيضًا. وفي يوم الجمعة تَحملها من الخزانة، وتذهب بها إلى حصّتك يا أستاذ. ولا تحملها معها من البيت».

كان ذلك هو حالها دائمًا وقت مجيئها إلى درس الرّسم. معطفٌ كحليّ، وقميصٌ أبيض، تنُّورة مربّعات، حقيبةُ كتفٍ بلاستيكيّة، وحقيبةُ قماشٍ بيضاء تحتوي على أدوات الرّسم. أذكر هذا المظهر جيّدًا.

- «لم يكن معها أغراض أخرى؟»

- «لا. لذا يُفترض أنّها لن تذهب بعيدًا».

قلتُ لها: «إن استجدّ شيءٌ أرجو الاتّصال بي في الحال. أيًّا كان الوقت، بلا حَرَج».

قالت شوكو أكيكاوا إنَّها ستفعل.

ثمَّ أغلقتُ الهاتف.

كان منشكي يقف بجانبي يستمع إلى حوارنا كلّه. وبعد أن وضعتُ السمّاعة أخيرًا، نزع المعطف الواقي من الرياح. وكان يرتدي تحته سترةً سوداء بياقةٍ على شكل V.

قال منشكي: «كما توقَّعنا، تميمة البطريق تخصّ مارية».

«يبدو ذلك».

«أي أنَّها نزلت وحدها إلى قاع الحُفرة. لا نعرف متى! لكنَّها تركت تميمة البطريق التي تعتبرها حاميةً لها. يبدو أنَّ هذا ما حدث».

«هل هذا يعني أنَّها تركت التميمة عمدًا هناك؟»

«على الأرجح».

«ولكنْ، إذا افترضنا أنَّ هذه التميمة تحمي، فماذا تحمي؟ أو مَن بالأحرى؟»

هزَّ منشكي رأسه قائلًا: «لا علم لي بذلك. ولكنَّ مارية كانت تحتفظ بذلك البطريق للحماية. ويبدو أنَّ هناك قصدًا واضحًا لدرجة أنَّها تركته خصّيصًا في الحُفرة. فالناس في العادة لا تتخلَّى عن تميمة الحماية بسهولة».

«يعني أنَّها كانت تريد حماية شخصٍ يعزّ عليها أكثر من نفسها».

«ومَن، مثلًا؟»

لم يصل أيٌّ منَّا إلى إجابةٍ على ذلك السؤال.

بقينا صامتيْن لفترة. تقطع عقارب الساعة الزمن بشكلٍ مؤكَّد، ولكنْ ببطء. مع كلِّ حركةٍ للعقرب، يتقدَّم الكون تدريجيًا إلى الأمام. يمتدّ ظلام اللَّيل خارج النافذة، ولا أثر لأيِّ شيءٍ يتحرَّك.

تذكَّرتُ فجأةً ما قاله الكومنداتور بشأن اختفاء الجرس. «إنَّه ليس ملكي أساسًا. مجرَّد غرضٍ تشاركَ معي المكان. وإن كان قد اختفى فلا بدَّ من سببٍ وجيهٍ لاختفائه».

غرض تَشارك المكانَ معه؟

قلتُ لمنشكي: «ربَّما لم تضع مارية التميمة في الحُفرة. أليس هناك احتمال لأن تكون الحُفرة موصولة بمكانٍ آخر؟ أي أنَّها ليست مُغلقةً كلِّيًا، إنَّما تشبه الممرّ. وإن كانت كذلك، فربَّما تكون الحُفرة قادرةً على أن تستدعي من نفسها أشياءَ متعدِّدة».

بعد أن نطقت ما طرأ على ذهني، عرفتُ أنَّها فكرةٌ في منتهى الغباء. ربَّما كان الكومنداتور سيتقبَّل أفكاري كما هي، ولكنَّه أمرٌ مستحيلٌ في هذا العالم!

تنزَّل صمتٌ ثقيلٌ على الغرفة.

أخيرًا، قال منشكي وكأنَّه يوجِّه سؤالًا لنفسه: «تُرى إلى أين يؤدِّي قاعُ تلك الحُفرة؟ فكما تعلم، لقد نزلتُ إلى القاع وجلستُ هناك مدَّة ساعةٍ وحيدًا، وسط الظلام الحالك، بلا إضاءة أو سلَّم. وركَّزتُ وعيي وسط ذلك الصَّمت المطبق. ثمَّ اجتهدتُ جادًّا للتَّحرُّر من الوجود المادِّيّ، وجرَّبتُ أن أصبح وجودًا معنويًّا فقط. كنتُ أظنُّ أنَّني إن فعلت ذلك أستطيع اختراق الجدار الحجريّ إلى مكانٍ ما، مثلما حاولتُ في الحبس الانفراديّ كثيرًا. لكنَّني في النهاية لم أتمكَّن من الذهاب إلى أيِّ مكان. كان ذلك حيِّزًا محاطًا بجدارٍ حجريٍّ مُصمتٍ لا مهرب منه».

فكَّرتُ وقتها أنَّ الحُفرة قد تختار شريكها. فالكومنداتور خرج منها وجاء إليَّ. لقد اختارني مسكنًا مؤقَّتًا له. وقد تكون الحُفرة قد اختارت مارية أكيكاوا. لكنَّها لا تختار منشكي أبدًا... لسببٍ ما.

قلتُ له: «على كلِّ حال، بناءً على كلامنا منذ قليل، أعتقد أنّه من الأفضل عدم إبلاغ الشرطة بأمر الحُفرة. في هذه المرحلة على الأقلّ. ولكنْ إن تكتّمنا عن عثورنا على تلك الدُّمية في قاع الحُفرة، فهي جريمة إخفاء دليلٍ واضحة. وإن حدث شيءٌ وافتُضِح الأمر، ألا نصبح أنت وأنا في موقفٍ صعب؟»

ظلَّ منشكي يقلّب أفكاره لفترةٍ من الوقت، ثمّ قال بحسم: «لنغلق فمنا تمامًا عن هذا الأمر. ليس هناك حلٌّ آخر. لقد عثرتَ على هذه في المَرْسم. ليس أمامنا إلّا الإصرار على هذا الحجّة حتى النهاية».

ـ «ألا يجب أن يذهب أحدٌ إلى شوكو أكيكاوا؟ إنّها وحيدةٌ في بيتها وواقعةٌ في حيرة. مُضطربةٌ لا تدري ماذا تفعل، ولا تستطيع التواصل مع والد مارية بعد. أليس هناك ضرورةٌ أن يساعدها أحدٌ ما؟»

فكّر منشكي بهذا الخصوص بوجهٍ يمتلئ بالجدّيّة، ثمّ هزّ رأسه وقال: «لا يُمكنني الذهاب إلى بيتها في هذا الوقت. فأنا لست في الموقف الصّحيح. قد يعود أخوها في أيّ وقت. وأنا لم أقابله من قبل، وإذا...»

قطع منشكي كلامه عند هذا الحدّ، وغرق في الصّمت.

ولم أقل شيئًا إزاء ذلك.

ظلَّ منشكي يفكّر لفترةٍ طويلة وهو يضرب بأنامله على مسند الأريكة. وأثناء تفكيره، بدا أنَّ جبهته احمرّت قليلًا.

سألني بعد قليل: «هل تسمح لي بالبقاء في بيتك بعض الوقت؟ فقد يأتي اتّصال من شوكو أكيكاوا».

قلتُ له: «بالتّأكيد، لا مانع. فلا يبدو أنّني سأستطيع النوم على الفور. تفضّل بالبقاء هنا ما تشاء من وقت. ولا مانع مُطلقًا من أن تبيت اللّيلة هنا. سأعدّ لك فراشًا».

فقال إنَّه قد يضطرّ إلى ذلك.

سألته: «ما رأيك بفنجان قهوة؟»

ردّ منشكي: «سأكون شاكرًا».

ذهبتُ إلى المطبخ وطحنتُ بعض القهوة، وجهَّزتُ آلة تحضير القهوة. ثمّ أتيتُ بها إلى غرفة المعيشة. وشربناها معًا.

قلت: «حان الوقت لإشعال حطب المدفأة». لقد انتصف اللّيل، وأصبحت الغرفة أبرد ممّا كانت عليه من قبل. ودخل شهر ديسمبر بالفعل. وليس من المستغرب إشعال المدفأة فيه.

وضعتُ الحطب المقطَّع داخل المدفأة، ثمّ استخدمتُ ثقابًا وورقًا وأشعلتُ النار. يبدو أنَّ الحطب كان جافًّا جدًّا، فانتشرت النار فيه سريعًا. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أستخدمُ فيها المدفأة منذ سكنتُ في هذا البيت، لذا كنتُ قلقًا حيال المدخنة إن كانت تقوم بدورها في تغيير هواء الغرفة أم لا (لقد قال ماساهيكو إنَّ المدفأة يمكن استخدامها على الفور. لكنَّ ذلك تُثبّته التجربة. فأحيانًا تصنع الطيور أوكارًا تسدُّ فوهة المدخنة). إلّا أنَّ الدخّان ارتفع وتسرَّب إلى أعلى. وضعنا منشكي وأنا مقاعدنا بجوار المدفأة، واستشعرنا الدفء.

قال منشكي: «إنَّ نار الحطب شيءٌ ممتع».

فكّرتُ أن أدعوه إلى تناول الويسكي، ثمّ عدلت عن تلك الفكرة. فمن الأفضل أن نظلّ متيقّظين هذه اللّيلة. لعلّنا نحتاج إلى قيادة السيّارة. أخذنا نستمع إلى الموسيقى ونحن نتأمّل اللّهب الحيّ المتراقص. لقد اختار منشكي أسطوانة بيتهوفن سوناتا للكمان ووضعها على الدوّارة. يعزف على الكمان جورج كلنكامپف، والبيانو ويلهلم كيمپف. إنّها الموسيقى المناسبة

للاستماع إليها أثناء تأمُّل نار المدفأة في بداية الشتاء. ولكنْ عندما أتخيّل أنَّ مارية أكيكاوا ترتعش من البرد وحيدةً في مكانٍ ما، تضطرب مشاعري.

بعد ثلاثين دقيقة، اتَّصلت شوكو أكيكاوا. وقالت إنَّ أخيها يوشينوبو عاد إلى البيت منذ قليل واتَّصل بالشرطة. وقالت إنَّ الشرطة ستأتي بعد قليل لبحث الأمر (عائلة أكيكاوا ثريَّة وذائعة الصّيت في المنطقة. ستتحرَّك الشرطة سريعًا بناءً على احتماليّة اختطاف). فما من اتِّصال من مارية، ولم تردّ على هاتفها الجوّال. ولقد اتَّصلت شوكو بكلّ من تذكَّرته من معارف وأصدقاء - وهم ليسوا كثرًا - من دون أن تصل إلى معرفة شيءٍ عن مكان مارية.

قلتُ لها: «أتمنّى أن تكون بخير»، وشدَّدتُ أن تتَّصل بي في أيِّ وقتٍ إذا استجدَّ شيءٌ، وأغلقتُ الهاتف.

ثمَّ عدنا إلى المدفأة، نسمع الموسيقى الكلاسيكيّة. كانت الألحان للفلوت من تأليف ريتشارد شتراوس. وقد اختار منشكي الأسطوانة أيضًا من رفوف الأسطوانات. وكنت أسمعها لأوّل مرّة. أصخنا السّمع لتلك الموسيقى من دون أن نبس ببنت شفة، وكلٌّ منّا غارقٌ في أفكاره، نتأمّل نار المدفأة.

وعندما تخطَّت الساعة الواحدة والنُّصف، أحسستُ فجأةً بالرّغبة الشَّديدة في النعاس، وبتُّ أستصعب فتح عينيّ. لقد تعوّدتُ منذ زمنٍ طويل على النوم والاستيقاظ مبكّرًا، وكنتُ لا أقدر على السّهر ليلًا.

نظر منشكي إلى وجهي، وقال: «أرجو منك أن تذهب إلى النوم. أمّا أنا فسأظلّ مستيقظًا بعض الوقت، لأنَّ شوكو قد تتَّصل. لا حاجة لي إلى النوم، ولا أعاني من السّهر. منذ زمنٍ طويلٍ وأنا على هذه الحال. لذا لا تقلق بشأني. سأعمل على ألّا تخبو النار في المدفأة. وهكذا، أظلّ في تأمّل النار والاستماع إلى الموسيقى وحدي. هل لديك مانع؟»

قلت له لا أمانع بالتّأكيد. ثمّ حملتُ حزمةً أخرى من الحطب من تحت إفريز المخزن الموجود خارج المطبخ، وكوّمتها أمام المدفأة. يُفترض أنَّ هذه الكمّيّة كافيةٌ للاحتفاظ بالنّار حتى الصباح.

قلت لمنشكي: «أعتذر منك، اسمح لي بالنوم قليلًا».

قال: «أرجو منك أن تنام نومًا هانئًا. لنتناوب! يُمكنني النوم قليلًا في الصباح. وقتها، سأنام على الأريكة، فهل يُمكن أن تُعيرني بطّانيّةً أو ما يشبه الغطاء؟»

أحضرت البطّانيّةَ واللّحافَ الخفيف والوسادةَ التي استخدمها ماساهيكو أمادا، وأعددتُ الأريكة للنوم. فشكرني منشكي.

سألته من أجل التّأكُّد: «إن كنتَ ترغب في الشرب، لديَّ ويسكي».

هزَّ رأسه بحزم قائلًا: «لا. من الأفضل عدم الشرب. لا ندري ما الذي قد يحدث».

- «إن أحسستَ بالجوع، يُمكنك تناول ما تريد من الثّلّاجة. ليس هناك أشياء كثيرة، ولكنْ جبن وبسكويت على الأقلّ».

- «شكرًا لك».

تركته في غرفة المعيشة، وذهبتُ إلى غرفتي. أبدلتُ ملابسي وارتديتُ المنامة ودخلت الفراش. أطفأتُ المصباح المجاور للسرير وحاولت النوم. ولكنّي لم أستطع. إنّني نعسان بشكلٍ رهيب، لكنّي أشعر أنَّ حشرةً صغيرة ترفرف بجناحيْها في رأسي، فلا أستطيع النوم. يحدث لي ذلك أحيانًا. يئستُ وأضأتُ المصباح، ونهضتُ.

- «ما رأيك؟ لا يُمكنك النوم. أليس كذلك؟» إنّه الكومنداتور!

أجلتُ بنظري في أرجاء الغرفة. كان جالسًا على عتبة النافذة. يرتدي الرّداء الأبيض المعتاد، والحذاء المُريب ذا الرأس المسنون. ويتدلّى من خصره السّيفُ الصّغير. وشعرُهُ ممشّطٌ بعناية. الكومنداتور الذي قُتِل طعنًا بالسّيف في لوحة توموهيكو أمادا.

قلتُ له: «لا أستطيع».

ـ «وقعت أحداثٌ كثيرة. لا أحد يستطيع النوم نومًا هانئًا بسهولة».

ـ «لم أرك منذ وقتٍ طويل، أليس كذلك؟»

«لقد قلتُ من قبل إنَّ الفكرة لا تفهم معنى: (منذ وقتٍ طويل)، (ومنذ زمنٍ بعيد)».

ـ «ولكنَّك جئت في وقتك بالضّبط. لديَّ ما أسألك بشأنه».

ـ «ما هو؟»

ـ «اختفت مارية أكيكاوا منذ صباح اليوم، والكلّ يبحث عنها. تُرى أين ذهبت؟»

عوج الكومنداتور رأسه، ثمّ تحدّث ببطء:

ـ «كما تعلمون، إنَّ عالم البشر محدودٌ بعناصر ثلاثة، الزمان والمكان والاحتماليّة. ولكنْ، يجب أن تكون الفكرة مستقلّةً عن تلك العناصر. لذا، لا أستطيع التّدخّل في هذه الأمور».

ـ «لا أفهم ما تقوله جيّدًا، هل تعني أنّك لا تعرف أين هي؟»

لم يردّ على السّؤال.

ـ «أم أنّك تعرف، ولكنّك لا تستطيع إخباري؟»

تجهّم وجهه وضيّق حَدَقتيْ عينَيْه، ثمّ قال: «ليس هدفي التّنصّل من المسؤوليّة، ولكن اِعلموا أنَّ الفكرة عليها قيودٌ أيضًا».

فردت ظهري ونظرتُ إليه مباشرةً.

ـ «حسنًا. عليّ أن أنقذ مارية أكيكاوا. يُفترض أنّها في مكانٍ ما الآن تبحث عمّن ينقذها. لا أعرف أين! لكنّها على الأرجح ضلّت طريقها إلى مكانٍ لا يُمكن الخروج منه بسهولة. هذا ما أشعر به. لكنّي حتى الآن لا أعرف أين أذهب ولا ماذا أفعل! وأعتقد أنّ اختفاءها هذه المرّة له صلةٌ بالحُفرة التي في الغابة. لا أستطيع شرح اعتقادي الآن بتسلسلٍ منطقيٍّ، لكنّي أعرف ذلك. أنت كُنتَ حبيس تلك الحُفرة لزمنٍ طويلٍ. لا أعرف الظروف التي أدّت إلى حبسك هناك. ولكنْ، لقد استخدمنا، منشكي وأنا، المعدّات الثقيلة لإزاحة جثوة الأحجار وفتحنا غطاء الحُفرة. ثمّ أخرجناك منها. أليس كذلك؟ وهكذا أصبحت الآن قادرًا على التّحرّك بحرّيّةٍ في الزمان والمكان. تستطيع الظهور والاختفاء كما يحلو لك، وتشاهد ممارسة الجنس بيني وبين صديقتي من دون تحفُّظ. أليس هذا ما حدث؟»

ـ «بلى. ما تقولون صحيح في الأغلب».

ـ «لن أطلب منك أن تعلّمني كيف أنقذ مارية. فعالم الأفكار مغلولٌ بالقيود على حدّ قولك. لذا لن أطالبك بالمستحيل. ولكنّك قد تُعطيني تلميحًا واحدًا فقط. فنظرًا إلى الظروف، قد تأخذك رأفةٌ أو رحمة».

تنهّد الكومنداتور تنهيدةً عميقة.

ـ «بإمكانك أن تلمّح لي تلميحًا غامضًا بمقولةٍ غامضةٍ بعيدةٍ عن جوهر الأمر. لا أطلب منك القيام بعملٍ هائل مثل إنهاء التطهير العرقيّ على الفور، ولا إيقاف الاحتباس الحراريّ، ولا إنقاذ الفيل الأفريقيّ من الانقراض. أريد إعادة طفلةٍ في الثالثة عشرة من عمرها، قد تكون الآن محبوسةً في مكانٍ ضيّقٍ ومُظلم، إلى هذا العالم. هذا ما أريده فقط».

ظلَّ الكومنداتور غارقًا في التّفكير وهو يعقد ذراعَيْه. بدا لي أنَّ حيرةً ما تولّدت داخله.

قال: «لا بأس. إن وصل الأمر إلى هذا الحدّ، فما باليد حيلة. سأعطيكم تلميحًا واحدًا. وبالتالي، قد يترتّب عليه بعضُ التّضحيات، هل تمانعون في ذلك؟»

ـ «أيُّ تضحياتٍ؟»

ـ «لا يُمكن معرفة ذلك بعد. قد يؤدّي الأمر إلى تضحياتٍ لا يُمكن تجنُّبها. إن قلتُ ذلك مجازًا، يجب أن تُراق الدماء. هذا هو. ستتّضح تلك التّضحيات تدريجيًا في الأيّام المقبلة! وربّما يؤدّي الأمر إلى أن يُضحّي أحدٌ ما بنفسه».

ـ «لا مانع حتى من ذلك. أعطني التلميح، أرجوك».

ـ «لا بأس. اليوم جُمُعة، أليس كذلك؟»

نظرتُ إلى السّاعة التي بجوار السّرير، وقلتُ: «بلى. ما زال يوم الجمعة. كلّا... غير صحيح، لقد أصبحنا في يوم السبت».

قال الكومنداتور: «في صباح السبت، أي قبل ظهيرة هذا اليوم، سيأتيكم اتّصالٌ هاتفيّ، ثمّ سيَدْعوكم شخصٌ ما إلى فعل شيءٍ ما. حسنًا، أيًّا كانت الظروف، يجب ألّا ترفضوا. هل فهمتم؟»

ردّدتُ ما سمعته تلقائيًا: «سيأتي اتّصالٌ هاتفيٌّ في صباح اليوم ويدعوني شخصٌ ما لفعل شيءٍ ما. يجب ألّا أرفض الدّعوة».

ـ «بالضّبط. هذا هو التّلميح الوحيد الذي أستطيع إعطاءه لكم. إنّه آخر خطٍّ فاصلٍ بين [الكلام العامّ] و[الكلام الخاصّ]».

وكانت تلك آخر كلمات الكومنداتور، ثمّ اختفى بعدها ببطء. وعندما انتبهتُ إلى ذلك، كان أثرُه قد اختفى من عتبة النافذة.

أطفأتُ المصباح المجاور للسّرير، فجاءني النُّعاس هذه المرّة. واختفت رفرفةُ أجنحةِ الحشرة السّريعة التي كانت في رأسي. وقبل خلودي إلى النوم، تذكّرتُ منشكي الجالس أمام المدفأة. سيظلّ وحده يفكّر في شيءٍ ما حتى الصباح من دون أن يجعل نارَ المدفأة تخبو. وبالتّأكيد، لا أعرف ما الذي يفكّر فيه حتى الصباح. إنّه شخصٌ غريبُ الأطوار، ولكنّه يعيش مقيّدًا بالزمان والمكان والاحتماليّة، مثل سائر البشر في هذا العالم. طالما نعيش لا يُمكننا الهروب من تلك القيود. وإن دقّقنا، فنحن جميعًا بلا استثناء محاطون بجدرانٍ متينةٍ من الجهات الأربع، ومن فوقنا ومن تحتنا. ربّما.

سيأتي اتّصالٌ هاتفيٌّ في صباح اليوم، ويدعوني شخصٌ ما لفعلِ شيءٍ ما. يجب ألّا أرفض تلك الدّعوة. ردّدتُ في رأسي ما قاله الكومنداتور، مرّةً أخرى. ثمّ نمت.

- 48 -

الإسبان يجهلون طريقة الإبحار قُبالة السَّواحل الإيرلنديَّة

استيقظتُ بعد الخامسة صباحًا بقليل، وكان الظلام ما زال مُسيطرًا. ارتديتُ معطفًا صوفيًا فوق المنامة، وذهبتُ لتفقُّد الحال في غرفة المعيشة. كان منشكي نائمًا على الأريكة، ونار المدفأة مطفأة ولكنْ ليس من وقت طويل، فالغرفة ما زالت دافئة. قلَّت كمّيَّة الحطب الذي راكمتُه فيها. منشكي نائمٌ بهدوءٍ تامّ على جنبه ومتغطّيًا باللّحاف. لا صوت يصدر عنه، أنفاسه مكتومة. حتى طريقة نومه كانت رائعة تمامًا. وكأنَّ الغرفةَ قد كتمت أنفاسها كي لا تزعجه في نومه.

تركتُهُ نائمًا، وذهبتُ إلى المطبخ، وصنعتُ قهوة. وحمَّصتُ شريحة خبز. ثمّ جلستُ إلى الطاولة، وتناولتُ شريحةَ الخبز المدهونةِ بالزبدة، وشربتُ القهوة وأنا أقرأ في الكتاب الذي كنتُ في منتصفه. كان كتابًا عن «أرمادا» الإسبانيَّة: تلك الحرب العنيفة التي حدَّدت مصيرَ دولةٍ، والتي استمرَّت بين أساطيل الملكة إليزابيث الأولى وملك إسبانيا فيليب الثاني. لا أعرف السَّبب الذي يجعلني أقرأ في هذه الظروف الحاليَّة كتابًا عن الحرب البحريَّة في شواطئ بريطانيا في النِّصف الثاني من القرن السادس عشر، ولكنَّني لمَّا بدأتُ قراءته وجدتُه ممتعًا، فأخذت أقرأه بحماسٍ ولهفة. إنَّه كتاب قديم وجدتُه في مكتبة توموهيكو أمادا.

تقول الفرضيّة العامّة إنّ جيش أرمادا لاقى هزيمةً نكراء من إنجلترا بعد أن أخطأ خطأً استراتيجيًا جسيمًا، وتغيّر تاريخُ العالم وفقًا لتلك النتيجة، ولكنْ على أرض الواقع، فالأضرار الجسيمة التي أصابت الجيش الإسبانيّ لم تكنْ من خلال المعركة وجهًا لوجه (لقد أطلق الجيشان عددًا كبيرًا من قذائف المدفعيّة، لكنّ أغلبها لم يُصِب الجانبَ الآخرَ بسوء)، إنّما بسببِ غرقِ السُّفنِ وتحطُّمها. فالإسبان الذي كانوا معتادين على الإبحار في البحر المتوسّط الهادئ، كانوا يجهلون طريقةَ الإبحار المُثلى قُبالةَ السّواحل الإيرلنديّة ذات الصّعاب الكثيرة، لذا غرقت سفنٌ عديدة بعد اصطدامها بحيودٍ بحريّةٍ مرتفعة.

أشرقت سماءُ الشرق ببطءٍ أثناء تناولي الكوبَ الثاني من القهوة السّوداء، وأنا أقرأ عن مصير الجيش الإسبانيّ سيّئ الحظ. إنّه صباحُ يوم السبت.

سيأتي اتّصالٌ هاتفيّ في صباح اليوم، ويدعوني شخصٌ ما لفعل شيءٍ ما. يجب ألّا أرفض تلك الدّعوة.

ردّدتُ في سرّي ما قاله الكومنداتور، ثمّ نظرتُ إلى الهاتف. كان محافظًا على صمته. سيأتي اتّصالٌ هاتفيّ أغلب الظنّ. فالكومنداتور لا يكذب. ليس أمامي سوى انتظارِ رنينِ ذلك الجرس.

فكّرتُ في مارية أكيكاوا. أردتُ الاتّصال بعمّتها للتأكّد من سلامتها، لكنّ الوقت ما زال مبكّرًا. من الأفضل الانتظار حتى السّابعة على الأقلّ للاتّصال بها. علاوةً على أنّه لو كان مصير مارية قد عُرِفَ لكانت هي التي بادرت إلى الاتّصال، لأنّها تعرف كم أنا قلِقٌ على الفتاة. عدم اتّصالها يعني أنّه لم يحدث أيّ جديد. لذا ظللتُ جالسًا إلى الطاولة وتابعت قراءة الكتاب عن أرمادا. وعندما تعبت من القراءة، تأمّلت الهاتف. ولكنّه ظلّ صامتًا.

وعند السّابعة، اتّصلتُ بشوكو أكيكاوا. رفعتِ السّماعةَ سريعًا، وكأنّها كانت تنتظر أمام الهاتف بصبرٍ نافد.

قالت هي أوّلًا: «لم يأتِ أيُّ اتّصال. وما زلنا لا نعرف عن مصيرها شيئًا». تخيّلتُ أنّها لم تنم تقريبًا، بل لم تغمض عينًا. كان صوتُها يعبّر عن إرهاقها.

سألتها: «وهل تحرّكتِ الشرطة للبحث في الأمر؟»

«أجل، جاء في اللّيل إلى بيتنا شرطيّان، وتحدّثنا معهما. أعطيناهما صورًا، ووصفنا لهما الملابس التي كانت ترتديها... وقُلنا لهما إنّها ليست من الأطفال الذين يهربون من البيت أو يلعبون لوقتٍ متأخّرٍ من اللّيل في الخارج. أرسلتِ الشرطة تلك المعلومات إلى جهاتٍ متفرّقة، ويُفترض أنّ البحث عنها جارٍ الآن. وأكّدوا لنا أنّ البحث لن يكون علنيًّا».

«ولكنْ ما من نتيجةٍ حتى الآن، أليس كذلك؟»

«ما من دليلٍ يوصلنا إليها حتى الآن. يبدو أنّ الشرطة تبذُل قصارى جهدها في البحث عنها».

واسَيْتها، وطلبتُ منها أن تُعْلِمني بالمستجدّات. وقالت إنّها ستفعل.

كان منشكي قد استيقظ بالفعل، وكان حينها يغسل وجهه على الحوض في الحمّام مستغرقًا كامل وقته. نظّف أسنانه بالفُرشاة المخصّصة للضيوف التي أعطيتها له، ثمّ جلس قدّامي على كرسي مائدةِ الطعام، وتناول قهوةً بلا سكر. عرضتُ عليه شرائح الخبز، ولكنّه قال إنّه ليس بحاجةٍ إليها. كان شعره الأبيض مشعّثًا أكثر من العادة قليلًا. ربّما بسبب النوم على الأريكة. ولكنْ كان ذلك فقط بمعنى أنّه في العادة يُفرط في العنايةِ به. فالذي يجلس قُبالتي هو منشكي الهادئ الأنيق كالمعتاد.

أبلغتُ منشكي بما دار بيني وبين شوكو أكيكاوا.

وبعد أن سمع ما عندي، قال: «مجرّد تخمين: أشعر أنَّ الشرطة لن تُفيد في هذه الحادثة».

«وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟»

«مارية أكيكاوا ليست طفلةً عاديّة. كما أنَّ هذه الحادثة تختلف قليلًا عن حوادث اختفاء البنات في العقد الثاني من عمرهنّ. ولا أعتقد أنّها حادث اختطاف. لذا سيصعب العثورُ عليها بالطُّرق المعتادة التي تتّبعها الشرطة في هذه الحالات».

لم أعلّق، لكنّه محقٌّ على الأرجح. لأنَّ ما نواجهه يشبه معادلةً رياضيّة أُعطي فيها الكثير من الدوالّ من دون أيّ رقمٍ محدَّد. وما يهمُّ حينذاك أن نعثر على أكبر عددٍ مُمكن من الأرقام.

قلتُ له: «ما رأيك لو ذهبنا مرّة أخرى لتفقُّد الحُفرة؟ ربّما طرأ عليها تغيير جديد».

«هيّا بنا»، قال منشكي.

كان التفاهم الضمنيّ الصامت والمشترك بيننا مبنيًا على أنّه ما من شيءٍ آخر نفعله حيال هذه المسألة. فكَّرتُ أنَّ شوكو قد تتّصل أثناء غيابنا عن البيت، أو ربّما تأتي «الدّعوة» التي تحدّث عنها الكومنداتور. لكنّي رأيتُ أنَّ الوقت ما زال مبكّرًا لأيٍّ منهما. كان لديَّ نبوءةٌ مبهمةٌ بذلك.

ارتديْنا معطفيْنا وخرجنا من البيت. كان صباحًا مُشمسًا: فقد دفعت الرّياحُ الجنوبيّة الغربيّة الغيومَ التي كانت تغطّي السّماء اللّيلةَ السّابقة وأزالتها تمامًا. كانت السّماء عاليةً علوًّا غير طبيعيّ، وصافيةً إلى أقصى حدودها. وعند النَّظر إليها مباشرة، شعرتُ أنّني أنظر إلى قاع بحيرةٍ مقلوبٍ أعلاها أسفلها. سمعت صوتًا رتيبًا لقطارٍ طويل العربات يسير على السّكك آتيًا من مكانٍ بعيد. يحدث ذلك من وقتٍ لآخر. فمن خلال صفاء الهواء واتّجاه الرّيح تتناهى إلى الأسماع ـ وبوضوحٍ مريب ـ أصواتٌ بعيدةٌ لا يُمكن سماعها عادةً.

مشيْنا صامتيْن في طريق الغابة الضيّق حتى وصلنا إلى المعبد ووقفنا أمام الحُفرة. كان الغطاء كما تركناه ليلةَ أمس بالضَّبط. لم يتغيَّر موضع أحجار التثقيل التي وضعناها فوقه. أزحنا الغطاء معًا، فوجدنا السُلَّم معلَّقًا على الجدار تمامًا. وكما هو متوقَّع، لا أحد داخل الحُفرة. لم يُبدِ منشكي هذه المرَّة رغبته في النزول إلى القاع. فضوء النهار يتيح النَّظر إلى أسفل ورؤية كافَّة الحُفرة بوضوح. ثمَّ إنَّه لا تغيير على وضعها من اللَّيلة الماضية. بدت الحُفرة التي تُرى في ضوء النهار مختلفةً تمامًا عن الحُفرة التي تُرى في اللَّيل. فلم أشعر بأيِّ طيفٍ يثير الخطرَ أو القلق.

بعد ذلك، أعدنا ألواحَ الغطاء السَّميكة وأحجارَ التثقيل إلى مكانها. ثمَّ اجتزنا الغابةَ عائدين إلى البيت. عند المدخل، سيَّارتان متجاورتان: سيَّارة منشكي الجاغوار الفضِّيَّة الصموتة الخالية من البقع، وسيَّارتي - كارولا واغن المتواضعة الممتلئة بالطين. وقف منشكي أمام الجاغوار، وقال: «سأغادر الآن. لا أودُّ الإثقال عليك بوجودي. يبدو أنَّه لا فائدة تُرجى منِّي حتى الآن. هل تمانع؟»

«بالتَّأكيد. أرجوكَ عُد إلى بيتك وخُذْ قسطًا من الراحة. وإن طرأ جديدٌ اتَّصلتُ بك على الفور».

سألني منشكي: «اليوم هو سبت، أليس كذلك؟»

«بالضبط. اليوم هو سبت».

أومأ وأخرج من جيب المعطف الواقي من الرياح مفاتيح السيَّارة، وظلَّ يتأمَّلها للحظات. بدا أنَّه يفكِّر في أمرٍ ما. ربَّما كان يصعب عليه اتِّخاذ القرار. انتظرته حتى ينتهي.

وأخيرًا تكلَّم قائلًا: «هناك شيءٌ من الأفضل أن أحدِّثك عنه».

استندتُ إلى باب سيّارتي كارولا واغن، وانتظرت أن يتابع.

قال منشكي: «نظرًا إلى أنّ الأمرَ شخصيٌّ بالنّسبة إليّ، تردّدت كثيرًا قبل أن أُطلعك عليه. ثمّ رأيتُ أنّه من الأفضل إبلاغك به حرصًا على مراعاة السّلوك. كما أنّي لا أحبُّ أن يطرأ سوء فهمٍ بيننا... أنا وشوكو أكيكاوا ـ كيف أقول ـ على علاقة حميمة جدًّا».

سألته سؤالًا قاطعًا كحدّ السّيف: «هل تعني علاقة بين رجل وامرأة؟»

قال منشكي بعد أن صمت لحظةً: «بالضبط». واحمرّ خدّاه كما يبدو. «لعلّه تطوّرٌ في غاية السّرعة».

«السّرعة ليست مشكلة لهذه الدّرجة».

اعترف منشكي بذلك قائلًا: «معك حقٌّ. ليست المشكلة في السّرعة».

قلت: «المشكلة هي...» ولكنّي توقّفت.

«المشكلة هي الدّافع. أهذا ما ترمي إليه؟»

التزمتُ الصّمت. لكنّه أدرك أنّ صمتي معناه نعم.

فقال: «ما أريدك أن تفهمه، أنّني لم أحسب أيّ حساباتٍ في البداية. وقد تحرّكت الأمور في ذلك الاتّجاه على هذا الأساس. بل كان تطوّرًا طبيعيًا جدًّا. بل لقد صار كذلك من دون أن أنتبه أنا شخصيًا. ربّما لن تصدّقني بسهولة».

تنهّدتُ، ثمّ قلتُ بصراحة: «ما أفهمه هو أنّك لو وضعتَ هذه الخطّة في البداية، لحقّقتها بسهولة بلا شكّ. لا أقول ذلك سخريةً».

«ربّما ما تقوله صحيح. أُقرُّ بذلك. أو فلنقل إنّ الأمر لن يكون صعبًا جدًّا. ولكنْ، في الواقع، هذا لم يحدث».

«أتعني أنّك قابلت شوكو أكيكاوا فوقعت خالصًا في حبّها من أوّل نظرة؟»

زمَّ منشكي شفتيْه قليلًا دليلًا على تأزّم موقفه، وقال: «هل وقعتُ في الحبّ؟ بصراحة، لا أستطيع الجزم بذلك. فآخر مرّة وقعتُ فيها في الحبّ كانت منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا. ولا أذكر الآن جيّدًا ماهيّة شعوري وقتها. لكنّي لا أنكر أنَّ قلبي - كرجلٍ - انجذب بقوّةٍ تجاهها كامرأة».

«حتّى لو أغفلنا وجود مارية أكيكاوا؟»

«ليس من السّهل الإجابة على هذا السّؤال، إذ كان وجود مارية الدافع الأوّل للقائنا. لكنّي أعتقد أنَّ قلبي كان سينجذب حتى لو لم تكن مارية موجودة».

تُرى ما الذي حدث؟ هل إنَّ رجلًا - بوعيٍ عميقٍ ومعقّد مثل منشكي - ينجذب حقًّا إلى امرأة هادئة وخالية من التّعقيدات مثل شوكو؟ لكنّي لم أستطع طرح هذا السّؤال. لأنَّ قلبَ الإنسان يتحرّك بطريقةٍ لا يُمكن توقُّعها. خاصّةً إذا أضفنا عامل الجنس.

قلتُ له: «فهمت. أشكرك لأنّك تحدّثت معي بصدق. أعتقد أنَّ الصّدق في النهاية هو أفضل شيء».

«وأنا أيضًا أتمنّى أن يكون كذلك».

«في الواقع، لقد عرفتْ مارية بالأمر. أنّك وشوكو أكيكاوا ربّما تكونان مرتبطَيْن. وتناقشتْ معي في الموضوع، منذ عدّة أيّام».

اندهش منشكي قليلًا عندما سمع ذلك. وقال: «إنّها طفلةٌ حادّة الحدس. لقد حاولتُ عدم إظهارِ الأمر إطلاقًا».

«حادّة الحدس فعلًا. لكنّها انتبهتْ إلى الأمر بسبب تصرُّفات عمّتها، لا بسببك أنت».

منشكي يعلم جيّدًا أنَّ شوكو أكيكاوا امرأةٌ متعلّمة حسنةُ التربية، وتستطيع السّيطرة على مشاعرها إلى حدٍّ ما، لكنّها لا تحمل قناعًا صلبًا بلا مشاعر.

قال: «إذن هل أنت... تعتقد أنَّ هناك ارتباطًا ما بين انتباه مارية للعلاقة وبين اختفائها هذه المرّة؟»

هززتُ رأسي، وقلتُ: «لا أعلم لهذه الدَّرجة. ولكنْ، أقول إنّه من الأفضل أن تتناقش مع شوكو جيّدًا حول هذا. فغياب مارية يجعلها في حالة اضطرابٍ رهيبة وقلقٍ بالغ. يُفترض أنّها في حاجةٍ إلى مساعدتك وتشجيعك لها. حاجةً ماسَّة وعاجلة».

«فهمتُ، حالما أصل إلى البيت سأتّصل بها».

وبقوله ذلك، غرق منشكي في تفكيرٍ عميق.

ثمّ تنهّد تنهيدةً واحدة، وقال: «أعتقد أنّي لم أقع في الحبّ. الأمر يختلف قليلًا. يبدو أنّني غير مؤهّل لذلك أصلًا. سوى أنّي لست متأكّدًا: لو لم تكن مارية موجودة، هل كان قلبي سينجذب إلى شوكو أكيكاوا أم لا؟ لا أستطيع وضع الخطِّ الفاصلِ بين الأمرَيْن».

التزمتُ الصمت.

فأكمل منشكي: «لكنّي لم أحسب حسابًا لهذا. هل تصدّقني، في هذه الجزئيّة على الأقلّ؟»

قلتُ له: «يا سيّد منشكي، أنا نفسي لا أستطيع أن أفسّر لماذا أشعر بهذا، ولكنّي أعتقد أنّك إنسانٌ صادق من الناحية المبدئيّة».

«شكرًا لك»، ثمّ ابتسم ابتسامةً طفيفةً. كانت ابتسامة غير مريحة إطلاقًا، لكنّها لا تُبدي انعدام سروره كلّيًا.

قال: «هل تسمح لي أن أكون أكثرَ صدقًا؟»

«بالتّأكيد».

فقال منشكي وكأنّه يبوح بسرّ: «أشعر أحيانًا أنّي مجرّد عدم»، وظلَّت تلك الابتسامة الخافتة على شفتيْه.

«عدم؟»

«إنسانٌ فارغٌ تمامًا. ربّما أبدو مغرورًا بقولي هذا؛ لكنّي عشتُ حياتي وأنا أعتقد أنّي إنسانٌ في منتهى الذكاء. حاسّتي السّادسة قويّة ولديَّ قوّة الحُكم على الأشياء وقوّة اتّخاذ القرار. ووُهبت قوّةً بدنيّةً فائقة. وإذا هممت بصنعِ شيء، لا أشعر أنّي سأفشل. وفي الواقع، حصلتُ غالبًا على كلّ ما أتمنّاه. بالتّأكيد، كان دخولي سجن طوكيو المركزيّ فشلًا بكلّ المعايير، لكنّه أحد الاستثناءات القليلة جدًّا. كنتُ في شبابي أعتقد أنّي أستطيع فعلَ أيِّ شيء. وكنتُ أفكّر أنّني في المستقبل سأصبح إنسانًا كاملًا بلا أخطاء، وأنّني سأكون في قمّةٍ عالية أنظر منها إلى العالم نظرة المتعال. لكنّي بعد أن تخطّيتُ الخمسين عامًا، وكلّما وقفت أمام المرآة أتأمّل نفسي، اكتشفت أنَّ ما أره هو مجرّد إنسانٍ فارغ. عدم. أو إنسانٍ من القشّ كما يصفه ت. إس. إليوت».

لم أدرِ ماذا أقول، فالتزمتُ الصمت.

«ربّما كانت كلُّ حياتي حتى الآن خاطئة. غالبًا ما أفكّر بذلك. ربّما أخطأتُ في طريقتي. ربّما كان كلُّ ما فعلته حتى الآن بلا معنى. لذا، كما قلتُ من قبل، تنتابني الغيرةُ كلّما رأيتك».

سألته: «على أيِّ شيءٍ مثلًا؟»

«لديْك القوّة في أن ترغب شيئًا ما، حتى لو كنتَ تعْلم جيّدًا أنّك لن تناله. أمّا أنا، خلال حياتي كلّها، لم أستطع إلّا أن أرغب في الأشياء التي يمكنني الحصول عليها».

يقصد مارية أكيكاوا ربّما. لأنّها هي التي لا يستطيع الحصول عليها حتى لو رغب فيها. لكنّي لم أقل شيئًا إزاء هذا الأمر.

ركب منشكي سيّارته ببطء، ثمّ فتح النافذة خصّيصًا ليودّعني، ثمّ شغّل المحرّك وغادر. انتظرتُ أن تختفي السيّارة عن الأنظار، ومن ثَمّ دخلتُ البيت. كانت الساعة قد تخطّت الثامنة.

رنّ الهاتف بعد العاشرة بقليل. كان ماساهيكو أمادا هو المتّصل.

«اتّصالٌ مفاجئٌ». قال «سأذهب الآن إلى إيزو لزيارة والدي. ألا تذهب معي؟ لقد قلتَ في المرّة السّابقة إنّك تريد مقابلته، أليس كذلك؟»

سيأتي اتّصالٌ هاتفيٌّ في صباح اليوم ويدعوني شخصٌ ما لفعل شيءٍ ما. يجب ألّا أرفض تلك الدّعوة.

قلتُ: «لا مشكلة. أعتقد أنّني أستطيع الذهاب. أرجو أن تأخذني معك».

«لقد صعدتُ طريق طوميه السّريعة للتوّ. أتّصل بك من استراحة كوهوكو. وسأصل إليك خلال ساعة من الآن. آخذك ونذهب إلى مرتفعات إيزو».

«هل تقرّر ذهابك فجأةً؟»

«أجل. لقد اتّصلوا بي من مؤسّسة الرعاية. يبدو أنّه ليس بخير. لذا سأذهب لتفقّد حالته. ولأنّه تصادف أنّ اليوم ليس لديّ أشغال».

«وهل أنت متأكّدٌ أنّه ما من مانعٍ من ذهابي معك؟ في هذا الوقت الحرج؟ على الرّغم من أنّي لستُ من العائلة؟»

«لا تشغل بالك بالأمر. فلن يذهب أحدٌ من العائلة غيري. كلّما كان العدد أكبر كان أفضل»، ثمّ أنهى المكالمة بعد ذلك.

بعد أن وضعتُ سمّاعة الهاتف، درتُ بنظري في أرجاء الغرفة، معتقدًا أنّ الكومنداتور قد يكون في مكانٍ ما. لم أجد له أثرًا. يبدو أنّه اختفى بعد أن ترك نبوءته تلك. على الأرجح أنّه يتسكّع كفكرةٍ في حيّزٍ ليس فيه زمانٌ ولا مكان ولا احتماليّة. تلقّيت الاتّصال في الصباح وقَبِلتُ الدّعوة. حتى الآن،

كلّ تنبؤاته تحقّقت. لا بدّ أنّني سأقلق من أنّ مارية ما تزال مختفية. ولكنْ ما باليد حيلة، فتعليمات الكومنداتور كانت واضحة: «أيًّا تكن الظروف لا يجب عليكم رفض الدّعوة». وقد يكون من الأفضل تركُ أمر مارية أكيكاوا إلى منشكي مؤقّتًا. فهو يتحمّل هذا القَدْر من المسؤوليّة.

جلستُ على المقعد المريح في غرفة المعيشة، وواصلتُ قراءة الكتابِ الخاصّ بأسطول أرامادا وأنا أنتظر مجيء ماساهيكو أمادا. قُتل أغلب الجنود الإسبان الذين فرّوا بجلودهم بعد أن تخلّوا عن السّفن التي اصطدمت بالحيود ووصلوا إلى شواطئ إيرلندا، قُتلوا بأيادي أهالي المدن التي وصلوا إليها. هجم سكّان السّواحل الفقراء على الجنود والبحّارة هجمةً مجمعةً، وقتلوهم بغية الحصول على ما يحملون. كان الجنود الإسبان يأملون أنّ الإيرلنديّين الذين على مذهبهم الكاثوليكيّ نفسه سينقذونهم، لكنّ الرياح لم تأتِ كما تشتهي السّفن. كان الجوع أكثرَ إلحاحًا من عاطفة التضامن الدّينيّ. ولسوء الحظّ، غرقت في عُرض البحر كذلك السّفينة التي حُمّلت بالكثير من الذّهب والفضّة، والتي أُعِدّتْ من أجل شراء السياسيّين الإنجليز المؤثّرين بعد الوصول إلى إنجلترا. ولا يعرف أحدٌ مصيرَ تلك الكنوز.

توقّفت سيّارة ماساهيكو أمادا الفولفو السّوداء قديمة الطراز أمام البيت قبل الحادية عشرة بقليل. ارتديتُ المعطف الجلديّ وخرجتُ من البيت وأنا أفكّر في كمّيّة العملات الذهبيّة الإسبانيّة المهولة الغارقة في قاع البحر العميق.

اختار أمادا الدخول من طريق هاكونه تيرن بايك إلى طريق إيزو سكاي لاين، والهبوط من مرتفعات أماغي إلى مرتفعات إيزو. وقال إنّ الطرق العاديّة تكون مزدحمةً في نهاية الأسبوع وإنّ هذه الطريق هي الأسرع، ومع ذلك كانت الطريق مزدحمةً بالذاهبين للتّرفيه في عطلة نهاية الأسبوع. ولم

يكن موسم تلوُّن أوراق الأشجار قد انتهى بعد؛ وكثيرٌ من السّائقين ممَّن يقودون سيّاراتهم في نهاية الأسبوع فقط، لم يكونوا معتادين على الطرق الجبليَّة.. لذا استغرقت الطريق وقتًا أطول من المتوقَّع.

سألته: «هل حالة والدك سيّئة لهذه الدَّرجة؟»

قال أمادا بصوتٍ سلس: «ليس أمامه وقتٌ طويل في أيِّ حال. مسألة وقتٍ فقط. لقد أصبح قريبًا ممَّا يُسمَّى عجز الشيخوخة. وصار لا يَقْدِر على الأكل بسهولة، وقد يصل الأمرُ في النهاية إلى إصابته بالتهابٍ رئويٍّ حادٍّ بسبب دخول الطعام للرِّئة من طريق الخطأ. ولكنَّه طلب عدم تركيب جلوكوز أو محاليل غذائيَّة، بمعنى أنَّه أراد أن يُترَكَ لموتةٍ هادئة إن لم يستطع تناولَ الغذاءِ بنفسه. تمّ ذلك عندما كان واعيًا، عن طريق المحامي، وكُتِبَ في وصيَّةٍ ورقيَّة موقَّعة منه شخصيًّا. لذا لم يحصل على أيِّ تجهيزات لإطالة عمره. ولن يكون غريبًا أن يموت في أيِّ لحظة».

«لذا، فأنت في حالة انتظار لوقوعِ تلك اللَّحظة».

«أجل. إنَّ موت إنسانٍ أمرٌ في غاية الصُّعوبة. لا يمكنني أن أتبرَّم من ذلك».

لا يزال الطِّرازُ القديم من سيّارة الڤولڤو يحتفظ بمشغِّل شرائط الكاسيت. ثمّة عددٌ هائلٌ من شرائط الكاسيت في الصندوق. اختار أمادا أحدَها لا على التَّعيين، معتمدًا على حاسَّةِ اللَّمس، ووضعه في المشغِّل. كان يحتوي على الأغاني التي حقَّقت شعبيَّة في الثمانينيّات، أغانٍ لفرقة «Duran, Duran»، والمطرب هوي لويس. وعندما بدأت أغنية (شكل الحبّ The Look of Love) لفرقة إيه بي سي، قلتُ لأمادا:

«يبدو أنَّ التَّطوُّر قد توقَّف داخل هذه السيّارة».

«لا أحبُّ الأقراص المُدمجة. ربَّما كانت نافعةً في طرد الغربان بتعليقها على إفريز الأسطح، فهي تلمع أكثر ممَّا ينبغي، ولكنْ لا يُمكن للموسيقى أن تُسمَع من خلالها. فالصوتُ حادٌّ ومرتفعٌ، والمزج غير طبيعيّ. وعدم فصل الوجه الأوَّل عن الوجه الثاني أمرٌ مملٌّ. ما زلت أستخدمُ هذه السيَّارة لأنَّني أودُّ الاستماع إلى موسيقى الكاسيت. فالسيَّارات الجديدة لا تحتوي على مشغِّل شرائط الكاسيت. ويُذهل الجميعُ منِّي بسبب ذلك. ولكنْ ما باليد حيلة. فلا يزال لديَّ العديدُ من المختاراتِ المسجَّلة على الهواء، ولا أريد أن أضيِّعها هباء».

«ورغم ذلك، لم أكن أتوقَّع أنَّني سأستمع لأغنية (شكل الحبّ) في حياتي مرَّة أخرى».

نظر أمادا إليَّ بوجهٍ يبدو عليه الارتياب، وقال: «ألا تعتقد أنَّها أغنية رائعة؟»

اجتزنا جبال هاكونه ونحن ندردش في أحاديثَ متنوِّعة عن الموسيقى التي أُذيعت على قنوات إف إم في الثمانينيَّات. وكان جبل فوجي يظهر لنا مُخضرًّا مع كلِّ انحناءةٍ في الطريق.

قلتُ: «إنَّكما أبٌ وابنٌ في غاية الغرابة. فالوالد لا يسمع إلَّا الأسطوانات، والابن متمسِّكٌ بشرائط الكاسيت».

«إن كنتَ تقصد التأخُّر عن العصر، فأنت لا تختلف عنَّا. كلَّا، بل أقول إنَّك أكثرُنا تأخُّرًا. فأنت لا تَملك حتى الآن هاتفًا جوَّالًا، ولا تستخدم الإنترنت تقريبًا، أليس كذلك؟ أمَّا أنا، فأحمل الهاتفَ الجوَّال معي دائمًا، وإذا واجهتُ شيئًا لا أعرفه، أسرعتُ إلى غوغل للبحث عنه. وفي العمل، أستخدم جهاز ماك في التَّصميم. إنَّني أحسن منك بما يخصّ مواكبةَ هذا المجتمع».

في تلك اللَّحظة، كانت أغنية بيرتي هيغينز «مفتاح الأريث» (Key Largo) تنتهي. ومن الغريب أنَّ هذه الأغنية تستهوي رجلًا يواكب المجتمع.

غيَّرتُ مجرى الحديث، وسألت: «هل لك علاقة بأحدٍ مؤخَّرًا؟»

قال أمادا: «أتقصد امرأة؟»

«بالطبع».

هزَّ أمادا كتفيْه لامباليًا وقال: «لا أقول إنَّ الأمر يسير على خير حال. كالعادة. ثمَّ إنّي انتبهتُ إلى شيءٍ مريبٍ مؤخَّرًا، وبسببه تعقَّدت الأمور أكثر فأكثر».

«شيءٌ مريبٌ؟»

«إنَّ وجه المرأة يختلف جانبه الأيمن عن الأيسر، هل كنت تعرف ذلك؟»

قلتُ له: «إنَّ الإنسان لم يُخلق متماثلًا على التمام يمينًا ويسارًا. سواء الثدييْن، أو الخصيتَيْن، يختلف اليمين عن اليسار في الحجم والشَّكل. أيّ رسام يعرف هذه المعلومات. البشر غير متماثلين تمامًا في هيئتهم على اليمين واليسار، وهذا هو المُمتع».

هزَّ أمادا رأسه مرّاتٍ عدَّة من دون أن يبعد نظره عن الطريق، وقال: «بالتَّأكيد، أنا أيضًا أعرف هذه المعلومات. ولكنْ، ما أتحدَّث عنه يختلف قليلًا عن هذا الأمر، لا من حيث الهيئة والشَّكل، بل من حيث الشَّخصيَّة».

انتظرتُ بقيَّة الحديث صامتًا.

«منذ شهريْن تقريبًا، صوَّرتُ المرأة التي ارتبطتُ بها. صوَّرتها بكاميرا رقميَّة، من الواجهة، صُوَرًا مقرَّبة للوجه؛ ووضعتُها في الكمبيوتر الخاصّ بالعمل ذي الشاشة الكبيرة. ولكنْ، لسببٍ لا أعلمه، أخذتُ أنظر إلى الوجه من المنتصف تدريجيًا إلى كلا الجانبيْن. أزيل النُّصف الأيمن فقط وأنظر إلى النُّصف الأيسر، ثمَّ أُزيل الأيسر وأنظر إلى الأيمن... هل تعي هذا الإحساس؟»

«أعي طبعًا».

«وبهذا انتبهت. عند النّظر بإمعان في وجه تلك المرأة، بدا الجانب الأيمن والجانب الأيسر كأنّهما لشخصَيْن مختلفَيْن. ألم يظهر في فيلم «الرجل الوطواط» شرّيرٌ بنصفيْ وجهٍ مختلفيْن؟ هل كان اسمه ذا الوجهيْن؟»

قلتُ له: «لم أشاهد ذلك الفيلم».

«يُستحسن أن تراه. إنّه فيلمٌ مُمتع جدًّا. على كلّ حال، انتبهتُ إلى ذلك الأمر، فأصابني الرُّعب. كان ينبغي ترك الأمر عند هذا الحدّ، إلّا أنّني صنعتُ لكلٍّ من النّصف الأيمن والنصف الأيسر وجهًا خاصًّا به مكوَّنًا من نصفيْن متماثليْن. وبعد أن قسَمتُ الوجه إلى نصفيْن، حوّلت النّصفَ إلى العكس. وبهذه الطريقة، صنعتُ وجهًا من النُّصف الأيمن فقط، وصنعتُ وجهًا آخر من النُّصف الأيسر فقط. أمرٌ سهلٌ جدًّا باستخدام الكمبيوتر. وعندها، نتجت امرأتان بشخصيّتيْن مختلفتَيْن تمام الاختلاف بلا أدنى شكّ. اندهشتُ جدًّا. ما معناه: في داخل كلّ امرأةٍ ثمّة شخصيّتان مختلفتان. هل حدث أن فكّرتَ في ذلك من قبل؟»

قلتُ له: «لا لم يحدث».

«ثمّ فعلت الأمر ذاته على عدّة وجوه لنساء مختلفة. ألتقط لهنّ صُوَرًا من الواجهة وأجمع تلك الصُّوَر، وأصنع بالكمبيوتر وجهيْن مختلفيْن لليمين واليسار. وفهمت النتيجةَ جيّدًا. إنّ المرأة في العموم، مع بعض الفروق البسيطة، يختلف نصف وجهها الأيمن عن الأيسر. ثمّ عندما انتبهتُ لتلك الحقيقة، أصبحتُ لا أستطيع فهم المرأة بالكامل. مثلًا، حتى لو مارستُ الجنس، لا أعرف، هل المرأة التي أحتضنها هي النُّصفُ الأيمن أم النُّصفُ الأيسر؟ ولو كنتُ أمارس الجنس الآن مع النُّصف الأيمن، فأين ذهبت امرأة النُّصف الأيسر؟ وماذا تفعل وبمَ تُفكّر؟ ولو كانت النُّصف الأيسر، فأين ذهبت امرأة النُّصف الأيمن؟ وماذا تفعل وبمَ تفكّر؟ يتعقّد الأمرُ عليّ كلّما فكّرت فيه، أتفهمني؟»

«لا أفهم الأمر برمَّته، ولكنْ قد أستوعب أنّه معقَّدٌ فعلًا».

«يصبح معقَّدًا حقًّا، في الواقع».

سألته: «هل نفَّذت التجربة بوجوه الرجال أيضًا؟»

«بالطبع، جرَّبت. ولكنَّها لم تنجح بوجوه الرجال، بقدر ما نجحتْ بوجوه النساء».

«ربَّما من الأفضل أن تذهب إلى طبيبٍ نفسانيّ أو معالجٍ روحانيّ، وتستشيره».

تنهَّد أمادا: «لقد عشت حياتي وأنا أظنُّ أنِّي إنسانٌ طبيعيٌّ».

«قد تكون هذه مثاليَّةٌ خطيرة».

«ظنِّي أنِّي شخصٌ طبيعيّ»

«لقد كتب سكوت فيتزجيرالد في إحدى رواياته: لا تثق في الإنسان الذي يعرِّف نفسه على أنّه طبيعيّ».

فكَّر أمادا في ذلك، ثمَّ قال: «هل هذا يعني أنَّه لا بديل عنِّي حتى لو كنتُ عاديًّا؟»

«يمكننا تأويلها بهذا الشُّكل».

ظلَّ أمادا صامتًا لفترة مُمسكًا بمقود السيَّارة، ثمَّ قال:

«ولكنْ على كلِّ حال، ألا تُحاول أنت أيضًا أن تفعل الشيءَ نفسه؟»

«أنا، كما تَعْلم، ظللتُ لفترةٍ طويلة أعمل رسَّامًا للبورتريه. لذا أعتقد أنَّني على علمٍ بتكوين وتركيبة وجوه البشر. بل يُمكنني أن أقول إنِّي مُتخصِّصٌ. ولكنْ لم يسبق لي أن فكَّرتُ بأنَّ النِّصف الأيمن يحمل شخصيَّةً مختلفةً عن النِّصف الأيسر للوجه نفسه».

«لكنَّ أغلب من رسمتهم كانوا رجالًا، أليس كذلك؟»

بالتّأكيد، كان ما قاله أمادا صحيحًا. لم يسبق أن جاءني عرضٌ لرسم بورتريه من امرأةٍ قطّ. لا أدري السّبب! لكنّ كلّ البورتريهات التي رسمتها كانت لرجالٍ حصرًا. الاستثناء الوحيد هو لوحة مارية أكيكاوا، ولكنّها قد تكون أقرب إلى طفلةٍ منها إلى امرأة. ثمّ إنّ اللّوحة لم تكتمل بعد.

قال أمادا: «الرجال يختلفون تمامًا عن النساء. يختلفون اختلافًا مطلقًا».

قلتُ له: «أريد أن أسأل سؤالًا. أنت تقول إنّ جانب الوجه الأيمن وجانب الوجه الأيسر لهما شخصيّتان مختلفتان في أغلب النساء».

«بالضبط. تلك هي النتيجة النهائيّة التي توصّلتُ إليها».

«هل يعني ذلك أنّك تحبّ مثلًا أحدَ جانبَي الوجه أكثر من الآخر؟ أم أنّك لا تستطيع حبَّ كليْهما أكثر من ذلك؟»

فكّر أمادا في السّؤال طويلًا، ثمّ قال: «كلّا. الأمر ليس على هذا الشّكل. لا يتعلّق بأنّي أفضّل أحد الوجهيْن على الآخر، أو أنّني لا أحبُّ الوجهَيْن أكثر من ذلك. كما لا يتعلّق بأنّ أحد الوجهَيْن أكثر إشراقًا وبشاشةً والآخر أكثر ظلامًا وكآبة، أو أنّ أحدَ الوجهَيْن جميلٌ والآخرَ قبيح. المشكلة فقط أنّ الجانب الأيمن والجانب الأيسر مختلفان. حقيقةُ أنّهما مختلفان تصيبني باضطراب، وفي بعض الحالات تصيبني بالرُّعب».

«هذا الكلام يدخل أذنيّ على أنّه نوع من الوسواس القهريّ».

«وأنا أيضًا أراه كذلك. ولكنْ، أُقسم أنّ هذا ما يحدث حقًّا. أرجو أن تجرّب ذلك بنفسك مرّةً».

قلتُ له سأجرّب. لكنّني لم أكن أنوي ذلك حقًّا. فأنا بغنًى عن المشاكل التي تحيطني من كلّ جانب. ولا أودُّ خوضَ معاناةٍ معقّدةٍ أخرى.

وبعد ذلك، تحدّثنا حول توموهيكو أمادا. وحول فترة دراسته في فيينّا.

قال أمادا: «روى لي والدي أنّه سمع ريتشارد شتراوس يقود سيمفونيّة لبيتهوفن. أوركسترا ڤيِنّا الفيلهارموني بالتّأكيد. وقال إنّه شهد أداءً لا يُضارَع في الرّوعة والجمال. كانت تلك هي إحدى الحكايات القليلة جدًّا التي سمعتُها منه مباشرة».

«ماذا سمعت غيرها عن فترة إقامته في ڤيِنّا؟»

«حكايات لا أهمّيّة لها. عن الأطعمة والخمور، وعن الموسيقى أيضًا. كان أبي يعشق الموسيقى. ولم يتحدّث عن شيءٍ بخلاف ذلك. لم يتحدّث مطلقًا عن اللّوحات أو السياسة. ولم يتحدّث كذلك عن النساء».

صَمَتَ أمادا فترةً، ثمّ تابع حديثه.

«كان ينبغي أن يكتب أحدٌ ما سيرةَ والدي. لا بدّ أنّه سيكون كتابًا شائقًا. ولكنْ على أرض الواقع، لن يقدر على ذلك أحد، إذ ليس هناك معلوماتٌ شخصيّة تقريبًا. لم يعقد والدي صداقات، وكان مُهملًا لأسرته، وانعزل وحيدًا في قمّة جبلٍ للعمل حصرًا. لم يتعامل معه أحدٌ سوى تاجر اللّوحات المُعتاد. كان لا يتكلّم مع أحدٍ أو يكاد. ولم يكتب رسالةً واحدةً لأحد. لذا، فإنّ الموادّ التي تساعد في الكتابة عن سيرته مُنعدمة تمامًا. لم تكن الفجوات كثيرةً في حياته فحسب، إنّما كانت كلُّها فجوات. مثل قطعة الجبن التي فيها ثقوبٌ أكثر من الجبن نفسه».

«لم يترك سوى لوحات».

«أجل. لم يترك شيئًا تقريبًا إلّا تلك اللّوحات. كانت تلك رغبته، أغلب الظنّ».

«ولكنّك أنت أيضًا تُعتَبر من الأشياء التي تركها».

فقال وهو ينظر إلى وجهي مُندهشًا: «أنا؟» ولكنّه أعاد نظره بسرعة إلى الطريق أمامه، وقال: «بالتّأكيد هذا صحيح. بالضّبط كما تقول. أنا أيضًا من بين الأشياء التي تركها أبي. وإن لم يكن شيئًا ذا جوْدةٍ عالية».

«ولكنْ ليس لك بديل».

«بالضّبط. لا بديل لي، حتى إن كنتُ عاديًا. أحيانًا أفكّر: ألم يكن من الأفضل لو كُنتَ أنت ابن توموهيكو أمادا؟ كان لكثير من الأمور أن تجري بخير حالٍ ربّما».

ضحكتُ قائلًا: «إلّا هذه. لا يستطيع أحدٌ أن يؤدّي دورَ ابن توموهيكو أمادا إطلاقًا».

قال أمادا: «ربّما. ولكنّي أستشعر أنّك لو كنت ابنه، كنتَ سترثه من الناحية الرّوحيّة. ألا تَملك ذلك المؤهّل أكثر منّي؟»

عندما سمعتُ ما قال، تذكّرتُ فجأةً لوحة «مقتل الكومنداتور». أليست تلك اللّوحة هي ما ورثته أنا عن توموهيكو أمادا؟ لِمْ لا يكون هو الذي أرشدني إلى السّقيفة ليجعلني أعثر على اللّوحة؟ تُرى ما الذي يطلبه منّي من خلال تلك اللّوحة؟

انسابت من الستريو أغنية «قبلة فرنسيّة في الولايات المتّحدة» للمطربة ديبورا هاري. كانت موسيقى كخلفيّة لا تُناسب حديثنا هذا.

تجرّأت وسألته: «أعتقد أنّك عانيت حقًّا بكون توموهيكو أمادا والدك، أليس كذلك؟»

فقال أمادا: «لقد غسلت يديَّ من هذا الأمر في مرحلةٍ ما من حياتي. لذا لم يكن بمثابة معاناة كما قد يبدو. فعلى الرّغم من أنّي أتعيّش من الفنّ، فإنّ حجم الموهبة بيني وبين أبي مختلفٌ جدًّا. وعندما يصل الاختلاف لهذا الوضوح، لا يعود ذا أهمّيّة. معاناتي لم تكنْ لأنّ والدي رسّامٌ شهير، بل لأنّه لم يفتح لي قلبه كإنسانٍ من لحمٍ ودم ومشاعر ـ وأنا ابنه. لم يحدث بيننا أيّ نوع من تناقل الخبرات عبر الأجيال».

«ألم يبُح لك بما في قلبه؟»

«مُطلقًا. وكأنَّه يقول لقد أعطيتك نصف جيناتي الوراثيَّة، فلم يَعُد لديَّ شيءٌ آخر أعطيه لك، عليك أن تتدبَّر أمركَ بنفسك فيما عدا ذلك. لكنَّ العلاقة بين إنسانٍ وإنسان لا تقتصر على الجينات الوراثيَّة فقط. أليس كذلك؟ أنا لا أقول له كُن دليلي ومرشدي في الحياة بتاتًا. لا أطلب منه إلى هذا الحدّ. ولكنْ، ما ضرَّه لو أوجدَ حوارًا بين أبٍ وابنه؟ كان ينبغي أن يخبرني حتى لو تفاصيلَ صغيرةً عن حياته، مثل: ما التَّجارب التي خاضها في الماضي؟ ما المشاعر التي عاش وهو يحملها ويفكِّر فيها؟»

التزمتُ الصَّمت مستمعًا لحديثه.

أثناء انتظارنا لإشارةِ مرورٍ طويلة، نزع نظّارته الشّمسيَّة، ماركة ريبان، وأخذ يمسحها بمنديله، ثمَّ نظر تجاهي وقال: «انطباعي أنَّ أبي كان يحمل أسرارًا شخصيَّة ثقيلة، ويحاول أن يرحل ببطءٍ عن هذا العالم وهو يحملها بمفرده. ثمَّة ما يشبه خزانةً متينةً في عمق قلبه تحتوي على عددٍ من الأسرار. وكأنَّه قَفَل تلك الخزانةَ ورمى المفتاحَ أو أخفاه في مكانٍ ما، مكانٍ لا يتذكَّره هو نفسه الآن».

ثمَّ دفن ما حدث في ڤينَّا عام 1938 في الظلام لغزًا غامضًا لا يعرفه أحد. ولكنْ قد تكون لوحة «مقتل الكومنداتور» هي «المفتاح الخفيّ». طرأتْ على ذهني تلك الفكرة فجأةً. أليس هذا هو السَّبب الذي أحاله في نهاية عمره إلى شبحٍ حيٍّ ليأتي إلى الجبل ويتأكَّد من اللَّوحة؟

التفتُّ ونظرتُ إلى المقاعد الخلفيَّة للسيَّارة. أحسستُ أنَّ الكومنداتور جالسٌ هناك بهدوء. ولكنْ لا أحد على المقاعد الخلفيَّة.

تابع أمادا مسار نظري وسألني: «ما بك؟»

قلتُ له: «لا شيء».

أصبحتْ إشارة المرور خضراء، وداس على دوّاسة الوقود.

- 49 -
تمتلئُ الأرض بأعداد الموتى نفسها

قال أمادا في منتصف الطريق إنَّه يريد أن يتبوَّل، فأوقف السيَّارة في مرأب مطعمٍ للعائلات يقع على جانب الطريق. أُرشدنا إلى طاولةٍ بجوار النافذة، وطلبنا قهوة. كان وقت تناول وجبة الغداء، فطلبتُ مع القهوة شطيرة لحمٍ بقريّ مشويَّة. وطلب أمادا كذلك أيضًا. ثمَّ نهض وذهب إلى دورة المياه. وأثناء ابتعاده عن مقعده، ظللتُ شاردًا أتأمَّلُ الخارج من النافذة الزجاجيَّة. كان مرأبُ السيَّارات مزدحمًا بها. وأغلبيَّة الزبائن عائلات؛ وعربات الڤان (أو العائلات) الصَّغيرة هي الأبرز. بدَتْ كلُّها متشابهة، وكأنَّها علبٌ تحتوي على بسكويت سيِّئ الطعم. كان الناس يلتقطون صورةً لجبل فوجي الذي ظهر كبيرَ الحجم في الواجهة، بكاميراتٍ رقميَّةٍ وهواتفَ جوَّالة من فوق برج مراقبة صغير عند مقدِّمة المرأب. ربَّما كان ذلك مُجحفًا، لكنِّي لم أستطع التعوُّد على التقاط الناس للصُّوَر بالهواتف الجوَّالة. ولا يُمكنني أبدًا تقبُّلُ فكرة الاتِّصال الهاتفيّ بآلةِ تصوير.

كنتُ أنظر إلى ذلك المشهدِ بلا غاية، حتى دخلتْ المرأبَ سيَّارةُ سوبارو فورستر بيضاءُ قادمةٌ من الطريق. لستُ خبيرًا بأنواع السيَّارات لهذه الدَّرجة (كما أنَّ سيَّارة سوبارو فورستر ليس لها شكلٌ مميَّز)، لكنِّي عرفتُ من أوَّل نظرةٍ أنَّها من نوع السيَّارة نفسها التي كان «رجل سيَّارة سوبارو فورستر البيضاء» يقودها. تقدَّمت تلك السيَّارةُ ببطءٍ في طريق المرأب

المزدحم تبحث عن مكانٍ فارغ لتُركن فيه، وعندما وجدته دخلته بسرعة من المقدّمة. وبالتّأكيد، كان على بابها الخلفيّ إطارٌ احتياطيٌّ مغطّى بغطاءٍ عليه شعارٌ كبير يحمل اسم «SUBARU FORESTER». ويبدو أنّها من طراز السيّارة التي شاهدتُها في المدينة السّاحليّة الصّغيرة بمحافظة مياغي. لم أستطع قراءة لوحة الأرقام، ولكنّي كلّما نظرتُ إليها ازددتُ يقينًا أنّها السيّارة نفسها التي رأيتها في ربيع هذا العام في تلك المدينة السّاحليّة: ليس نوع السيّارة نفسه فحسب، بل السيّارة نفسها أيضًا.

إنّ ذاكرتي البصريّة دقيقةٌ إلى درجةٍ غير عاديّة، وطويلة الأمد أيضًا. كنتُ أذكر كلّ شيءٍ عن تلك السيّارة: مدى اتّساخها، بعض تفاصيلها القليلة، مواصفاتها، تتطابق تمامًا. أحسستُ بضيقٍ في التّنفّس. حدّقتُ بصري مترقّبًا نزول سائقها، فإذا بحافلةٍ سياحيّةٍ ضخمة تدخل المرأب في تلك اللّحظة تحديدًا وتحجب عنّي الرّؤية. وكان المرأب مزدحمًا ما أعاق تقدّم الحافلة. نهضتُ من مقعدي وخرجتُ من المطعم. دُرتُ حول الحافلة المتوقّفة ومشيتُ تجاه مكان سيّارة سوبارو فورستر البيضاء. لكنّها كانت خالية. لقد نزل السّائق منها وذهب إلى مكانٍ ما. ربّما دخل المطعم، أو ذهب إلى برج المشاهدة لالتقاط الصُّوَر. وقفتُ هناك ودرتُ ببصري في المكان بتركيز، ولكنّي لم أعثر على «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» في أيّ مكان. ليس من الضرورة بالتّأكيد أن يكون ذلك الرجلُ هو الذي يقود السيّارة.

وبعد ذلك، تأكّدتُ من لوحة أرقام السيّارة. وكما هو متوقّع: اللّوحة تتبع لمحافظة مياغي. كان شعار سمكة المرلين ملصقًا على المصد الخلفيّ. فهي السيّارة نفسها التي رأيتها حينذاك إذن. ما من شكّ. لقد جاء ذلك الرجل إلى هنا. أحسستُ بتجمّدٍ في ظهري. وحاولتُ أن أعثر عليه. كنتُ أريد أن أرى وجهَ ذلك الرجل مرّةً ثانية. وأن أفهم سبب عجزي عن إكمال

ذلك البورتريه. لعلّي أغفلتُ شيئًا ما في دواخله. وأخيرًا، نقشتُ أرقام لوحة السيّارة في رأسي. فقد تفيد لاحقًا، وقد لا تفيد.

وما لبثتُ أجول في المرأب، بحثًا عن رجلٍ بالصفات نفسها. وذهبتُ كذلك إلى برج المشاهدة، ولم أعثر عليه. رجلٌ متوسّط العمر بشعرٍ قصير يختلط فيه الشيب، وبشرته سمراء من لفح الشمس، وطويلُ القامة. عندما رأيته في المرّة السّابقة كان يرتدي معطفًا جلديًا أسود مهترئًا، ويعتمر قبّعةَ غولف ماركة يونيكس. رسمتُ له مسوّدةً سريعة في دفتر المذكّرات حينها وأعطيتها للمرأة التي كانت تجلس معي. وعندما رأت المرأة المسوّدة، قالت بانبهار: «أنت بارع جدًّا في الرّسم».

بعد أن تأكّدتُ من عدم وجود رجل بتلك المواصفات في الخارج، دخلتُ مطعم العائلات ودرتُ بنظري على كامل المكان. ولم أعثر على أيِّ أثرٍ له. كان المطعم مكتظًّا. وقد عاد أمادا وجلس يشرب القهوة. ولم تكن الشطائر قد جاءت بعد.

سألني أمادا: «إلى أين ذهبت؟»

«عندما نظرتُ من النافذة رأيت شخصًا أحسستُ أنّني أعرفه، لذا خرجتُ أبحث عنه».

«وهل عثرت عليه؟»

قلتُ له: «كلّا. لم أعثر عليه. ربّما كنتُ مخطئًا».

ظللتُ أنظر إلى سيّارة سوبارو فورستر البيضاء من دون أن أحيد عنها، إذ قد يعود سائقُها في أيِّ وقت. ولكنْ، حتى وإن عاد، فما الذي عليَّ أن أفعله؟ هل أذهب إليه وأتحدّث معه؟ وأقول له من المؤكّد أنّني رأيتك مرّةً على الأقلّ في إحدى المدن السّاحليّة بمحافظة مياغي في ربيع هذا العامَ؟ ولكنّه قد يجيب: «حقًّا؟ لكنّي لا أذكرك مطلقًا!» لا بدَّ أنّه سيقول شيئًا كهذا.

فأسأله لماذا تلاحقني؟ وقد يجيب: «ماذا تقول يا رجل؟ إنّي لا ألاحقك ولا ألاحق أحدًا. لماذا عليّ أن ألاحقك وأنا لا أعرف من تكون؟» وهنا ينتهي الحوار.

على أيِّ حال، لم يَعُدْ سائق السوبارو فورستر. كانت تلك السيّارة البيضاء المربّعة تنتظر وسط المرأب عودةَ صاحبِها في صمت. ولم يَعُدْ ذلك الرجل حتى بعد أن انتهينا، أمادا وأنا، من تناول الشطائر وشرب القهوة.

نظر أمادا إلى ساعته، وقال: «حسنًا، حان وقت التّحرُّك. ليس أمامنا كثيرٌ من الوقت»، ثمّ أخذ نظارته الشّمسيّة من فوق الطاولة.

نهضنا واقفيْن، وسدّدنا الحساب ثمّ خرجنا من المطعم. ركبنا سيّارة الڤولڤو، ورحلنا عن المرأب المزدحم. كنتُ أريد البقاء والانتظار إلى أن يعود «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء»، ولكنْ كان لمقابلة والد أمادا أولويّةٌ عندي. فقد حذّرني الكومنداتور من قبل: يجب ألّا ترفض تلك الدّعوةَ أيًّا كانت الظروف.

وهكذا، يبقى أنَّ «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» ظهر مرّة أخرى. إنّه يعلم أنّني موجودٌ هنا، وقد حاول أن يريني أنّه هو أيضًا موجودٌ هنا. استطعتُ فهم غرضِهِ من ذلك: لم يأتِ إلى هذا المكان عن طريق الصدفة مُطلقًا. وبالطبع لم يكن من قبيل الصدفة أيضًا أن تمرّ الحافلة أمامي وتحجب عنّي رؤيته.

للوصول إلى مؤسّسة الرعاية، التي يُقيم بها توموهيكو أمادا، يجب السّير في طرقٍ جبليّةٍ طويلةٍ ومتعرّجة بعد النزول من طريق إيزو سكاي لاين. مررنا خلالَ الطريق بمنطقة منتجعاتٍ بُنيت حديثًا، ومقهى جميل، ونُزُلٍ من نوع الكبائن، ومحلّ بيعٍ مباشرٍ للخضروات التي تنتجها المنطقة، ومتحفٍ صغيرٍ مخصّصٍ للسّوّاح والزوّار. وفي تلك الأثناء، كنت أفكّر في

ذلك الرجل، وأنا أُمسك بمقبض باب السيّارة مع كلّ انحناءةٍ في الطريق. هناك شيءٌ ما يعرقل إكمال البورتريه الخاصّ به. ربّما لا أكون قادرًا على العثور على أحد العناصر الضروريّة من أجل إكمال البورتريه. وكأنّني فقدتُ قطعةً كبيرةً من قطع البازل. ولم يحدث لي ذلك من قبل. عندما كنتُ أرسم في السّابق بورتريه لشخصٍ ما، كنتُ أجمع قبلها كلّ ما يلزمني من أجل ذلك. لكنّي أخفقت في حالةِ «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء». وعلى الأرجح أنّ الرجل ذاته هو الذي يعرقل الأمرَ برمّته. لسببٍ مجهول، لا يرغب في أن يُرسَم بورتريه له. وربّما يرفض ذلك رفضًا قاطعًا.

انحرفت سيّارة الفولفو عن الطريق في أحد الأماكن، ودخلتْ بوّابةً حديديّةً كبيرةً مفتوحةً على مصراعَيْها. ولم يكن على البوّابة إلّا لافتة صغيرة الحجم. وإن لم يحترس السّائق بشدّة، فقد يغفل عن مدخل المؤسّسة. يبدو أنّها لا تحتاج إلى الإعلان عن وجودها. على جانب البوابة، ثمّة كشكٌ يجلس فيه الحارس الذي يرتدي البدلة. أخبر ماساهيكو الحارسَ باسمه واسمَ مَن سيزور. اتّصل الحارس بمكانٍ ما، وتأكّد من هوية الأسماء. فتقدّمت السيّارة، ودخلنا وسْط غابةٍ موحشة. كانت أغلب أشجارها باسقةً ودائمةَ الخضرة، فتصنع ظلالًا ينتعش فيها الهواء. وبعد أن صعدنا في طريقٍ معبّدة بالأسفلت، وصلنا إلى مدخلٍ للسيّارات على أرضٍ مستوية. كان المدخل دائريَّ الشّكل، وفي وسطه حوضٌ دائريّ للأزهار. والحوض مصنوع على شكل هضبةٍ مُتدرِّجةٍ ومُحاطةٍ بأزهارِ نباتِ الملفوف، وفي المنتصف تتفتح أزهارٌ حمراء زاهية اللّون. كلُّ شيءٍ ينمّ عن عنايةٍ جيّدة.

دخل أمادا بالسيّارة إلى المرأب في عمق المدخل الدّائريّ وركَنَها. كان هناك سيّارتان جاءتا قبلنا. سيّارة هوندا ڤان بيضاء صغيرة، وسيّارة أودي سيدان كحليّة. وكانت كِلتاهما جديدةً برّاقة، حتى بدت سيّارة الفولفو القديمة أمامهما

مثل حصانٍ بلديّةٍ عجوز. لكنّ أمادا لم يهتم بذلك مُطلقًا (فالأهم بالنّسبة إليه هو سماع باناناراما على مشغّل الكاسيت). كان يُمكن رؤية المحيط الهادئ تحت أعيننا من المرأب. تنصبّ شمسُ بداية الشتاء على سطح الماء وتنعكس لامعةً لمعانًا شاحبًا. ووسْط ذلك، عددٌ من مراكب الصيد متوسّطةُ الحجم تصطاد في المحيط. وبدت جزيرةٌ صغيرةٌ في عمق المحيط، ثمّ بدت خلفها جزيرةُ مانازورو. وكانت عقارب السّاعة تشير إلى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة.

نزلنا من السيّارة، ومشينا نحو مدخل البناية. بدت البناية أنّها بُنيتْ مؤخّرًا نسبيًّا. وكانت في المجمل أنيقةً ونظيفة، لكنّها مبنيّةٌ من الخرسانة التي لا تعطي لها ميّزات خاصّة. فمن حيث التّصميم، يبدو أنّ خيال المعماريّ الذي صمّمها لم يكن نشطًا أو متحرّرًا. وربّما كان العميل هو الذي طلب منه تصميمًا بسيطًا بقدر الإمكان مراعاةً للغرض من استخدامه. المبنى مكوّن من ثلاثة طوابق مربّعة الشّكل تقريبًا، وكلُّها بخطوطٍ مستقيمة. وأعتقد أنَّ وجود مسطرةٍ واحدة يكفي لرسم التّصميم. أُستخدم الزجاجُ بكثرةٍ في الطابق الأرضيّ، في محاولةٍ لإعطاء انطباعٍ مُشرقٍ ومرحٍ بقَدْر الإمكان. وثمّة شرفةٌ كبيرةٌ من الخشب، وتتراصُّ به عدّة مقاعد للاسترخاء، ولكنْ لا أحد ينعم بالشمس هناك، رغم أنّ الطقس جميلٌ ومُشمس، ربّما لأنّنا كنّا قد دخلنا في فصل الشتاء بالفعل. يجلس بعض الناس في كافيتريا مُحاطةٍ بجوانب زجاجيّة من الأرض حتى السقف. خمسةُ أشخاصٍ أو ستّة، ويبدو أنَّ جميعهم من المُسنِّين. اثنان منهم على مقاعد مُتحرّكة. لم يصل بصري إلى درجة معرفة ماذا يفعلون. أغلب الظنّ أنّهم يشاهدون التلفاز ذي الشاشة العملاقة المعلّق على الحائط. الشيء الوحيد المؤكّد هو أنّهم لا يتشقلبون في الهواء.

دخل أمادا من الباب الرّئيس، وتحدّث إلى الفتاة الشابّة التي تجلس خلف مكتب الاستقبال. كانت مستديرةَ الوجه، ما يُعطي انطباعًا بالألفة.

وشعرها أسود طويل وجميل. ترتدي زيًا موحّدًا عبارةً عن سُترةٍ كحليّةِ اللّون، وعلى صدرها بطاقة الاسم. ويبدو أنّهما يعرفان بعضهما بعضًا، فلقد بقيا يتحادثان بألفة. وقفتُ غير بعيدٍ عنهما، ريثما ينهيان الحديث. في المدخل مزهريّةٌ كبيرةٌ تفيض بأنواعٍ مختلفةٍ من الأزهار التي يبدو أنّ اختصاصيًا في فنون تنسيق الزهور هو الذي نسّقها في ألوانٍ زاهية وفاخرة. بعد أن انتهى الحديث، كتب أمادا اسمه في سجلّ الزوّار الذي على المكتب بقلمٍ جافّ، وسجّلَ التّوقيتَ الحالي بعد أن نظر سريعًا إلى ساعة يده. وبعد ذلك، غادر مكتب الاستقبال وجاء حيث أقف.

قال لي وهو يضع يديْه الاثنتيْن في جيبه: «يبدو أنّ حالة أبي مستقرّة الآن. في الصباح، لم يتوقّف سعاله ولم يستطع التّنفُّس جيّدًا، وخشوا أن يتطوّر الأمر إلى التهابٍ رئويٍّ حادّ، ولكنّ حالته هدأت منذ قليل، وهو الآن ينام نومًا عميقًا. على كلّ حال، دعنا نذهب إلى غرفته».

«هل أنت متأكّدٌ من أنّه بوسعي مرافقتك إليه؟»

قال أمادا: «طبعًا. أرجوك أن تقابله. ألم تأتِ خصّيصًا إلى هنا من أجل ذلك؟»

ركبتُ المصعد معه، وصعدنا إلى الطابق الثالث. كان الممرّ عاديًّا وبسيطًا. ليس هناك أيّ نوعٍ من أنواع الزّينة إطلاقًا. إلّا أنّ جدرانه البيضاء ازدهت بعددٍ من اللّوحات الزّيتيّة، بمثابة اعتذارٍ عن تلك الرتابة الصارمة. كلُّها مناظر لساحل البحر. ويبدو أنّها جميعًا لرسّامٍ واحدٍ فقط، وساحلٍ واحدٍ من أماكنَ متنوّعة وزوايا متعدّدة. من الصّعب وصفها باللّوحات الرّائعة، لكنّ الرسّام لم يبخل بالألوان على الأقلّ، بل استخدمها بوفرةٍ وغنًى، ويُمكننا اعتباره قد ألقى حجرةً كبيرةً في وجه ذلك الطّراز المعماريّ المتفاني في التقليليّة. صُنعت الأرضيّة من المشمّع اللّامع الذي يجعل كعب الحذاء

يُصدر صوتًا عاليًا. جاء قبالتنا ممرّضٌ مساعد يدفع كرسيًا متحرّكًا لسيِّدةٍ مسنَّة شائبة، وكانت تفتح عينَيْها على وسعهما وتنظر للأمام، وحتى عندما مرَّت بجوارنا، لم تلتفت إلينا مُطلقًا. وكأنّها مُصمّمةٌ على عدم فقدان إشارةٍ مهمَّة تطفو في الفراغ أمامها.

كانت غرفة توموهيكو أمادا هي آخر غرفةٍ في الممرّ، وكانت رَحبة له وحده. وعلى الباب لوحةٌ لكتابة الاسم، لكنَّها فارغة. حرصًا على الخصوصيَّة أرجح الظنّ. فمهما كان رأينا، فإنَّ توموهيكو أمادا واحدٌ من المشاهير. كانت مساحةُ الغرفة تقترب من مساحة جناحٍ صغير في فندق، وفضلًا عن السرير ثمّة مجموعة مقاعد لاستقبال الضيوف. وهناك كرسيٌّ متحرّكٌ مطويٌّ ومسنودٌ إلى جانب السّرير. يمكن رؤية المحيط الهادئ من النافذة الزجاجيَّة الكبيرة التي تطلّ على الجهة الجنوبيّة الشرقيّة. إنَّه منظرٌ في غاية الرَّوعة، وليس هناك ما يحجب الرؤية. لو كان المبنى فندقًا، لكانت أجرة تلك الغرفة مبلغًا طائلًا بفضل هذا المنظر البديع فقط. ليس هناك على الجدران أيَّةُ لوحاتٍ معلَّقة. بل مرآةٌ واحدة وساعة حائطٍ دائريَّةٍ واحدة فقط. وعلى الطاولة مزهريَّةٌ متوسّطة الحجم فيها أزهارٌ بنفسجيّة. لم أشمّ في هواء الغرفة أيّ روائح. لا رائحة المسنّ المريض، ولا رائحة الأدوية، ولا رائحة الأزهار، ولا رائحة الستائر التي لفحتها أشعَّة الشمس، ليس هناك أيُّ رائحةٍ مُطلقًا. وإنَّ انعدام الرّوائح هو أكثر ما أدهشني في تلك الغرفة. حتى إنِّي ظننتُ أنَّ حاسة الشمّ لديَّ أصابتها مشكلةٌ ما. تُرى كيف يُمكن إزالة الرَّوائح إلى هذه الدَّرجة؟

كان توموهيكو أمادا غارقًا في نومٍ عميق على السَّرير المجاور للنافذة، لامباليًا بذلك المنظر الرائع. ينام على ظهره ووجهه إلى السقف وكلتا العينيْن مغمضتان بصرامة. وحاجباه الأبيضان اللّذان طالا وكأنّهما غطاءان

طبيعيَّان يخفيان الجفنَيْن الهَرِمَيْن ويغطِّيانهما. نُقِشت تجاعيدُ عميقةٌ على جبينه. والغطاء يصل حتى عنقه، ولكنْ لا يُمكن معرفة أهو يتنفَّس أم لا من خلال النَّظر إليه فقط! وحتى لو كان يتنفَّس، لا بدَّ أنَّها أنفاسٌ خافتة جدًّا.

عرفتُ من نظرةٍ واحدة أنَّ ذلك العجوز هو الشَّخصيَّة الغامضة نفسها التي زارت المرسم في منتصف اللَّيل منذ مدَّةٍ قليلة. في تلك اللَّيلة، لمحتُ طيفه لفترةٍ قصيرة جدًّا تحت ضوء القمر سريع التنقُّل، ولكنْ لا شكَّ أنَّه هو، توموهيكو أمادا: شكلُ رأسه واستطالةُ شعرِهِ الأبيض. لم أُصَبْ بالدَّهشة مُطلقًا عندما عرفتُ ذلك، إذ كان الأمر واضحًا بالنِّسبة إليَّ منذ البداية.

قال ماساهيكو وهو ينظر إليَّ: «إنَّه غارقٌ في نومٍ عميق. ليس أمامنا إلَّا الانتظار كي يستيقظ تلقائيًّا. هذا إن استيقظ من الأصل».

فقلتُ له: «من الجيِّد أنَّ حالته استقرَّت موقَّتًا، أليس كذلك؟» ثمَّ نظرت إلى الساعة المعلَّقة على الحائط. كانت عقاربها تشير إلى الثانية إلَّا خمس دقائق. تذكَّرتُ فجأةً أمرَ منشكي. تُرى هل اتَّصل بشوكو أكيكاوا؟ وهل استجدَّت الأحداث؟ لكنَّني قرَّرتُ أنَّه ما يتوجَّب عليَّ حينها هو التَّركيز في وجود توموهيكو أمادا.

جلسنا أمادا وأنا وجهًا لوجه على المقاعد، ننتظر استيقاظ توموهيكو أمادا، ونحن نحتسي القهوة التي اشتريناها من ماكينة البيْع الآليَّة التي في الممرّ. وأثناء ذلك، تحدَّث أمادا عن يوزو: أنَّ حملَها في وضعٍ مستقرٍّ حاليًا بعد أن تخطَّت المرحلة الحَرِجَة؛ وأنَّ الموعد المتوقَّع للولادة هو منتصف شهر يناير؛ وأنَّ صديقها الوسيم ينتظر ولادة الطفل بفارغ الصبر.

قال أمادا: «لكنَّ المشكلة ـ المشكلة بالنِّسبة إليه هو بطبيعة الحال ـ أنَّها لا تبدو على نيَّةٍ بالزواج منه».

«لن يتزوَّجا؟!» لم أفهم ما قاله. «هل يوزو تُفضِّل أن تصبح أمًّا عزباء؟»

«يوزو قرّرت أن تَلِدَ الطفل، لكنّها لن تتزوّج منه رسميًا ولن تعيش معه في بيتٍ واحد، ومستقبلًا، لا تنوي أن تتشارك معه حقّ رعاية الطفل... هذا هو الوضع حاليًا، على ما يبدو. الرجل واقع في اضطرابٍ شديد بسبب ذلك، لأنّه كان ينوي الزواج منها مباشرةً بعد أن يتمّ الطلاق بينكما رسميًا، لكنّها رفضت».

استغرقتُ في التّفكير؛ لكنّني كلّما فكّرت، اضطرب عقلي.

«لا أفهم مطلقًا. لقد ظلّت يوزو طويلًا تقول إنّها لا تريد إنجاب أطفال. وعندما كنتُ أسألها ألم يحن الوقت، كانت تُجيب أنّه ما زال مبكّرًا. فلماذا ترغب في الطفل الآن إلى هذه الدّرجة؟»

«ربّما كانت لا تنوي الحَمْل، لكنّها بعد أن حملت مرّةً، أصبحت راغبة في إنجاب ذلك الطفل. هذه أشياء تحدث للنساء، كما تَعْلم».

«أجل. لكنّ ولادة الطفل وتربيته بمفردها سيكون على أرض الواقع محمّلًا بالعديد من المشاقّ بالنّسبة إليها. وقد لا تستطيع مواصلة عملها الحالي. تُرى لماذا ترفض الزّواج من شريكها؟ أليس هو والد الطفل؟»

«هو أيضًا لا يعرف ماذا حدث. لقد كان يثق دائمًا أنّ العلاقة بينهما تسير على أفضل حال. ولقد سَعِدَ لأنّه سيُصبح أبًا. لذا فهو محتار جدًّا الآن. لكنّني لا أعرف ماذا أقول إن استُشرتُ في الأمر».

سألته: «ألا تحاول أن تسأل يوزو مباشرةً؟»

ارتسمتْ على وجهه ملامحُ صعبة، وقال: «بصراحة، أحاول ألّا أتدخّل أكثر ممّا ينبغي في هذا الخصوص. فأنا أودّ يوزو، وشريكها زميلي في العمل. وبالتّأكيد أنت أيضًا، صديقي منذ وقتٍ طويل. أنا في وضعٍ صعبٍ وحرجٍ جدًّا. كلّما تدخّلتُ تعقّد الأمر كثيرًا بالنّسبة إليّ».

التزمتُ الصمت.

قال أمادا وكأنّه في مأزقٍ حقيقيّ: «لقد كنتُ لفترةٍ طويلة أراقبكما مطمئنًا أنّكما زوجان تعيشان في سعادة».

«سمعت منك هذا من قبل».

«ربّما قلت ذلك سابقًا. لكنّها الحقيقة على كلّ حال».

بقينا في صمت، نتأمّل ساعةَ الحائط تارةً، والمحيط من النافذة تارةً أخرى. وما زال توموهيكو أمادا نائمًا بعمقٍ في السّرير على ظهره لا يحرّك ساكنًا، لدرجة أنّي شعرتُ بالقلق من كونه قد مات. وحين رأيت أنّني القِلَقُ الوحيد، فكّرت أنّ هذا هو الوضع الطبيعيّ على الأرجح.

حاولتُ أن أتخيّل مظهره أثناء دراسته في فيِنّا أيّامَ شبابه وأنا أنظر إليه وهو نائم. لكنّي لم أستطع تخيُّلَ ذلك جيّدًا. فمن أراه أمام عينَيّ الآن عجوزٌ أبيض الشعر بوجهٍ تملأه التجاعيد العميقة، يوشك على الفناء ببطء ولكنْ بخطواتٍ حثيثة. كان ككلّ البشر الذين يأتون إلى هذا العالم، بلا استثناء، يتقدّم لملاقاة الموت.

سألني أمادا: «هل لديْك أيّ نيّة للاتّصال بيوزو؟»

هززتُ رأسي وقلتُ: «حاليًا، لا».

«أعتقد أنّه من الأفضل أن تلتقيا وتتحدّثا في العديد من الأمور. أن تتحدّثا بصراحة».

«لقد أتممنا إجراءات الطلاق الرّسميّ عن طريق محامٍ. ويوزو هي التي طلبت ذلك. ثمّ إنّها على وشكّ أن تَلِد طفلًا من رجلٍ آخر. وزواجها من ذلك الرّجل أو عدمه يخصُّها وحدها. وليس من المنطق أن أتدخّل في الأمر. ما العديد من الأمور التي يُمكننا التّحدُّث حولها بصراحة؟»

«ألا تريد أن تعرف ما الذي يحدث؟»

هززتُ رأسي: «لا أعتقد أنّني أريد معرفةَ الأشياء التي من الأفضل ألّا أعرفها. فأنا أيضًا أشعر أنّني مجروح».

«بالتّأكيد».

ولكنّ الحقيقة هي أنّني أحيانًا لا أعرف إن كنتُ مجروحًا أم لا، أو إن كان لديَّ الحقّ بهذا الشعور أصلًا. وعلى الرّغم من هذا، وبصرف النظر عن استحقاقه أم لا، فالجرح يبقى هو الجرح.

قال أمادا بعد قليل: «الرجل زميلي. وهو جادّ في العمل، وذو مهارة لا بأس بها، وصفاته الشّخصيّة لا غُبار عليها أيضًا».

«علاوة على أنّه وسيم».

«أجل. ملامحُ وجهٍ في غاية الوسامة. يحظى بشعبيّةٍ بين النساء. هذا أمرٌ طبيعيّ. شعبيّته تثير الغيرة. لكنّه لطالما كان لديْه ميولٌ محطُّ جدل الجميع».

كنت أصغي إليه صامتًا.

فتابع أمادا كلامه: «عمليّة اختياره للمرأة، التي يقيم معها علاقة، تفوق القدرةَ على الفهم. كان محيّرًا في اختياراته دائمًا، ويرتبط بنساءٍ لا يُعرف لهنّ أصل. لا أقصد يوزو طبعًا. فهي أوّلُ امرأةٍ جيّدة من بين كلّ خياراته السّابقة. وما قبلها ارتبط بأشرّ النساء. ولا أحد يفهم السّبب». أخذ أمادا يلاحق ذاكرته، ثمّ هزَّ رأسه بخفّةٍ وقال: «منذ عدّة سنوات، وصل إلى خطوةٍ لافتةٍ قبل الزواج. فقد حجز قاعة الحفل، وطبع بطاقاتِ الدّعوة، وقرّر الذهاب إلى جزر فيجي أو مكانٍ مشابهٍ لرحلة شهر العسل. وطلب إجازةً من العمل، واشترى تذاكر الطيران. ولكنّ تلك المرأة كانت قبيحةً لدرجةٍ مُثيرة. لقد عرّفني عليها ذات مرّة، وكانت قبيحةً فعلًا. بالتّأكيد لا يجوز الحكم على الناس من مظاهرهم فقط، ولكنْ حسبما رأيت، كانت طباعها دميمة أيضًا. أمّا هو، فكان ولهانَ بها،

لسببٍ غير معلوم. عمومًا، لم يكن بينهما انسجام. وكلّ من حوله كان يعتقد ذلك وإن لم يبح أحدٌ باعتقاده علانيّة. ولكنْ، قبل الزفاف مباشرةً، رفضت المرأة الزواج منه فجأةً. بمعنى أنَّ المرأة هي التي هربت منه. بالطبع، لا نعلم هل هذا من حسن حظّه أم من سوء حظّه، لكنَّ الأمر أدهش الجميع».

«هل كان هناك سببٌ معيّن؟»

«لم أسأله عن السّبب لأنّه كان في حالٍ يُرثى لها، لم أستطع أن أسأله. ولكنّي أرجّح أنّه حتى هو لا يعرف السّبب. تلك المرأة هربت فقط بسبب عدم رغبتها في الزواج منه. ربّما شعرت بشيءٍ ما جعلها تقرّر هذا».

سألته: «حسنًا، لماذا تذكّرت هذا الموضوع؟»

«لأنّي أرى أنّه ما زال إصلاح العلاقة بينكما احتمالًا قائمًا. هذا إن كانت لديْك أنت الرّغبة في ذلك بطبيعةِ الحال».

«لكنّ يوزو تعمل على إنجاب ابن ذلك الرجل».

«ربّما تكون تلك المشكلة فعلًا».

وعدنا إلى صمتنا.

استيقظ توموهيكو أمادا قبل الساعة الثالثة بقليل. حرّك جسده يمينًا وشمالًا. أخذ نَفَسًا عميقًا، وعرفت ذلك من خلال حركة الغطاء فوق صدره إلى أعلى وأسفل. نهض ابنُه وذهب إلى جوار السّرير، ونظر إلى وجه أبيه. فتح الأب جفنيْه ببطء. اهتزّ الحاجبان الطويلان الأبيضان اهتزازًا دقيقًا.

أمسك أمادا وعاءً زجاجيًا مخصّصًا للمريض كان فوق الطاولة المجاورة للوسادة، وبلّل به شفتيْه الجافّتيْن. ثمّ مسح بما يشبه قطعة الشاش قطراتِ المياه التي انسكبت حول فمه. وعندما أراد الأب المزيد من الماء، سكب في فمه شيئًا فشيئًا. ويبدو أنّه يفعل ذلك دائمًا، فكانت يداه معتادتيْن

على ذلك. ومع كلّ كمّيّةٍ من الماء يشربها العجوز، كانت تفاحة آدم لديْه تتحرّك بحركةٍ كبيرة أعلى وأسفل. وعندما رأيتُ تلك الحركة، اقتنعتُ أخيرًا أنّه ما زال على قيد الحياة.

أشار أمادا إليّ، وقال له: «أبي! هذا صديقي من أيّام الجامعة، يسكن حاليًا في بيت أوداوارا. إنّه رسّامٌ أيضًا ويستخدم مرسمك في رسم لوحاته. يفتقد اللّباقة قليلًا، فهربت زوجته الجميلة منه، لكنّه بارعٌ جدًّا في الرّسم».

لا أعرف إلى أيّ مدًى أدرك الأب ما قاله ابنه، لكنّ توموهيكو غيّر اتّجاه وجهه ناحيتي كأنّه يحاول الوصول إلى الوجهة التي يشير إليها ابنه. ويبدو أنّ تينك العينَيْن تنظران إليّ. لكنّ تعابير وجهه لم تتغيّر إطلاقًا. لا بدّ أنّه يرى شيئًا ما لا يمتّ إليّ بِصلة. ولكنْ في الوقت نفسه، أحسستُ ببريقٍ واضحٍ يُدهش في عمق تلك الحَدَقة المغطّاة بغشاءٍ خفيف. كان لديّ انطباعٌ أنّه يحتفظ بذلك البريق باهتمامٍ من أجل شيءٍ له معنى.

قال لي أمادا: «أعتقد أنّه لا يفهم أيّ شيءٍ ممّا قلته له. لكنّ الطبيب المعالج أوصى بأن نتحدّث إليه بشكلٍ طبيعيّ كأنّه يفهم كلّ شيء. إذ لا أحد يعرف ما الذي يفهمه وما الذي لا يفهمه. ولهذا، كما ترى، أتحدّث إليه حديثًا عاديًّا. وهذا مريحٌ بالنّسبة إليّ أيضًا. وأرجو أن تحدّثه أنت أيضًا بشيءٍ ما. حديثٌ اعتياديّ».

قلتُ: «مساء الخير. تشرّفتُ بمعرفتك» ثمّ ذكرتُ له اسمي. «أنا الآن أقيم ـ بعد إذنكم ـ في بيتكم فوق جبل أوداوارا».

بدا أنّ توموهيكو أمادا ينظر إلى وجهي، ولكنْ لم يطرأ أيُّ تغييرٍ على ملامح وجهه. أظهر لي أمادا حركةً معناها: قل أيّ شيء وتابع حديثك.

فقلتُ: «أنا أرسم لوحاتٍ زيتيّة. وتخصّصتُ لفترةٍ طويلة في رسم البورتريه. لكنّي تركت ذلك العمل حاليًا، وأرسم ما يروق لي من لوحات.

أحيانًا، تأتيني طلبيّات بورتريه فأعود لرسمها. لديَّ اهتمامٌ برسم وجوه البشر. وأنا صديق ماساهيكو مُذ كنّا زملاء في كليّة الفنون الجميلة».

كانت عينا تومو هيكو أمادا ما تزالان نحوي. وكانتا كما أسلفتُ تبدوان مغطّاتَيْن بغشاءٍ خفيف. وبدا لي ذلك الغشاء مثل ستائر الدانتيلّا الخفيفة وهي تفصل بين الحياة والموت بدقّة. وكانت مكوَّنةً من عدّة طبقات، وتختفي العميقةُ منها تدريجيًّا، وفي النهاية، تتدلّى ستارةٌ ثقيلة كستارة المسرح. قلتُ: «البيت جميل. والعمل يتقدّم على خير وجه. وأرجو ألّا يُسيئك أنّي أستمع إلى أسطواناتك من دون إذنٍ منك، لأنَّ ماساهيكو سمح لي بذلك. إنّها مختاراتٌ رائعة. أستمع كثيرًا إلى الأوبرا. ومنذ فترةٍ، صعدتُ للمرّة الأولى إلى السّقيفة».

وبقولي هذا، بدا لي أنَّ بريقًا شعّ من عينَيْه للمرّة الأولى. كان لمعانًا خافتًا جدًّا، قد لا يثير انتباهَ شخصٍ غير متيقّظ. ولكنّي كنتُ أنظر إلى عينَيْه مباشرةً بلا حيْد، فلم يفتني ذلك البريق. لا بدَّ أنَّ صدى كلمة «السّقيفة»، أثارت شيئًا ما في ذاكرته.

تابعتُ كلامي: «يبدو أنَّ بومةً قرناء تعيش في السّقيفة. سمعتُ في منتصف اللّيل صوتَ خشخشةٍ يدلّ على دخول أو خروج شيءٍ ما، فخشيتُ أن يكون فأرًا، لذا صعدتُ في النهار إلى السّقيفة لاستطلاع الأمر. وهناك عثرتُ على بومةٍ قرناء تستريح على الكُمرة. جميلةٍ جدًّا. كانت الشّبكة الحديديّة لفتحة التهوية مقطّعة، ويبدو أنَّ البومة تدخل وتخرج من تلك الفتحة. فالسّقيفة مكانٌ مثاليٌّ لبومةٍ تختبئ فيه خلال النهار».

كانت تانك العينان ما تزالان تنظران نحوي بحزم؛ كأنّهما تنتظران معلومةً بفارغ الصبر.

تدخّل أمادا قائلًا: «لا ضرر من وجود بومة في البيت، بل إنّها إذا سكنت في البيت، جلبت الفأل الحسن».

وأضفتُ: «كانت بومةً جميلةً جدًّا، لكنّها ليست هي وحدها ما يثير الفضول في السّقيفة».

ظلَّ تومو هيكو أمادا يُحملق في وجهي وهو مستلقٍ على ظهره في السّرير من دون أن يحرّك ساكنًا. وبدا أنَّ تنفُّسه يضيق مرّةً أخرى. ولم يتبدَّل ذلك الغشاء الخفيف على عينَيْه، لكنّي أحسستُ أنَّ البريقَ السرّيّ الكامن في أعماقهما صار أوضح ممّا كان عليه منذ قليل.

كنتُ أريد مواصلة الحديث عن السّقيفة، لكنّي لا أستطيع الإفصاح عمّا وجدته فيها بحضور ابنه ماساهيكو. فمن الطبيعيّ أن يرغب ماساهيكو في معرفة ما هو ذلك الشيء. وما لبثنا تومو هيكو وأنا نحملق في بعضنا بعضًا وكأنَّ كلًّا منّا يبحث في وجه الآخر عن شيءٍ ما، وظلَّ الحديث معلَّقًا في الهواء بيننا.

اخترتُ الكلمات بعنايةٍ شديدةٍ، وقلتُ: «ربّما تكون تلك السّقيفة مكانًا مثاليًا ليس للبومة القرناء فقط بل للوحات أيضًا. بمعنى أنّها قد تكون مكانًا مناسبًا لحفظ اللّوحات. وقد تكون أنسب للوحات النيهونغا التي تصبح معرَّضةً للتلف بسبب طبيعة الموادّ المستخدمة فيها. فهي جيّدة التهوية ولا تغزوها الرُّطوبةُ بخلاف غرف البدروم التي تكون تحت الأرض. وليس فيها نوافذ، فلا خوف من أشعّة الشمس. بالتّأكيد يُخشى من تسرُّب الأمطار والرّياح، لذا ينبغي تغليف اللّوحة جيّدًا، إن كانت هناك نيّةٌ لحفظها وقتًا طويلًا في السّقيفة».

قال ماساهيكو: «بالمناسبة، أذكر أنّي لم أصعد قطّ إلى السّقيفة. لأنّي أكره الأماكن ذات الأتربة».

لم أبعد عينيّ عن وجه تومو هيكو أمادا. وكذلك فعل. أحسستُ أنّه يحاول الوصول إلى طريقة التّفكير في عقله. يحاول أن يربط معانيَ عدّة كلمات مفردةٍ عالقةٍ في ذاكرته: مثل البومة القرناء والسّقيفة وحفظ اللّوحات... إلخ. وهذا ليس بالأمر السّهل بالنّسبة إلى من يعاني وضعه

الراهن، على الإطلاق. إنَّه كمَنْ يحاول الخروج من متاهةٍ وهو مغمض العينَيْن. لكنَّه يشعر أنَّ ذلك الرَّبط مهمّ بالنِّسبة إليه. يشعر بذلك بشدَّة. راقبتُ محاولتَه تلك في الربط بين الكلمات.

وفكَّرتُ في التَّحدُّث إليه عن المعبد المصغَّر في الغابة وعن الحُفرة المريبة التي خلفه. وعن التَّفاصيل التي أدَّت إلى فتح غطائها. ثمَّ عن شكل الحُفرة. لكنِّي عَدلتُ عن ذلك. فمن الأفضل ألَّا أذكر له أمورًا كثيرةً في آنٍ واحد. فيُفترض أنَّ وعيه المتبقِّي يضيق ذرعًا في أمرٍ واحدٍ فقط؛ ثمَّ إنَّ ما يسند القدرة الضئيلة المتبقِّية لديْه هو خيطٌ رفيعٌ وفي حالةٍ خطرة أيضًا.

مسك ماساهيكو وعاء الماء الزجاجيّ، وسأل والده: «هل تريد المزيد من الماء؟» لكنَّ والده لم يُظهر أيّ ردّ فعل. اقترب ماساهيكو منه أكثر وكرَّر السُّؤال، ولكنَّه أدرك أنَّه لا يتجاوب، فيئس من تكرار السُّؤال. يبدو أنَّ أمادا الأب لا يرى ابنه.

قال ماساهيكو لي منبهرًا: «يبدو أنَّه حمل فضولًا شديدًا تجاهك. فهو ينظر إليك طويلًا، بنظراتٍ حارَّة ومُتحمّسة. لم يحدث أن حمل اهتمامًا تجاه أحدٍ أو شيءٍ بهذا الشَّكل منذ وقتٍ بعيد».

التزمتُ الصَّمت وأنا أتأمَّل عينيْ توموهيكو أمادا.

«غريب. لا يلتفت إليَّ مطلقًا، مهما قلت أو فعلت، ولكنَّه لا يحيد نظره عنك منذ أن رآك».

انتبهتُ بالطبع إلى نوعٍ من الغيرة في نبرة صوت ماساهيكو. إنَّه يطلب من والده أن ينظر إليه. وعلى الأرجح، ما توانى عن ذلك الطلب منذ أن كان طفلًا.

قلتُ له: «ربَّما تفوح رائحةُ الألوان من جسدي؛ وربَّما تستدعي تلك الرَّائحة شيئًا ما من ذاكرته».

«حقًّا. هذا صحيح. فأنا لا أمسُّ الألوانَ الأصليّة منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا».

لم تَعُد تلك النَّبرةُ الكئيبةُ تتردَّد في صوته. عاد إلى طبيعته الدائمة: ماساهيكو المَرِح البشوش. وعندها ارتجّ جوّاله بشكلٍ متقطّعٍ على الطاولة.

رفع ماساهيكو وجهه متفاجئًا، وقال: «يا للهوْل! لقد نسيتُ أن أغلق الهاتف الجوّال. استخدام الهواتف ممنوعٌ في الغرف. سأذهب إلى الخارج للردّ على المكالمة. هل تسمح لي بالخروج قليلًا؟»

«بالتّأكيد».

أخذ ماساهيكو هاتفه، وتأكّد من اسم المتّصل وتوجّه نحو الباب. ثمّ نظر نحوي، وقال: «قد تطول المكالمة قليلًا. أرجوك أن تتحدّث إلى والدي أثناء غيابي بما يليق». ثمّ ردّ على الهاتف بصوتٍ منخفض، وخرج من الغرفة وأغلق الباب بهدوء.

وهكذا أصبحتُ وحيدًا مع توموهيكو أمادا في الغرفة. ما زال يُحَملق في وجهي. ولا بدّ أنّه يجاهد ليحاول أن يفهمني. أُصبتُ بضيقٍ بسيطٍ في التّنفُّس، فنهضتُ وتوجّهتُ إلى النافذة المطلّة على الجهة الجنوبيّة الشرقيّة. لصقتُ وجهي بالنافذة الزجاجيّة الكبيرة، وتأمّلتُ المحيط الهادئ الذي يمتدّ في الخارج. كان خطّ الأفق المائيّ مرتفعًا ليقترب من السّماء. تتبّعتُ بعينيّ ذلك الخطّ المستقيم من أقصاه إلى أقصاه. لا يستطيع الإنسان رسمَ خطٍّ مستقيمٍ بهذا الطول وهذا الجمال مهما استخدم من مساطر. ويُفترض أنّ عددًا لانهائيًّا من الكائنات الحيّة يعيش أسفل ذلك الخطّ حياةً مُفعمة بالنّشاط والحيويّة. يمتلئ ذلك العالم بعددٍ لا نهائيٍّ من الأرواح الحيّة، وعددٍ مماثلٍ من الموتى.

وحينها أحسستُ فجأةً بوجود طيفٍ ما، فالتفتُّ إلى الخلف. وعرفتُ أنّني لم أكن وحيدًا مع توموهيكو أمادا داخل تلك الغرفة.

فقد قال الكومنداتور: «أجل. لستَم وحدكم هنا».

- 50 -
هذا يتطلَّب ابتلاءً وتضحيات

قال الكومنداتور: «أجل. لستُم وحدكم هنا».

كان جالسًا على المقعد المبطَّن بالقماش الذي كان ماساهيكو أمادا جالسًا عليه منذ وقتٍ قصير. بملابسه المعتادة ذاتها، وبتسريحة شعره ذاتها، وسيفه ذاته، وقامته القصيرة ذاتها. لم أقل شيئًا، بل بقيتُ أترقَّب وأنظر إليه.

رفع سبابته اليُمنى عاليًا، وقال: «إنَّ صديقكم لن يعود فورًا. يبدو أنَّ مكالمته ستطول. لذا يُمكنكم التَّحدُّث مع توموهيكو أمادا باطمئنان. أليس لديْكم أسئلة عديدة تودُّون طرحها عليه؟ أشكّ طبعًا في مدى قدرته على الإجابة عليها».

«هل أنت الذي أبعدتَ ماساهيكو من هنا؟»

«كلَّا، مطلقًا. يبدو أنَّكم تبالغون في قدراتي كثيرًا. إنَّها لا تصل إلى ذلك الحدّ. غير أنَّ صديقكم، خلافًا عنِّي وعنكم، مشغولٌ جدًّا ومنخرطٌ في أمور المجتمع تمامًا. لا يتركونه في حاله حتى في عطلة نهاية الأسبوع. مسكين».

«هل كنتَ موجودًا هنا طوال الوقت؟ بمعنى: هل جئت راكبًا السيَّارة معنا؟»

هزَّ الكومنداتور رأسه، وقال: «لا، لم أركب معكم. المسافة من أوداوارا إلى هنا طويلة. وأنا أصاب بدوار المركبات سريعًا».

«لكنّك على أيّ حال وصلتَ إلى هنا. رغم عدم توجيه الدّعوة إليك؟»

«بالتّأكيد. لم توجَّه إليّ دعوة إلى هذا المكان، كي أكون دقيقًا. لكنّي هنا لأنّ وجودي مطلوب. هناك اختلافٌ دقيقٌ بين أن أكون مدعوًا وأن أكون مطلوبًا. ولكنْ دعنا من ذلك الآن. عمومًا، كان السيّد تومو هيكو أمادا هو الذي أرسل في طلبي. كما أنّي أرغب في أن أكون مفيدًا لكم».

«مفيدٌ؟»

«بالضّبط. فأنا مدينٌ لكم بمعروف. أنتم أخرجتموني من تحت الأرض. وبهذا استطعتُ الظهورَ مرّةً أخرى في هذا العالم على هيئةِ فكرة. مثلما قُلتم من قبل. وكنتُ أريدُ أن أردَّ لكم هذا المعروف يومًا ما. إنَّ الفكرة تتفهّم الأخلاق والواجب جيّدًا».

الأخلاق والواجب؟

قال الكومنداتور وكأنّه قرأ أفكاري: «لا بأس. ما يشبه ذلك. بأيِّ حال، ترغبون في معرفة مصير مارية أكيكاوا، ومن ثمّ إعادتها إلى هذا الجانب من الحياة. هل ثمّة خطأ في كلامي؟»

ـ أومأتُ بلا: لا خطأ.

ـ «هل تعرف مصيرها؟»

ـ «أجل. فلقد قابلتها منذ قليل».

ـ «قابلتها؟»

ـ «واستطعتُ التّحدُّث معها قليلًا».

ـ «حسنًا. أرجوك، أخبرني أين مكانها!»

ـ «أعرف مكانها. لكنّي لا أستطيع إخباركم بفمي».

- «لماذا؟»

- «لا أملك الحقّ في ذلك».

- «ولكنّك قلت توًّا إنّك هنا كي تُساعدني».

- «صحيح. أؤكّد ذلك».

- «ورغم هذا لا تستطيع إخباري بمكان مارية، أليس كذلك؟»

هزَّ الكومنداتور رأسه، وقال: «ليس من مَهمّتي أن أخبركم بذلك. يؤسفني حقًّا».

«فمَهمّة مَن إذن؟»

أشار الكومنداتور بسبابته اليُمنى نحوي مباشرةً، وقال: «مهمّتكم أنتم! أنتم من ستُخبرون أنفسكم بذلك. ما من وسيلةٍ أخرى لمعرفة مكان مارية أكيكاوا».

- قلتُ له: «أنا مَن أُخبر نفسي؟ وكيف وأنا لا أعرف مكانها؟»

تنهّد الكومنداتور، وقال: «تعرفون مكانها. سوى أنّكم لا تعرفون أنّكم تعرفون».

- «يبدو لي حوارًا في حلقةٍ مفرغة».

- «كلّا ليس حوارًا في حلقةٍ مفرغة. ستُدركون ذلك بنفسكم عمّا قريب. في مكانٍ غير هذا».

حان دوري في التنهُّد هذه المرّة.

«أرجو أن تُخبرني بشيءٍ واحد فقط. هل مارية أكيكاوا مختطفة من شخصٍ ما؟ أم أنّها ضلّت طريقها ليس إلّا؟»

«هذا ما ستعرفونه عندما تجدونها وتُرجعونها إلى هذا العالم».

ـ «هل هي تواجه وضعًا خطرًا؟»

هزَّ الكومنداتور رأسه بأنَّه لم يفهم، وقال: «إنَّ دور الإنسان هو تقرير ما الوضع الخطر، وما الوضع غير الخطر. هذا ليس دور الفكرة. ولكنْ إن كنتَ تريد استرجاع تلك الفتاة الصَّغيرة، ربَّما عليك الإسراع في الطريق».

الإسراع في الطريق؟ أيُّ طريق؟ نظرت طويلًا في وجه الكومنداتور. بدا لي كلُّ شيءٍ مثل لغزٍ غامض. هذا في حالة وجود حلٍّ صحيحٍ له!

ـ «وعلى هذا، كيف ستساعدني أنت الآن؟»

ـ «أستطيع أن أرسلكم الآن إلى المكان الذي تستطيعون مقابلةَ أنفسكم فيه. لكنَّه ليس بالأمر الهيِّن. فهذا يصاحبه ابتلاءٌ قاسٍ وتضحية. من يبذل التضحيَّة هي الفكرة، ومن يتلقَّ الابتلاء هو أنتم. هل لديْكم مانع؟»

لم أتمكَّن من فهم ما يقول.

«حسنًا، ما الذي يجب عليَّ فعله تحديدًا؟»

قال الكومنداتور: «أمرٌ سهلٌ جدًّا: أن تقتلوني».

- 51 -
حان الوقت

قال الكومنداتور: «أمرٌ سهلٌ جدًّا: أن تقتلوني».

ـ قلت: «أقتلك أنت؟»

ـ «يجب أن تقتلوني اقتداءً بما رُسم في لوحة «مقتل الكومنداتور»».

ـ «طعنًا بالسّيف؟ هل هذا ما تعنيه؟»

ـ «بالضّبط. ولحسن الحظّ أنّي أحمل سيفًا على خصري. وكما قلتُ لكم من قبل: إنّه سيفٌ حقيقيٌّ؛ إذا طعن أراق الدّماء. حجمه ليس كبيرًا لكنّني أنا أيضًا لستُ ذا حجمٍ كبير، وهو كافٍ جدًّا للغرض».

وقفتُ بجوار السّرير، وحدّقتُ إلى الكومنداتور. أردت أن أقول شيئًا، ولكنْ لم يخطر في بالي شيء. فتجمّدتُ في مكاني صامتًا. كان توموهيكو أمادا على حاله، راقدًا في سريره لا يُحرّك ساكنًا. وجهه ناحية الكومنداتور، ولكنْ هل كان يراه حقًّا؟ لا أدري... فالكومنداتور يختار الشخص الذي يمكن أن يراه.

فتحتُ فمي أخيرًا، وسألته: «هل سأعرف مكان مارية إن قتلتُك بهذا السّيف؟»

«كلّا، لن تجري الأمور بهذه البساطة. أنتم تقتلونني في هذا المكان. وبذلك أُمحى من الوجود. سينجم عن ذلك سلسلةٌ من ردود الأفعال تقودكم إلى مكان تلك الفتاة الصّغيرة».

حاولتُ أن أتمعّن في كلامه.

«لا أعرف عن أيِّ سلسلة تتحدَّث، ولكنْ هل حقًّا ستنجم ردود الأفعال تلك بالتسلسل المنشود؟ ربَّما لا يحدث ما تتوقَّعه بعد أن أقتلك. وفي هذه الحالة، سأكون قد قتلتُك سدًى».

رفع الكومنداتور أحد حاجبيْه ونظر في وجهي. ذكَّرتْني طريقته برفع الحاجب بطريقة ليي مارڤين في فيلم «عن كثب (Point blank)». في منتهى الجاذبيّة. هل من المعقول أنَّ قائد كتيبة الفرسان قد شاهد فيلم «Point blank»؟

قال: «معكم حقّ. ربَّما لا يحدث ما أتوقَّعه من ردود أفعالٍ متسلسلة. ربَّما يكون كلامي مجرَّد تكهُّنٍ. أعرف أنّني أكرّر كلمة (ربَّما) كثيرًا. ولكنْ لكي أكون واضحًا، ليس هناك طريقةٌ أخرى غير تلك. لا يُمكننا أن نطلب أكثر من المُمكن».

- «هل قتلك يعني موتك بالنّسبة إليّ؟ هل يعني أنَّك ستختفي إلى الأبد من حياتي؟»

- «بالضّبط. سأموت كفكرة بالنّسبة إليك. أمَّا بالنّسبة إلى الفكرة فهي مِيتةٌ واحدة من عددٍ لانهائيٍّ من المَيْتَات. ورغم ذلك، هو موتٌ محتَّم».

- «ألن يتغيَّر العالم إذا قتلتك كفكرة؟»

رفع الكومنداتور حاجبه الثاني على طريقة ليي مارڤين، وقال: «من المؤكَّد أنّه سيتغيَّر. هذا بديهيّ، ألا ترى ذلك؟ إذا كان قتل الفكرة لا يسبِّب أيَّ تغيير، فأيُّ عالمٍ هذا؟ وأيُّ معنى كانت تحمله تلك الفكرة؟»

- «إذن، أنت ترى أنّه حتى وإن حدث تغييرٌ في هذا العالم فيجب عليَّ أن أقتلك، أليس كذلك؟»

- «لقد أخرجتموني من الحُفرة إيَّاها. والآن عليكم أن تقتلوني. فإن لم تفعلوا لن تُغلَق الدّائرة. يجب إغلاق الدائرة التي فُتِحت. لا مناص».

نظرتُ إلى تومو هيكو أمادا الراقد في سريره. بدا أنّه يتّجه بأبصاره مباشرةً إلى الكومنداتور الجالس على المقعد.

«هل يستطيع السيّد أمادا رؤيتك؟»

«أجل. يُفترض أنّه أصبح يراني بالتّدريج. وعلى الأرجح أنَّ أصواتنا تدخل أذنيْه شيئًا فشيئًا، كما أنّه بعد قليل سيُدرك ما يعنيه كلّ هذا. بعد أن يستجمع آخر ما تبقّى لديْه من قوّةٍ بدنيّة وعقليّة».

«تُرى ما الذي كان يحاول أن يرسمه في لوحة «مقتل الكومنداتور»؟»

«لا يجدر بكم توجيهُ السّؤال إليّ، إنّما إلى صاحب اللّوحة ذاته. وطالما أنّكم في حضرته، فاغتنموا الفرصةَ واسألوه».

عدتُ إلى المقعد الذي كنتُ جالسًا عليه منذ قليل. ثمّ بدأتُ التحدُّث وأنا أنظرُ مباشرةً في وجه الرجل الرّاقد على السرير.

«سيّد أمادا، لقد عثرتُ على اللّوحة التي أخفيتَها في السّقيفة. لا بدَّ أنّك أنت من أخفاها، إذ كانت مغلّفة بإحكام. ويبدو أنّك كنتَ ترفض ألّا يراها أحد. لكنّني للأسف فتحت غلافها. قد يُسبّب لك الأمرُ شعورًا بالاستياء، لكنّي عجزتُ عن كبح جماح فضولي. بعد أن اكتشفتُ تلك اللّوحة العظيمة المسمّاة «مقتل الكومنداتور»، لم أتمكّن من إغفالها يومًا. إنّها لوحة رائعة في الواقع. ينبغي تصنيفها أهمّ أعمالك. ثمّ إنَّ لا أحد حتى هذه اللّحظة يعرف بوجودها غيري. لم أُرِها حتى لماساهيكو. ما عدا فتاةً صغيرةً في الثالثة عشرة من عمرها تُدعى مارية أكيكاوا. وقد اختفت تلك الفتاة أمس ولا يُعرَف مصيرها حتى الآن».

هنا رفع الكومنداتور يده، وأوقفني قائلًا: «حبّذا أن تمنحه قسطًا من الرّاحة عند هذا الحدّ. فدماغُهُ بات محدودَ القدرات، ولا يستطيع استيعاب معلوماتٍ كثيرة».

أغلقتُ فمي، وأخذتُ أراقب حالة توموهيكو أمادا بعض الوقت. لا أدري كم استوعب ممّا قلتُ، إذ لم يطرأ على ملامح وجهه أيُّ تغيير. لكنّي حين أمعنت البصر في أعماق عينَيْه، رأيت البريق السّابق على حاله: لمعانٌ، مثل نصل سيفٍ صغيرٍ حادٍّ وقع في قاع بحيرةٍ عميقة.

استأنفت كلامي وأنا أهجّي الكلمات واحدةً تلو أخرى: «السّؤال هو: لأيِّ غايةٍ رسمتَ تلك اللّوحة؟ إذ إنّها تختلف اختلافًا كبيرًا في الموضوع والتّصميم وأسلوب الرّسم عن جميع اللّوحات التي رسمتَها في حياتك. أعتقدُ أنّها تحتوي على رسالةٍ شخصيّة ذات معنى عميق. تُرى ما معنى تلك اللّوحة؟ مَن الذي يَقتِل، ومَن الذي يُقتَل؟ مَن يكون الكومنداتور؟ ومَن القاتل، الدون جيوڤاني؟ ومَن الرجل المُريب ذو الوجه الطويل واللّحية الشعثة الذي يُبرز وجهه من تحت الأرض في طَرفِ اللّوحة؟»

رفع الكومنداتور يده مرّةً أخرى ليوقفني. فأغلقتُ فمي.

قال: «لنوقف الأسئلة عند هذا الحدّ. سيستغرق الأمر وقتًا حتى تتغلغل تلك الأسئلة إلى وعي هذا الرجل».

«وهل سيجيب على أسئلتي؟ هل لا تزال لديْه قوّةٌ لفعل ذلك؟»

هزَّ الكومنداتور رأسه وقال: «كلّا، على الأرجح لن يجيب. ليس لديْه القوّة الكافية».

ـ «لماذا جعلتني أسأله إذن؟»

ـ «ما تفوّهتم به ليست أسئلة. لقد أخبرتموه بما حدث، ليس إلّا. أخبرتموه بحقيقة أنّكم عثرتم على لوحة «مقتل الكومنداتور» في السّقيفة، وأنّكم كشفتم عن محتواها. هذه هي المرحلة الأولى. ويجب البدء منها».

ـ «وما المرحلة الثانية؟»

- «أن تقتلوني. هذه هي المرحلة الثانية. بالتّأكيد».

- «وهل هناك مرحلة ثالثة؟»

- «بالتّأكيد».

- «ومّم تتكوّن يا تُرى؟»

- «ألم تعرفوا هذا بعد؟»

- «لا».

قال الكومنداتور: «سنقوم أنتم وأنا بإعادة تمثيل المعنى الجوهريّ للّوحة، ونستخرج «طويل الوجه». سيظهر هنا في هذه الغرفة. ثمّ من خلال ذلك، ستستعيدون مارية أكيكاوا».

انعقد لساني. لم أستطع إدراك هذا العالم الذي تورّطتُ فيه.

قال بصوتٍ ثقيل الوطء: «ليس الأمر هيّنًا، ولكنْ من المحتّم فعله. عليكم أن تقتلوني بحزم».

لم يبقَ سوى انتظار أن يستوعب توموهيكو أمادا المعلوماتِ التي أمددتُه بها. استغرق الأمر وقتًا. وفي تلك الأثناء، تعزّزت في خاطري الشكوك التي تستوجب تفسيرًا ما.

«لماذا التزم توموهيكو أمادا الصمتَ العميق لشهورٍ وسنواتٍ طويلة بشأن ذلك الحادث؟ ظلّ متكتمًا حتى بعد أن انتهت الحرب. على الرّغم من انعدام ما يمنعه عن التّحدُّث بشأنه؟»

قال الكومنداتور: «لقد قُتلتْ حبيبته على يد النازيّين بوحشيّة. قُتلت بعد جلسات تعذيبٍ طويلةٍ وبطيئة. وقُتل كلّ الرفاق. باءت جميع محاولاتهم بالفشل. ولم يبقَ سواه على قيد الحياة، بمعجزة، مراعاةً للاعتبارات السياسيّة. فجُرِحَ قلبه جرحًا عميقًا. ثمّ قُبِضَ عليه شخصيًا وسُجن لمدّة شهريْن لدى الغيستابو، وعُذّبَ تعذيبًا شديدًا. لكنّهم كانوا حريصين ألّا

يتسبَّب ذلك بموته، وألَّا يترك آثار جروحٍ على جسده. تعذيبٌ ساديٌّ يحطِّم الأعصاب. وفي الواقع، لقد مات شيءٌ ما داخله نتيجة لذلك التَّعذيب. فقرَّر عدم البوْح عن كلِّ تلك الوقائع، وأُعِيدَ إلى اليابان قسرًا».

«وقبل ذلك بقليل، انتحر شقيقه الأصغر في شبابه، بسبب آثار صدمةٍ نفسيةٍ من تجربة الحرب على الأرجح. بعد أن عاد إلى البلاد وتمَّ تسريحه من الجيش بعد معركة الاستيلاء على نانكين مباشرة. أليس كذلك؟»

«بالضَّبط. وهكذا فقد توموهيكو أمادا على التوالي أحباءه الذين لا يُعوَّضون، في دوَّامة الصراع العنيفة. وكذلك أصيب هو بجراحٍ نفسيَّةٍ عميقة. لذا تجذَّرَ الغضبُ والحزنُ في وجدانه. إنَّه الإحساس باليأس والضعف لكونه لن يستطيع حرف اتِّجاه التيار الذي يسير فيه العالم، فضلًا عن العبء النَّفسيّ من حقيقة أنَّه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة. ولهذا السَّبب بالذات لم ينطق بأيِّ كلمةٍ عن حادثة فيِنّا، على الرَّغم من انعدام ما يجبره على الصَّمت».

نظرتُ إلى وجه توموهيكو أمادا. كان ما يزال بلا أيِّ تعبير. ولم أتأكَّد ممَّا إذا كان حوارنا يصل إلى أذنيْه أم لا.

قلتُ: «وفي لحظةٍ ما ـ لا أعرف متى كانت تلك اللَّحظة بالضبط ـ رسم السيِّد أمادا لوحة «مقتل الكومنداتور»، لتمثِّل في قالبِ إبداعٍ فنّيٍّ ما لا يستطيع النطق به. هذا كلّ ما استطاع فعله. إبداعٌ فنيٌّ في غاية الرَّوعة والقوَّة».

«وحقَّق في تلك اللَّوحة ما لم يستطع إنجازه في الواقع بعد أن غيَّر محتواه، أي بعد أن جعله متنكِّرًا. مثَّل الحدث الذي لم يقع بالفعل، كما يجب أن يقع».

قلتُ: «ولكنْ في النهاية لم يُعلِن عن اللَّوحة على الملأ، بل غلَّفها بغلافٍ مُحكم وأخفاها في السَّقيفة. لأنَّ الحادث لا يزال حيًّا بالنِّسبة إليه حتى الآن، حتى وإن صار على شكل لوحةٍ تعبيريَّةٍ ذات مغزى. صحيح؟»

«بالضّبط. كان ذلك استئصالًا نقيًا من روحه الحيّة. وفي أحد الأيّام، اكتشفتم أنتم تلك اللّوحة».

«أتقصد أنَّ كشفي للّوحة على ضوء النهار كان بدايةً لكلّ شيء؟ أهذا معنى أنَّ الدائرة انفتحت؟»

لم يعلّق الكومنداتور، إنّما بسط كفّيْه ووجّههما إلى أعلى.

بعد فترةٍ قصيرة، اتّضح احمرارٌ على وجه توموهيكو أمادا. راقبنا أنا والكومنداتور التغيُّر الذي طرأ على ملامحه باهتمامٍ عميق. واستجابةً لعودة لون الدم إلى الوجه، برز البريق السّحريّ المكنون في أعماق عينَيْه تدريجيًا على السطح. مثل الغوّاص الذي يظلّ لفترةٍ طويلة في قاع البحر، ثمّ يرتفع إلى السطح مستغرقًا وقتًا لضبط جسمه مع ضغط الماء. ثم خفّت حدّة الغشاء الذي كان يتدلّى على العينَيْن تدريجيًا، وأخيرًا فُتحت العينان على اتّساعهما. لم يَعُدْ هو ذلك العجوز الهالك الذي فقد نضارته وكان على وشك الموت، بل صارت تانك العينان تفيضان بالرّغبة القويّة في البقاء في هذا العالم وقتًا أطول ولو بلحظة.

قال لي الكومنداتور: «إنّه يستجمع ما تبقّى من قواه. ويجتهد في استعادة وعيه قدر الإمكان. ولكنْ، إن عاد وعيه فسيعود معه الألم البدنيّ. فالجسد يُفرز مادّةً خاصّة لإزالة ذلك الألم، وبسبب تأثيرها، يستطيع البشر لفظ أنفاسهم الأخيرة بهدوء، بدون إحساس بالألم الرهيب. ولكنْ إن عاد الوعي، سيعود معه الألم. ومع ذلك، فهو يبذل قصارى جهده لاستعادة وعيه. لعلّه يجب عليه أن يفعل شيئًا ما، هنا والآن، حتى وإن أدّى به ذلك إلى الألم الرّهيب».

وإثباتًا لكلام الكومنداتور، انتشر ملامح الإحساس بالألم على وجه أمادا تدريجيًا. بدأ يشعر مجدّدًا بأنَّ الشيخوخة هاجمت جسده ونَخَرَتْه نخرًا، فبات وشيكًا على تعطُّل وظائفه. ولم يكن قادرًا على تلافي ذلك، فجهازه الحيويّ

استنفد كلَّ وقته. كم كان من المؤلم أن أراه على تلك الحال! ربَّما كان ينبغي أن أتركه يلفظ أنفاسه الأخيرة بسلام، من دون أن أوقظ وعيه المضطرب.

قال الكومنداتور وكأنّه يقرأ ما في قلبي: «لكنّ هذا هو ما اختاره توموهيكو أمادا بنفسه. إنّه أمرٌ صعبٌ، ولا مفرٌّ منه».

سألتُ الكومنداتور: «ماساهيكو لن يعود الآن، أليس كذلك؟»

هزَّ رأسه هزّةً خفيفة، وقال: «لن يعود قبل وقتٍ طويل. إنّه يجري اتّصالًا مهمًّا يخصُّ العمل. ويُفترض أنّه سيطول».

في تلك اللّحظة، فُتِحَت عينا توموهيكو أمادا على اتّساعهما. وبدا أنَّ حَدَقَتَيْه العميقتَيْن، المحفورتَيْن في محجريْهما، تجحظان نحو الخارج كشخصٍ يحاول الخروج بجسده من نافذة. وصارت أنفاسه هائجة وعميقة، لدرجة أنَّ الحشرجة بلغت مسامعي في أثناء دخولها وخروجها من الحنجرة. وكان بصره ينصبّ تجاه الكومنداتور مباشرةً بثباتٍ راسخ. لقد صار الكومنداتور في مرمى نظره، وكان وجه أمادا يكتنف بتعابير الدّهشة. كان عاجزًا عن تصديق ما يراه بعينَيْه: أنَّ شخصيَّةً خياليَّةً مرسومةً في لوحةٍ من صنعه تظهر إلى العلن.

قرأ الكومنداتور أفكاري، وقال: «كلّا، ليس كما تظنُّون. إنَّ ما يراه أمادا الآن مختلف عمّا ترونه أنتم».

- «هل يراك مختلفًا عمّا أراك أنا؟»

- «لا تنسوا أنّني فكرة. ما يعني أنَّ هيئتي تتغيَّر وفقًا للظروف وتبعًا للشخص الذي يراني».

- «وما الهيئة التي يراك عليها السيّد أمادا؟»

- «حتى أنا لا أعرف. لأنّني، باختصار، مجرَّد مرآةٍ تعكس ما في قلب الشّخص الذي يراني».

- «ولكنّك عندما ظهرت أمامي اخترت تلك الهيئة بملء إرادتك، أليس كذلك؟ هيئة الكومنداتور. ألم تقل ذلك بنفسك؟»

«إن أردتَ الصّدقَ، فأنا لم أختر هذه الهيئة. لقد حدث خلطٌ بين السّبب والنتيجة. حين اتّخذتُ هيئة الكومنداتور بدأت سلسلةٌ من أحداثٍ معيّنة، كما أنّ ذلك كان نتيجةً حتميّةً لسلسلةٍ من أحداث أخرى. من المعقّد جدًّا أن أشرح لكم الأمر وفقًا للمنطق الذي يقوم عليه عالمكم، ولكنْ باختصار: كان الأمر مقدّرًا منذ البداية».

«إن كانت الفكرة مرآةً تعكس ما في القلب، فهل هذا يعني أنّ السيّد أمادا يرى الآن فيكم ما يودّ أن يراه؟»

صحّح الكومنداتور كلامي قائلًا: «بل إنّه يرى ما يجب أن يراه. ولعلّ ما يراه ينمّي فيه ألمًا رهيبًا، لا يُمكن صدّه، في نهاية حياته».

ولّيتُ وجهي ثانيةً نحو توموهيكو أمادا، ثمّ انتبهتُ أنّ ملامح الكراهية العنيفة تمتزج بمشاعر الدّهشة في وجهه. فضلًا عن الآلام التي يصعب تحمّلها. لا أقصد الآلامَ الجسديّة التي عادت مع الوعي؛ إنّما معاناتِه النّفسيّةَ العميقةَ تحديدًا.

قال الكومنداتور: «لقد استعاد وعيه بعد أن استجمع كلّ قواه الأخيرة لكي يراني ويتعرّف عليّ. ولم يعبأ بالآلام الرّهيبة المصاحبة لذلك. إنّه يحاول أن يعود مرّةً أخرى إلى شبابه، عندما كان في العشرينيّات من عمره».

احمرّ وجه أمادا كلّيًا. وعادت الدّماء الحارّة إلى جريانها. واهتزّت شفتاه الجافّتان، وتحوّلت أنفاسه إلى لهاثٍ عنيف. حاول بأصابعه الطويلة الذابلة أن يُمسك بملاءة السرير.

قال الكومنداتور: «هيّا، اقتلوني بسرعة! الآن وقد صحا وعيه. اقتلوني الآن. لأنّه لن يستمرّ على هذه الحال طويلًا».

نزع غمد السيف الذي يتدلَّى من خصره. وظهر ذلك النصل الذي يبلغ طوله حوالى عشرين سنتيمترًا حادًّا جدًّا. كان قصيرًا، ولكنْ ما من شكٍّ في كونه أداة قتلٍ تفتك بأرواح الناس.

قال: «هيًا استخدموا هذا واقتلوني. عليكم إعادة تمثيل المشهد الموجود في لوحة «مقتل الكومنداتور». أسرعوا! أسرعوا! لا وقت للتردُّد».

أخذتُ أنظر إليه تارةً وإلى توموهيكو أمادا تارةً أخرى، وأنا في حيْرةٍ من أمري. الشيء الوحيد الذي كان واضحًا بالنِّسبة إليّ هو أنَّ أمادا يتوق لرؤيتي وأنا أنفِّذ القتل، وأنَّ قرار الكومنداتور كان حاسمًا. وما بينهما كنت وحدي الذي ما يزال متردِّدًا.

سمعتُ في أذني صوتَ البومة القرناء وهي تفرد جناحَيْها، ثمَّ سمعت صوتَ الجرس في منتصف اللَّيل.

كان كلُّ شيءٍ مرتبطًا بعضه ببعض، بطريقةٍ أو بأخرى.

قرأ الكومنداتور أفكاري، وقال: «أجل. كلُّ شيءٍ مرتبطٌ بعضه ببعض. ولن تستطيعوا الإفلات من ذلك الترابط. هيًا، اقتلوني بحزم. ليس هناك أيَّة حاجةٍ إلى الشعور بتأنيب الضَّمير. هذا ما يطلبه توموهيكو أمادا. ستنقذونه من خلال قتلكم لي. عليكم أن تفعلوا ما كان عليه هو أن يفعله، الآن وهنا. حان الوقت! ليس بإمكان أحدٍ غيركم أن ينقذه».

نهضتُ واقفًا ومشيتُ ناحية المقعد الذي يجلس عليه الكومنداتور. ثمَّ أمسكتُ سيفه الذي استلَّه من غمده. لم أعد أستطيع الحُكم على صحَّة الأشياء من عدمها، في هذا العالم الذي فقد مفهوم الزمان والمكان، لا وجود لما قبل أو ما بعد أو فوق أو تحت. لم أشعر بشيءٍ سوى أنّني لم أعُدْ أنا الإنسان نفسه. ثمَّة فجوةٌ بيني وبين ذاتي.

عندما أمسكت مقبض السَّيف أدركتُ أنَّه أصغر من يدي كثيرًا. ما هو إلَّا سيفٌ صغيرٌ مخصَّصٌ لبد إنسانٍ صغير الحجم. وعلى الرَّغم من حِدَّة نصله، فمن المستحيل أن أقتل الكومنداتور بمثل هذا السَّيف القصير. فتنفَّست الصُّعداء جرَّاء هذه الحقيقة.

قلت له: «هذا سيفٌ صغيرٌ جدًّا. ولا أستطيع استخدامه بمهارة».

تنهَّد الكومنداتور تنهيدةً خفيفة، وقال: «حقًّا؟ ما باليد حيلة. فلنستخدم شيئًا آخر. وإن كان ذلك سيجعل المشهد مختلف عن اللَّوحة».

«شيءٌ آخر؟»

أشار إلى خزانةٍ صغيرةٍ في رُكن الغرفة، وقال: «افتح الدُّرج الأعلى في تلك الخزانة».

ذهبتُ إلى الخزانة وفتحتُ أعلى دُرجٍ فيها.

«يُفترض أنَّ هناك سكِّينًا مخصَّصًا لتقطيع الأسماك»، قال لي.

عندما فتحتُ الدُّرج، عثرتُ بالفعل على سكِّينٍ فوق مناشف الوجه المطويَّة بعناية. إنَّها السكين نفسها التي جاء بها ماساهيكو إلى بيتي لتقطيع سمك الأُسبور. كان نصله بطول عشرين سنتيمترًا تقريبًا، ومشحوذًا بشدَّةٍ ليكون حادًّا. ماساهيكو يولي عنايةً فائقة بأدواته منذ زمنٍ طويل. ومن الطبيعيِّ أنَّه يصونها صيانةً جيِّدة.

قال الكومنداتور: «هيَّا، استخدموا تلك السكِّين، واطعنوني بعمق. لا أبالي إن قُتِلتُ بسيفٍ أم بسكِّين! يجب إعادةُ تمثيل مشهد لوحة «مقتل الكومنداتور» هنا. الشرعة أمرٌ حاسم. فليس هناك الكثير من الوقت».

أمسكتُ السكين. كانت ثقيلةً كصخرة. تلألأ نصلها لمعانًا إذ تلقَّى نور الشمس المتسرِّب من النافذة. لقد اختفت سكِّين ماساهيكو أمادا من مطبخ بيتي، وجاءت تنتظرني هناك في دُرجِ هذه الغرفة. وكان ماساهيكو يجليها

ويشحذها من أجل والده بالمحصّلة. ويبدو أنّني لن أستطيع الإفلات من هذا المصير. بقيتُ جامدًا، حائرًا في أمري. ودُرتُ خلف المقعد الذي يجلس عليه الكومنداتور، وأحكمتُ قبضتي اليُمنى على السكّين ثانيةً. فتح تومومهيكو أمادا عينَيْه على اتّساعهما وهو على حاله في السرير. وكان يُحملق تجاهي. كأنّه يشاهد بالفعل أحد أحداث التاريخ المهمّة. فمه مفتوح، أسنانه صفراء ولسانه مصفرّ. تحرّك لسانه كأنّه يحاول لفظ الكلمات، إلّا أنّ العالم لم يسمع كلماتِهِ تلك.

قال الكومنداتور مشدّدًا: «أنتم لا تحبّذون العنف. أعرف ذلك جيّدًا. لم تُخلَقوا لتقتلوا. لكنَّ الإنسان في بعض الحالات ينبغي له أن يفعل ما يخالف إرادته من أجل إنقاذ شيءٍ مهمّ، أو من أجل هدفٍ كبير. والآن أنتم في هذه الحالة فعلًا. هيّا، اقتلوني. فأنا كما ترَوْن صغيرُ الحجم، ولن أقاومكم. إنّني مجرّد فكرة. ما عليكم سوى غرْزِ طرفِ النّصلِ في قلبي. بهذه البساطة».

وضع أنامله الصّغيرة على قلبه ليشير إلى مكانه. حينما أفكّر في القلب، لا يُمكن لي إلّا أن أتذكّر قلب شقيقتي. أذكر جيّدًا عندما أجرت جراحةً في القلب في مستشفى جامعيّ. وأذكر إلى أيِّ درجةٍ كانت العمليّة صعبةً ودقيقةً وبالغة التعقيد. وقد تطلّبَ الأمر تعاونَ عددٍ من الأطبّاء المتخصّصين، إضافةً إلى احتياجها كمّيّاتٍ كبيرةٍ من الدم. ما أصعب إنقاذ قلب، وما أسهل إهلاكه!

قال الكومنداتور: «أجل. لا بدَّ أنّكم تتذكّرون شقيقتكم. ولكنْ ما من خيار أمامكم إذا كنتم تريدون إنقاذ مارية. ومع أنَّ القتلَ لا يطيب لكم، فعليكم أن تثقوا بي. لا تصغوا إلى قلبكم، وأخرسوا ضميركم. ولكنْ لا تغلقوا عينيْكم! بل انظروا بهما جيّدًا!»

لوّحتُ بالسكّين من خلف ظهر الكومنداتور. ولكنّي لم أستطع طعنه. حتى لو كان مجرّد فكرة، حتى لو كان قتله مجرّد ميْتةٍ واحدة من عددٍ

لا نهائيّ من المِيتَات، فإنّه في كلّ الأحوال قتلٌ وإنهاءُ حياةٍ موجودةٍ أمام عينيّ. إنّها جريمة، كتلك التي أقدم عليها تسوغوهيكو أمادا تنفيذًا لأوامر الضابط في نانكين!

«ليست جريمةً كتلك»، قال الكومنداتور «ففي حالتنا هذه، أنا مَن يطلب منك ذلك. أنا نفسي أطلب منك أن تقتلني. هو موتٌ لا بدَّ منه لخلق الحياة. تشجّعوا، هيّا، وخذوا قراركم بإغلاق الدّائرة!»

أغمضتُ عينيّ، وتذكّرتُ أنّي كدتُ أخنق فتاةً في فندق العشّاق بمحافظة مياغي. كانت تلك مجرّد تمثيليّة بالتّأكيد. لقد طالبتني الفتاةُ بخنقها، ففعلتُها بخفّةٍ لكيلا أقتلها. لكنّي لم أستمرّ في ذلك طويلًا، وإلّا كنت قاتلها حقًّا. ولقد اكتشفتُ في تلك اللّحظة نفسها، على ذلك السّرير في فندق العشّاق، شعورًا بغضبٍ عميق لم أشعر به من قبل. كان مثل دوّامةٍ عملاقةٍ سوداء من دمٍ ممزوجٍ بالوحل تعصف داخل صدري. وكدتُ أفعلها وأقترب من تنفيذ الموت، الموت الحقيقيّ.

أعرف تمامًا ماذا وأين فعلتَ ما فعلتَ! ـ سمعتُ صوتَ ذلك الرجل المجهول يأتيني من الذاكرة.

«هيّا، اطعنوني. من المؤكّد أنّكم قادرون على ذلك. فأنتم لا تقتلونني أنا، إنّما الأب الشرّير. تقتلون الأب الشرّير وتجعلون دماءه مراقةً على الأرض» قال الكومنداتور.

الأب الشرير؟!

تُرى مَن هو الأب الشرّير بالنّسبة إليّ؟

قرأ الكومنداتور ما يجول في ذهني، وقال: «مَن هو الأب الشرّير بالنّسبة إليك؟ يُفترض أنّك رأيت ذلك الرجل منذ قليل. أليس كذلك؟»

لا تضف أيَّ شيءٍ آخر على لوحتي! » قال لي صوت ذلك الرجل في تلك اللَّحظة، ثمَّ دفع إصبعه من قلب المرآةِ المظلمةِ نحوي مباشرة. فاخترق الإصبعُ صدري كرأس نصلٍ حادّ.

أغشت تلك الآلامُ بصري، فعمدتُ إلى الإسراع. أغمضتُ عينيَّ، مثلما فعل الدون جوفاني في اللَّوحة، وأجليتُ كلَّ الذكريات والمشاعر عن ذهني، وأخفيت أيَّ تعبيرٍ عن وجهي، وغرست السكِّين في صدر الكومنداتور. ولج النصلُ النقطةَ التي كان يشير إليها، وثقب قلبَه الصَّغير. كانت ردَّة فعله عنيفة، لكنَّه لم يُظهِرْ أيَّ مقاومة. تحرَّكت أصابعه الصَّغيرة في محاولةٍ للإمساك بالهواء، ولم يقم بأيِّ حركةٍ أخرى. ومع ذلك، كان جسده يبحث بكلِّ قواه عن مهربٍ من الموت المحقَّق. قد يكون الكومنداتور فكرةً، لكنَّ جسمه لم يكن كذلك. الفكرة استعارت الجسد، لكنَّ الجسد لم يكن لديْه نيَّة بتقبُّل الموت ببساطة. فالجسد يعمل وفق منطقٍ فيزيولوجيّ. فكان عليَّ أن أقمع مقاومته بأيِّ ثمن، وأجهز عليه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. «اقتلوني، هكذا قال الكومنداتور، إلَّا أنَّني في الواقع كنت أقتل جسد شخصٍ آخر.

وددتُ الهرب من تلك الغرفة متخلِّيًا عن كلِّ شيء. لكنَّ كلماته ما زالت تطنّ في أذنيّ: «لا خيار أمامكم سوى أن تقتلوني لاستعادة مارية أكيكاوا. حتى إن كنتم لا ترغبون في ذلك».

وهذا ما دفعني لغرس السكِّين في عمق قلبه. أكثر وأكثر. لا يُعقَل أن أحقِّق نصف الأمر. اخترق طرف السكِّين جسده الهزيل وخرج من ظهره. واصطبغ رداؤه الأبيض باللَّون الأحمر القاني. وصُبغت يداي اللَّتان تُمسكان بمقبض السكِّين بدماءٍ حارَّة. لكنَّها لم تنبثق بشدَّةٍ كما حدث في لوحة «مقتل الكومنداتور». وأرغمت نفسي على الاقتناع بأنَّ هذا كلَّه إيهامٌ بصريّ؛ وأنَّ مَن أقتله ليس إلَّا خيالًا، مجازًا رمزيًّا.

لكنّي في قرارة نفسي، كنتُ أدركُ أنّه لم يكن كذلك. ربّما يكون الفعل متخيّلًا، لكنّ الضحيّة ليست وهميّة. بل كنتُ أقتل جسدًا حيًّا بلا أدنى شكّ: ذلك الجسد العجيب الذي لا يزيد طوله على ستّين سنتيمترًا، أنجبتْه فرشاةُ تومو هيكو أمادا، كان يَمتلك طاقةً حيويّةً مذهلة. مزّق نصل السكّين جلده وكسر عددًا من ضلوعه واخترق قلبه الصغير، ووصل حتى ظهر المقعد من خلفه. لا يُمكن أن يكون كلُّ ذلك وهمًا.

فتح تومو هيكو أمادا عينيْه على وسعهما، أكثر ممّا كانتا عليه حتى اللَّحظة، ونظر مباشرةً إلى ذلك المشهد الذي أمامه: مشهد طعني للكومنداتور ومقتله. كلّا، بالنّسبة إليه لم يكن الكومنداتور. تُرى مَن الذي يراه بعيْنه؟ أهو القائد النازيّ الذي وضع أمادا خطّةً لاغتياله في ڤيِنّا؟ أم هو الضابط الشاب الذي أعطى شقيقه الأصغر سيفًا يابانيًّا وأجبره على ذبح ثلاثة أسرى صينيّين في قلعة نانكين؟ أم تُرى هو أحدٌ آخر أكثر شرًّا، عميقُ الجذور، وقد تولّد عنه ذانك الرجلان؟ لا أعرف ذلك الشخص بالتّأكيد. ولم أستطع فهم شيءٍ من قراءة تعبيرات وجه أمادا. كان فمه مفتوحًا أثناء ذلك الوقت كلّه، من دون أن يحرّك شفتَيْه. سوى أنّ لسانه ما زال يتحرّك عبثًا في محاولةٍ للفظ الكلمات.

وفي لحظةٍ ما، تراخى الكومنداتور وصار يفقد نضارته بتسارعٍ شديد، وبدأ يتهاوى أرضًا مثل عرائس الماريونت التي قُطِعت خيوطها. ومع ذلك، ما زلت أغرز السكّين الحادّة في قلبه. كان كلُّ شيء في الغرفة متوقّفًا على ذلك المشهد الثابت. واستمرّ الأمرُ طويلًا.

وكان أوّل مَن تحرّك هو تومو هيكو أمادا. بعد فترةٍ قصيرة من تداعي الكومنداتور وفقدانه الوعي، استنزف العجوز ما تبقّى من قواه. وكأنّه يقول: «لقد رأيتُ أخيرًا ما يجب أن أراه»، وأطلق زفرةً عميقةً ثمّ أغلق عينيْه. زفرةً ثقيلةً بطيئة كأنّه ينزع درعَ المحارب عن صدره. وظلّ فمه مفتوحًا، لكنّ اللّسان لم يَعُد ظاهرًا. لم أرَ سوى الأسنان الصفراء سيّئة التّرتيب التي تشبه

سورًا من الأشجار لبيتٍ مهجور. ولم تظهر على الوجه تعابير الألم الشديد. لقد زالت الآلام الرهيبة. وسادت أمارات السّكينة والسّلام على ذلك الوجه. يبدو أنّه استطاع العوْدة إلى عالم الغيبوبة الهادئ، العالم الذي لا وعي فيه ولا عذاب. فغمرتني السعادة من أجله.

وهنا تراخت يدي أخيرًا، فنزعتُ السكّين من جسد الكومنداتور. تدفّقت الدّماء من فتحة الجرح بشدّة، مثلما حدث في اللّوحة. وما إن نزعتُ السكّين حتى تهاوى الكومنداتور وسط مقعده وكأنّه فقد ما يستند عليه. عيناه مفتوحتان على وسعهما، وفمه معوجٌ من شدّة التألُّم. برزت أصابعه العشر الصّغيرة في الفراغ، وفقدتْ تمامًا كلَّ أثرٍ للحياة. وكوّنت الدّماءُ بُحيرةً صغيرة بلونٍ أحمرَ فاقعٍ عند قدميْه. لقد نزف كمّيّة دماءٍ كبيرة جدًّا لدرجةٍ تثير الدّهشة مقارنةً بحجم جسمه الصّغير.

فقد الكومنداتور ـ أو الفكرة التي أخذتْ شكل الكومنداتور ـ حياته أخيرًا بتلك الطريقة. وعاد تومو هيكو أمادا مرّةً أخرى إلى الغيبوبة العميقة. وكنتُ الوحيد الذي ظلّ بوعيه في الغرفة، أقف ذاهلًا بجوار الكومنداتور، مُمسكًا بسكّين ماساهيكو أمادا الملطّخ بالدّماء بيدي اليُمنى. ويُفترض أنّني أسمع صوتَ لُهاثي المتسارع فقط. ولكنْ لم يكن كذلك. كنتُ أسمع صوتَ حركةٍ مضطربةٍ في المكان. كان شيئًا في المنتصف بين الصوت والطيف. «أصغِ سمعك جيّدًا»، بدا أنّي سمعت الكومنداتور يقول لي: «أصغِ سمعك جيّدًا».

في الغرفة شيءٌ ما. شيءٌ يتحرّك. أزحت نظري إلى منبع الصوت، ومن دون أن أغيّر وضعيّتي، أو أفلت السكّين الملطّخة بالدّماء من يدي. فتأكّدتُ بطرف العين أنّي أرى شيئًا ما في عمقِ أحد أركان الغرفة.

«طويل الوجه».

إذ إنّي حين قتلت الكومنداتور، أخرجتُ طويل الوجه إلى هذا العالَم.

- 52 -
رجلٌ بطُرْطُورٍ برتقاليّ

كان ماثلًا هناك، كما رسمه توموهيكو أمادا في اللُّوحة، أسفل الطرف الأيسر. كان «طويل الوجه» يُبرز وجهه من فُتحةٍ في ركن الغرفة، رافعًا بيده الغطاء المربّع، وينظر حوله مرتابًا. وكان شعره الطويل منفوشًا ومتشابكًا بلحيته السّوداء الطَّليقة التي تغطّي معظم وجهه الطويل كالباذنجان المعوّج. ذقنه ناتئ، وعيناه دائريّتان وكبيرتان بشكلٍ غريب، وأنفه مسطّحٌ وعريض. إلّا أنّ شفتَيْه كانتا حمراوان كفاكهةٍ ناضجة، ومن يدري لماذا! لم يكن عظيم البُنية، إنّما متناسبًا على نحوٍ جيّد، مثل الكومنداتور تمامًا: صورة مجسّمة ومصغّرة لكائنٍ بشريّ.

يختلف عن شخصيّته التي في اللُّوحة بأنّه كان شديد الدّهشة من رؤية الكومنداتور جثّةً هامدة. فتح فمه قليلًا كأنّه لا يُصدّق ما تراه عيناه. ولا أعلم منذ متى وهو في الغرفة بتلك الوضعيّة. كنتُ أركّز النظر إلى حالة توموهيكو أمادا وأنا أُجْهِز على آخر أنفاس الكومنداتور، ولم أنتبه مُطلقًا إلى وجوده في الزاوية. ولا بدّ أنّ هذا الرجلَ المريب قد شهد على كلّ شيء، من الألف إلى الياء، ولهذا رسمه توموهيكو أمادا في لوحته.

كان قابعًا في ركن «المشهد» على حاله لا يُحرّك ساكنًا. وكأنّه قد تجمّد في داخل ذلك التّصميم. حاولت أن أحرّك جسمي بهدوء. فلم تبدر

عنه أيّ ردّة فعل. كان يحدّق في الكومنداتور بعينَيْن جاحظتَيْن، ويُمسك غطاء الفتحة بيده. لم أره يطرف بجفنَيْه إطلاقًا.

تراخى توتُّري تدريجيًّا، وتركتُ مكاني كأنّني أنخلع من التّصميم المحدّد، متقدّمًا نحوه ببطء. السكّين الملطّخة بالدّماء في يدي، أخطو بخطواتٍ كاتمة كالقطّ إذا تسلّل. يجب ألّا أتركه يعود إلى باطن الأرض. لقد ضحّى الكومنداتور بحياته وأعاد تمثيلَ مقتلِهِ كما في اللّوحة، من أجل إنقاذ ماريه أكيكاوا. فلا ينبغي أن تضيع تضحيتُه سدًى.

ومع هذا، لم أعرف كيف أتعامل مع طويل الوجه، ولا كيف أحصل منه على معلوماتٍ عن ماريه أكيكاوا. لم أعرف من أين أبدأ. ما العلاقة بين ظهور طويل الوجه واختفاء ماريه أكيكاوا؟ ومَن يكون طويل الوجه هذا أو ماذا يكون؟ لم يمدّني الكومنداتور بمعلوماتٍ عنه، إنّما بألغازٍ غامضة. وعلى كلّ حال، يجب أن أُمسك به وألّا أدعه يفلت منّي. هذه هي الأولويّة بالنّسبة إليّ.

حجم الغطاء حوالى ستّين سنتيمترًا لكلّ ضلع. وكان مصنوعًا من مشمّع أرضيّة الغرفة ذي اللّون الأخضر الفاتح. ولا بدّ أنّه إذا أُغلقت الفتحة فلن يقدر أحدٌ على تحديدها. لا بل قد تختفي كلّيًّا.

لم يتحرّك «طويل الوجه» مع أنّه رآني أقترب منه. كان يبدو أنّه قد تجمّد في مكانه حرفيًّا. تمامًا كما يتصلّب القطّ في وسط الطريق عندما تُسلّط عليه الإضاءة الأماميّة للسيّارة. أو قد تكون مهمّته هي الاحتفاظ على وضعيّته في اللّوحة لأطول وقتٍ مُمكن. في كل حال، كان من حسن حظّي تجمّد طويل الوجه موقّتًا. وإلّا لكان لاحظ اقترابي منه وهرب إلى باطن الأرض إذا شعر بالخطر. وقد يكون الغطاء مصمّمًا بحيث إنه إذا أُغلق مرّةً لا يُفتح ثانيةً.

دُرت بهدوء من خلف ظهره، ووضعت السكّين جانبًا، وبسرعةٍ خاطفة، مددتُ كلتا اليديْن وأمسكتُ بياقته من الخلف. كان طويل الوجه في رداءٍ غامق اللّون، ومقاسُهُ منطبقٌ عليه نسبيًا. كان رداءً متواضعًا يشبه ملابس العُمَّال، وقماشته مختلفة جدًّا عن الرداء الفاخر للكومنداتور. كان ملمسه خشنًا ومليئًا بالوصلات من هنا وهناك.

عندما أمسكتُ بياقته، عاد «طويل الوجه» إلى وعيه بعد أن كان متصلّبًا حتى اللّحظة، وهزَّ جسمه بعصبيّة محاولًا الهروب إلى باطن الفُتحة. لكنّي كنتُ أُمسكه بقوّةٍ شديدة. يجب ألّا يفلت منّي هذا الرجل مهما كلّفني الأمر. استجمعتُ كامل قواي وسحبتُ «طويل الوجه» من الفُتحة إلى ما فوق الأرض. وإزاء ذلك، أبدى مقاومةً مستميتة، فقد أمسك في حافّة الفتحة بكلتا يديه، وصلّب جسمه وحاول بكلّ قواه ألّا يخرج من الفتحة. كان يتصرّف بهَيَجانٍ لم أكن أتوقّعه. لدرجةِ أنّه حاول أن يعضّ يدي. ولم أجد حَرَجًا في ضرب وجهه الطويل بكلّ عزم ليرتطم بزاوية الفتحة؛ ثمّ ضربته ثانيةً، ففقد وعيه، فتراخت قواه فجأةً. وهكذا استطعتُ إخراج ذلك الرجل إلى ضوء النهار.

كانت قامة «طويل الوجه» أطول قليلًا من قامة الكومنداتور. بين السبعين والثمانين سنتيمترًا تقريبًا. وكانت ملابسه ملابسَ عمليّةً جدًّا كتلك التي يرتديها مُزارعٌ يعمل في الحقل أو بستانيٌّ ينظّف الحدائق. كانت عبارةً عن رداءٍ عُلْويٍّ خشن وسروالٍ يشبه سراويل المزارعين. يلفّ خصره بحبلٍ يشبه الأحبال المصنوعة من القشّ. وكان حافي القدميْن؛ يعيش حياته هكذا أغلب الظنّ. إذ كان أسفل قدَميْه متّسخًا بطبقةٍ سميكةٍ ناشفة بلونٍ أسود قذر. وشعره طويل، يبدو أنّه لم يغسله أو يمشّطه منذ فترةٍ طويلة. ولحيته السوداء تغطّي أكثر من نصف وجهه. والنّصف الذي لا تغطّيه

اللّحيةُ شاحب اللّون، ويبدو في حالةٍ متردِّية. ولئن كان بعيدًا كلَّ البعد عن النظافة، ما من رائحةٍ كريهةٍ تنبعث منه، وهذا أمرٌ غريبٌ حقًّا.

من خلال المظهر الخارجيّ، استنتجت أنَّ الكومنداتور ينتمي إلى طبقة النُّبلاء في ذلك العصر، وأنَّ «طويل الوجه» ينتمي إلى طبقةٍ وضيعةٍ من الشعب. ربّما كان الشعب في عصر أسكا يرتدي مثل تلك الملابس. أو ربّما كانت تلك مجرّد فكرةٍ تخيّلها توموهيكو أمادا: عن الشعب في عصر أسكا. ولكنْ لا أهمّيّةَ لكلِّ هذا. كان عليَّ حالًا أن أحصل من ذلك الرجل المُريب على معلوماتٍ تكشف لي مكان مارية أكيكاوا.

تركته منبطحًا على بطنه، وأخذتُ حزام البرنس المعلَّق بالقرب منّي، وربطتُ به يديْه الاثنتَيْن خلف ظهره بصرامة؛ ثمَّ سحبت جسمه المُغمى عليه، ووضعته وسط الغرفة. لم يكن وزنه ثقيلًا، بل كان يناسب قامته القصيرة. بوزن كلبٍ متوسّط الحجم تقريبًا؛ ثمَّ نزعتُ الرِّباط الذي تُربط به ستائر النافذة، ووثّقت به إحدى قدميْه في قدَم السرير. وبذلك، لن يستطيع الهرب من تلك الفُتحة حتى لو عاد إليه وعيه.

بدا بائسًا وتعيسًا وهو مُلقى على الأرض مقيّدُ الأطراف فاقدُ الوعي، تغمره أشعّةُ شمس الظهيرة الوهّاجة. وفقد كذلك ملامحه المُنفِّرة حين كان مطلًّا بوجهه من الفتحة المظلمة يراقب بعينَيْن لامعتَيْن هذه الغرفة. لم يبدُ لي شريرًا، بالتّمعُّن به عن كثب، كما لم يبدُ حادّ الذكاء. إنّما كان يوحي بذلك النوعِ من الإخلاص الأبله. وبدا كذلك أنّه جبان. لا يضع خطّةً ولا يتّخذ قرارًا بنفسه، بل إنّه من النوع الذي ينفّذ تعليمات رؤسائهم طواعية بلا نقاش.

كان توموهيكو على حاله راقدًا على السّرير مغمض العينَيْن. لا تصدر عنه أيُّ حركةٍ ولو ضئيلة. ولا يُمكن الحُكم من مظهره أحيٌّ هو أم

ميّت! اقتربت بأذني من فمه بمسافةٍ لا تتعدّى السنتمترات، واستطعتُ سماع أنفاسه الخافتة كأنّها بحرٌ بعيد. لم يمت بعد. سوى أنّه في قاع غيبوبةٍ عميقة. تنفّستُ الصُّعداء وارتاح قلبي قليلًا، لأنّني لم أشأ أن يلفظ الأب أنفاسه الأخيرة بينما ابنه غائبٌ عن الغرفة. صار وجهه يتّخذ سِمات الرضا والطمأنينة. لقد رآني أقتل الكومنداتور (أو الشخص الذي يجب أن يُقتل بالنّسبة إليه)، وربّما تحرّر بذلك من ثقلِ فكرةٍ مضنية.

أمّا الكومنداتور، فكان قابعًا على المقعد المُغطّى بالقماش وعيناه مفتوحتان على اتّساعهما. كان فاغرًا فمه ولسانه الصّغير مكوّرًا داخله. استمرّ نزيفُ قلبه، ولكنْ بات أضعف تدفُّقًا. مسكتُ يده اليُمنى، فكانت متراخية لا قوّة فيها. ومع أنّ جسمه لا يزال فيه بعض الحرارة، فإنّ ملمس جلده يعطي انطباعًا بالفتور الذي يتفشّى عندما تتّجه الحياة مباشرةً إلى اللّاحياة. فكّرتُ أنّني أريد أن ألملم ذلك الجسدَ بعناية، وأضعه في تابوتٍ يناسب حجمه. تابوتٍ صغير مخصّصٍ لطفل. وأن أضع التابوت في تلك الحُفرة التي خلف المعبد، كي لا يزعجه أحدٌ بعد الآن. لكنّي لم أستطع إلّا أن أغمض جفنَيْه.

جلستُ على المقعد ريثما يستعيد «طويل الوجه» وعيَه. كان المحيط الهادئ العملاق يلمع خارج النافذة متلقيًا أشعّةَ الشمس. وما زالت سفن الصيد تصيد. ثمّة طائرةٌ فضّيّة اللّون تحلّق برشاقةٍ نحو الجنوب: مروحيّةٌ مضادّة للغوّاصات تابعة لقوّات الدفاع الذاتيّ، ذاتُ أربعة أجنحة وفي ذيلها لاقطُ إشارةٍ طويل. ينفّذ كلٌّ شخصٍ على حدة مهامه اليوميّة في صمت على الرّغم من أنّنا في ظهر يوم السبت، بينما كنتُ في غرفةٍ صحّيّة، في منشأة رعاية مسنّين فاخرة، وقد قتلتُ لتوّي الكومنداتور طعنًا بسكّينٍ حادّة النصل، وأوثقتُ «طويل الوجه»، وأبحث عن مصير فتاةٍ صغيرةٍ جميلة في الثالثة عشر من عمرها. كم البشر مختلفون!

ما زال «طويل الوجه» فاقدًا وعيه. نظرتُ إلى ساعة يدي.

تُرى، ماذا لو عاد ماساهيكو أمادا فجأةً ورأى هذا المنظر؟ الكومنداتور غارقٌ في دمائه مقتولًا بطعنةِ سكّين؛ و«طويل الوجه» منبطحٌ على الأرض مربوط الأطراف. لا تتعدَّى قامة كلٍّ منهما مترًا واحدًا، وملابسهما المريبة من عصورٍ غابرة. ووالده الذي في غيبوبة تعتلي وجهه ابتسامةُ رضا أو ما شابه. وفي ركن الغرفة فُتحةٌ كبيرة مظلمة ومربَّعةُ الشَّكل. كيف لي أن أشرح لماساهيكو أمادا التَّفاصيل التي أدّت إلى هذا الوضع؟

لكنَّه لم يعد بطبيعة الحال. فكما قال الكومنداتور: لديْه عملٌ في غاية الأهمّيّة، وعليه أن يتحدَّث بشأنه على الجوّال لوقتٍ طويل. كان الأمر معدًّا له مسبقًا، لذا لن يعترض طريقي أحد. تأمَّلت «طويل الوجه» وأنا جالس على المقعد. لقد أُصيب بارتجاجٍ موقّتٍ في المخ بسبب ارتطام رأسه بزاوية الفُتحة. ويُفترض ألّا يستغرق وقتًا طويلًا في استعادة وعيه. قد ينشأ ورمٌ كبيرٌ في رأسه لاحقًا، ولكنَّه أمرٌ بسيطٌ في النهاية.

وأخيرًا عاد «طويل الوجه» إلى وعيه. أخذ يتلوّى على الأرض ويهذر بكلامٍ لا معنى له. ثمَّ فتح عينَيْه الرُّفيعتَيْن ببطء، كالطفل الذي ينظر إلى شيءٍ مخيفٍ لا يريد أن يراه ولا بدَّ له من أن يراه!

نهضتُ على الفور من على المقعد، ووضعتُ ركبتي بجواره.

قلت له وأنا أنظر إليه من علٍ: «لا وقت لديَّ. أريدك أن تخبرني بمكان مارية أكيكاوا. فإن فعلتَ فككتُ وثاقك فورًا وأرجعتك إلى هناك».

أشرتُ له إلى الفُتحة الكبيرة في رُكن الغرفة، وكان الغطاء المربَّع مرفوعًا عنها. لم أعرف إن فهم كلماتي أم لا، وليس أمامي سوى الأمل من أنّه فهمني.

لم يقل شيئًا، لكنّه هزّ رأسه مرارًا. وقد يكون المقصود أنّه لا يعرف أيّ شيء، أو أنّه لم يفهم من كلامي أيّ شيء.

قلتُ: «إن لم تُخبرني فسوف أقتلك. ألم تَرَ أنّني قتلتُ الكومنداتور؟ ومَن يقتل فردًا يقتل اثنيْن».

ألصقتُ نصل السكّين الملطّخ بالدّماء على عنقه المتّسخ. تذكّرتُ الصيّادين والطيّارين الموجودين في البحر. ينفّذ كلٌّ منّا مهمّته على حدة. وهذا ما يجب عليّ أن أفعله. لم يكن في نيّتي قتله طبعًا. لكنّ السكّين الحادّة كانت حقيقيّة، وكان جسده يرتعش من الرُّعب.

قال بصوت مبحوح: «انتظر! أرجوك انتظر!»

كانت طريقة كلامه مريبةً نوعًا ما، ولكنْ يعني هذا أنّه فهم كلامي. أبعدتُ السكّين قليلًا جدًّا عن عنقه، وقلت: «هل تعلم أين مارية أكيكاوا؟»

«كلّا، لا أعلم من تكون حتى. هذه هي الحقيقة».

حدّقتُ إلى عينَيْه. كانتا كبيرتَيْن، ومن السّهل قراءة ما فيهما. بدا لي أنّه يقول الحقيقة فعلًا. فسألته: «حسنًا، ما الذي تفعله هنا؟»

«مهمّتي هي أن أرى ما يحدث وأن أسجّله. لذا كنتُ أشاهد ما يجري هنا. وهذه هي الحقيقة».

«تشاهد الأحداث! من أجل ماذا؟»

«لقد أُمرتُ بهذا، ولا أعرف خلاف ذلك شيئًا».

«مَن أنت أصلًا؟ هل أنت فكرةٌ ما أيضًا؟»

«لا، لستُ فكرة. إنّما مجرّد مجاز».

«مجاز؟»

«أجل. مجرّد مجاز متواضع. مجرّد شيءٍ يصل بين شيءٍ وآخر. لذا أرجو منك العفو والسماح».

احتدم الاضطراب في رأسي، فقلت: «إن كنتَ مجازًا حقًّا، فارتجِلْ على الفور مجازًا واحدًا على الأقلّ. هل تستطيع؟»

«لستُ سوى مجاز من الطبقة الدُّنيا، لا قيمة له. ولا أستطيع أن أبتدع مجازًا أسمى».

«لا أطلب منك مجازًا أسمى. يكفي أن يكون مجازًا».

غرق «طويل الوجه» في تفكيرٍ طويل، ثمّ قال: «لقد كان رجلًا يلفت الانتباه. مثل رجلٍ بطرْطور برتقاليّ في زحام الذاهبين إلى أعمالهم».

بالفعل، لم يكن مجازًا ساميًا. بل ليس فيه من المجاز شيء.

لفتُّ نظره إلى ذلك قائلًا: «هذا ليس مجازًا بل تشبيه».

فقال والعرق ينزّ من جبينه: «أعتذر يا سيّدي. سأحاول ثانية: كان يعيش مثل رجلٍ بطرْطور برتقاليّ في زحام الذاهبين إلى أعمالهم».

«هذه جُملة بلا معنى. علاوة على أنّها ليست مجازًا صحيحًا. لا يمكنني أن أصدّق مُطلقًا أنّك مجاز. ليس أمامي إلّا أن أقتلك».

ارتعشت شفتاه جرّاء الرُّعب. ورغم كلّ تلك اللّحية المهيبة، كان يبدو رعديدًا.

«أعتذر، فأنا لا أزال مبتدئًا. ولا أستطيع ابتكار المجاز ببراعة. سامحني، أرجوك. لكنّي لا أكذب، إنّني مجاز حقيقيّ».

«هل لديْك ما يشبه الرّئيس الذي يملي عليك الأوامر؟»

«ليس هناك رئيس. ربَّما يكون موجودًا، لكنّي لم أقابله بعد. فأنا لا أتحرَّك إلَّا بما تأمرني به العلاقة بين الظاهرة والتَّعبير. أيْ ما يشبه قنديل بحرٍ بليدًا تهزّه الأمواج. لذا، أرجوك لا تقتلني. أرجوك سامحني».

قلت له وما زالت سكّيني على عنقه: «يمكنني أن أسامحك، وفي مقابل ذلك، سترشدني إلى المكان الذي جئتَ منه؟»

رفض «طويل الوجه» رفضًا قاطعًا لم يظهره من قبل قائلًا: «كلّا، لا أستطيع فعل ذلك بأيّ حال. إنَّ الطريق التي جئتُ فيها إلى هنا هي «ممر المجاز». يختلف المسار باختلاف الأشخاص. وليست طريقًا واحدة معروفة. لذا، لا أستطيع أن أكون دليلًا مرشدًا لك».

«أيْ أنّني يجب أن أدخل الممرّ وأسير فيه وحدي فقط. ويجب عليّ أن أعثر على المسار الخاصّ بي. هل هذا ما تعنيه؟»

هزَّ «طويل الوجه» رأسه بعصبيّة، وقال: «إنَّ في دخولك ممرّ المجاز خطورةً بالغة. فإذا أخطأ الإنسان الذي من لحمٍ ودم، ودخل ذلك الممرّ، ستؤول نهايته إلى مصيرٍ مهول. هناك مجازات مزدوجة مختبئة على جوانب الطريق».

«مجازات مزدوجة؟»

ارتعد جسمه، وقال: «المجاز المزدوج مخلوقٌ حيٌّ يختبئ في أعماق الظلام، وهو مجرمٌ حقيقيّ وفي منتهى الخطورة».

قلتُ: «لا أُمانع. فأنا قد تورَّطتُ في أمرٍ شنيع لا يمكن وصفه. ولا يهمُّني الآن إن زادت درجةُ تلك الشناعة أم نقصت. لقد قتلتُ الكومنداتور بيديّ هاتين، ولا يُمكنني أن أترك موته يذهب سُدى».

«ما باليد حيلة. في هذه الحالة، اسمح لي أن أعطيك نصيحةً واحدة».

«ما هي؟»

«أعتقد أنّه من الأفضل أن تحمل معك مصباحًا. ثمّة مواضع في غاية الظلام. بعد ذلك، ستمرّ على نهرٍ في منتصف مسيرتك. ومع أنّك ستكون في عالم المجاز فالماء حقيقيّ. تيّار النهر باردٌ وسريع، وعميقٌ أيضًا. لا يُمكن عبوره بلا مركب. ثمّة مرسى قواربٍ لعبور النهر».

سألته: «وماذا سيحدث بعد أن أعبر النهر عند تلك المرسى بقارب؟»

وجّه عينيْه الحادّتَيْن نحوي، وقال: «بعد أن تعبر النهر، ستجد نفسك في عالمٍ ثابت من العلاقات يدوم طويلًا. ستراه بأمّ عينَيْك لا مناص».

ذهبتُ إلى جوار وسادة سرير أمادا. ومثلما توقّعت، هناك مصباحٌ يدويٌّ صغير. لا بدّ أن يوضع في مثل هذه المنشآت مصابيحُ يدويّة للاستخدام في حالات الكوارث. جرّبت زرّ المصباح فكانت الإضاءة جيّدة، ولم تنفد البطاريّة. أخذت المصباح في يدي وارتديت معطفي الجلديّ المعلّق على مسند ظهر المقعد. وكنتُ على وشك التّوجّه ناحية الفُتحة الموجودة في ركن الغرفة.

لكنّ «طويل الوجه» قال متوسّلًا: «أرجوك. ألن تفكّ وثاقي؟ سأكون في ورطة إن تركتني على هذه الحالة».

«إن كُنتَ مجازًا حقيقيًا، أليس من السّهل أن تتخلّص من هذا الوثاق البسيط؟ بمعنى أنّك نوعٌ من الفكر والمفاهيم المعنويّة، وتستطيع الانتقال بسهولة بين حيّزٍ وآخر».

«لا. أنت تبالغ في تقدير قوّتي. أنا لا أملك تلك القُدرات العظيمة. فمن يُسمَّون بالمفاهيم والأفكار هم الدرجات العليا من المجاز».

«أولئك الذين يعتمرون طرْطورا برتقاليًا؟»

بانت ملامح الحزن على وجهه، وقال: «أرجوك، لا تسخر منّي. فأنا أحسُّ بالجرح أيضًا».

تردّدتُ قليلًا، ثمّ قرّرت في النهاية أن أفكَّ الوثاق عن يديْه وقدميْه. ولأنّني كنتُ أحكمت وثاقه، استغرقت وقتًا في حلّه. بدا لي من خلال الحديث أنّه ليس سيّئ الطويّة. أيْ نعم، هو لا يعرف أين مارية أكيكاوا، لكنّه قدّم لي معلوماتٍ من نفسه. ولن يعترض طريقي أو يتسبّب لي بضرر إذا أطلقت سراحه. ثمّ إنّي لا أستطيع أن أتركه هناك على تلك الحال، فإذا رآه أحدٌ ستتعقّد الأمور أكثر. جلس «طويل الوجه» على الأرض يدلّك أثر الوثاق على رسغه. وبعد ذلك، وضع يده على جبهته. يبدو أنّها قد تورّمت.

«أشكرك كثيرًا. هكذا أستطيع العودة إلى عالمي الأصليّ».

قلتُ له وأنا أشير إلى الفُتحة التي في ركن الغرفة: «لا مانع أن تذهب أوّلًا. من الأفضل أن تعود إلى عالمك أوّلًا. لأنّي سأذهب بعدك».

«حسنًا، اسمح لي بالذهاب قبلك. ولكنْ أرجو أن تُغلق الغطاء بإحكام، وإلّا تعثَّرَ أحدهم وسقط فيها. أو ربّما يحمل الفضولُ أحدَهم على النزول. وستكون تلك مسؤوليّتي».

«فهمت. سأغلق الغطاء. كن واثقًا».

ذهب «طويل الوجه» بخُطواتٍ مُسرعةٍ إلى الفتحة وأنزل فيها قدميْه، حتى ظهر منها نصف وجهه فقط. لمعت عيناه الكبيرتان بريبة وهو ينظر إلى المكان، مثلما كانتا لامعتيْن في لوحة «مقتل الكومنداتور».

قال لي: «حسنًا، خذ حذرك. أتمنّى لك العثور على الفلانة التي تبحث عنها. هل كان اسمها كوميتشي؟»

«ليست كوميتشي»، وتسرّب بردٌ شديد إلى نخاعي. أحسستُ بجفافٍ في عمق حلقي، ولم أستطع النطق جيّدًا للحظة. «ليست كوميتشي، بل مارية أكيكاوا. كيف تعرف بأمر كوميتشي؟»

ردَّ متسرّعًا: «لا، لا أعلم شيئًا. لقد طرأ ذلك الاسم فجأةً في ذهني على أنّه مجازٌ رديء. إنّه مجرّد خطأ. أرجوك سامحني».

وبعد ذلك، اختفى «طويل الوجه» سريعًا في عمق الفُتحة. وكأنّه دخانٌ تبعثر على أثر الرياح.

بقيتُ واقفًا وواجمًا، والمصباح في يدي. كوميتشي؟ لماذا يظهر اسم شقيقتي هنا والآن؟ تُرى هل لكوميتشي شأنٌ بتلك السلسلة من الأحداث؟ لكنّ الوقتَ كان ضيّقًا، فلم أتعمّق في الأمر. وضعتُ قدمي داخل الفُتحة، وأضأتُ المصباح. فتراءى لي ممرٌّ طويلٌ ومظلمٌ ومنحدر. كم هذا غريب! الغرفة هي في الطابق الثالث، ومن المنطقيّ أن يكون الطابق الثاني أسفلها. إلّا أنَّ حزمة الضوء لم تكن قادرةً على بلوغ نهاية ذلك الممرّ. نزلت كلّيًا داخل الفُتحة، ومددتُ يدي وأغلقت الغطاء المربّع بإحكام. وهكذا أصبح المكان حولي مظلمًا بالكامل.

في ذلك الظلام العميق والممتدّ بلا نهاية، لم أَعُد أشعر بحواسّي الخمس. وكأنّ سيّالة المعلومات بين الجسد والدّماغ قد قُطعت نهائيًا. كان ذلك شعورًا غريبًا تمامًا. تولّد لديَّ انطباعٌ أنّني لم أَعُد أنا نفسي. ورغم ذلك، كان بوسعي التّقدُّم إلى الأمام.

لقد قال لي الكومنداتور: عليك أن تقتلني لكي تعثر على مارية أكيكاوا.

لقد تحمّل التّضحية فيما تقبّلتُ الابتلاء. ليس بوسعي إلّا التّقدُّمُ إلى الأمام على أيّ حال. دخلتُ بقدميّ وسط ظلام «ممرّ المجاز»، لا حليف لي سوى ذلك المصباح.

-53-
ربَّما كان مِخرَاكَ الثَّار

أحاط بي ظلامٌ كثيف لا ثغرةٌ فيه، وكأنَّه ذو إرادةٍ قويَّة متماسكة. لا وجود لنقطة ضوء أو خيطِ نور. وكأنَّني أمشي في قاع بحرٍ عميقٍ لا تصل إليه أشعَّةُ الشمس. كان الضوء الأصفر الخافت للمصباح الذي أمسكُ به هو الذي يربط بيني وبين العالم بصعوبةٍ شديدة. والممرّ عبارةٌ عن منحدرٍ يسير التَّدرُّج. شكله أسطوانيٌّ كاملٌ كأنّه حُفِرَ دائريًّا في حائطٍ صخريّ، وأرضيَّته صلبةٌ ومتينة ومستوية في أغلب المواضع. ولأنَّ السَقف كان منخفضًا، توجَّبَ عليَّ أن أحْني قامتي لكيلا يرتطم رأسي به. كان الهواء تحت الأرض باردًا يميل إلى الصقيع، لكنّه كان بلا أيِّ رائحة، بشكلٍ يثير الريبة. ولا بدَّ أنّه مختلفٌ في باطن الأرض عمَّا في ظاهرها.

لم أكن أعلم كم ستدوم بطَّارية المصباح. بدا لي ضوؤه حتى اللَحظة مستقرًّا. ولكنْ، إن فرغت البطَّاريَة في منتصف الطريق (يُفترض أنَها ستنتهي عاجلًا أم آجلًا)، سأُترَكُ وحيدًا تمامًا وسط هذا الظلام الحالك. وإن صدق «طويل الوجه»، فإنَّ «المجاز المزدوج» الخطير يختبئ في مكانٍ ما من هذا الظلام.

تعرّقتْ راحةُ يدي الممسكة بالمصباح بسبب التوتُّر. وأصدر قلبي نبضًا أصمّ، يُذكِّر بصدى الطرْق المتخبّط على الطبلة راجعًا من أعماق الغابات. لقد أمدَّني «طويل الوجه» بنصيحةٍ حينما قال: «أعتقد أنّه من

الأفضل أن تحمل معك مصباحًا، لأنّه ثمّة مواضع في غاية الظلام». ومعنى ذلك أنَّ هذا الممرّ تحت الأرض ليس غارقًا كلّيًا في ظلام دامس. تمنّيت أن يُضاء المكان حولي ولو قليلًا. وتمنّيت أن يرتفع السقف ولو قليلًا. فالأماكن المُظلمة والضيّقة تخنقني وتوتّرني في أيّ وقت. وإن استمرّ هذا الوضع، سأصاب بصعوبةٍ في التّنفُّس تدريجيًا.

قاسيتُ في تجاهلِ ضيق المكان وظلمته، وركّزتُ فكري في أمرٍ مختلف: تخيّلتُ شريحة خبزٍ بالجبن. ولم أفهم لماذا شريحة الخبز تحديدًا؟ لكنّها أوّلُ صورةٍ طرأت على ذهني حينذاك. شريحة خبزٍ بالجبن، مربّعة الشّكل، وموضوعة على طبقٍ أبيض اللّون. كانت محمّصة جيّدًا، والجبن المتناثر فوقها ذاب جيدًا أيضًا. كادت الصورة أن تكون في متناول يدي. ثم رأيت بجانبها كوبَ قهوةٍ مُرّة ساخنة يتصاعد منها البخار. قهوةٍ سوداء مثل ليلةٍ لا قمر فيها ولا نجوم. تذكّرتُ الأشياء التي تصطفُّ على مائدة فطوري، واشتقتُ إليها فعلًا. النافذة المفتوحة للخارج، شجرة الصفصاف الكبيرة خارج النافذة، وصوت الطائر الخفيف الذي وقف وقفةً خطرة على أغصانها اللّيّنة وكأنّه بهلوانٌ يمشي على الحبل. وكان في الصورة بعيدًا عنّي بمسافةٍ لا يمكن قياسها.

وبعد ذلك، تذكّرت أوبرا «فارس الورود». كنتُ أحاول الاستماع إلى الموسيقى وأنا أشرب القهوة وأقضم من شريحة خبز الجبن الساخنة. على أسطوانة حالكة السّواد من صنع شركة ديكّا الإنجليزيّة. وضعتُ الأسطوانة الثقيلة على دوّارة مشغلّ الأسطوانات، وأنزلتُ إبرةَ الخرطوشة ببطء. أوركسترا فيّنّا الفيلهارموني بقائدة المايسترو جورج سولتي. ذلك الصّوت الدّقيق ذو الانسيابِ الجماليّ الرّائع. لقد قال ريتشارد شتراوس في أوج مجده: «بإمكاني أن أعبّر بالموسيقى عن كلّ شيء، حتى عن المكنسة»

أم لم تكن مكنسة؟ ربّما لا. ربّما مظلّة، أو محراك النار. لا يهمّ، أيًا تكن. ولكنْ، تُرى كيف بوسعه التّعبير بالموسيقى عن مكنسة؟ هل يستطيع التّعبير بالموسيقى عن أشياء مثل شريحة خبزٍ بالجبن، أو باطن قدمٍ صلبة كالقرن؟ هل بوسعه التعبير عن الفرق بين التشبيه والمجاز؟

كان ريتشارد شتراوس يقود الأوركسترا الفيلهارموني في ڤيِنّا قبل الحرب (سواء قبل حادثة أنشلوس أم بعدها). وكان برنامج العزف الموسيقيّ لذلك اليوم هو سيمفونيّة لبيتهوفن. السيمفونيّة السابعة، الرزينة والهادئة والرّقيقة. ولدت تلك السيمفونيّة لتكون في الوسط بين أختها الكبرى (السادسة) المرحة المتحرّرة وبين أختها الصغرى (الثامنة) الجميلة الخجولة. وكان الشاب توموهيكو أمادا حاضرًا بين الحضور، وبجواره فتاةٌ جميلة. وكان يحبُّها أغلب الظنّ.

تخيّلت مدينة ڤيِنّا. وفالس ڤيِنّا، وكعكة زاخا، ورايات الصليب المعقوف الحمراء والسوداء التي ترفرف فوق المباني.

امتدّت الأفكار وسط الظلام إلى اتّجاهٍ عديمِ المعنى. ولعلّها كانت تائهةً في فضاءٍ لا حدود له. أو ربّما يمكن تسميته «اتّجاهٌ بلا فلسفة» ولم أستطع السيطرة عليها. فأفكاري غادرت يدي فعلًا. ليس من السّهل القبض على أفكارك وسط ظلامٍ تامّ. تصبح الأفكار غابةً غامضة، وتمتدُّ أغصانها عشوائيًا وسط الظلام (هذا مجاز). وعلى أيِّ حال، كان من الضروريّ أن أواصل التّفكير في شيءٍ ما. أيًا كان، وإلّا سقطتُ صريع التّنفُّس المُفرط من شدّة التوتّر.

ومع استمراري في التّفكير بأشياءٍ متنوّعة بلا ضوابط أو روابط، كنتُ أهبط في خطٍّ مستقيمٍ داخل الممرّ الذي لا ينتهي. كان مستقيمًا بلا تعرُّجات أو مفترقات، ومحافظًا على شكله دائمًا، فلا فروقات في ارتفاع

السقف أو درجة الظلام أو نوع الهواء أو زاوية المَيَلان. لقد فقدتُ القدرةَ على الإحساس بالوقت، ولكنْ يُفترض بعد كلّ هذا المسير المتواصل أنّي وصلتُ إلى عمقٍ كبيرٍ جدًّا تحت الأرض. غير أنّه في النهاية يبقى عمقًا خياليًّا. ففكّرت أنّ كلّ شيء هنا لا يزيد عن مجرّد أفكارٍ ومفاهيمَ، أو مجاز. ومع ذلك، فالظلام المحيط بي كان حقيقيًّا، والعمقُ الذي يُطبق على أنفاسي حقيقيٌّ أيضًا.

وفي الوقت الذي بدأت أتألّم من عنقي وخصري بسبب السّير محدَوْدَبًا، ظهر أخيرًا شعاعٌ خافتٌ، وعددٌ من المنحنيات السّهلة، ومع كلّ انحناءة، يصبح المكان حولي أكثرَ إنارةً شيئًا فشيئًا. وفي النهاية، استطعت إلى حدٍّ ما التّعرُّف على ملامح ذلك المكان. تشبه السماء أثناء الفجر التّدريجيّ. أطفأتُ المصباح من أجل توفير شحن البطّارية.

لقد صار المكان منيرًا إلى حدٍّ ما، لكنّه ما زال بلا رائحةٍ أو صوت. وانتهى الممرّ المُظلم الضيّق أخيرًا، ودخلتُ بقدميّ فجأةً في حيّزٍ مفتوح. وعندما نظرتُ إلى أعلى، لم تكن السماء فوقي. إنّما ما يشبه السّقف بلون الحليب، شديد الارتفاع، ولكنّي لا أعرف ما هو على وجه الدقّة. كان المكان مُضاءً بإضاءةٍ خافتة. كانت إضاءةً عجيبة، وكأنَّ عددًا ضخمًا من الحباحب المضيئة قد تجمّع وأنار العالم. وتنفّستُ الصّعداء بعد أن تباين الظلام وانتصبت قامتي.

وأصبحت الأرضيّة بعد الخروج من الممرّ صخريّةً شديدةَ الصلابة. لم يَعُد ما يشبه الطريق، إنّما أرضٌ قاحلة على مدّ البصر مغطّاةٌ بطبقةٍ صخريّة. وانتهى المُنحدر الهابط الذي استمرّ طويلًا، وتبدّى أمامي منحدرٌ سهل الصعود. تقدّمتُ إلى الأمام من دون أن أحدّد وجهةً ما، محترسًا من موطئ أقدامي. نظرتُ إلى ساعة يدي، فلم تعنِ تلك العقارب لي أيَّ شيء.

وفهمت على الفور أنّها لا تعني أيَّ شيء. وكلّ الأغراض التي معي صارت بلا معنى: حلقةُ المفاتيح، حافظةُ النقود، النقودُ المعدنيّة، رخصةُ القيادة، المنديل. هذه كلّ أغراضي، لا يوجد بينها ما يمكن إنقاذي.

وكلّما صعدتُ ازدادت وعورةُ المنحدر، حتى صرت أتسلّق الصخورَ بيديّ وقدميّ. ربّما إن وصلتُ تلك القمّة أشرفتُ على مشهدٍ واسع! لذا تسلّقتُ بأنفاسٍ مقطوعة، وبلا هوادة. وظلّ الحال على ما هو، لا صوت يصل أذنيّ، ما عدا صوتُ يديَّ وقدميّ. وحتى هذا بدا مصطنعًا. وفي المدى، لا وجود لشجرةٍ، أو نبتةٍ، أو طائرٍ يطير. لا وجود للرياح حتى. أنا وحدي أتحرّك. وكأنَّ الزمن قد توقّف وتجمّد كلُّ شيءٍ وغرق في الصمت.

وأخيرًا، وصلتُ إلى قمّة الهضبة، وكما توقّعتُ، كنت أُشرف على نظرةٍ شاملة للمكان حولي. ولكن، هناك ما يشبه الضباب الأبيض الذي منعني من الرؤية البعيدة التي تمنّيتها. كانت تلك الأرض، بحسب ما توصّل إليه بصري، مقفرةً لا مؤشرات للحياة فيها: قاحلةً ومغطّاةً بطبقةٍ صخريّةٍ شديدة الصلابة في كلّ الاتّجاهات بلا نهاية. والسّماء ما زالت مغطّاةً بسقفٍ بلون الحليب. أحسستُ أنّي رائد فضاءٍ هبط على كوكبٍ سماويّ مجهولٍ وغير مأهول بعد أن تعطّلت مركبة الفضاء التي كانت تقلّه. فكم كنت ممتنًّا لوجود ضوء وإن خافتًا، وهواءٍ أتنفّسه!

وعندما أصخت السّمع، تناهى إليّ صوتٌ من البعيد. ظننت في البداية أنّه مجرّد وهمٍ أو طنينٌ تولّدَ داخل أذنيّ، ثمّ تأكّدت من أنّه صوتٌ حقيقيٌّ، متواصلٌ، صادرٌ عن إحدى ظواهر الطبيعة. يبدو أنّه صوت جَرَيان ماء. ربّما هو النهر الذي تحدّث عنه «طويل الوجه». على أيّ حال، توجّهتُ نحو صوت الماء وسط الضوء الخافت، وأنا أهبط المنحدر محترسًا من وطأة قدميّ.

ولكثرة ما أصغيت لصوت الماء، شعرتُ بعطشٍ شديد. وانتبهت أنّني لم أشرب شيئًا منذ فترةٍ طويلة. لم يطرأ الظمأ في ذهني بسبب التوتُّر أغلب الظنّ. لكنّي عندما سمعت صوتَ النهر، اجتاحتني رغبةٌ شديدةٌ جدًّا في شرب الماء. وعلى الرّغم من ذلك، لم أكن متأكّدًا من أنَّ الماء صالحٌ للشرب، هذا إذا سلّمنا جدلًا أنّه صوت النهر. ربّما تكون مياهَ وحلٍ عكرة بالطين، وقد تحتوي على موادَّ خطرة أو ميكروباتٍ مسبّبةٍ للأمراض. وربّما يكون مجرّد ماءٍ مجازيّ لا يُمكن لليديْن أن تغترفا منه! ولكنْ لم يكن أمامي سوى الذهاب إلى هناك والتأكُّد بنفسي.

مع تقدُّمي في السّير، صار صوت الماء يعلو ويتّضح أكثر فأكثر. كان يشبه ما يصدره نهرٌ متدفّقٌ باندفاعٍ شديدٍ جدًّا يشقّ طريقه بين الصخور. ولكنّني لا أستطيع رؤيته بأمّ العين بعد. شعرت بالأرض ترتفع تدريجيًّا على جانبَي الطريق حتى كادا يشكّلان جدارَيْن صخريّيْن. ووصل الارتفاع إلى ما يزيد على عشرة أمتار. ثمّ تكوّن ممرّ محاطٌ بذلك الحائط الشامخ. كانت الطريق ملتوية وملتفّة هنا وهناك مثل ثعبان، فلم أستطع رؤية نهاية الطريق. لم تكن طريقًا صنعها الإنسان، إنّما ممرٌّ من صنع الطبيعة. ويبدو أنَّ النهر يجري في نهاية الممرّ.

وما زلت أتقدَّم بلا كللٍ في تلك الطريق. ليس هناك أيُّ شجرة، ولا لوجود نباتاتٍ أو حشائش. لم أعثر في أيّ مكان على ما يوحي بأثرٍ للحياة. أمّا اللّافت للانتباه فهو سلسلة الصّخر الصامت تلك فقط. عالمٌ أجدب أحاديُّ اللّون. وكأنَّ الرسّام الذي يرسم مناظرَ طبيعيّة فقد اهتمامه باللّوحة في أوج عمله عليها فلم يلوّنها. بل وحتى صوتُ خطاي بدا أنّه يختفي. كأنَّ الحائط الصّخريَّ المحيط بي يمتصّ كلّ الأصوات.

كانت الطريق مستوية في معظمها، لكنّها في النهاية أصبحت صاعدة بعض الشيء. وعندما صعدت تلك الصّخرة بمشقّة، وصلتُ إلى مكانٍ ما تزال الصخور فيه على شكل ظهرٍ مسنّن. أدليتُ بجسمي من هناك، واستطعتُ أخيرًا أن أجعل النّهرَ في مجال رؤيتي. وسمعتُ صوت الماء أوضح وأقوى ممّا سبق.

لا يبدو أنّه نهرٌ كبيرٌ جدًّا. كان عرضه حوالي خمسة أو ستّة أمتار. لكنّ سرعة التيّار شديدة جدًّا. ولا أعرف كم عمقه. وعند النظر إلى تولّد الأمواج الصّغيرة العشوائيّة، أدركتُ أنّ القاع غير مستوٍ. النّهر يجري في خطٍ مستقيمٍ يقطع الأرض المليئة بالصخور. تخطّيتُ ظهر الصخور وهبطتُ الطبقةَ الصخريّة حادّة الانحدار مقتربًا من النّهر.

وعندما رأيت التيّارَ يجري أمام عينيّ، من اليمين إلى اليسار باندفاعٍ قويّ، أحسست براحةٍ وطمأنينة. فعلى الأقلّ ثمّة كمّيّةٌ كبيرة من المياه تجري حقًّا. كان يجري من مكانٍ ما، متّجهًا إلى مكانٍ آخر، في عالمٍ ليس فيه أيّ نوع من الحركة، ولا تهبُّ فيه الرياح. ماء النّهر فقط هو ما يتحرّك. وكان صدى صوت الماء يتردّد في المكان. حقًّا! لم تنعدم الحركة كلّيًا في هذا العالم. الأمر الذي أثلج صدري نسبيًّا.

وصلتُ إلى جوار النهر، وانحنيتُ عند الضفّة، وحاولت أن أغترف الماء بيديَّ. كان ماءً باردًا منعشًا، كأنّه مجمّعٌ لذوبان الثلوج. ومن حيث المظهر، كان جميلًا ورائقًا ويبدو أنّه نظيف. لست متأكّدًا من كونه صالحًا للشرب، ربّما امتزجت فيه مواد مميتة لا تراها العين. وقد يحتوي على ميكروبات ضارّة بالجسم.

حاولتُ أن أشمّ رائحة الماء الذي جمعته بين يديّ. كان بلا رائحة (إن لم أكن قد فقدتُ حاسّة الشمّ). ثمّ حاولت أن أضع الماء في فمي. كان

بلا طعم (إن لم أكن قد فقدتُ حاسّة التّذوّق). تجرّأتُ ودفعت بذلك الماء إلى جوف حلقي. كنتُ ظمآن حتى ابتلعتُ الماء غير آبهٍ بالعواقب. لا طعم له ولا رائحة، ولحسن حظّي، ارتوى ظمأي بصرف النّظر إن كان حقيقيًا أم خياليًا.

رحت أعبّ من الماء مرّاتٍ عدّة. يبدو أنّ حلقي كان جافًا أكثر ممّا توقّعت. كان ذلك الإحساس في منتهى الغرابة: أن يروي الظمأ ماءٌ لا طعم له أو رائحة. فعندما يشرب الإنسان ماءً باردًا وهو ظمآن، يشعر بأنّ الماء ألذُّ ما في الوجود. ويمتصّه الجسد بنهم، وتبتهج كلُّ خليّةٍ من خلايانا، وتستعيد كلّ عضلاتنا نضارتَها. لكنّ ماء ذلك النّهر كان ينقصها العنصر الذي يُحدِث مثل ذلك الشعور. فقط كان عطشي يتراجع ثمّ يختفي ببساطة اختفاءً ماديًا.

عمومًا، شربت ما طاب لي من الماء، واختفى العطش. ثمّ نهضتُ ونظرت حولي مجدّدًا. بحسب ما أخبرني «طويل الوجه»، يُفترض أنّ ثمّة مرسى قوارب للعبور في مكانٍ ما من ضفاف هذا النهر. وإن بلغته، سأعثر على مركبٍ يعبر بي إلى الضفّة المقابلة. وإنْ وصلتُ (على الأرجح) سأحصل على معلوماتٍ عن مكان مارية أكيكاوا. لكنّي لم أعثر على أيّ شيءٍ يشبه المركب أو الجسر مهما نظرتُ في كلا الاتّجاهيْن. عليّ أن أبحث عن المركب وأن أجده بأيّ شكلٍ. فإنّه لمن الخطورة الشديدة أن أعبر النّهر بنفسي. لقد قال لي «طويل الوجه»: «تيّار النّهر باردٌ وسريع، وعميقٌ أيضًا. ولا يُمكن عبوره بلا مركب»، ولكنْ في أيّ اتّجاهٍ هو المركب؟ أعلى النّهر أم في مصبّه؟ عليّ الاختيار بين أحد الاتّجاهيْن.

وفي تلك اللّحظة، تذكّرتُ فجأةً أنّ اسم منشكي الأوّل هو «واتارو». عندما عرّفني بنفسه، شرح لي الاسم قائلًا «واتارو تعني عبور النهر. لا أعرف

لِماذا سُمّيت بهذا الاسم». أجل. وقد أضاف حينها: «بالمناسبة، أنا أعسر. إن قيل لي اذهب إلى أيِّ جهةٍ تشاء، يمينًا أو يسارًا، لا أتوانى عن اختيار الجهة اليُسرى». كان هذا جزءًا من حوارٍ مباغتٍ غير مرتبطٍ بالسياق. ولم أفهم جيّدًا وقتها لماذا قال منشكي ذلك فجأةً. وأعتقد أنَّ هذا ما ذكّرني به آنذاك.

قد يكون كلامه بلا معنى. وربّما تفوّه به عن طريق الصُّدفة. لكنّ هذه الأرض (بحسب «طويل الوجه») تتكوّن من العلاقة بين الظاهرة والتّعبير. عليّ أن أتعامل مع كلِّ التلميحات والصدف التي تواجهني هنا بجدّيّةٍ ومباشرة. قرّرت أن أتّجه إلى اليسار؛ وأن أحاذي تيّار النّهر ذي الماء عديم الطعم والرّائحة، مسترشدًا بالتّعليمات اللّاإراديّة التي سمعتها من منشكي «الهارب من اللّون»... ربّما تكون توجيهات، وربّما لا.

وبينما كنت أتقدّم، تساءلت: هل تعيش أحياءٌ مائيّة تحت هذا النّهر؟ لا حياة فيه على الأرجح. لا أملك برهانًا مؤكّدًا على ذلك، لكنّي لم أشعر بأيِّ أثرٍ للحياة. تُرى أيُّ الكائنات الحيّة تلك التي تستطيع الحياة في وسطٍ مائيّ لا طعم له أو رائحة؟ بدا لي أنَّ النهر يركّز كلَّ وعيه في مقولة «إنّني نهرٌ وأستمرّ في الجريان». له الشّكل الظاهريّ للنهر، هذا أكيد، لكنّه كان صورةً مجرّدةً عن النّهر: مادّة سائلة تجري في الأرض من دون أن تنقل على سطحها غصنَ شجرةٍ أو ورقة.. لا شيء.

وما زال المكان من حولي غارقًا في ضبابٍ يولّد إحساسًا بالليونة. أخذتُ أنقل قدميّ عبر ذلك الضباب القطنيّ الذي يشبه ستائر عشوائيّة بيضاء من الدانتيلّا. وبعد قليل، أحسستُ بماء النهر الذي شربته يسري داخل معدتي. لم يكن الإحساس مزعجًا أو خطيرًا، لكنّه لم يكن مريحًا. كان إحساسًا محايدًا لا يُمكن وصفه بأيٍّ من الوصفيْن، ولا أستطيع

استيعاب جوهره. ثمّ انتابني شعورٌ غريبٌ بأنَّ بنيتي الجسمانيّة قد تغيَّرت بعد أن أدخلتُ ذلك الماء إلى جسدي. لقد صرتُ أكثر تكيُّفًا مع المكان الذي كنتُ فيه.

ولكنّني لم أشعر أنَّ هذه الحالة تُشكّل أزمةً خطيرة. بل وقلت لنفسي متفائلًا إنَّ الأمر ليس بتلك الأهمّيّة. وبالطبع لم يكن لديَّ ما يدعوني للتفاؤل حقًّا، لكنَّ الأمور بدت لي أنّها تسير بدون معوّقات. فلقد خرجتُ سالمًا من ذلك الممرّ الضيّق والمظلم؛ وعبرت الأرضَ القاحلة المليئةَ بالصخور، بلا خارطة أو بوصلة، وعثرتُ على هذا النهر. ولقد روى ماؤه عطشي. ولم أقابل المجاز المزدوج الخطير الذي يختبئ في الظلام الحالك. ربَّما حالفني الحظُّ ليس إلّا. وربّما تقرّرت الأمور مسبقًا أن تسير على هذا النحو. بأيِّ حال، ستسير الأمور على ما يُرام إن تابعتُ على تلك الخطى. كنت أحاول إقناع نفسي بذلك.

وأخيرًا، ظهر شيءٌ غير واضح المعالم من خلف الضباب. لم يكن شيئًا من الطبيعة؛ إنّما من صُنع الإنسان. طويلٌ ومنتصب. فهمتُ أنّه مرسى للمراكب. رصيفٌ خشبيّ يبرز على المياه. فلقد أحسنت الاختيار إذن، الجهة اليُسرى. إلّا إذا كان كلُّ شيءٍ في عالم العلاقات هذا يخلق ما يتجاوب مع مسالكي. ويبدو أن التلميح الذي أدلى به منشكي عن غير قصدٍ هو الذي أرشدني إلى هذا المكان بسلام.

استطعتُ من خلال الضباب الخافت أن أرى رجلًا يقف على مرسى المراكب. رجلًا طويل القامة. انعكست هيئته في عينيَّ كأنّه عملاق، ذلك أنّي أراه بعدما رأيت الكومنداتور و«طويل الوجه» قصار القامة. كان الرجل مستندًا إلى ما يشبه جهازًا غامق اللّون، على طرف رصيف المرسى. كان واقفًا هناك ولا يُحرّك ساكنًا، وكأنّه يفكّر بعمقٍ في شيءٍ ما. وكانت مياه النهر

تجري باندفاعٍ شديد مخلّفةً الزَّبد بالقرب من قدميّه. إنّه أوّل إنسان أقابله في هذه الأرض. أو ربّما كان شيئًا يتّخذ هيئةَ إنسان. اقتربت منه ببطءٍ وحرصٍ شديديْن.

«طاب يومك!» قلت له بعد أن استجمعت شجاعتي، حينما بتُّ قريبًا منه بما يكفي لرؤيته بوضوح على الرّغم من الضباب. لم أحصل على ردّ. غيَّر الرَّجل وضعيَّته قليلًا من دون أن يتحرَّك أبدًا. اهتزَّ طيفه القاتم بعض الشيء وسط الضباب. ربّما لم يسمع صوتي. ربّما محا صوت النّهر صوتي تمامًا. وربّما كان هواءُ هذه الأرض لا يُردّد صدى الصوت جيّدًا!

اقتربتُ أكثر وألقيتُ التّحية ثانية: «طاب يومك» بصوتٍ أعلى هذه المرّة. لكنّه ظلّ صامتًا كذلك. لم أكن أسمع إلّا صوت الماء المتواصل. لعلّه لم يفهم كلامي.

«أسمعك وأفهمك»، قال الرجل وكأنّه قرأ أفكاري. كان صوته من طبقةٍ منخفضة تناسب رجلًا طويل القامة. لا يحتوي على تنغيم، لذا لم أفهم مشاعره جيّدًا. تمامًا مثل مياه النّهر التي بلا طعمٍ أو رائحة.

-54-
الأبد فترةٌ طويلةٌ جدًا

لم يكن للرجل الواقف أمامي وجهٌ. هذا لا يعني أنَّ ليس له رأس، بل كان رأسه فوق عنقه بطبيعة الحال. ولكنَّه كان بلا وجه. وقد حلَّ مكان الوجه فراغ. فراغٌ مملوءٌ بدخانٍ خافتٍ بلون الحليب. وكان صوته يخرج من ذلك الفراغ. يذكّر بصوت الريح إذا ارتدَّت بالصدى من قاع كهفٍ عميق.

كان يرتدي ما يشبه سترةً مطريّةً غامقة اللّون، تصل أطرافُها إلى قدميْه تقريبًا. وتحت حوافّها تظهر الجزمة. وأزرار السترة معقودةٌ كلُّها حتى العنق. بدا الرجل مهندمًا بملابسَ تقيه من عاصفةٍ وشيكة.

لم أقل شيئًا وتسمَّرت في مكاني. فلم تستطع الكلمات أن تخرج من فمي. فبالنظر إليه من مسافةٍ معيَّنة، بدا لي شبيهًا بالرجل الذي كان يقود سيّارة سوبارو فورستر البيضاء، وشبيهًا بتوموهيكو أمادا الذي زار مرسم بيته في منتصف اللّيل، وشبيهًا بالشاب الذي قتل الكومنداتور طعنًا بسيفه الطويل في لوحة «مقتل الكومنداتور». فالثلاثة طوال القامة. لكنّي عندما اقتربتُ منه أكثر، عرفت أنّه ليس واحدًا من هؤلاء. بل كان مجرَّد رجل «عديم الوجه». يعتمر قبّعةً سوداء بحافّةٍ عريضة، تُخفي نصف الفراغ الحليبيّ.

ردَّد الرجل ما قاله: «أسمعك وأفهمك». لم يحرّك شفتَيْه بطبيعة الحال، لأنّه لم يكن لديْه شفتان أصلًا.

سألته: «هل هذا هو مكان عبور النهر؟»

فقال عديم الوجه: «أجل. هذا هو مكان عبور النهر. لا يستطيع البشر عبور النهر إلّا من هنا».

«عليّ الذهاب إلى الضفّة الأخرى».

«كلّ الناس كذلك».

«هل يأتي بشرٌ كثيرون إلى هنا؟»

لم يجب على هذا السّؤال. ابتلع فراغَ وجهه سؤالي، متبوعًا بصمتٍ لا ينتهي.

سألته: «ماذا يوجد على الضفّة الأخرى؟» إذ لم أكن أستطيع رؤيتها بسبب الضباب.

ظلّ عديم الوجه يحدّق إليّ من وسط الفراغ، ثمّ قال: «هذا يتعلّق بما يرغب الناس أن يجدوه هناك».

«إنّني أبحث عن طفلةٍ اسمها مارية أكيكاوا».

«أهذا ما ترغب في إيجاده على الضفّة الأخرى؟»

«أجل. وهذا ما دفعني للمجيء حتى هنا».

«كيف استطعتَ اكتشاف مدخل هذا العالم؟»

«في غرفةٍ بمأوى عجزة عند مرتفعات إيزو، قتلتُ الفكرة التي تتّخذ شكل الكومنداتور طعنًا بالسكّين. قتلته بعد الاتّفاق معه على ذلك. وهكذا استُدعي طويل الوجه، وأمرته بفتح الفُتحة المؤدّية إلى تحت الأرض».

ظلّ عديم الوجه ساكتًا لفترة طويلة، مقتصرًا على النظر نحوي بوجهه العديم. ومن يدري إن كان قد أدرك معنى كلامي!

«هل أريقت الدّماء؟» سألني.

ـ «أجل. كثيرًا» أجبته.

ـ «وهل كانت دماءً حقيقيّة؟»

ـ «هكذا بدت لي».

ـ «انظر إلى يديْك».

نظرتُ إلى كلتا يديَّ. لم يكن عليها أيُّ أثرٍ للدّماء. لعلّها اختفت حين غسلت يديّ واغترفتُ بهما من ماء النهر منذ قليل. مع أنّي أذكر أنّهما تلطّختا بكمّيّةٍ كبيرة من الدّماء.

قال عديم الوجه: «لا بأس. دعني أرسلك إلى الضّفّة الأخرى من النّهر على هذا المركب. ولكنْ ثمّة شرطٌ واحدٌ لذلك».

انتظرتُ حتى ينطق به.

«عليك أن تدفع لي المقابل اللّائق لهذا العمل. هذا ما تنصّ عليه القاعدة في هذه الحالة».

«هل تعني أنّني لن أستطيع العبور إلى الضفّة الأخرى ما لم أدفع المقابل؟»

«أجل. ولن يكون أمامك إلّا البقاء على هذه الضفّة إلى الأبد. إنّ ماء هذا النهر بارد، واندفاع التيّار جارف، والقاع عميق. ثمّ إنّ الأبد فترةٌ طويلة جدًّا. ولست أبالغ».

«ولكنّي لا أملك شيئًا أدفعه لك».

قال الرجل بصوتٍ هادئ: «أخرج كلّ ما في جيوبك وأرِني».

أخرجتُ كلّ ما في جيوب المعطف والبنطلون ولم أُبقِ على شيء. ثمّة مبلغٌ نقديّ في حافظة النقود لا يصل إلى عشرين ألف ين، وبطاقة

الائتمان، وبطاقة السّحب الفوريّ من البنك، ورخصة القيادة، وكوبون تخفيض وقود السيّارة. إضافةً إلى حلقةٍ تحمل ثلاثة مفاتيح، ومنديل بلون القشدة، وقلم جافّ، وخمس أو ست قطعٍ من العملات المعدنيّة. هذا كلُّ شيء. والمصباح اليدويّ أيضًا.

هزَّ عديم الوجه رأسه، وقال: «أنت مسكين. ليس هناك بين كلّ هذه الأشياء ما يصلح أجرة للعبور. فالنقود لا معنى لها هنا. ألا تحمل شيئًا مختلفًا؟»

لم أكن أحمل أيَّ شيءٍ آخر. سوى ساعة رخيصة في معصم يدي اليُسرى، ولكنْ ليس للزمن هنا أيُّ قيمة.

«إن كان لديك ورقة، يمكنني أن أرسم لوحةً لوجهك. فليس لديَّ شيءٌ آخر سوى مهارتي في رسم الوجوه».

ضحك عديم الوجه، أو هذا ما بدا لي: من عمق الفراغ الموجود بدلًا عن وجهه، صدر تردُّدٌ خفيفٌ تناهى إلى مسمعي كالضحكة.

«ليس لديَّ وجه، هذا أوّلًا. كيف سترسم وجهًا لرجل عديم الوجه؟ كيف ستستطيع صنع لوحة من العدم؟»

«إنّني رسّامٌ محترف، أستطيع أن أرسم صورةً لوجهٍ حتى لو لم يكن هناك وجه».

لم أكن واثقًا إطلاقًا من أنّني أستطيع رسم وجهٍ لرجلٍ عديم الوجه. لكنَّ التجربة قد تستحقّ العناء.

قال عديم الوجه: «لديَّ فضولٌ كبيرٌ حيال اللّوحة التي ستنتج عن ذلك. ولكنْ للأسف ما من أوراقٍ هنا».

نظرتُ إلى موضع قدمي. قد أتمكّن من رسمها على الأرض باستخدام عصا. لكنَّ الأرض كانت طبقةً صخريّةً صلدة. هززتُ رأسي.

«أهذا حقًّا كلُّ ما تحمله معك؟»

بحثت في جيوبي مرّة أخرى تحسُّبًا. لا شيء في جيوب المعطف الجلديّ. كانت فارغة تمامًا. لكنّي انتبهتُ إلى شيءٍ صغير في عمق جيب البنطلون: تميمة البطريق البلاستيكيّة. تلك التي عثر عليها منشكي في قاع الحفرة وأعطاها لي. مزوّدة بشريطةٍ للتّعليق. إنّها تميمة الحماية التي كانت مارية أكيكاوا تعلّقها في هاتفها الجوّال لحمايتها. وقد وقعت لسببٍ ما داخل الحُفرة.

قال عديم الوجه: «أرِني ما في يدك».

فتحتُ راحةَ يدي وأريتُه تميمةَ البطريق.

ظلَّ ينظر إليها بعينَيْه الموجودتَيْن في الفراغ، حتى الرجل: «لا بأس بهذه. فلنجعلها هي الأجرة».

هل أُحسن صنعًا إن أعطيته ذلك الغرض؟ إنّها التميمة التي كانت مارية أكيكاوا تحتفظ بها بعنايةٍ شديدة. وهي ليست ملكًا لي. تُرى هل يمكنني أن أعطيها من نفسي لكائنٍ من كان؟ ألن يحدث أيُّ ضررٍ لمارية أكيكاوا جرّاء فعلتي هذه؟

لم يكن لديّ رفاهية الاختيار. فإن لم أعطها لعديم الوجه، لن أستطيع العبور إلى الضفّة الأخرى من النهر، وبذلك قد لا أستطيع العثور على مارية أكيكاوا. وقد يضيع مقتل الكومنداتور سُدًى.

تجرّأتُ وقلتُ: «سأعطيها لك أجرًا لعبوري. أرجوك، أحملني إلى الضفّة الأخرى».

أومأ عديم الوجه، ثمّ قال: «ربّما أطلب منك في وقتٍ ما أن ترسم بورتريه لوجهي. وإن استطعتَ سأعيد لك تميمة البطريق».

تقدَّم الرجل أمامي وركب المركبَ الموثوق في مقدّمة الرصيف الخشبيّ. كان يشبه صندوقَ حلوى في هيئة مربّعٍ مستوٍ أكثر ممّا يشبه المراكب. صُنع من ألواحٍ خشبيّةٍ سميكةٍ ومتينة، وطويلةٍ ورفيعة، ولا يبلغ طوله الإجماليّ أكثر من متريْن. ومن الوارد أنّه لا يستطيع حمْلَ عددٍ كبيرٍ من الركّاب في المرّة الواحدة. ثمّة عمودٌ غليظٌ مثبّتٌ في منتصفه، وفي قمّته حلقةٌ حديديّة تبدو متينة، قطرها عشرة سنتيمترًا تقريبًا. وكان هناك حبلٌ غليظٌ يمرّ فيها. الحبل مشدودٌ لا يعتريه أيّ ارتخاء بين الضفّة والأخرى. وظيفته أغلب الظنّ أن يثبّت المركب جيّدًا أثناء عبوره ذلك التيّار الجارف. ويبدو أنّ المركب مُستخدمٌ منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا، فليس فيه محرّكٌ أو مجداف. إنّما مجرّد صندوقٍ خشبيٍّ يطفو على سطح الماء.

ركبتُ بعده. كان في قاع المركب لوحٌ خشبيٌّ يصل بين طرفيْه، فجلستُ عليه. وقف عديمُ الوجه مستندًا بظهره إلى العمود المثبّت في المنتصف، وقد أغمض عينيْه وأطبق فمه كأنّه ينتظر حدوثَ شيءٍ ما. والتزمتُ الصّمت بدوري، فلم أنبس ببنت شفة. مرّت دقائق عدّة في صمتٍ تامّ، حتى إذا حسم المركب قراره، تقدَّم ببطء نحو الأمام. لم أفهم ما القوّة المحرّكة للمركب، لكنّنا كنّا نتقدَّم باتّجاه الضفّة المقابلة، في صمتٍ مُطبق. لا أسمع صوت محرّكٍ أو أيّ ماكينةٍ من أيّ نوع. وما وصل إلى أذنيّ إلّا ارتطام الماء بجانبَي المركب بشكلٍ متواصل. كان المركب يتقدَّم بسرعة مشي الإنسان تقريبًا. اهتزّ من اندفاع الماء، ومال على جانبه، ولكنْ بفضل ذلك الحبل المتين لم ينجرف مع التيّار. وكما قال الرجل بالتّأكيد، من المستحيل لأحد أن يعبر خلال ذلك التيّار الجارف بدون مركب. كان عديم الوجه يستند في هدوء إلى العمود رغم اهتزاز المركب وكأنّ شيئًا لم يكن.

حاولتُ أن أسأله في منتصف النّهر تقريبًا: «تُرى هل سأعرف أين مارية أكيكاوا عندما أصل إلى الضفّة الأخرى؟»

فأجاب: «وظيفتي تقتصر على العبور بك إلى الضفّة الأخرى، وأن أجعلك تخترق الحدّ الضيّق الفاصل بين الوجود والعدم. أمّا ما يتلو ذلك فليس من مهامي».

أخيرًا، سمعتُ صوت ارتطام: توقّف المركب بعد أن خبط في الضفّة الأخرى بخفّة. ظلّ عديم الوجه على حاله حتى بعد توقّف المركب، مستندًا إلى العمود الغليظ كأنّه يتأكّد من شيءٍ ما في ذهنه. ثمّ أخرج زفيرًا كبيرًا من الفراغ، ونزل، وصعد فوق ذلك الرّصيف، ونزلتُ في إثره. كان الرّصيف يشابه الرّصيف الذي أقلعنا منه، وكذلك الآلة التي تشبه الرافعة فوقه. حتى إنّني أحسست أنّنا ذهبنا ورجعنا إلى المكان نفسه الذي انطلقنا منه. ولكنّني عرفتُ على الفور أنّ ذلك ليس صحيحًا، بمجرّد أن غادرتُ الرّصيف ووطأتُ بقدميّ على الأرض. فهذه أرض الضفّة الأخرى من النّهر، لأنّها طينيّة عاديّة لا صخريّة صلدة.

قال عديم الوجه: «عليك التّقدُّم فيما يلي بمفردك».

«حتى وإن كنتُ لا أعرف الطريق ولا الاتّجاه؟»

قال الرجل بصوتٍ خفيضٍ يصدر من وسط الفراغ حليبيّ اللّون: «هذه الأمور ليست ضروريّة. لقد شربتَ من ماء النهر، أليس كذلك؟ فإن تحرّكتَ، ستُولد الأشياء ذات العلاقة تبعًا لذلك. هذه هي طبيعة هذا العالم».

وبقوله هذا، اعتمر عديمُ الوجه القبّعة عريضةَ الحوافّ مرّة أخرى، وأولاني ظهره عائدًا إلى المركب. وعاد المركب ببطءٍ من خلال الحبل مثلما جاء. وكأنّه حيوانٌ أليفٌ تعوّد على ذلك. ثُم توحّد المركب مع عديم الوجه واختفيا في الضباب.

غادرتُ رصيف المرسى، وبدأتُ السَّير متوجِّهًا في طريق مصبّ النهر. من الأفضل لي ألَّا أبتعد عن النهر. وبذلك أستطيع الشرب عندما يجف حلقي. نظرتُ إلى الخلف بعد حين: كان رصيف المرسى قد اختفى بالفعل في عمق الضباب الأبيض. وكأنَّه لم يكن له وجودٌ من الأصل.

وكان عرض النَّهر يزداد تدريجيًا والتيَّار يهدأ بشكلٍ ظاهر للعين. لم تَعُد الأمواج تصنع زبدًا، وتلاشى صوت الماء تقريبًا. فكَّرتُ حينها أنَّه كان من الأفضل لو أنشئ مرسى العبور في هذا المكان الهادئ بدلًا من العبور عند التيَّار العنيف. فحتى لو زادت المسافة قليلًا سيكون العبور مريحًا أكثر. ولكنْ لهذا العالم مبادئه وقواعده وطريقة التَّفكير الخاصَّة به. أو قد يحتوي هذا المكان ذو التيَّار الهادئ على أخطارٍ عظيمة.

حاولت أن أضع يدي داخل جَيْب البنطلون. لم أجد تميمة البطريق طبعًا. اعتراني قلقٌ لم أستطع تجنُّبه من أنّي فقدتُ تميمة الحماية تلك (لا بدَّ أنّي فقدتها إلى الأبد). ربَّما اخترتُ الخيار الخاطئ. ولكنْ ما الذي كان بوسعي إعطاؤه لعديم الوجه؟ أملتُ أن تكون مارية أكيكاوا بخير حتى ولو كانت بعيدة جدًّا عن تلك التميمة. فليس أمامي سوى الأمل.

تقدَّمت على الأرض الطينيّة المحاذية للنَّهر، حاملًا المصباح الذي أخذته من جوار سرير توموهيكو أمادا. كان زرّ الإضاءة مطفأً، ما من ضرورةٍ لإشعاله، مع أنَّ المكان ليس مضيئًا بدرجةٍ كبيرة. فقد كنتُ أرى موضع قدميَّ جيِّدًا، وأرى على بعد أربعة أو خمسة أمتارٍ أمامي. وكان النهر يجري على يساري في هدوء. والضفَّة الأخرى تظهر في بعض الأحيان، ضبابيَّة وغير واضحة المعالم.

وكلَّما مضيتُ قُدُمًا تكوّن أمامي ما يشبه الطريق. أو ما يؤدِّي وظيفة الطريق. تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ بشرًا قد مرُّوا من هنا سابقًا. ثمَّ صارت الطريق

تبتعد عن النهر شيئًا فشيئًا. توقّفتُ في أحد الأماكن محتارًا. تُرى هل عليّ التّقدُّم بمحاذاة النهر أم اتباع هذا المسار الذي يشبه الطريقَ مبتعدًا عن النّهر؟

فكّرت قليلًا ثمّ اخترتُ اتّباع الطريق الذي يبتعد عن النهر. لأنّني أحسستُ أنّه سيقودني إلى مكانٍ ما. لقد قال لي عديم الوجه الذي يعمل في مرسى العبور: إن تحرّكتَ أنت، ستُولد الأشياءُ ذات العلاقة تبعًا لذلك. ربّما كانت تلك الطريق أحد تلك الأشياء. قرّرتُ أن أطيع هذه الإشارات الطبيعيّة (أو التي تبدو كذلك).

مع الابتعاد عن النّهر، أصبحت الطريقُ ترتفع تدريجيًا. وبدون أن أشعر، اختفى صوت الماء. مشيت صاعدًا على مَيلانٍ طفيف، في خطٍّ مستقيمٍ، محافظًا على إيقاع خطواتٍ ثابت. كان الضباب قد اختفى بالفعل، لكنّ الإضاءة ماتزال باهتة وضبابيّة، فلم أستطع رؤية الطريق في الأمام. تقدّمتُ وسط تلك الإضاءة وأنا أتنفّس بانتظامٍ، وأحترس من مواضع قدميّ.

تُرى كم من الوقت مشيت؟ لقد فقدتُ أيَّ إحساسٍ بالزمن منذ مدّة، وفقدتُ إحساسي بالاتّجاهات. ولعلّ السّبب هو أنّني كنتُ أمشي وأنا دائم التّفكير في أمرٍ ما. لديَّ كثيرٌ من الأمور تشغل بالي. لكنّني في الواقع لا أستطيع إلّا أن أفكّر بأجزاءٍ متناثرةٍ منها. وكلّما حاولت التّفكير في أمرٍ ما، طرأ عليه أمرٌ آخر. وكانت الفكرة الجديدة تبتلع الفكرة التي سبقتها مثلما تبتلع سمكةٌ كبيرةٌ سمكةً صغيرة. وعلى هذا المنوال، تنحرف الأفكار أكثر وأكثر إلى اتّجاهٍ خارج السّياق. فأجدني في النهاية لا أعرف ما الأمر الذي كنتُ أفكّر به، وما الأمر الذي أحاول عدم التّفكير به.

وبسبب هذا الاضطراب في الوعي، تشتّتتْ قدرتي على الانتباه، وكنتُ على وشك الاصطدام حرفيًا بذلك الشيء. لكنّني تعثّرت صدفةً في

شيءٍ ما، وحافظتُ على توازني بصعوبة، وتوقّفت في ذلك المكان ورفعتُ وجهي عن الأرض. أحسّ جلدي بأثرِ تغيُّر الهواء تغيُّرًا مفاجئًا وسريعًا. وعندما استعدتُ وعيي، تبدّت كتلةٌ سوداء عملاقة شامخة أمام عينيَّ وتقترب منّي. كتمتُ أنفاسي وفقدتُ النطق. ولم أعد أفهم شيئًا للحظة. ما هذا؟ استغرق الأمر وقتًا حتى استوعبت أنها غابة. في عالمٍ لا أثر فيه لشجرةٍ واحدة أو ورقةِ شجرٍ يتيمة، تظهر فجأةً غابةٌ من الأشجار على مدّ النظر. من المستحيل ألّا أصاب بالدّهشة.

ولكنّها غابة بلا شكّ. الأشجار متشابكة تشابكًا معقّدًا، والأغصان لا تترك فراغاتٍ بينها. كانت كثيفة كثافةً شديدة. وربّما كان الأقرب وصفها بـ«بحر أشجار» بدلًا من غابة. وقفتُ أمامها وأصَخْتُ سمعي جيّدًا، لكنّي لم أسمع شيئًا. ليس هناك ارتدادٌ لاهتزاز الأغصان بفعل الرياح، ولا صوتُ طيور. لم يصل إلى أذنيّ أيّ نوع من الأصوات. ما من صوتٍ هناك على الإطلاق.

أحسستُ برعبٍ غريزيّ حيال الدخول بقدميّ إلى تلك الغابة. كان تشابك الأشجار يخلّف ظلامًا عميقًا في داخلها. لا أعلم مدى حجمها ولا إلى أيّ مدى تستمرّ الطريق فيها. وقد تتفرّع الطريق داخل الغابة لتكوِّن متاهة. وإن تهتُ فيها فمن الصّعب أن أخرج منها. ورغم ذلك، لم يكن أمامي خيارٌ آخر سوى الجرأة على دخولها. فالطريق التي جئتُ عليها تنتهي في خطٍّ مستقيمٍ داخل الغابة (وكأنّها سكّة قطار تغطس في نفق). ولا يمكن أن أعود للخلف باتّجاه النهر بعد أن وصلت حتى هنا. وبالمقابل، لا تأكيد على أنّني إن عدتُ سأجد النهر في مكانه. اتّخذت قراري بالتّقدُّم والسّير في هذه الطريق، مهما كان الحدث.

دخلتُ بقدميّ إلى الغابة. كان الضوء لا يوضح ما إن كنّا في الفجر أم الظهر أم الغروب! ما أعرفه هو أنّ ذلك الظلام الخافت الذي يشبه الستائر

الخافتة لا يُبدي أيَّ تغيير مهما مرّ من وقت. وربّما لا وجود للزمن في هذا العالم أساسًا. وقد يستمرّ ذلك الضوء إلى الأبد بدون شروقٍ أو غروب.

وبالتّأكيد، كانت الغابة مظلمة. تُغطّي الأغصانُ الكثيفة المكوّنة من عدّة طبقات السّماءَ فوقي. لكنّي لم أشعل المصباح، فلقد اعتادت عيناي تدريجيًا على الظلام، واستطعت رؤية موضع قدميّ بشكلٍ أو بآخر. ولأنّني لم أكن أرغب في استهلاك بطّارية المصباح بلا جدوى. سرتُ طويلًا في طريق الغابة المظلمة وأنا أحاول ألّا أفكّر في أيِّ شيء. فقد يقودني ذلك التّفكير إلى طريقٍ أكثر ظلمةٍ من أيِّ مكانٍ آخر. كانت الطريق من بدايتها إلى نهايتها تصعد بمَيَلانٍ طفيف. ولا صوتٌ أسمعه عدا صوتَ خطواتي. وكان هو كذلك منخفضًا وخفيًّا كأنّه يُكتَم في الهواء. أملت ألّا يراودني العطش، فلقد بعدتُ عن النهر كثيرًا، وما عاد بإمكاني العودة للشرب حتى إن عطشت.

تُرى كم مشيت من الوقت؟ كانت الغابة عميقةً في كلِّ جهاتها، رتيبةً لا تتغيّر مناظرها. ولم تتغيّر درجة الإضاءة. ولم أسمع بعد شيئًا إلّا صوت خطواتي. الهواء رتيبٌ أيضًا، لا طعم فيه ولا رائحة. الأشجارُ بجوار بعضها كحائطيْن على الجانبيْن، ولا أرى أيَّ شيءٍ آخر سواهما. ألا تعيش حيواناتٌ في هذه الغابة؟ أليس فيها كائناتٌ حيّة؟ لا طائر ولا حشرة على مرمى البصر.

ومع ذلك، أحسست دومًا أنّني تحت المراقبة: ذلك الإحساس الحيّ المزعج. كأنّ عددًا من العيون تراقب تحرّكاتي من بين ثغرات الحائط الكثيف من الأشجار وسط الظلام، وكأنّها ترصد حركتي وسكوني. أحسّ جلدي بتلك النظرات الحادّة المؤلمة كأنّها أشعّةٌ تركّزت من خلال بؤرةِ عدسة. إنّهم يشاهدون ما الذي أحاول فعله. هذا مجال نفوذهم وسيادتهم،

وأنا مقتحمٌ بمفردي. هذا لا يعني أنّني رأيت عيونهم. لعلّه مجرّد وهم. إنّ الشكّ والرُّعب يصنعان وسط الظلام عيونًا خياليّة متعدّدة.

ومن جانب آخر، تقول مارية أكيكاوا إنّ جلدها استطاع الإحساس بوضوح بنظرات منشكي من خلال المنظار المكبّر على الجانب المقابل من الوادي. استطاعت تلك الفتاة أن تعرف أنّها تحت مراقبة يوميّة من أحدٍ ما. وكانت حاستها تلك صحيحة. لم تكن نظراتُه خياليّةً على الإطلاق.

ومع ذلك، قرّرتُ أن النظرات التي تنصبُّ عليّ خياليّة، ولا وجود لها في الواقع. هو مجرّد وهمٍ صنعه إحساسي بالخوف. من الضروريّ أن أفكّر هكذا. على أيّ حال، يجب أن أجتاز هذه الغابة الضخمة (لا أعرف حجمها بالضبط)، وأن يبقى عقلي بحالةٍ طبيعيّة قدر الإمكان.

ولحسن الحظّ، لم أقابل مفترقات طرقٍ مطلقًا. لذا، لم أقع في حيرة اختيار الطرق، ولمِ أدخل في متاهةٍ مجهولةِ المصير. ولم أقابل أغصانًا ذوات أشواكٍ حادّة تعيق طريقي. كان يكفيني السَّيْر إلى الأمام في طريقٍ واحدةٍ ضيّقة.

تُرى ما طول الوقت الذي مشيتُه في هذه الطريق؟ وقتٌ طويلٌ جدًّا أغلبُ الظنّ (حتى وإن لم يكن للزمن معنى في هذا العالم). ولم أكن أشعر بأيّ إرهاق. يبدو أنّ أعصابي كانت هائجةً ومتوتّرةً لدرجةٍ طغت على الإحساس بالتعب. ولكنْ، عندما بدأت قدماي بالتثاقل، أحسستُ أنّني أرى مصدرًا للضوء من عمق الطريق. نقطة صغيرة صفراء تشبه ضوءَ الحباحِب. ولكنّها ليست حُباحِب. كانت تلك النقطة واحدةً فقط، تظلّ مشتعلةً فلا تهتزّ ولا تنطفئ. يبدو أنّها أشعةُ ضوءٍ صناعيٌّ مثبّتٍ في مكانٍ ما. وكلّما تقدّمت في الطريق كبرت تلك الأشعة واشتدّ ضياؤها. ما من شكّ: إنّني أتقدّم إلى الأمام في اتّجاه شيءٍ ما.

وليس هناك من سبيلٍ لمعرفة كنهها: أهي خيرٌ أم شرّ؟ هل ستنقذني أم ستضرّ بي؟ في كلتا الحالتين، لم أكن أملك حريّة الاختيار. وليس أمامي إلّا الذهاب إلى هناك والتأكّد بنفسي من الضوء، خيرًا كان أم شرًّا. وإن كنتُ أكره ذلك، فما كان ينبغي لي المجيء إلى هذا العالم أساسًا. مشيتُ خطوةً بخطوة متّجهًا إلى مصدر ذلك الضوء.

ثمّ انتهت حدود الغابة فجأةً. اختفى السور المكوّن من الأشجار على الجانبيْن، فإذا بي أصل إلى مكانٍ مفتوح يشبه الساحة. اجتزت الغابة أخيرًا وخرجت منها. كانت أرض الساحة مستويةً وتتّخذ شكلًا مضبوطًا يشبه نصف دائرة. وهنا استطعتُ رؤية السّماء فوقي. وأنار المكانَ حولي ضوءٌ يشبه السّتائرَ الخفيفة مرّةً ثانية. كانت مقدّمة الساحة عبارةً عن جرْفٍ شديد الانحدار، وفي جوفه فُتحةُ كهف. والضوء الأصفر الذي رأيته إنّما يتسرّب من فُتحة الكهف هذه.

خلفي غابةٌ موحشةٌ وأمامي جرفٌ شامخٌ (لا يبدو أنّني سأستطيع تسلُّقه)، وفيه مدخلٌ لكهف. نظرت عاليًا إلى السّماء مرّةً أخرى، ثمّ درتُ بنظري في المكان حولي. ليس هناك ما يشبه الطريق. ليس أمامي سوى دخول الكهف. وقبل ذلك، سحبتُ نَفَسًا عميقًا أكثر من مرّة، وأعدتُ تنظيم وعيي بقدر الإمكان. إنّ العلاقة تولد مع تقدُّمي إلى الأمام. لقد قال عديم الوجه ذلك. عليَّ اختراق الحدّ الفاصل بين الوجود والعدم. وليس أمامي إلّا أن أُلقي بنفسي في المعمعة وأن أثق بكلامه.

وضعتُ قدميّ داخل الكهف باحتراسٍ شديد، فأدركتُ أمرًا ما: لقد دخلت هذا الكهف من قبل. أذكر أنّني رأيت شكل هذا الكهف من قبل. وهذا الهواء أيضًا، أذكره. فإذا بالذاكرة تُبعَثُ من جديد: إنّه كهف جبل فوجي؛ الكهف الذي زرته مع شقيقتي كوميتشي عندما صحبنا خالنا الشاب في العطلة

الصيفيّة إلى هناك. كانت كومي قد دخلتْ وحدها إلى جُحْرٍ أفقيٍّ بسلاسة واختفت لفترةٍ طويلة. وكنت خلال غيابها أسيرًا لقلقٍ يساورني في حال اختفت إلى الأبد: قلقٍ من أن يبتلعها قصرُ التّيه المظلم تحت الأرض إلى الأبد.

لقد قال عديم الوجه: إنَّ الأبد فترةٌ طويلة جدًّا.

تقدّمتُ ببطء في اتّجاه تسرُّب الضوء الأصفر داخل الكهف، محاولًا قدر الإمكان عدم إصدار أيِّ صوتٍ بقدميّ، والسّيطرة على خفقان قلبي. وعندما انعطفتُ عند ركنٍ من الحائط الصخريّ، استطعت رؤيةَ مصدر الضوء. كان قنديلًا قديمًا؛ وقد ألصقت به حواف حديديّةٌ سوداء من النوع الذي يستخدمه عمّال مناجم الفحم داخل الأنفاق. تشتعل داخل القنديل شمعةٌ غليظة. وكان يتدلّى من مسمارٍ غليظٍ دُقّ في الصخر.

أذكر أنّني سمعت كلمة «قنديل» من قبل. الاسم يرتبط باسم تنظيم الطلّاب السرّيّ في فيينّا المقاوم للنازيّة، والذي يُعتَقد أنَّ تومو هيكو أمادا انخرط فيه. بدأتْ أمورٌ عديدة ترتبط ببعضها بعضًا.

رأيت امرأةً تقف تحت القنديل. كانت صغيرةَ الحجم جدًّا، وهذا سبب أنّني لم أنتبه إلى وجودها من البداية. طولها لا يزيد عن ستّين سنتيمترًا. وشعرها الأسود معقودٌ على رأسها بجمال، وملابسها تاريخيّة بيضاء، وتبدو فاخرة. وكما توقّعت: كانت إحدى الشّخصيّات التي خرجت من لوحة «مقتل الكومنداتور». إنّها المرأة الشابّة الجميلة التي كانت تراقب مشهدَ القتل طعنًا، ويدُها على فمها. وبحسب أوبرا موتسارت «الدون جوفاني»، فهي الدونة أنّا. ابنة الكومنداتور الذي قتله دون جوفاني.

اهتزَّ ظلُّها الأسود إذ تلقّى أشعّة القنديل، وهو ينعكس زاهيًا ويتضخّم على الحائط الصّخريّ من خلفها.

قالت لي الدونة أنّا: «لقد كنتُ في انتظارك».

-55-
شيءٌ ما يُخالف المنطق بكلّ وضوح

«لقد كنت في انتظارك»، قالت لي الدونّة أنّا. على الرّغم من جسمها المصغّر، كان صوتها نقيًا وصادحًا.

فقدتُ أيَّ قدرةٍ على الدّهشة في ذلك الحين. لا بل اعتبرتُ وجودها بانتظاري هناك، وفي تلك الساعة، تطوّرًا طبيعيًا لمجريات الأمور. كانت امرأةً جميلةَ الوجه. تتمتّع بنُبلٍ وأناقةٍ عفويّة، تنعكس في صوتها المهيب. ومع أنّ قامتها لا تزيد عن ستّين سنتيمترًا، كان لديها شيءٌ ما يجذب قلوبَ الرجال! «من الآن فصاعدًا، سأكون دليلك. هاتِ القنديل من فضلك»، قالت.

أطعتُها وأخذت القنديل من المسمار على الحائط. لا أدري مَن علّقه هناك، في نقطةٍ مرتفعة لا تستطيع الوصولَ إليها بيديْها. ثمّة حلقةٌ معدنيّة مركّبة في قمّة القنديل، لتعليقه في المسمار، أو لحمله باليد أثناء التنقُّل.

«هل كنتِ تنتظرين وصولي؟» سألتها.

«أجل. أنتظرك هنا منذ فترةٍ طويلة جدًّا».

تُرى هل هي أيضًا نوعٌ من أنواع المجاز؟ خجلتُ من طرح سؤالٍ كهذا عليها بلا مقدّمات.

«هل تعيشين في هذه الأرض؟»

ردّدت الكلام بوجهٍ مرتاب: «هذه الأرض؟ لا، إنّني أنتظركِ هنا فحسب. ولا أفهم ما الذي تعنيه بهذه الأرض؟»

عدلتُ عن توجيه أسئلةٍ أخرى. إنَّها الدُّونَة أنَا، وكانت موجودةً هناك من أجلي.

كانت ترتدي رداءً أبيض من القماش، كالذي كان الكومنداتور يرتديه. من الحرير أغلب الظنّ. مصنوعٌ من عدَّة طبقاتٍ من القماش، وتحته ما يشبه البنطلون الفضفاض. لا يُمكن رؤية قوامها من الخارج، لكنَّها تبدو نحيلةً ورشيقة. وكانت تنتعل حذاءً صغيرًا من جلدٍ أسود.

قالت: «هيّا بنا. فليس هناك متَّسعٌ من الوقت. والطريق تضيق بمرور كلّ لحظة. أمسك القنديل واتبعني».

رفعتُ القنديل فوق رأسها فأنير الدربُ، ومشيتُ خلفها. سارت الدونَّة أنَا باتّجاه عمق الكهف، بخطواتٍ سريعة لكأنّها معتادةٌ على سلك ذلك الدَّرب. وكان لهب الضوء يهتزّ على وقع خطواتنا، فتتراقص الظلالُ الدَّقيقة على الحائط الصَّخريّ المحيط بنا كأنّها موزاييك حيّ.

«هذا المكان يشبه كهفًا زرته في الماضي، أسفل جبل فوجي»، قلتُ: «هل نحن في ذلك الكهف؟»

فأجابت من دون أن تلتفت إلى الخلف، كأنّها تتحدَّث إلى الظلام الحالك أمامها: «كلّ ما هو موجود هنا يشبه شيئًا آخر».

«أهذا يعني أنّه لا شيء حقيقيًا هنا؟»

ردَّت بنبرةٍ حازمة: «لا أحد يعرف ما الحقيقيّ بالضّبط. فكلُّ ما تراه العين ما هو إلّا ناتج عن العلاقة. الظلّ الموجود هنا هو كناية عن الضوء. أعتقد أنّك تعرف ذلك».

لا أعتقد أنّي فهمتُ معنى كلامها، لكنّي أحجمتُ عن مزيد الأسئلة، لئلّا يتحوّل الحديث إلى نقاشٍ فلسفيّ رمزيّ.

كان الكهف يضيق كلّما توغّلنا في داخله؛ وسقفه ينخفض حتى اضطررت إلى السّير منحنيًا. مثلما حدث لي في كهف فوجي تمامًا. توقّفت الدونّة أنّا أخيرًا، والتفتت ونظرت إليّ عاليًا بتيْنك العينيْن الصغيرتيْن السّوداويْن.

«وصلنا إلى آخر نقطةٍ يمكنني إرشادك إليها. من الآن فصاعدًا عليك أن تتقدّم أمامي وتسير قبلي. سأتبعك حتى منتصف الطريق. وبعد ذلك، عليك أن تتقدّم بمفردك».

أسير قبلها إلى الأمام؟ صدمتني كلماتها. لأنّي إذا أمعنتُ النّظر، لا أرى إلّا أنّنا قد وصلنا إلى نهاية الكهف. ليس هناك إلّا حائطٌ صخريّ مُظلم يسدّ الطريق إلى الأمام تمامًا. أضأتُ الحائطَ بالقنديل، فكان مثلما توقّعتُ تمامًا: إنّها نهاية الكهف.

«يبدو لي أنّه ما من طريقٍ تفضي إلى أيّ مكان»، قلت.

«انظر جيّدًا. هناك مدخلٌ لجُحْرٍ أفقيٍّ في الرُّكن الأيسر».

أضأتُ حول الرُّكن الأيسر بالقنديل ثانيةً. اقتربتُ نحوه قليلًا لأرى بإمعانٍ وانتباه، فوجدتُ أنّ هناك تجويفًا بالفعل، ما يشبه الظلّ المُظلم المتواري في ظهر صخرةٍ كبيرة. دخلتُ بين الحائط والصخرة وتفحّصتُ المكان. يبدو أنّه مدخلٌ لجُحْرٍ أفقيٍّ في الحائط حقًّا. يشبه الجُحر الأفقيّ الذي دَخَلَتْه شقيقتي في كهف فوجي إلى حدٍّ كبير، لكنّ هذا كان أكبر منه نوعًا ما. ووفقًا لذاكرتي، فإنّ الجحر الأفقيّ الذي دخلته شقيقتي أضيقُ من هذا.

التفتُّ إلى الخلف ونظرتُ نحو الدونّة أنّا. فقالت المرأةُ الجميلة ذاتُ السّتّين سنتيمترًا: «عليك أن تدخل الجحر».

نظرتُ إلى وجهها الجميل، باحثًا عن كلماتٍ أقولها. كان ظلُّها الذي تمدَّد طويلًا بفعل ضوء القنديل الأصفر يرتجّ على الحائط.

قالت: «إنّني أعلم أنّك تعاني منذ زمنٍ بعيد من رهاب الأماكن المُظلمة والضيّقة. وأنّك إذا دخلت مكانًا كهذا تستصعب التّنفُّس بشكلٍ طبيعيٍّ. أليس كذلك؟ ورغم هذا، لا مفرّ من دخول الجحر. وإلّا لن تحصل على ما تريد».

«إلى أين يؤدّي هذا الجحر الأفقيّ؟»

«هذا ما لا أعرفه. نهايته تتقرّر بإرادتك أنت».

«لكنّ إرادتي ما تزال تحت سطوة الخوف. هذا ما يُقلقني. أن تقلب مخاوفي الأمورَ رأسًا على عقب، فأجدُني أتوغّل في اتّجاهٍ خاطئ».

«أكرّر كلامي: أنت مَن يقرّر الطريق. ثمّ إنّك أنت الذي اخترت بنفسك الطريقَ التي سلكتها. لقد أدّيتَ تضحيةً كبيرة ودخلت هذا العالم. ركبتَ المركب وعبرتَ النهر. ولم يَعُد التراجع ممكنًا».

نظرتُ ثانية إلى مدخل الجُحر الأفقيّ. وعندما فكّرتُ أنّني مرغمٌ على دخول ذلك الحيّز المظلم والضيّق، ارتعدتُ من الرُّعب. لكنْ هذا ما يجب عليّ فعله. كما قالت بالضبط، لم يَعُدْ التراجع ممكنًا. وضعتُ القنديل على الأرض وأخرجتُ المصباح اليدويّ من جيبي. فلا يُمكنني إدخال القنديل في تلك الفتحة الضيّقة.

قالت الدونّة أنّا بصوتٍ منخفضٍ لكنّه مسموع: «ثق بنفسك. لقد شربتَ من ماء النهر، أليس كذلك؟»

«بلى. شعرتُ بجفافٍ في حلقي، ولم أحتمل العطش».

«هذا جيّد. فالنهر يجري في الحدّ الفاصل بين الوجود والعدم. وإنّ المجاز الرائع يوضّح الاحتمالات التي تتخفّى داخل كلّ الأشياء. تمامًا

مثلما يستطيع الشاعرُ الرّائع أن يرى في منظرٍ حقيقيّ، منظرًا مختلفًا فيجعله أكثر حقيقيّة وحيويّة. ومن نافل القول إنّ أفضل المجاز يُعدُّ أفضل الأشعار. عليك ألّا تحيد ببصرك عن ذلك المنظر الجديد والمختلف».

فكّرتُ أنّ لوحة «مقتل الكومنداتور» التي رسمها توموهيكو أمادا قد تكون «منظرًا جديدًا ومختلفًا». تلك اللّوحة عبارةٌ عن مجازٍ رائع يخلق في هذا العالم واقعًا جديدًا ومختلفًا، تمامًا مثلما تفعل كلمات الشاعر.

أشعلتُ المصباح وتفحّصتُ إضاءته. حزمة الضوء لا تهتزّ، يبدو أنّ للبطاريّة قدرةً على التّحمّل لفترةٍ طويلة. نزعت المعطف الجلديّ، وتركته خلفي، إذ يصعب دخول ذلك الجُحر الأفقيّ بردائي الغليظ. فأصبحتُ بالكنزة الخفيفة وبنطلون الجينز الأزرق فقط. كان الجوّ داخل الكهف لا باردًا ولا حارًّا.

وبعد ذلك، حسمتُ أمري وانحنيتُ حتى بتُّ كمن يسير على أربع، وأدخلتُ نصفي الأعلى في الجحر. كان محيطه مكوّنًا من صخور، لكنّها ملساء تمامًا كأنّها غُسِلَت بماءٍ جارٍ على مدى الأعوام. يكاد يخلو من وعورةٍ أو خشونة، لذا لم يكن التوغّل فيه صعبًا للدرجة التي توقّعتها بالنّظر إلى ضيقه. عندما لمستُ الصخر بيدي كان باردًا نوعًا ما، لكنْ فيه حرارةٌ ضئيلة. توغّلت ببطءٍ مثل حشرةٍ زاحفة، أنير الطريق أمامي بالمصباح. وفكّرت أنّ الجحر في الماضي كان يؤدّي دور المجرى المائيّ.

كان ارتفاعه يتراوح بين ستّين وسبعين سنتيمترًا، وعرضه لا يصل إلى مترٍ واحد. وليس أمامي إلّا الزحف على أربع. وبدا لي أنّه يستمر إلى ما لا نهاية، مثل أنبوبٍ طبيعيّ من الظلام، يضيق في أماكن ويتّسع في أماكن أخرى. وأحيانًا يأخذ شكل المنحنى الأفقيّ، والمنحدر الصاعد تارةً والهابط طورًا، ولحسن الحظ لا يوجد فيه مطبٌّ ذو ارتفاعٍ كبير. ولكنْ، إن

كان في الماضي مجرىً مائيًا باطنيًا حقًّا، فمن المفترض أن تندفع كمّيّةٌ هائلة من الماء في أيِّ لحظة. طرأتْ تلك الفكرة على ذهني فجأةً. وإذ فكّرت مليًا باحتماليّة الموت غرقًا داخل ذلك الظلام الضيّق، توقّفت قدماي ويداي عن الحركة من الرّعب.

حاولتُ أن أعود أدراجي. فكان من المستحيل تغيير وجهة السَّير. يبدو أنَّ الجُحر يزداد ضِيقًا من دون أن أنتبه إلى ذلك. لن أستطيع العودةَ لنفس المسافة التي جئتها وأنا أسير إلى الخلف. سيطر الرُّعب على كلِّ أنحاء جسدي. وتجمّدتُ في ذلك المكان حرفيًا. لا أستطيع التّقدُّم إلى الأمام أو التراجع إلى الوراء. كنتُ ألهث بشدَّة، وكلّ خلايا جسدي تطلب هواءً نقيًا جديدًا. تخلّت عنّي أشعّة النور كلُّها، وأصبحتُ ضعيفًا في وحدةٍ قاتلة.

قالت الدونَّة آنّا بصوتٍ حازم: «لا تتوقّف. تابع إلى الأمام». ولكنْ، أكانت هي حقًّا من تتكلّم خلفي، أم أنَّ صوتها كان مجرّد وهمٍ سمعيّ؟

«لا أستطيع التّحرُّك. ولا أستطيع التنفُّس»، قلتُ بصوتٍ مبحوحٍ ومُجهد إلى الشخص الذي يُفترض أنّه خلفي.

فقالت الدونَّة آنّا: «اربط على قلبك. عليك ألّا تفقد السَّيطرة. فإن استسلمتَ للقلق أصبحتَ لقمةً سائغة للمجاز المزدوج».

«وما المجاز المزدوج هذا؟» سألتها.

«تعرفه جيِّدًا».

«أنا؟ أعرفه؟»

فقالت: «إنّه في داخلك. يمسك الأفكار التي تعتبرها صحيحة، ويلتهمها بنَهَمٍ واحدةً بعد أخرى، وبذلك ينضخّم ويكبر. هذا هو المجاز المزدوج. إنّه الشيء الذي يعيش منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا في ظلمات ذاتك».

أدركتُ بحدسي أنّه رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء. لم أشأ أن يكون كذلك، ولكنْ ما كان بيدي إلّا أن أصدّق ذلك. على الأرجح أنّ الرجل اقتادني، وجعلني أخنق عنقَ الفتاة. وجعلني أرى الأعماق السّحيقة المُظلمة داخل قلبي ذاته. ثمّ بعد ذلك، بات يظهر في كلّ مكانٍ أذهب إليه، ويُذكّرني بوجود ذلك الظلام. هذه هي الحقيقة على الأرجح. لقد قال لي: إنّي أعلم جيّدًا ماذا ارتكبتَ وأين! بالتّأكيد هو يعرف كلّ شيء. والسّبب أنّه موجود في داخلي.

كان قلبي في فوضى ظلماء. أغمضتُ عينيّ، وحاولتُ أن أربط على قلبي في مكانٍ واحد. ضغطتُ على أضراسي. ولكن، كيف أربط على قلبي في مكانٍ واحدٍ؟ أين القلب أصلًا؟ بحثتُ داخل أنحاء جسدي بالترتيب، فلم أعثر على قلبي. تُرى أين ذهب قلبي؟

«إنّ القلب داخل الذاكرة، ويقتات على الصور»، قال صوتٌ نسائيٌّ، لكنّه ليس بصوت الدونّة أنّا. كان صوتَ كومي. صوتَ شقيقتي الصّغيرة التي توفّيت في الثانية عشرة من عمرها.

«ابحث داخل ذاكرتك»، قال ذلك الصوت الذي أشعر بالحنين إليه: «ابحث عن شيءٍ محدّد. عن شيءٍ يمكنك لمسه بيديْك».

قلتُ: «كومي؟»

ما منْ ردّ.

قلتُ: «كومي، أين أنتِ؟»

ما من ردّ، كما هو متوقّع.

بحثتُ عن ذاكرتي في وسط الظلام الحالك، كمن يبحث بيده داخل صرّةٍ مليئةٍ بالأفاعي. إلّا أنّ ذاكرتي كانت خاوية على ما يبدو. بتُّ أستصعبُ أن أستحضر حتى تلك الذكرى.

قالت كومي: «أطْفِئ النور. وأصغِ إلى صوت الرياح».

أطفأتُ المصباح، وأصغيتُ كما قالت لي. لكنّي لم أسمع شيئًا. وما سمعتُ إلّا نبضَ قلبي، وبصعوبةٍ بالغة. كان قلبي يصدر صوتًا مُضطربًا يشبه صوتَ شبّاك النافذة الحديديّة حين تهتزّ بسبب رياحٍ عنيفة.

ردّدت كومي: «أصغِ إلى صوت الرياح».

كتمت أنفاسي، وركّزت انتباهي، وأصغيتُ ثانيةً. وهذه المرّة، استطعت سماعَ صوتٍ خافت لهرير الهواء يغطّي على صوت نبض القلب. كان يرتفع أحيانًا وينخفض أحيانًا أخرى. يبدو أنّ الرّياح تهبّ في مكانٍ ما بعيد. ثمّ أحسستُ بالهواء وإن كان خفيفًا ينساب على سطح وجهي. يبدو أنّ الهواء آتٍ من الأمام. وكان يحتوي على رائحة. رائحةٍ بلا أيّ شكّ، رائحةِ التربة الرّطبة. وكانت تلك هي المرّة الأولى منذ وطأتْ قدماي أرضَ المجاز أشمّ فيها رائحة، أو ما يشبه الرّائحة. هذا الجُحْر يؤدّي إلى مكانٍ ما. مكانٍ يحتوي على روائح، أيْ إلى عالم الواقع.

قالت الدونّة آنا: «هيّا، تقدّم إلى الأمام، فوقتك محدود».

زحفتُ إلى الأمام وقد أطفأتُ المصباح. وحاولتُ أثناء ذلك أن أستنشق قليلًا من الهواء الحقيقيّ الذي يهبُّ من مكانٍ ما فأُدْخِلُه صدري.

جرّبتُ أن أنادي عليها مرّة أخرى قائلًا: «كومي؟»

ولكنْ، ما من ردّ.

اجتهدتُ في البحث داخل وعاء الذاكرة. وقتها كنّا أنا وكومي نربّي قطًا ذكرًا ذكيًا أسود اللّون، اسمه «كوياسو» (ولا أذكر سبب تسميته بهذا الاسم). التقطته كومي في طريق عودتها من المدرسة بعد أن رماه صاحبه الأصليّ في الطريق، وقرّرنا تربيته. ثمّ اختفى ذلك القطّ في غفلةٍ

من الجميع. بحثنا أيّامًا، وفي كلّ مكانٍ مجاورٍ لبيتنا. ودرنا على أناسٍ كثيرين لنُريهم صورة «كوياسو» ونسألهم عنه. لكنّنا لم نعثر على القطّ.

كنتُ أزحف داخل الجُحْر الضيّق أثناء تذكُّري لذلك القطّ الأسود. إنّني أتقدّم داخل هذه الجُحْر مع أختي الصغرى، نبحث عن القطّ الأسود. قرّرتُ أن أفكّر هكذا. حاولت أن أرى صورةَ القطّ الأسود المفقود داخل ذلك الظلام الحالك الذي أمامي. حاولتُ أن أسمع مواءه. فلا بدَّ أنَّ القطّ الأسود مادّةٌ ملموسة. استطعتُ تذكُّر ملمس فرائه، وحرارة جسمه، وصلابة أسفل أقدامه، والقرقرة التي تصدر من حنجرته.

«أجل. هذا جيّد. استمرّ في التذكُّر على هذا المنوال»، قالت كومي.

ثمّ فجأةً، وجّه رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء حديثه إليّ قائلًا: أنا أعلم جيّدًا ماذا ارتكبتَ وأين! كان يرتدي معطفًا جلديًّا، ويعتمر قُبعة غولف ماركة يونيكس. كان صوته مبحوحًا بسبب رياح البحر. أصابتني رعدةٌ بسبب ذلك الصّوت الذي أخذني على حين غرّة.

حاولتُ بذلَ جُهدي لكي أواصل التّفكير في القطّ الأسود. واجتهدتُ في استنشاق رائحة التربة الضئيلة التي ترسلها الرياح إلى رئتيّ. أحسستُ أنّ لتلك الرّائحة أثرًا في ذاكرتي. لا بدَّ أنّي شممتها قبل مدّةٍ قصيرة في مكانٍ ما. لكنّي لم أذكر مطلقًا أين حدث ذلك. تُرى أين شممتُ تلك الرّائحة؟ وبدأتْ ذاكرتي تصبح مرّةً ثانية شفّافة أثناء محاولاتي العاجزة عن التذكُّر.

قالت المرأة: اخنق عنقي بهذه. ثمّ ظهر لسانها الورديّ قليلًا بين شفتيْها. كانت قد أعدّت رباط معطف الحمّام تحت الوسادة. وكان شعرُ عانتها الأسود رطبًا تمامًا مثل أعشابٍ بلّلتها الأمطار.

«تذكُّر شيئًا ما في قلبك تشتاق إليه. هيّا أسرع! على عجل!»، قالت كومي بصوتٍ متردّد.

حاولت أن أفكّر في ذلك القطّ الأسود مرّةً أخرى. لكنّي لم أعد أستطيع تذكُّر صورة «كوياسو»، إطلاقًا. لعلّ قوى الظلام التهمت صورته حينما غفلتُ عنها في التّفكير بشؤونٍ أخرى. عليّ الإسراع وتذكُّر شيء آخر. يراودني إحساسٌ مزعجٌ أنّ الجُحْر يضيق أكثر وأكثر وسط الظلام. ربّما كان الجُحْر حيًّا ويتحرّك. لقد قالت الدونّة أنّا إنّ الوقتَ محدود. تسرَّب خطٌّ من العرق البارد تحت إبطي.

وجّهتْ كومي الحديث إليّ من الخلف قائلةً: «هيّا! تذكّر شيئًا ما! شيئًا يُمكن لمسه باليد. شيئًا يُمكن رسمه على الفور».

وكالغريق الذي يتشبّث بالعوّامة، تذكّرتُ سيّارتي بيجو 205. تلك السيّارة الصّغيرة القديمة فرنسيّة الصنع التي طفتُ بها وارتحلتُ بين إقليم طوهوكو وهوكايدو وأنا خلف مقودها. بدا لي الأمرُ كأنّه قد حدث في زمنٍ سحيق، ولكنّ صوت محرّكها الفظّ ذي الأربعة عشر حصانًا ظلّ محفورًا في طبلة أذني. لا أستطيع نسيان الاحتكاك الصادر عن تنقيلِ السُّرعاتِ من النقلة الثانية إلى الثالثة. كانت تلك السيّارة رفيقي خلال شهر ونصف الشهر، بل كانت صديقي الوحيد. وربّما صارت الآن خردة!

وعلى الرّغم من ذلك، ظلّ الجُحْر يضيق بلا شكّ. وأصبح رأسي يصطدم بسقفه مع أنّي أزحف على أربع. حاولت إشعال المصباح.

فقالت الدونّة أنّا: «لا تُشعل المصباح!»

«ولكنْ، لا يُمكنني رؤيةَ الطريق من دون إضاءة».

«من الخطأ أن ترى! من الخطأ أن ترى بعينيْك».

«الجُحْر يضيق أكثر. سأعلق في الداخل ولن أستطيع التقدُّم».

لم أحصل على ردّ.

فقلتُ: «لا أستطيع التقدُّم أكثر. ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟»

لا ردّ أيضًا.

لم أعد أسمع صوت الدونّة آنّا ولا صوت كومي. يبدو أنّهما اختفتا بالفعل. ولم يبقَ هنا سوى الصمت العميق.

ازداد الجُحْر ضِيقًا، وصَعُب عليَّ التقدُّم. اجتاحني ذعرٌ شديد، وأصبحتْ أطرافي عاجزةً عن الحركة وكأنّها شُلّت. وصارت أنفاسي صعبةً ثقيلة. همس صوتٌ بالقربِ من أذني: إنّك محبوس داخل تابوتٍ صغير. لا تستطيع التقدُّم للأمام، ولا التراجع إلى الوراء، ستُدفن هنا إلى الأبد في هذا المكان الضيّق الذي لا يصل إليه أحد، بعد أن تخلّى عنك الجميع.

وعندها أحسستُ بشيءٍ ما يقترب منّي من الخلف. شيءٌ منبسطٌ يزحف وسط الظلام ويتقدّم في اتّجاهي. ليست الدُّونّة آنّا ولا كومي. كان شيئًا لا بشرًا. أسمع صوتَ أقدامه الزاحفة، وأحسّ بأنفاسه المتقطّعة. وعندما بات خلفي مباشرةً، توقّفت حركته. مرّتْ عدّة دقائق من الصّمت. يبدو أنَّ ذلك الشيء يكتم أنفاسه ويتفحّص المكان. ثمّ لمس كاحلَ قدمي العاري شيءٌ باردٌ ولزجٌ: مجسٌّ حيوانيٌّ طويل. يزحف على ظهري رعبٌ لا يُمكن وصفه.

أهذا هو المجاز المزدوج؟ أم إنّه الظلام الذي يسكن أعماقي؟

أنا أعلم جيّدًا ماذا ارتكبت وأين!

أصبحتُ غيرَ قادرٍ على تذكُّر أيِّ شيء: لا القطّ الأسود ولا سيّارة البيجو 205 ولا الكومنداتور. اختفى كلُّ شيء في مكانٍ ما، وعادت ذاكرتي خاويةً من جديد.

دفعتُ جسدي عنوةً إلى الأمام محاولًا الهروب من ذلك المجَسّ من دون أن أفكّر في أيِّ شيء. أصبح الجُحْر أكثر ضِيقًا، لدرجةٍ لا يُمكن

معها تحريكُ الجسم إلّا قليلًا. كنتُ أدفع نفسي في حيّزٍ أصغر من جسدي. فباءت المحاولةُ بالفشل بطبيعة الحال. فهذا ضدّ المنطق الرّاسخ، ولا يحتاج الأمر إلى تفكير. أمرٌ لا يُمكن وقوعه فيزيائيًا.

ومع ذلك، حاولتُ أن أزجَّ بجسدي عنوةً إلى الداخل. وكما قالت الدونّة آنًا فتلك هي الطريق التي اخترتُها، وأصبح من المستحيل اختيارُ غيرها. اضطرّ الكومنداتور إلى الموت من أجل ذلك. لقد قتلته طعنًا بيدي هذه. لقد أغرقتُ جسده الصّغير في بحرٍ من الدّماء. يجب ألّا يضيع موته هباءً. كان الشيء ذو المجَسّ البارد يحاول أن يحتويني في قبضة يده.

استجمعتُ كلَّ قواي المعنويّة وتقدّمتُ زحفًا. وكانت الكنزة تتعلّق بالحائط الصخريّ، وتتقطّع في عدّة مواضع منها، وبدا أنَّ خيوطها تنحلّ. أرخيتُ قوّةَ مفاصلي جميعها. وبهيئةٍ تشبه السّاحر الذي يفكّ أربطة الحبال، اخترقتُ الجُحْر الضيّق بعنف. لم أستطع التقدُّم إلّا ببطء كسرعةِ حشرةِ اليسروع. كان جسدي مضغوطًا بمِلْزَمَةٍ عملاقة داخل الجُحْر الذي يزداد ضيقًا. وبدأ الألم يستبيح كلَّ عظامي وعضلاتي، ثمّ ارتفع المجسُّ الطريّ البارد المجهول زاحفًا فوق كاحل قدمي. ومن المؤكّد أنَّ ذلك الشيء سيدفن جسدي كلّه الموجود وسط الظلام الحالك من دون مقاومة. من المؤكّد أنّني لن أكون أنا نفسي بعد الآن.

تخلّيتُ عن كلّ عقلٍ ومنطق، ودفعتُ جسمي بكلّ ما أوتيت من قوّة باتّجاه الحيّز الضيّق. صرخ جسدي صراخًا عنيفًا من الألم والمعاناة. ولكنْ عليّ أن أتقدّم مهما كلّف الثمن: أن تتحلّل مفاصل جسدي، وما ينجم عن ذلك من ألمٍ فظيع. فكلُّ شيءٍ في هذا المكان ناتجٌ من العلاقة. لا شيء مطلقًا بتاتًا. حتى الألم هو عبارة عن مجاز. حتى هذا المجسّ هو عبارةٌ عن مجازٍ لشيءٍ ما. كلُّ شيءٍ نسبيٌّ هنا. الضوءُ مجازٌ عن الظلام، والظلام مجازٌ عن الضوء. أليس كذلك؟

انتهى الجُحْر الضيّق فجأةً. اندفع جسمي إلى حيّزٍ من الفراغ ليس فيه شيء، وكأنّه كتلةٌ متجمّعةٌ من الحشائش تندفع خارجةً من أنبوب الصرف مع قوّة تيّار المياه. لم يكن أمامي متّسعٌ للتّفكير فيما حدث، فسقطتُ في الهواء بلا أيّ وسيلةٍ لحماية نفسي. أعتقد أنّ الارتفاع كان متريْن على الأقلّ. ولكنْ لحسن الحظّ لم يكن المكان ذا أرضيّةٍ صخريّةٍ صلدة، بل كانت أرضيّةً طينيّةً طريّةً نسبيًّا. وأيضًا لأنّني كنتُ متصلّبًا ومحنيًّا أحمي كتفيّ بقدميّ. فساعدني ذلك في الحيلولة دون ارتطام رأسي بالأرض. وحدث ذلك بعفويّة، مثلما يحدث للاعب الجودو حين يسقط أرضًا. اصطدم كتفي وخصري بقوّة، ولكنّي لم أشعر بالألم تقريبًا.

كنتُ محاطًا بظلامٍ تامّ. اختفى المصباح اليدويّ. يبدو أنّه انزلق ووقع من يدي أثناء السّقوط. بقيتُ جاثيًا على أربع بلا حركةٍ وسط الظلام الحالك. لا أستطيع رؤيةَ شيء، ولا يُمكنني التّفكير في شيء. لا أشعر إلّا بآلام مفاصلي التي بدأت تتّضح تدريجيًّا. أخذت عضلاتي وعظامي تشتكي من الألم الشديد جرّاء اختراق الجُحْر.

أجل، لقد اخترقتُ الجُحْر الأفقيّ بطريقةٍ أو بأخرى. أحسستُ أخيرًا بتلك الحقيقة في الواقع. فما زالت آثار ذلك المجسّ المريب متبقيةً على كاحل قدمي. أيًّا تكن طبيعة ذلك الشيء، فلقد شكرتُ قدرتي على الهروب من براثنه.

حسنًا، أين أنا الآن؟

ليس هناك رياح. ولكنْ ثمّة رائحة. تلك الرّائحة التي جاءت مع هبوب الرياح الخفيفة إلى داخل الجُحْر، لا تزال تحيط بي من دون أدنى شكّ. لكنّي لم أذكر بعد ماهيّة تلك الرّائحة. وبأيّ حال، كان المكان في قمّة الهدوء. لا يتناهى إلى مسمعي أيُّ صوت.

كان عليَّ أن أبحث عن المصباح اليدويّ بكلّ الأحوال. تحسّستُ بيدي، بحرصٍ وحذرٍ شديديْن، على الأرض حولي. ببطءٍ وأنا أحبو على أربع، وأوسّع دائرة البحث شيئًا فشيئًا في نصف قطر. كان في التربة أثرٌ طفيفٌ جدًّا للرطوبة. كنتُ أخشى أن ألمس شيئًا ضارًّا وسط الظلام، ولكنْ لم يكن في المكان أيُّ شيء، حتى حصوة صغيرة. ليس هناك إلّا سطحُ الأرض المستوية استواءً تامًّا وكأنَّ أحدًا قام بتسويتها!

عثرتُ على المصباح وقد تدحرج على بعد مترٍ واحدٍ من المكان الذي سقطتُ فيه. لقد استطاعتْ يدي العثور عليه أخيرًا. ولعلَّ استرجاعي ذلك المصباح البلاستيكيّ أهمُّ حدثٍ في حياتي يستحقّ الاحتفال حتى تلك اللّحظة.

وقبل أن أضغط على الزرّ، أغمضتُ عينيّ وسحبتُ نَفَسًا عميقًا عدّة مرّات، وكأنّي أفكُّ عقدةَ خيوطٍ متشابكة في غاية التّعقيد، مستغرقًا في ذلك وقتًا طويلًا. إلى أن استقرّت وتيرة أنفاسي، وعاد النَّبْضُ إلى وضعه الطبيعيّ تقريبًا، وعادت العضلات إلى إحساسها العاديّ. استنشقتُ نَفَسًا طويلًا مرّةً أخيرة، ثمّ أخرجته ببطءٍ وأنا أُشعل المصباح. جال الضوءُ الأصفر سريعًا وسط الظلام. لكنّي لم أستطع رؤية ما حولي بادئ الأمر، لأنَّ عينيّ اعتادتا على الظلام الشديد، فكلّما نظرتُ إلى أشعّة الضوء مباشرةً انتابني ألمٌ قاسٍ في عمق رأسي.

غطّيتُ عينيّ بإحدى يديّ، وأخذتُ وقتًا لفتحهما ببطء، ثمّ استكشفتُ المكان من خلال الثغرات بين أصابعي. فبدا لي أنّني في غرفةٍ دائريّة، ليست واسعة، وكانت محاطةً بجدارٍ من الأحجار. غرفةٍ حجريّةٍ من صُنع البشر. أضأتُ فوق رأسي. هنالك سقف. كلّا، ما يشبه الغطاء الذي لا يسمح بتسرّب الضوء.

وأخيرًا، فهمت. كنت موجودًا في الحُفْرة التي خلف نموذج المعبد وسط الغابة البرِّيَّة! لقد اخترقتُ الجُحْر الأفقيّ الذي في الكهف بدافعٍ من الدونّة آنًا، وسقطتُ في قاع تلك الحُفرة. داخل الحُفرة الحقيقيّة في العالم الحقيقيّ. ولا أعرف كيف حدث ذلك! ولكنّ هذا ما حدث. يُمكنني القول إنّني عدتُ إلى نقطة البداية. ولكنْ لماذا لا يدخل الحُفرة أيُّ بصيصٍ من الضوء؟ ففُتحة الحُفرة مسدودةٌ بعدّة ألواحٍ سميكة من الخشب. وثمّة ثغراتٌ بين لوحٍ وآخر، ويجب أن يتسلّل بصيصٌ من الضوء من خلال تلك الثغرات. ومع ذلك، كان الظلام كاملًا.

وقعتُ في حيرةٍ شديدة.

غير أنّني لم أشكّ في أنّني داخل الغرفة الحجريّة الموجودة خلف نموذج المعبد. والرّائحة التي أشمُّها هي لتلك الحُفرة فعلًا. فلماذا لم أستطع تذكُّر هذا الأمر؟ أدرتُ ضوء المصباح ببطءٍ وعناية، فلم أجد السُّلّم المعدنيّ الذي يُفترض أنّه مُعلقٌ على جدار الحُفرة. يبدو أنّ أحدًا قد رفعه وحمله إلى مكانٍ ما مرّةً أخرى. أي أنّني محبوسٌ في قاع هذه الحُفرة ولا أستطيع الخروجَ منها.

ثمّ الأمر العجيب ـ وقد لا يكون كذلك ـ أنّني لم أعثر على ما يُمكن أن يكون فُتحة الجُحْر الأفقيّ. لقد سقطتُ في قاع الحُفرة بخروجي من تلك الفُتحة، كأنّني طفلٌ أولد في الهواء. ومع ذلك، لم أجد الفُتحة في أيّ مكان. وكأنّها فُتحت فجأةً لكي تقذف بي إلى الخارج، ثمّ أُغلقتْ ثانية. وأخيرًا أضاء نور المصباح شيئًا ما على الأرض. شيئًا رأيته من قبل. إنّه الجرس القديم الذي كان الكومنداتور يرنّه في قاع هذه الحفرة. وكنت قد سمعتُ ذلك الصوت في منتصف اللّيل، وعرفتُ بوجود الحُفرة وسط الغابة. كان صوتُ الجرس هو بدايةُ كلّ شيء. ثمّ أتيت به ووضعتُه على الرفّ في

المَرْسم. لكنَّه اختفى من دون أن أنتبه لذلك. أمسكتُه وتأمَّلته تحت ضوء المصباح. كان معلَّقًا بمقبضٍ خشبيٍّ قديم. ليس هناك أيُّ شكّ. إنَّه ذلك الجرس بالفعل.

استغرقتُ وقتًا في التَّحديق إليه بريبة، لا أفهم شيئًا. تُرى من الذي حمله وألقاه في قاع الحُفرة؟ ربَّما عاد الجرس إلى هناك بقواه الذاتيَّة!

لقد قال الكومنداتور إنَّ الجرس يتشارك المكان. «يتشارك المكان» تُرى أيُّ معنى تحمله هذه الكلمة؟ كان رأسي متعبًا جدًّا من التَّفكير في أمورٍ بديهيَّة، ثمَّ إنَّني لا أجد حولي أعمدةً يرتكز عليها المنطق.

جلستُ على الأرض، وأسندتُ ظهري إلى الحائط الحجريّ وأطفأتُ المصباح. عليَّ أن أفكِّر فيما ينبغي فعله: الخروج من هذه الحُفرة. فالتَّفكير لا يحتاج إلى ضوء. كما أنَّه يجب ترشيد استهلاك البطاريَّة لأقصى حدٍّ مُمكن.

حسنًا... ماذا يجب أن أفعل؟

- 56 -
يبدو أنَّ هنالك فراغاتٍ يجب أن تُملأ

هناك كثيرٌ من الأمور المُبهمة. لكنّ أكثر ما شغل فكري حينها عدمُ تسرُّب أيّ شعاعٍ من الضوء إلى الحُفرة؟ من المؤكّد أنَّ أحدًا غطّى الفُتحة بشيءٍ ما تغطيةً تامَّة. ولكنْ من الذي فعلها، ولماذا؟

رجوتُ ألّا يكون ذلك الشَّخص (أيًا كانت هويّته) قد أعاد الحُفرة إلى سابق عهدها مغطّاةً بكومةٍ من الأحجار الضخمة. فإن كان كذلك، صار احتمال خروجي من هذا الظلام معدومًا.

راودني شكٌّ مفاجئٌ: أضأتُ المصباح، ونظرتُ إلى ساعة يدي. كانت عقاربها تشير إلى الرَّابعة واثنتيْن وثلاثين دقيقة. وعقارب الثواني تقطع الوقت في الاتّجاه الطبيعيّ. يبدو أنَّ الوقت يمرُّ على طبيعته. فللزمن وجودٌ في هذا العالم، على الأقلّ، وينسابُ في اتّجاهٍ محدّدٍ بدقّةٍ وانتظام.

ولكنْ ما الزمن أصلًا؟ سألتُ نفسي هذا السُّؤال! إنّنا نقيسُ مرور الوقت من خلالِ حركةِ عقارب الساعة، وفقًا لراحتنا. ولكنْ هل هي الطريقة الملائِمة حقًّا؟ وهل يمرُّ الزمن بهذا الشَّكل في اتّجاهٍ محدّدٍ بدقّةٍ وانتظام؟ أليست الحقيقة أنّنا وقعنا في ظنٍّ خاطئٍ كبير؟

أطفأتُ المصباح مجدّدًا، وأطلقتُ تنهيدةً طويلةً وسط الظلام الذي زارني مرّةً أخرى. فلندعِ التّفكير في الزّمن عند هذا الحدّ. والتّفكير في

المكان أيضًا. لن أصل إلى أيِّ نتيجة إذا واصلتُ التّفكير في هذه الأمور. بل إنّني أستهلك أعصابي بلا فائدة. عليَّ التّفكير في شيءٍ واضحٍ ومحدَّد، شيءٍ يُمكن رؤيته بالعين ولمسه باليد.

لذا فكّرتُ في يوزو. أجل، فهي بالإمكان رؤيتها بالعين ولمسها باليد (إن أعطتني الفرصة). ثمَّ إنّها الآن حامل. وسيولد الطفل ـ طفل أبيه، رجلٍ غيري ـ في شهر يناير من العام القادم. ذلك الأمر يتطوّر في مكانٍ بعيدٍ من دون أيِّ علاقة بي. حياةٌ جديدة لا تمتُّ لي بِصِلة توشك على الظهور في هذا العالم. ولم تطلب منّي يوزو أيَّ شيءٍ في هذا الخصوص. إذن، لماذا لا تتزوّج يوزو من شريكها؟ لا أفهم السّبب مطلقًا. إن كانت تنوي أن تصبح أمًّا عزباء، فعلى الأرجح أنّها ستترك عملها في مكتب الهندسة المعماريّة التي تعمل فيه حاليًّا. فهو مكتبٌ صغير ليس له طاقةٌ لمنح إحدى موظّفاته إجازةً طويلة.

لكنّي لم أستطع العثور على إجابةٍ مُقنعة. لا شيء سوى أنّني أزداد حيرةً وسط هذا الظلام الحالك، الذي يزيدني إحساسًا بالهوان.

إن استطعتُ الخروج من قاع هذه الحُفرة، عليَّ أن أتّسم بالشّجاعة وأذهب للقاء يوزو. أعتقدُ أنَّ قلبي جريح، وقد أحسستُ بالغضب إلى حدٍّ ما (استغرق الأمرُ وقتًا طويلًا حتى اعترفت لنفسي بذلك الغضب) من إقامتها علاقةً مع رجلٍ غيري ورحيلها المُفاجئ بعيدًا عنّي. ولكنْ، لا يُمكن بأيِّ حالٍ أن أعيش وأنا أحمل ذلك الإحساس. لا بدَّ أن أقابل يوزو لنتحدَّث بجدّيّةٍ وجهًا لوجه. يجب أن أتأكّد منها ما الذي تفكّر فيه حاليًّا؟ وما الذي تطلبه؟ قبل أن يفوت الأوان... حسمتُ أمري، فارتاحت نفسيّتي بدرجةٍ كبيرة. فإن قالت إنّها تريد أن نصبح أصدقاء، فلا مانع. ربّما ليس الأمرُ مستحيلًا كما كنتُ أظنُّ. عليَّ فقط أن أخرج إلى سطح الأرض، وحينها سأعثر على منطقٍ يجيز أفكاري.

بعد ذلك نمتُ. شعرتُ بالبرد تدريجيًا، لأنّني نزعتُ المعطف الجلديّ قبل دخولي الجُحْر وتركته هناك (تُرى ما مصير معطفي؟). أرتدي قميصًا قصير الكمَّيْن، وفوقه سترة خفيفة فقط. أصبحت السُّترة مهلهلةً بسبب زحفي في الجُحْر الضيّق. ثمَّ إنّني عدتُ من عالم المجاز إلى عالم الواقع. عدتُ إلى عالمٍ فيه زمنٌ وحرارةٌ طبيعيَّيْن. ومع ذلك، تغلَّب النُّعاس على البرد. نعستُ من دون أن أدري، جالسًا على الأرض، مستندًا بظهري إلى الحائط الحجريّ الصلد. كان نُعاسًا خالصًا حتى النهاية بلا أحلام أو أوهام. نُعاسًا غارقًا في وحدةٍ شديدة مثل ذهب إسبانيا الغارق في قاع البحر العميق بجوار شواطئ أيرلندا، لا تصل إليه يدُ إنسان.

عندما استيقظت، ما زال الظلام دامسًا، لا أرى فيه أيَّ شيء، وحتى إن رفعت يدي أمام وجهي لم أكَد أراها. وبسبب الظلام، لا يُمكنني معرفةَ الحدِّ الفاصل بين النعاس والاستيقاظ. لا أستطيع الحكمَ جيّدًا أين يبدأ عالم النعاس وأين يبدأ عالم الاستيقاظ، وأين أنا من العالميْن، أم أنّني لست في أيٍّ منهما. استخرجتُ وعاء الذاكرة من مكانٍ ما، وكأنّني أبحثُ عن عملاتٍ معدنيَّة بداخله، أخذتُ أتذكَّر عددًا من الأمور بالترتيب. تذكَّرتُ القطَّ الأسود الذي كنتُ أُربّيه، وتذكَّرتُ سيّارتي البيجو 205، ثمَّ تذكَّرت بيت منشكي الأبيض، وتذكَّرتُ أسطوانة «فارس الورود»، ثمَّ تذكَّرتُ تميمة البطريق. استطعتُ تذكُّرَ كلَّ هذه الأشياء بوضوحٍ تامّ. لا مشكلة، لم يأكل المجاز المزدوج قلبي بعد. كلُّ ما في الأمر أنّني أستصعب التفريقَ بين النُّعاس والاستيقاظ بسبب وجودي داخل الظلام العميق.

أخذتُ المصباح بيدي، وضغطتُ الزرّ وغطّيتُ الإضاءة باليد الأخرى، نظرتُ إلى ميناء ساعتي من خلال النور المتسرّب من بين ثغرات الأصابع. كانت العقارب تشير إلى الواحدة وثماني عشرة دقيقة. في المرّة السّابقة، كانت

تشير إلى الرابعة واثنتيْن وثلاثين دقيقة. أهذا يعني أنّني غفوتُ هنا بتلك الوضعيّة المجهدة لمدّة تسع ساعات؟ من الصّعب تصديق ذلك. لو كان صحيحًا، يُفترض أن ينوء جسدي من التعب، إلّا أنّي فكّرتُ أنّ رجوع الزمن ثلاث ساعات في غفلةٍ منّي هو الذي يوافق المنطق. لكنّي لستُ متأكّدًا. ربّما اختلّ إحساسي بالزمن بسبب وجودي وسط ظلامٍ دامسٍ وكثيفٍ ودائم.

على كلّ حال، أصبح البرد أكثرَ قسوةً ممّا سبق. ثمّ شعرتُ بالرّغبة في التبوّل، لا يُمكنني احتمالها. لم أجد مفرًّا من التبوّل في ركن الحُفرة. واستمرّ البول في السّيلان لفترةٍ طويلة، وتشرّبته الأرض على الفور. انتشرت رائحة الأمونيا قليلًا، وسرعان ما اختفت أيضًا. وبعد حلّ مشكلة التبوّل، تبعها على الفور الشعورُ بالجوع. يبدو أنّ جسمي عاد إلى الاندماج في عالم الواقع ببطء. ربّما بدأ تأثير الماء الذي شربته من نهر المجاز يزول تدريجيًّا من جسدي.

أحسستُ مجدّدًا أنّه يجب عليّ الخروج من هنا بأسرع وقتٍ مُمكن. وإلّا سأموت جوعًا في قاع هذه الحُفرة خلال وقتٍ قصير. لا يستطيع جسدُ الإنسان المحافظةَ على حياته ما لم يتوافر له الماء والغذاء. هذه إحدى أكثر القواعد أساسيّة في عالم الواقع. وليس هنا ماء ولا طعام. ليس إلّا الهواء (على الرّغم من إغلاق الغطاء تمامًا، أحسستُ بدخول هواءٍ خفيفٍ من مكانٍ مجهول). إنّ الهواء والحبّ والمثاليّة أمورٌ في منتهى الأهمّيّة، ولكنْ لا يُمكن للإنسان أن يحيا بها فقط.

نهضتُ واقفًا من على الأرض، وحاولتُ أن أتسلّق الجدار الأملس بيديّ وقدميّ. وكان جهدًا ضائعًا كما هو متوقّع. الجدار مرتفع بأقلّ قليلًا من ثلاثة أمتار، ومن المستحيل على إنسانٍ عاديٍّ لا يملك قدراتٍ خاصّة أن يتسلّق جدارًا أملس مستويًا لا بروز فيه أو نتوء. وعلاوة على ذلك، فالحُفرة مغلقة بالغطاء. ودفع الغطاء إلى الخارج يحتاج موضعًا ثابتًا للقدم أو مسندًا لليد.

يئستُ من المحاولة، وجلستُ مرّةً أخرى على الأرض. لم يتبقَّ أمامي إلّا شيءٌ واحدٌ فقط: أن أرنَّ الجرس! كما فعل الكومنداتور. ولكنْ ثمّة اختلافٌ هائلٌ بيني وبينه، وهو أنَّ الكومنداتور عبارةٌ عن فكرة، وأنا إنسانٌ من لحمٍ ودمٍ. لا تشعر الفكرةُ بالجوع إن لم تأكل، ولكنّي أجوع. لا تموت الفكرةُ جوعًا، لكنّي قد أموت جوعًا. يستطيع الكومنداتور رنّ الجرس لمدّة مئة عام (ليس لديْه مفهوم الزمن أساسًا)، لكنَّ المدّة التي أستطيع رنَّ الجرس خلالها بلا ماءٍ أو طعامٍ هي ثلاثة أو أربعة أيّامٍ حدًّا أقصى. وقد لا يتبقّى لديّ بعدها قوّةٌ حتى لهزّ ذلك الجرس الخفيف.

بقيتُ أرنُّ الجرس في الظلام الحالك، إذ لم يكن بوسعي أيُّ شيءٍ آخر. كنتُ أستطيع الصياح بأعلى الصوت لطلب النجدة بالتّأكيد. لكنْ خارج الحُفرة ليس هناك إلّا غابةٌ بريّةٌ مهجورة. لا يُمكن لأيّ أحد الدخول إلى وسط تلك الغابة التي تمتلكها عائلة أمادا، إلّا في حالاتٍ محدودة جدًّا. إضافةً إلى أنَّ الفُتحة مغلقةٌ بإحكامٍ تامّ، لن يصل صوتي إلى أذن أحدٍ مهما صرخت. لن أجني سوى بُحّةٍ في الصوت وجفافٍ في الحلق. فإن كان الأمر كذلك، يظلّ رنُّ الجرس أخفّ وطأةً. كما أنَّ لهذا الجرس طريقةً فريدة في ترديد صداه. لا بدَّ أنّه يحتوي على قُدُراتٍ خاصّة، إذ إنَّ صوته ليس عاليًا من الناحية الفيزيائيّة، لكنّي استطعتُ سماعَ صوتِ رجعه في منتصف اللّيل وأنا في فراشي في بيتي الذي يُبعد عنه مسافةً طويلة. وكذلك توقّفت أصواتُ حشراتِ الخريف المُزعجة تمامًا أثناء رنين الجرس. وكأنَّ الحشرات مُنعت منعًا صارمًا من الصياح.

لذا، واصلت الدقّ على الجرس مستندًا بظهري إلى الجدار: أحرّك رسغ يدي بخفّةٍ يمينًا ويسارًا، محاولًا تصفية ذهني قدر الإمكان. أدقّ فترةً وأستريح فترةً، ثم أعاود الدقّ من جديد. مثلما فعل الكومنداتور في الماضي. وكلّما أصغيت إلى رنينه خلا ذهني تلقائيًا من أيّ حاجةٍ إلى التّفكير في أيّ

شيء. إنَّ رنين الجرس خلال النور، يختلف عن رنينه تحت الظلام. قد يكون الفرق واضحًا في الواقع أيضًا. لم أشعر بالخوف إطلاقًا، طوال مدّة حبسي في الحُفرة المغلقة والمظلمة وأثناء رنيني للجرس. كما لم يراودني القلق. بل كدتُ أنسى البردَ والجوع أيضًا. وأصبحتُ غير مكترثٍ بإيجاد حتميّةٍ لترابط الأمور من الناحية المنطقيّة. ولا داعي للقول إنّني كنتُ ممتنًا جدًّا لذلك.

عندما تعبتُ، غفوتُ على وضعيّتي تلك. وكلّما استيقظتُ، أشعلتُ المصباح وأتأكّد من الوقت من خلال ساعة اليد. وعرفتُ في كلّ مرّةٍ أنّ عقارب الساعة جُنّت وأشارت للوقت كما أرادت. وعلى الأرجح أنّني أنا الذي كنت أهذي. ولكنْ ما أهمّيّة ذلك؟ فأنا وسط الظلام الحالك أحرّك معصمي لأرنّ الجرس بذهنٍ صافٍ، وعندما أتعب أسقط في نومٍ عميق، وعندما أستيقظ أرنّ الجرس. وهكذا دواليك حتى ضعف وعيي.

لا يصل إلى قاع الحُفرة أيُّ صوت. لا أسمع أيّ صوت، لا صوت الطيور ولا صوت الرّياح. ما السّبب يا تُرى؟ لماذا لا أسمع أيَّ صوت؟ يُفترض أنّني في عالم الواقع، وأنّني رجعتُ إلى عالم الواقع الذي أجوع فيه وأشعرُ فيه بالرّغبة في التبوّل. وعالم الواقع ممتلئ بأصواتٍ متنوّعة.

لم أستطع تصوُّر كم مرّ من الوقت. فلقد توقّفتُ تمامًا عن النُّظر إلى الساعة. يبدو أنّني والوقت لا نستطيع إيجادَ نقطةِ تلاقٍ. وباتت قُدرتي على معرفة أيّام الشهر وأيّام الأسبوع أقلّ بكثير من قدرتي على معرفة الوقت والساعات. فليس هناك نهارٌ أو ليل. وفي تلك الأثناء، لم أعد أفهم حتى مكان وجودي وسطَ هذا الظلام الحالك. ليس الوقت فقط، بل لم أعد قادرًا على إيجاد نقطةِ تلاقٍ مع ذاتي نفسها. ولم أفهم معنى ذلك. بل إنّني فقدتُ الرّغبةَ في محاولة فهم ذلك. وما لبثت أدقّ الجرس إذ ما بيدي حيلةٌ أخرى، حتى فقدت كلَّ إحساسٍ بمعصمي.

بعد أن مرّ وقتٌ طويل وكأنّه الدهر (أو ربّما بعد أن ظلّ الوقتُ يقترب ويبتعد مثل موج البحار)، وعندما بدأ الجوع يفوق القدرةَ على احتماله، أحسستُ أخيرًا بصوتِ شيءٍ يتحرّك فوق رأسي. يشبه صوتَ شخصٍ يحاول خلع أطراف العالم ورفعها عاليًا. ولكنْ لم يصكّ الصوتُ أذنيّ في الواقع مطلقًا. أجل، وهل يستطيع أحدٌ، أيًا كان، أن يرفع أطرافَ العالم ويخلعها؟ وما الذي قد ينجم عن ذلك يا تُرى؟ هل سيظهر عالمٌ جديد؟ أم أنَّ العدم سيقترب ويستمرّ بلا نهاية؟ لم أكن مهتمًّا بذلك أصلًا، فالأمر سيّان عندي.

أغمضتُ عينيّ بهدوء، منتظرًا خلع العالم. لكنّ الصوتَ كان يرتفع أكثر وأكثر فوق رأسي. ويبدو أنّه صوتٌ واقعيّ. كان صوتَ شيءٍ ماديّ، يصدر عن كتلةٍ مؤثِّرة في الواقع. استجمعتُ قواي وفتحتُ عينيّ. نظرتُ إلى أعلى. ثمّ وجّهتُ المصباح تجاه السّقف. لا أعرف ما الذي يحدث! يبدو أنَّ أحدًا يقف فوق الحُفرة ويُصدر صوتًا عاليًا. صوتًا لا أعرفه، يشبه الزئير.

لم أستطع الحكم! أهو صوتُ شيءٍ يضرُّني أم صوتُ شيءٍ جاء من أجلي؟ وبأيِّ حالٍ، لم يكن بإمكاني إلّا الجلوس في الحُفرة لأراقب ما الذي سيحدث وأنا أرنّ الجرس. وأخيرًا، من بين فجوات الألواح المستخدَمةِ غطاءً للحُفرة، تسلَّلتْ أشعّةُ ضوءٍ رفيعٍ طويل لتكوّن سطحًا مستويًا إلى داخل الحُفرة. وكأنّه نصلُ غيلوتين حادٌّ عريض يقطع كتلةَ جيلاتين عملاقة، قطعت الأشعةُ الظلامَ رأسيًا، ووصلتْ في غضون لحظة إلى القاع. كان طرفُ النَّصل يقع عند كاحل قدمي بالضّبط. وضعتُ الجرسَ على الأرض، وغطّيتُ وجهي بكلتا يديّ كي لا تتألّم عيناي.

ثمّ أُزيح أحدُ الألواح لتصل كمّيّةٌ أكبر من أشعّة الشمس إلى الحُفرة. أغمضتُ عينيّ الاثنتين، وغطّيتُ وجهي تمامًا بيديّ، وشعرتُ أنَّ الظلام يتحوّل إلى نورٍ مُضيء. وبعدئذٍ، انساب عليّ هواءٌ جديد. هواءٌ طازجٌ وبارد.

كان فيه رائحةُ مطلع الشتاء. رائحةٌ أحسّ بالحنين إليها. بُعثْ إلى عقلي الباطن ملمسُ الصباح الذي التفعتُ فيه للمرّة الأولى في الشتاء بملفع الطفولة، ملمس الصوف الناعم.

نادى شخصٌ باسمي من فوق. هذا اسمي على الأرجح. تذكُرتُ أنَّ لي اسمًا. ووجدتُ أنّني كنتُ لوقتٍ طويل أقيم في عالمٍ لا يعني فيه الاسم شيئًا.

استغرقتُ وقتًا لأُدركَ أنَّ الشّخص الذي ينادي على اسمي هو واتارو منشكي. رفعتُ صوتي عاليًا للردّ على النداء. ولكنْ لم ينتج عن صوتي كلمات. صرختُ بصوتٍ عالٍ فقط، صراخًا لا معنى له، لكي أثبّت أنّني على قيد الحياة. لم أكن واثقًا أنَّ صوتي يُمكنه أن يصل إليه، لكنَّ ذلك الصّوت وصل جيّدًا إلى أذنيَّ، كصوتٍ عنيفٍ يشبه زئيرَ الوحوش الخرافيّة الرهيبة.

ـ «هل أنت بخير» نادى عليّ.

«السيّد منشكي؟» سألته.

ـ «أجل. أنا هو» قال منشكي: «هل جُرِحتَ؟»

ـ «لا أعتقد». بدأ صوتي يهدأ أخيرًا. فأضفت: «ربّما».

ـ «منذ متى وأنت هنا؟»

ـ «لا أدري. منذ أن انتبهتُ أنّني هنا».

ـ «إن أنزلتُ لك السُّلَّم، هل ستستطيع الصعود؟»

ـ «أعتقدُ ذلك. ربّما».

ـ «انتظر قليلًا. سأُنزل لك السُّلّم حالًا».

وفي تلك الأثناء، بدأت عيناي تعتادان الضوء تدريجيًا. لم أَعُد بحاجةٍ إلى تغطية وجهي بيديَّ، مع أنّي لم أستطع بعدُ أن أفتح عينيَّ على اتّساعهما.

ولحسن الحظِّ لم تكن الشمس بتلك الدَّرجة الشديدة. من المؤكَّد أنَّ الوقت نهار، ولكنَّ الطقس يبدو غائمًا. وربَّما كان الوقت يقترب من الغروب. سمعت صوتَ إنزال السُّلَّم أخيرًا.

قلتُ: «أرجو أن تعطيني قليلًا من الوقت. لأنَّ عينيَّ لم تعتادا على الضوء بعد، ولا أريد أن أتسبَّب لهما بألم».

«بالتَّأكيد. خذ ما تريد من وقت»، ردَّ منشكي.

«لماذا أصبح المكان مظلمًا تمامًا؟ لم يدخل إليَّ أيُّ بصيصٍ من الضوء».

«لقد قمتُ منذ يومين بوضع فرش بلاستيكيّ فوق الغطاء. لأنّي عثرتُ على آثارٍ لمحاولة إزاحة الغطاء، فأحضرتُ من بيتي فرشًا بلاستيكيًّا سميكًا وثبَّته في الأرض، ودققتُ أوتادًا معدنيَّة وربطتها بأحبال، لكيلا يُفتح الغطاء بسهولة. فقد يسقط أحد الأطفال سهوًا في الحُفرة. تأكَّدتُ جيِّدًا من عدم وجود أحدٍ في الداخل قبل ذلك طبعًا. كانت الحُفرة خاوية تمامًا».

اقتنعتُ تمامًا بما قال. لقد وضع منشكي فرشًا بلاستيكيًّا فوق الغطاء، لذا غرقت الحُفرةُ في ظلامٍ حالك. هكذا يصبح الأمر منطقيًّا.

قال: «ولكن ليس هناك أيُّ أثر لإزاحة الفرش. كان بالضبط مثلما تركته أنا. فكيف دخلتَ أنت إلى الحُفرة؟ لا أفهم».

ـ «وأنا كذلك لا أفهم. عندما عدتُ إلى وعيي وجدتُني هنا».

لم أستطع أن أشرح له مزيدًا. ولم يكن لديَّ النيَّة في ذلك أيضًا.

ـ «هل أنزل لمساعدتك؟» قال.

ـ «لا، ابقَ عندك. سأصعد بنفسي».

وأخيرًا، استطعت أن أفتح عينيَّ قليلًا. ثمَّة عدَّة أشكالٍ غامضة تدور كالدوَّامة في عمق العينيْن، لكنَّها لا تشكِّل عائقًا في أداء الوعي لوظيفته. حدَّدتُ

موضعَ السُّلَّم مستندًا إلى الجدار وحاولتُ وضع قدمي على أولى درجاته، لكنّي لم أستطع تحريك قدمي جيّدًا. كنتُ أحسُّ أنّها ليست قدمي. لذا استغرقتُ وقتًا في الصعود درجةً بعد درجة، وأنا أتأكّد من موطئ قدمي. وكان الهواء يصبح جديدًا ومنعشًا كلّما اقتربتُ من السّطح، وسمعتُ حينها تغريد الطيور.

عندما وضعتُ يدي على سطح الأرض، أمسكني منشكي من معصميّ وجذبني عاليًا. كان قويًا أكثر ممّا توقّعتُ. يُمكنك الاعتماد عليه وأنت مطمئن. أحسستُ بالامتنان لتلك القوّة من أعماق قلبي. ثمّ استلقيتُ على الأرض على ظهري. بدت السّماء خافتة فوق رأسي: مغطّاةً بغيومٍ رماديّة كما توقّعت. لم أعرف كم الوقت حينها. أشعر بقطرات مطرٍ خفيفة تضرب جبهتي وخدّيّ. استمتعت بإحساس ذلك الملمس غير المنتظم. لم أكن أعرف أنّ للأمطار ملمسًا مُفرحًا على البشرة! كم تفيض بقوّة الحياة! حتى وإن كانت أمطارَ بداية الشتاء الباردة.

«إنّي جائعٌ جدًّا، وحلقي جافّ. أشعر بالبرد الشّديد، وكأنّ جسمي على وشك أن يتجمّد»، كان ذلك كلّ ما استطعتُ قوله. كانت أسناني تصطكُّ كثيرًا.

حملني منشكي من كتفي، وبدأ يلتمس طريقه في الغابة ببطء. لم أستطع أن أمشي بخطواتٍ مُنتظمة ما اضطرّه لأن يجرّني. كانت قوّة عضلاته أشدّ بكثير ممّا تبدو عليه. ومن المؤكّد أنّه يتدرّب يوميًا بالمعدّات الرياضيّة في بيته.

سألني: «هل تحمل مفتاح البيت؟»

«هناك أصيص زرع على الجانب الأيمن من المدخل. المفتاح موجود تحته. ربّما».. لم أستطع إلّا قول ربّما. فليس هناك شيءٌ واحدٌ وحيد يُمكنني أن أجزم به في هذا العالم. كنتُ أرتعد من البرد، وفكّاي يهتزّان. وحتى أنا لم أسمع كلماتي ذاتها جيّدًا.

قال منشكي: «يبدو أنَّ مارية عادت بالسَّلامة إلى بيتها بعد ظهر اليوم. جيّد أنَّ الأمر مرَّ على خير. شخصيًّا، تنفَّستُ الصُّعداء. اتَّصلت بي شوكو أكيكاوا منذ حوالى ساعة. ولقد اتَّصلتُ بك إلى البيت عدَّة مرّات، ولكنْ لا ردّ. لذا أصابني القلق فجئتُ إلى هنا. وعندها سمعتُ صوت ذلك الجرس يأتي خافتًا من عمق الغابة. فقلت في نفسي ربَّما أنت هناك، فأزحتُ الفرش عن الحُفرة».

عبرنا الغابة ووصلنا إلى مرأب البيت. سيّارة منشكي الجاغوار مركونةً هناك كالمعتاد أمام المدخل. نظيفةً برّاقةً كالعادة.

سألتُه: «كيف تبقى هذه السيّارة نظيفةً دومًا؟» ربَّما لم يكن السُّؤال يتناسب مع الموقف الراهن، لكنَّه كان يساورني منذ زمنٍ طويل.

أجاب من دون إبداء اهتمام: «حسنًا، كيف برأيك؟! إنّي أغسلها عندما لا أجد شيئًا آخرَ أفعله. أغسلها من أقصاها لأقصاها بعنايةٍ شديدة. ثمّ يأتي عاملٌ متخصّصٌ مرّةً كلَّ شهر يدهنها بالشمع لتلميعها. وبالتّأكيد أضعها داخل مرأبٍ مقفول حتى لا يصل إليها الغبار والأمطار. هذا كلُّ ما في الأمر».

ففكَّرتُ قائلًا: هذا كلُّ ما في الأمر! إذا سمعت سيّارتي كارولا واغن ـ التي تُترك ستَّة أشهرٍ تحت المطر من دون أن تُمسّ ـ هذا الكلام فقد تشعر بالحزن، أو ربَّما يُغمى عليها.

أخرج منشكي مفتاح البيت من تحت أصيص الزرع، وفتح باب المدخل.

ـ «بالمناسبة، في أيِّ يومٍ نحن؟» سألته.

ـ «اليوم؟ الثلاثاء».

ـ «الثلاثاء؟ هل هذا أكيد؟»

تتبّع منشكي ذاكرته ليتأكّد: «أمس كان الاثنين، يوم إخراج نفايات الزجاجات والعلب المعدنيّة، فلا شكَّ أنَّ اليوم هو الثلاثاء».

لقد زرتُ غرفة توموهيكو أمادا يوم السبت، وبهذا يكون قد مرّ ثلاثة أيّامٍ كاملة. ولكنْ لم يكن مستغربًا حتى لو مرّت ثلاثةُ أسابيع أو ثلاثةُ أشهر، أو حتى ثلاثةُ أعوام. ففي كلّ الأحوال، مرّت ثلاثةُ أيّام. نقشتُ ذلك في ذاكرتي. تلمّست ذقني براحة يدي، فلم أجد أثرًا لاستطالة لحيتي خلال ثلاثةِ أيّام. كان ذقني ناعمًا بدرجةٍ تثير الدّهشة. تُرى لِمَ؟ أخذني منشكي أوّلًا إلى غرفة الاستحمام، وجعلني أستحمّ بماءٍ دافئ وأغيّر ملابسي. كانت ملابسي متّسخةً بالطّين، ومليئةً بالثقوب. جمعتُها وألقيتُها في سلّة القمامة. جسمي محمرٌ من الاحتكاك هنا وهناك، ولكن ما من جروحٍ ظاهرة، أو لا وجود لدماءٍ تنزف منه على الأقلّ.

ثمّ أخذني منشكي إلى غرفة الطعام، وأجلسني على كرسي المائدة، وأسقاني الماء ببطء. تجرّعتُ زجاجةَ مياهٍ معدنيّة كبيرة مستغرقًا الوقت اللّازم لذلك. وأثناء ذلك، عثر منشكي على تفّاحٍ في الثّلاجة، فقشّرها لي. كان يستخدم السكّين بسرعةٍ ومهارةٍ شديدتيْن. تأمّلتُ ما يفعله شاردًا ومبهورًا. وبدا التفّاح بعد تقشيره ووضعه في الطّبق فاخرًا.

أكلتُ ثلاثَ تفّاحاتٍ أو أربع. كان لذيذَ الطعم لدرجة أنّي فكّرتُ إذا كان التفّاح بهذا المذاق اللّذيذ في السّابق. حمدتُ الإله الخالق الذي فكّر في خلق فاكهةٍ اسمها التفّاح. وبعد أن انتهيتُ، عثر لي على صندوق بسكويت في مكانٍ ما. فأكلته. كان البسكويت قديمًا نسبيًّا وفيه بعض الرطوبة، لكنّه كان ألذّ بسكويت في العالم. غلى ماءً أيضًا وصنع شايًا، وأضاف إليه العسل. فشربتُ عدّة أكواب منه. أدفأ الشايُ والعسلُ جسمي حتى النخاع.

لم يكن ثمّة الكثير من الأطعمة في الثلّاجة. ثمّة خزينٌ كبيرٌ من البيض.

«هل تريد أن تتناول البيض المخفوق؟» سألني.

«إن كان ممكنًا» ـ كنتُ أريد أن أملأ معدتي الخاوية بأيِّ شيء.

أخرج أربع بيضات، وكسرها في الصحن ومزجها سريعًا بالمغرفة، وأضاف إليها بعض الحليب والملح والفلفل. ثمّ قلّب المحتويات بالمغرفة مرّةً أخرى. كانت يداه معتادتيْن على ذلك. أشعل موقد الغاز، ودفّأ المقلاة الصّغيرة ودَهَنَ سطحها بالزبدة. وعثر في الدُّرج على قلّاب المقلاة، وصنع وجبة الأومليت بسرعةٍ ومهارة.

كما توقّعتُ، كانت طريقته في صنع الأومليت كاملةً بلا نقص، لدرجة يُمكن إذاعتها في برنامجٍ تلفزيونيٍّ لتعليم الطبخ. ستشهق ربّاتُ البيوت في جميع أنحاء البلاد وهنَّ يشاهدن هذه الطريقة لصنع الأومليت. كان ذا حساسيّةٍ وفاعليّة. كنتُ أتأمّله مذهولًا. وأخيرًا نقل الأومليت إلى الطَّبَقِ ووضعه أمامي مع الكاتشب.

وجبةٌ لذيذة، تجعلك ترغب في رسمها بلوحة. لكنّي قطعتها بالسّكين بلا أيِّ تردُّد وحملتها إلى فمي متلهّفًا. لم تكن جميلةَ المنظر فحسب، بل كانت لذيذةَ الطّعم أيضًا.

قلتُ: «أومليت كامل بلا عيب».

ضحك منشكي: «كلّا ليس كذلك. لقد صنعتُ من قبل أومليت أحلى من هذا».

تُرى كيف كان طعمُه؟ ربّما كان أومليت يمتلك جناحيْن عظيمَيْن ويستطيع الطيران في السّماء من طوكيو إلى أوساكا في غضون ساعتيْن.

بعد أن انتهيتُ، بدا أنَّ جوعي قد زال تقريبًا. جلس منشكي على الجهة المقابلة من المائدة. وسألني: «هل تمانع أن نتحدَّث قليلًا؟»

قلتُ له: «بالتَّأكيد».

ـ «ألستَ مرهقًا؟»

ـ «ربَّما. ولكنْ ثمَّة العديد من الأمور التي يجب التَّحدُّث بشأنها».

أومأ وقال: «يبدو أنَّ ثمَّة عدَّة فراغات خلال الأيَّام الماضية يجب ملؤها».

قلتُ لنفسي إن كان بالإمكان ملؤها أصلًا.

قال منشكي: «في الواقع، لقد زرتُ بيتك يوم الأحد أيضًا، لأنَّني لم أستطع التواصل معك بالهاتف. لذا قلقتُ عليك وقرَّرت المجيء لاستطلاع الأمر. الساعة الواحدة ظهرًا تقريبًا».

أومأتُ صامتًا. في ذلك الوقت، كنتُ في مكانٍ مختلف.

تابع منشكي: «عندما قرعت جرس الباب، فتح لي ابن السَّيِّد توموهيكو أمادا. اسمه السَّيِّد ماساهيكو، أليس كذلك؟»

«أجل. ماساهيكو أمادا، صديقي منذ زمنٍ طويل. إنَّه مالك هذا البيت ومعه مفاتيحه، ويستطيع الدخول حتى وإن كنتُ أنا غائبًا».

«لقد كان... كيف يُمكن قول ذلك؟ كان قلقًا جدًّا عليك. لأنَّك اختفيتَ فجأةً من الغرفة عندما كنتما تزوران والده السَّيِّد توموهيكو أمادا في مؤسَّسة رعاية المسنِّين بعد ظهر يوم السبت».

أومأتُ من دون أن أقول شيئًا.

«قال ماساهيكو إنَّك اختفيت تمامًا أثناء خروجه من الغرفة للردِّ على مكالمة هاتفيَّة خاصَّة بالعمل، وإنَّ المؤسَّسة تقع فوق جبلٍ في مرتفعات

إيزو، وبينها وبين أقربِ محطَّةٍ مسافةٌ طويلة لا يُمكن مشيها. ومع ذلك، ليس هناك ما يدلّ أنّك طلبت سيّارة أجرة. ولم يشاهدك موظّفُ الاستقبال ولا الحارس وأنت تغادر المكان. ولم يردَّ أحدٌ على الاتّصال بالبيت. لهذا السّبب، قلق السّيّد ماساهيكو على سلامتك جدّيًا، وجاء خصّيصًا حتى هنا. وظنَّ أنّك قد وقعتَ بمكروه».

تنهّدتُ وقلت: «سأشرح الأمرَ من جانبي لماساهيكو. لقد أقلقته بما لا داعي له رغمَ حالة والده الخطيرة. ولكنْ كيف حال السّيّد تومهيكو أمادا الآن؟»

«منذ فترةٍ طويلة وهو في غيبوبة. لم يَعُد إليه وعيه. وقال ابنه إنّه بات تلك اللّيلة بالقرب من المؤسّسة. وإنّه مرَّ على هذا البيت في طريق عودته إلى طوكيو لإلقاء نظرة».

هززتُ رأسي وقلتُ: «من الأفضل الاتّصال به».

وضع منشكي يديْه فوق مائدة الطعام، وقال: «أجل، عليك بذلك. لكنّي أعتقد أنّك إذا اتّصلتَ بالسّيّد ماساهيكو اضطُررتَ لشرح أين كنتَ خلال الأيّام الثلاثة الماضية وماذا كنت تفعل، شرحًا منطقيًا. وكذلك عليك أن تشرح عن كيفيّة اختفائك بتلك الطريقة من المؤسّسة. فلن يقتنع أحدٌ بقولك فقط إنّك وجدت نفسك فجأةً هنا وقد عاد لك الوعي».

«ربّما. ولكنْ ماذا عنك يا سيّد منشكي؟ هل أنت مقتنع بكلامي؟»

تجهّم وجهه خجلًا وغرق في التّفكير، ثمّ قال: «منذ زمنٍ طويل وأنا لا أفكّر إلّا من خلال المنطق وحده. تدرّبت على ذلك. ولكنّي صدقًا، فيما يتعلّق بتلك الحُفرة، لسببٍ ما، لا أستطيع أن أكون منطقيًا. لأنّي أشعر أن لا شيء غريبًا يحدث داخلها. خاصّة بعد أن قضيتُ في قاعها ساعةً تقريبًا. الحُفرة ليست مجرّد حُفرة عاديّة. ولكنْ مَن لم يخض التجربة لن يستطيع تفهّم هذا الشعور».

التزمتُ الصَّمت، لأنّي لم أجد ما أقوله.

أكمل حديثه: «كما هو متوقَّع، لا مفرّ من الإصرار على أنّك لا تذكر شيئًا. لا أدري إلى أيّ مدًى يُمكن تصديق ذلك، ولكنْ ما من وسيلةٍ إلّا هذه».

أومأتُ. ليس هناك وسيلةٌ أخرى.

قال منشكي: «ثمّة عددٌ من الأمور في هذه الحياة لا يُمكن للمرء شرحها جيّدًا، وكذلك هناك أمورٌ لا يجب شرحها. خاصّة في الحالات التي إن شرحتها تفقد أهمّ ما فيها حالًا».

«أنتَ أيضًا مررتَ بمثل تلك الحالة، أليس كذلك؟»

«بالتّأكيد»؛ ثمّ ابتسم وأضاف: «أكثر من مرّة».

فسألته: «حسنًا، هل عادت مارية أكيكاوا سالمةً بلا جروحٍ أو إصابات؟»

«يبدو أنّها كانت ببعض الجروح الخفيفة، وملابسها مليئةٌ بالطين والوحل، لكنّها ليست جروحًا خطيرة. إنّما كدماتٌ بسيطةٌ بسبب انزلاقها ووقوعها. مثلك تمامًا».

مثلي؟

«أين كانت طوال تلك الأيّام الماضية، وماذا كانت تفعل؟»

ظهرتْ على وجهه ملامحُ الانزعاج، وقال: «لا أعلم أيّ شيءٍ بهذا الخصوص. لم أسمع إلّا أنّها عادت إلى البيت منذ قليل. وأنّ ملابسها مليئةٌ بالوحل وجُرحت ببعض الجروح الخفيفة. كانت الأنسة شوكو تتكلّم مضطربةً، ولا تبدو أنّها تستطيع شرحَ تفاصيلَ أكثر من خلال الهاتف. أعتقد أنّه من الأفضل أن تسألها أنت مباشرةً بعد أن تهدأ الأمور وتستقرّ. أو إن كان ذلك ممكنًا، تسأل مارية نفسها».

أومأتُ وقلتُ: «أجل هذا صحيح. سوف أفعل».

«أليس من الأفضل أن تنام سريعًا؟»

بعد أن قال لي ذلك، انتبهتُ للمرّة الأولى أنّني أشعرُ برغبةٍ عارمةٍ في النوم. مع أنّني نمتُ (أو يُفترض أنّني نمتُ) في الحُفرة بما يشبه غيبوبةً عميقة، إلّا أنّني كنتُ أشعر بنُعاسٍ لا أستطيع احتماله.

قلتُ وأنا أتأمّلُ سارحًا في كفَّيْه الجميليْن اللذيْن وضعهما فوق المائدة: «حقًّا. ربّما من الأفضل أن أنام».

«خُذْ قسطًا من الراحة. هذا أفضل. هل هناك شيءٌ آخر أستطيعُ عمله لك؟»

هززتُ رأسي وقلتُ: «لا شيء الآن في ذهني. شكرًا لك».

«حسنًا، حان الوقت لكي أرحل. إن حدث أيُّ شيءٍ أرجو أن تتّصل بي بلا إحراج. أعتقد أنّني سأظلّ في بيتي». وبعد أن قال ذلك، نهض من على المائدة، وأضاف: «جيّدٌ أنّه عُثِرَ على مارية سالمة. وجيّدٌ أيضًا أنّني استطعتُ إنقاذك. سأكون صادقًا معك أنا أيضًا: لم أنم جيّدًا خلال هذه الفترة. لذا أريد أن أعود إلى بيتي وأنام أنا أيضًا».

ثمّ غادر البيت. سمعتُ صوت إغلاق باب السيّارة كالعادة، ثمّ زمجرة المُحرّك بصوته الهادر العميق. وبعد أن تأكّدتُ من ابتعاد ذلك الصّوت ثمّ اختفائه، نزعتُ ملابسي ودخلتُ الفراش. وضعتُ رأسي على الوسادة. وعندما فكّرت للحظاتٍ في أمر الجَرَس القديم (تذكّرت أنّني تركتُ الجرس والمصباح أيضًا في الحُفرة)، سقطتُ في نومٍ عميق.

- 57 -
أمرٌ ينبغي أن أفعله عاجلًا أم آجلًا

استيقظتُ في الساعة الثانية والرُّبع بعد منتصف اللّيل. كنتُ في ظلامٍ عميق؛ وتملّكني انطباعٌ بأنّني ما أزال في قاع تلك الحُفرة، لكنّي انتبهتُ على الفور أنّه لم يكن كذلك. فالإحساس بالظلام الكامل في الحُفرة مختلفٌ تمامًا في نوعه وصِفتِهِ عن الإحساس بظلام اللّيل فوق الأرض. فمهما كان الظلام دامسًا فوق الأرض لا بدَّ لدرجةٍ من الضوء أن تتخلّله، فلا يُمكن للظلام أن يكون شاملًا. كانت الساعة الثانية والرُّبع من منتصف اللّيل، بما أنَّ الشمس كانت تزور الجانبَ الآخر من الكرة الأرضيّة. هذا كلُّ ما في الأمر.

أضأتُ المصباح الذي على الدُّرْج، ونهضتُ من السّرير وذهبتُ إلى المطبخ. شربتُ عدّة أكواب من الماء البارد. ثمّة هدوءٌ أكثر ممّا ينبغي. جرّبتُ أن أُصغي، فلم أسمع إلّا الصّمت. لا وجود للرّيح. ولأنَّ الشتاء كان مُقبلًا، توقّفت الحشراتُ عن الطنين. لم أسمع صوتَ طيور اللّيل، ولم أسمع صوت الجرس. بالمناسبة، المرّة الأولى التي سمعت فيها رنينَ الجرس كانت في مثل هذا التوقيت بالضبط. إنّه الوقت الذي يسهل فيه حدوثُ أكثر الأمور غرابة.

لم أعد إلى النوم، فلقد اختفى النعاس كلّيًا. ارتديتُ سترةً فوق المنامة وذهبت إلى المرسم. لاحظتُ أنّي لم أدخل المرسم منذ أن رجعت

إلى البيت. قلقت على اللّوحات التي وضعتُها هناك، خاصّة لوحةَ «مقتل الكومنداتور». فبحسب كلام منشكي، جاء ماساهيكو أمادا إلى البيت أثناء غيابي. وربّما دخل المرسم ورأى اللّوحة. وبالتّأكيد، سيعرف من النّظرة الأولى أنّها أحد أعمال والده. لكنّي كنتُ قد غطّيتها بغطاء، إذ ساورني بعض القلق، أزحتها عن الجدار، وغلّفتها بقماشٍ يُشبه الشاش الأبيض كيلا يراها أحد. إن لم يزح ماساهيكو عنها الغطاء فيُفترض أنّه لم يرها.

دخلتُ المرسم، وكبستُ زرّ الإضاءة. كان الهدوء مسيطرًا تمامًا على كلّ ما في المَرْسم، وما من أحدٍ فيه بالتّأكيد: لا الكومنداتور، ولا توموهيكو أمادا. أنا وحدي هناك.

كانت لوحة «مقتل الكومنداتور» مُسندةً إلى الجدار على حالها في الغطاء. لا يبدو أنّ أحدًا لمسها. ولكنْ لا دليل قاطعًا على ذلك، بل مجرّد أنّه لا أثر على أنّ أحدًا قد لمسها. أزحتُ الغطاء، فكانت هي اللّوحةَ نفسها التي رأتْها عينايَ من قبلُ لم تتغيّر قدر أنملة. هناك الكومنداتور؛ والدون جوفاني الذي قتله طعنًا بالسّيف، وبجواره خادمه ليبوريللو الذي يكتم أنفاسه، والدونّة آنّا الجميلة التي تضع يدها على فمها مذهولةً. وبعد، هناك «طويل الوجه» المريب الذي يطلّ بوجهه من فُتحةٍ مربّعة في الرُّكن الأيسر من سطح اللّوحة.

وللحقّ، راودني شكٌّ وقلقٌ في قلبي: أن يكون تدخُّلي قد غيّر سلسلة الأحداث التي تقوم عليها اللّوحة. مثلًا أن يغلق «طويل الوجه» غطاء الفُتحة التي يطلّ منها، وبالتالي يختفي من اللّوحة؛ أو ألّا يُقتَلَ الكومنداتور بالسّيف الطويل، إنّما طعنًا بسكّين مطبخ. لكنّي أمعنت في تفاصيل اللّوحة، فلم أعثر على أيّ تغيير فيها. طويل الوجه يرفع الغطاء ويُطلّ على الأرض بوجهه المُريب، ويجول بعينيْه المدوَّرتيْن في المكان. السّيف الطويل ذو النصل

الحادّ يخترق قلب الكومنداتور، والدّماء الحارّة تنبجس كالنافورة. فاللّوحةُ كاملةٌ بلا أيّ نقصان. شاهدتها قليلًا ثمّ غطّيتها من جديد.

ثمّ تأمّلتُ اللّوحتيْن اللّتيْن كنت أرسمهما. كانت كلتاهما موضوعتيْن على الحامل متجاورتيْن. الأولى عرْضيّة «حُفرة وسط غابة برّيّة»، والثانية طوليّة «بورتريه مارية أكيكاوا». نظرتُ تارةً إلى هذه وتارةً إلى تلك بإمعانٍ شديد، مقارنًا بينهما. كانتا على حالهما، لا تغيير فيهما. إحداهما اكتملتْ بالفعل، والأخرى تنتظر اللّمسات الأخيرة.

وبعد ذلك، توجّهتُ نحو لوحة «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» المستندة ناحية الجدار. جلستُ على الأرض أتأمّلها. ينظر الرجل ناحيتي بثبات من وسط كتلةٍ مكوّنةٍ من عددٍ من الألوان الزّيتيّة. لم يكن وجهه يظهر فعليًا على السّطح، ولكنّني أراه بوضوح داخل اللّوحة. كان يقبع خلف الألوان الزّيتيّة السميكة التي دُهنت بسكّين الرّسم، ويحملق من هناك فيّ مباشرةً بعينيْن حادّتين مثل طيور اللّيل. كان وجهه بلا مشاعر أو تعابير. والرجل يرفض بشدّة أن تكتمل اللّوحة - أي أن تتّضح ملامحه - كأنّه لا يريد الخروجَ من الظلام.

ولكنّي سأستكمل رسمه في وقتٍ ما بالتّأكيد. سأُجبره على الخروج من الظلام، مهما كانت مقاومته مستميتة. ربّما لن أستطيع الآن، ولكنْ في وقتٍ لاحق سأنجزها بلا شكّ.

أعدتُ النّظر إلى «بورتريه مارية أكيكاوا». لقد قطعتُ فيه شوطًا حتى لم يَعُد هناك ضرورةٌ لوقوفها أمامي. ولم يتبقَّ سوى رتوشٍ فنّيّة أخيرة لتكتمل اللّوحة فعلًا. وقد تكون أروع عمل فنّيّ رسمته في حياتي حتى الآن؛ أو قد تظهر فيها ملامحُ الفتاة مارية أكيكاوا الجميلة ذات الثلاثة عشر ربيعًا حيويّةٌ ونضرة. كنت واثقًا ومعتزًّا بتلك اللّوحة إلى هذا الحدّ. ولكنْ

يجب ألّا أكملها. من أجل حماية شيءٍ ما لديْها، يجب أن تظلّ اللّوحة غير مكتملة. أدركُ هذا جيّدًا.

ثمّة أمورٌ ينبغي فعلها في أسرع وقتٍ مُمكن. أوّلُها الاتّصال بشوكو أكيكاوا لأسمع منها تفاصيل عودة مارية إلى البيت، ثمّ الاتّصال بيوزو لأُخبرها أنّني أريد لقاءها لمرّةٍ واحدة والتّحدُّث معها برويّة. لقد قرّرتُ وجوب فعل ذلك حين كنتُ في قاع الحُفرة المُظلمة. وحان وقت التّنفيذ. ثمّ عليّ أن أتّصل بماساهيكو أمادا لأشرح له سبب اختفائي المفاجئ لثلاثة أيّام من دون أن يعرف أحدٌ مكاني (مع أنّني لا أعرف كيف أفسّر ذلك وماذا أقول فيه).

لكنّ الوقت متأخّر ولا يُمكنني الاتّصال بأيٍّ منهم. يجب انتظار الفرصة المناسبة. ومن المؤكّد أنّها ستأتي، طالما أنّ الزمن يتحرّك بشكلٍ طبيعيّ. سخّنتُ حليبًا في وعاءٍ وشربته، وتناولت البسكويت وأنا أتأمّل المنظر خارج النافذة الزجاجيّة. كان الظلام منتشرًا، وما زال هناك وقتٌ لشروق الشمس. إنّها الفترة التي يكون فيها اللّيل في أطول أوقاته.

لم أعثر على شيءٍ أفعله حينذاك. كان من الأفضل أن أعود إلى الفراش للنوم ثانيةً، لكنّي لا أشعر بالنّعاس مُطلقًا. ولم أكن أرغب في قراءة أيّ كتاب، ولم تكن لديّ رغبةٌ في العمل. وهكذا قرّرتُ الاستحمام. فتحتُ صنبور الماء الساخن في الحوض، واستلقيت على الأريكة ريثما يمتلئ، أُحملق في السّقف بلا غاية.

لماذا توجّب عليّ المرور بالعالم السّفليّ؟ لقد تحتّم عليّ أن أقتل الكومنداتور بيدي هذه من أجل الدخول إلى ذلك العالم. سقط صريعًا وقدّم نفسه ضحيّةً، ولاقيتُ بدوري ابتلاءاتٍ في عالم الظلام. من المؤكّد أنّ ثمّة سببًا لكلّ هذا. فلقد واجهتُ في العالم السّفليّ أخطارًا مُرعبة لا شكّ فيها. لم يكن مستغربًا أن يحدث أيّ أمرٍ غريب هناك. ثمّ إنّي، من

خلال المرور بتلك التجربة في ذلك العالم، يبدو أنّني استطعتُ تحرير مارية أكيكاوا من مكانٍ ما. فعلى الأقل، عادت إلى بيتها سالمة. بالضّبط كما تنبأ الكومنداتور. لكنّي لم أكتشف أيّ علاقةٍ متوافقة ومحدّدة بين تجربتي في العالم السّفليّ وعوْدة مارية أكيكاوا سالمة.

ربّما لذلك النهر معنًى في منتهى الأهمّيّة. ربّما غيّرتُ من خواص جسمي حين شربت من مياهه. كان ذلك هو الإحساس الواقعيّ المباشر الذي أشعر به في جسدي، لكنّي لا أستطيع شرحه بالعقل والمنطق. استطعت من خلال تغيير تلك الخواصّ اختراق الجُحْر الأفقيّ الضيّق والعبور إلى الجهة الأخرى، وهو ما يُفترض استحالته منطقيًّا وفيزيائيًّا. وللقضاء على الرُّعب المتجذّر في أعماقي تجاه الأماكن المغلقة، قامت كلّ من الدونّة آنًا وأختي كومي بإرشادي وتشجيعي. كلًّا، ربّما كانتا شخصًا واحدًا. ربّما كانتا تتبادلان الهويّة. ربّما قامتا بحمايتي من قوى الظلام، وحماية مارية في الوقت نفسه أيضًا.

ولكن، تُرى أين كانت مارية أكيكاوا محبوسة؟ هل كانت محبوسة؟ تُرى هل تضرّرت لأنّني أعطيتُ تميمةَ البطريق (مضطرًّا) لحارس العبور «عديم الوجه»؟

تتزايد الأسئلة باستمرار.

وقد تتّضح التفاصيلُ المتعلّقة بهذا الأمر نسبيًّا إذا تحدّثتْ مارية أكيكاوا. ليس أمامي سوى الانتظار. كلًّا، قد لا تتّضح الحقيقة مُطلقًا حتى فيما بعد. وربّما لا تتذكّر مارية ما حدث لها مُطلقًا، أو ربّما قد قرّرت ألّا تُخبر أحدًا بما كانت تذكره (مثلما حدث لي تمامًا).

بأيّ حال، لا بدّ من أن ألتقي مارية أكيكاوا في عالم الواقع هذا، لنتبادل الحديثَ نحن الاثنيْن فقط، بتأنٍّ وبلا استعجال. لا بدّ من أن نتبادل

المعلومات بخصوص ما وقع لكلٍّ منّا خلال الأيّام القليلة الماضية. إن كان ذلك ممكنًا.

ولكنْ، هل هذا هو العالم الواقعيّ حقًّا؟

جلتُ ببصري لأنظر إلى العالم الذي حولي. هنالك الأشياء التي اعتدتُ رؤيتها. الريح التي تهبّ من النافذة، الرائحة المعتادة.. كما أنّي أسمع الأصواتَ المحيطة المعتادة.

ولكنْ، ما الذي يثبت أنّ ما يبدو لي الآن هو العالم الواقعيّ حقيقةً؟ ربّما كنتُ أنا مَن يحمل نفسه على الاعتقاد بأنّ هذا هو العالم الواقعيّ. ربّما دخلت جُحْر مرتفعات إيزو، واخترقتُ العالمَ السُّفليّ، وبعد ثلاثة أيّام، خرجتُ من المكان الخاطئ إلى قمّة الجبل الذي يقع في ضواحي مدينة أوداوارا. ليس هناك أيّ دليلٍ مؤكّد على أنّ العالم الذي رجعتُ إليه هو العالم نفسه الذي رحلتُ عنه.

نهضتُ عن الأريكة، ونزعتُ ملابسي ودخلتُ حوض الاستحمام. غسلتُ جسدي بعنايةٍ شديدة بالصابون من قمّة رأسي وحتى أخمص قدميّ. وغسلتُ شعري كذلك جيّدًا. ونظّفتُ أسناني، ثمّ نظّفتُ أذنيّ بعود القطن، وقصصتُ أظافري. ثمّ حلقتُ لحيتي (لم تكن قد نبتت على أيّ حال). وارتديتُ ملابسَ داخليّة جديدة مرّةً ثانية، ثمّ لبستُ قميصًا قطنيًا مكويًا، وبنطلونًا من الكاكي حادّ الثنية. عزمتُ على مواجهة العالم الواقعيّ بسلوكٍ راقٍ قدر الإمكان. خارج النافذة ظلامٌ حالك، حتى تظنّ أنّه سيستمرّ هكذا فلا يأتي الصباح أبدًا.

ولكنْ جاء الصباح بعد قليل. صنعتُ قهوةً جديدة، وحمّصتُ شريحةَ خبز، ووضعتُ عليها زبدة وأكلتها. لم يَعُدْ متبقيًا في الثلّاجة أيُّ طعامٍ تقريبًا، سوى بيضتيْن وحليبٍ يكاد يفسد، وبعض الخضروات القليلة. فكّرتُ بالذهاب للتسوّق اليوم.

وبينما كنت أغسلُ كوبَ القهوة والأطباق، انتبهتُ إلى أنّني لم ألتقِ صديقتي المتزوّجة منذ فترةٍ طويلة. تُرى كم مضى من الوقت؟ لا أذكر بدقّةٍ ما لم أنظر في دفتر اليوميّات. فترةٌ طويلة، بأيّ حال. وبسبب الأحداث المتتالية وغير الطبيعيّة وغير المتوقّعة، لم أنتبه إلى مرورِ وقتٍ طويل لم تتّصل بي خلاله.

ما السّبب يا تُرى؟ كانت تتّصل مرّتيْن في الأسبوع على الأقلّ، وتقول: «ماذا تفعل، هل أنت بخير؟» أما أنا، فلم أكن أستطيع الاتّصال بها. لم تعطني رقم هاتفها الجوال، وأنا لا أستخدم البريد الإلكترونيّ. لذا لم يكن بوسعي إلّا الانتظار حتى تتّصل بنفسها، مع أنّي أرغب في لقائها.

بعد التاسعة صباحًا بقليل، وعندما كنتُ أفكّر فيها شاردًا، جاءتني مكالمة هاتفيّة منها.

قالت من دون إلقاء التّحيّة: «ثمّة أمرٌ يجب أن أحدّثك بشأنه».

«تفضّلي» قلت.

كنتُ ممسكًا بسمّاعة الهاتف ومستندًا بظهري على لوح المطبخ. وكانت الغيوم التي تغطّي السّماءَ حتى ذلك الوقت بدأتْ تختفي، وأظهرتْ شمسُ بداية الشتاء وجهها على استحياء. يبدو أنّ الطقس يتحسّن. لكنّ موضوع صديقتي لم يكن مستحبًّا.

قالت: «أعتقد أنّه من الأفضل ألّا أقابلك بعد الآن. مع شعوري بالأسف على ذلك».

لم أتأكّد من صدى صوتها: أكانت تشعر بالأسف حقًّا أم لا. كان صوتُها رتيبًا يفتقد المشاعر.

«وهناك عدّة أسباب»، أضافت.

«عدّة أسباب؟»، ردّدتُ كلماتها.

«السّبب الأوّل: بدأ زوجي يشك فيّ قليلًا. يبدو أنّه يشعر بشيءٍ ما».

«شيءٍ ما؟» ردّدت كلماتها ثانيةً.

«عندما يكون الوضع هكذا، يظهر شيءٌ ما على المرأة. كأن تهتمّ بمساحيق التجميل أو الملابس أكثر من السّابق؛ أو أن تغيّر نوع العطر، أو تباشر حِميةً لتخفيف الوزن. مع أنّني كنتُ حريصةً بشدّة على عدم إظهار مثل هذه الأشياء، ولكن...».

«فهمتُ».

«إضافةً إلى أنّ هذا الوضع لا يُمكن أن يستمرّ إلى الأبد».

«هذا الوضع؟»

«أعني، علاقتنا بلا مستقبل، ولا حلّ لها».

كانت محقّة بالتّأكيد، فعلاقتنا «بلا مستقبل» أو «لا حلّ لها»، وفي استمرارها مخاطرُ كبيرة. بالنّسبة إليّ، ليس هناك ما أخسره، أمّا هي، فلديْها أسرةٌ، وابنتان في العقد الثاني من العمر تتردّدان على مدرسةٍ خاصّة.

تابعتْ كلامها: «أمرٌ آخر. لقد حدثت مشكلةٌ عويصة لابنتي الكبرى».

الابنة الكبرى. إن لم تخنّي الذاكرة، فتلك البنت عاقلةٌ وهادئةٌ وشاطرة في المدرسة، ومطيعةٌ لوالديْها لا تثير أيَّ مشكلة.

«حدثت مشكلة؟»

«لا تريد الخروج من الفراش في الصباح عند الاستيقاظ».

«لا تريد الخروج من الفراش؟»

«اسمع! هلّا كففتَ عن ترديد ما أقوله كالببغاء؟»

اعتذرتُ لها: «أنا آسف! ولكنْ، ماذا يعني هذا؟ ألّا تخرج من الفراش؟»

«بالمعنى الحرفيّ للكلمة. منذ أسبوعيْن وهي لا تريد الخروج من الفراش. فلا تذهب إلى المدرسة. وتظلّ راقدةً في الفراش بالمنامة طوال اليوم. لا تردُّ على من يُحادثها. ولا تضعُ الطعام في فمها حتى لو حملتُه إليها في الفراش».

«هل استشرتِ اختصاصيًا في هذا الأمر؟»

«بالتّأكيد. استشرتُ اختصاصيًا في المدرسة. ولكنْ بلا فائدة».

فكّرتُ في الأمر. لم أجد ما أقوله لها. فأنا لم أقابل تلك البنت قطّ.

قالتْ: «وعلاوةً على هذا، أعتقد أنّني لن أستطيع لقاءك بعد الآن».

«لأنّك مضطرًا للبقاء في البيت لرعاية ابنتك؟»

«هذا واحدٌ من الأسباب. لكنّه ليس الوحيد».

لم تقل أكثر، لكنّي استوعبت ما في قلبها. إنّها تشعر بالقلق، والمسؤوليّة الشّخصيّة، كأمٍّ تجاه ما حدث.

فقلتُ لها: «أشعر بالأسف الشديد».

«أعتقد أنّ أسفي أشدّ من أسفك».

ربّما ـ قلت في نفسي.

«في النهاية، ثمّة أمرٌ واحدٌ أريد أن أقوله لك» تنهّدتْ تنهيدةً عميقة ولكنّها قصيرة.

ـ «ما هو؟»

ـ «أعتقد أنّك ستصبح رسّامًا بارعًا. أعني أكثر وأكثر من الآن».

«أشكرك. هذه الكلمة ستعطيني دفعة».

ـ «الوداع».

ـ «أرجو أن تكوني بخير».

أغلقتُ الهاتف، ذهبتُ إلى غرفة المعيشة واستلقيتُ على الأريكة، وفكّرتُ فيها وأنا أحملق في السقف. واكتشفتُ أنّني التقيتُ بها كثيرًا، لكنّي لم أفكّر أبدًا أن أرسم لها بورتريه. لسببٍ ما، لم أشعر بتلك الرّغبة مُطلقًا. في المقابل، رسمتُ لها عددًا من المسوّدات بقلم رصاص B2 في دفتر الرّسم الصّغير. أغلب اللّوحات تُظهرها عاريةً في مشاهدَ إباحيّة، من بينها رسمٌ لها وهي تفرج ساقيْها مبرزةً فرجها. ورسمتها أثناء المضاجعة أيضًا. كانت رسومًا بسيطة، ولكنّها واقعيّة وحيّة. ثمّ إنّها مبتذلة إلى أبعد الحدود. وقد أسعدتها كثيرًا.

«أنت بارعٌ جدًّا في هذه الرّسومات الخليعة. مع أنّك ترسمها سريعًا وكأنّك لا تفكّر، إلّا أنّها في غاية الحسّيّة»، قالت لي ذات مرّة.

«مجرّد لهو».

كنت أمزّق تلك الرسومات بعد إنجازها مباشرةً، خشية أن يراها أحد. كما أنّه لا ينبغي لي الاحتفاظ بشيءٍ كهذا. ولكن، كان يجب أن أحتفظ سرًّا برسمةٍ واحدة على الأقل، رسمةٍ تُبرهن لي أنا نفسي أنَّ لتلك المرأةِ وجودًا حقيقيًّا في حياتي.

نهضتُ عن الأريكة. كان اليوم قد بدأ لتوّه، وهناك أكثر من شخصٍ أتّصل به.

- 58 -
وكأنّي أستمع لحكايةٍ عن الأنهار الجميلة في المرّيخ

اتّصلتُ بشوكو أكيكاوا في التّاسعة والنصف صباحًا. في تلك الساعة، يُباشر معظم الناس نشاطاتهم اليوميّة. لم ألقَ ردًّا. بعد عدّة رنّات، ظهر المُجيب الآلي: «لا يُمكننا الردّ على المُكالمات حاليًا. الرجاء ترك رسالة بعد الإشارة...». لم أترك رسالة. ربّما كانت مشغولةً في ملاحقة أمورٍ عديدة تتعلّق باختفاء ابنة أخيها المفاجئ ثمّ عودتها سالمة. حاولتُ أن أتّصل عدّة مرّات بين الفينة والأخرى، فلم يرفع أحدٌ السمّاعةَ من الجهة الأخرى.

فكّرت في الاتّصال بيوزو، ثمّ أعرضتُ، لأنّني لم أرغب في الاتّصال بها أثناء العمل. من الأفضل الانتظار حتى راحة الغداء، لعلّي تبادلتُ وإيّاها كلمتيْن. فالأمر لا يحتاج إلى حديثٍ طويل. فما أريد أن أقوله لها تحديدًا هو إنّني أريد أن أقابلها في أقرب وقتٍ مُمكن، فهل تسمح لي بذلك أم لا. يكفي أن ترد بنعم أو لا. فإنْ وافقت قرّرنا المكان والزمان؛ وإلّا، فلا.

فاتّصلتُ بماساهيكو أمادا رغمًا عنّي. ردّ على الفور. وعندما سمع صوتي، أطلقَ تنهيدةً عميقةً وكبيرة، وسألني: «هل أنت في البيت الآن؟»

«أجل».

«سأعاود الاتّصال بك بعد قليل، هل لديك مانع؟»

«لا مانع». ثمّ اتّصل بعد خمس عشرة دقيقة. كان يبدو أنّه يتّصل من الهاتف الجوّال من فوق سطح بناية أو ما شابه.

قال بصوتٍ حازمٍ نادرًا ما تكلّم به: «أين كنت بالضّبط حتى الآن؟ أي بعد أن اختفيتَ فجأةً من الغرفة من دون أن تقول شيئًا، ولم يعرف أحدٌ أين ذهبت. لقد أتيتُ خصّيصًا إلى بيت أوداوارا حتى أستطلع أمرك».

«ليس لديّ أعذارٌ حقًّا».

«متى رجعت؟»

«مساء أمس».

«تُرى، أين كنت تتسكّع من بعد ظهر يوم السبت وحتى مساء يوم الثلاثاء؟»

كذبتُ عليه قائلًا: «في الحقيقة، لا أذكر أين كنت طوال تلك الفترة ولا ماذا كنت أفعل».

«هل تقصد أنّك وجدت نفسك فجأةً في البيت؟ هل تبدّدت الأيّام السّابقة في العدم؟»

«أجل بالضّبط».

«لا أفهم شيئًا، هل تتحدّث بجدّيّة؟»

«لا أجد تفسيرًا آخر».

«فعلًا، كلامك ليس مقنعًا للغاية».

«ألا تحدث هذه الأشياء في الأفلام والرّوايات؟»

«اعفيني أرجوك. فأنا، عندما أشاهد فيلمًا أو مسلسلًا في التلفاز، ويأتي مشهدُ فقدان الذاكرة، أغيّر القناة على الفور. لأنّها حبكةٌ سهلةٌ ورخيصةٌ جدًّا».

«هيتشكوك نفسه استخدم فقدان الذاكرة».

«هل تقصد فيلم «المسحورة»؟ هذا الفيلم من أفلام الدُّرجة الثانية التي أخرجها هيتشكوك. ولكنْ قلْ لي ما الذي حدث فعلًا؟»

«حاليًّا، أنا نفسي لا أدري ما الذي حدث. لا أستطيع ربطَ الأجزاء المتناثرة بعضها ببعض. ربَّما إن مرَّ الوقت، عادت الذاكرةُ واتَّضحت. أعتقد أنَّني حينها سأستطيع شرح ما حدث بدقَّة. ولكنْ حاليًّا مستحيل. اعذرني، أرجوك. انتظر بعض الوقت».

فكَّر ماساهيكو، ثمَّ قال كمَنْ يستسلم: «فهمت. لنعتبرها الآن حالة فقدان ذاكرة. ولكنْ ليس في الأمر مخدَّراتٌ أو كحولٌ أو مرضٌ نفسيٌّ أو امرأةٌ سيِّئة السُّمعة أو حالةُ اختطاف من فضائيِّين، أليس كذلك؟»

«لا شيء من هذا. ليس في الأمر خرقٌ لقوانين البلاد وأخلاق المجتمع».

«لا تهمُّني أخلاق المجتمع في شيء. ولكنْ، هلَّا أخبرتني بأمرٍ واحدٍ فقط؟»

«ما هو؟»

«كيف خرجت بعد ظهر يوم السَّبت من المصحَّة في مرتفعات إيزو؟ إنَّه مكانٌ صارمٌ جدًّا فيما يتعلَّق بالحراسة والدخول والخروج. لأنَّ عدد المشاهير من النزلاء ليس قليلًا، فيحرص القيِّمون حرصًا شديدًا على عدم تسرُّب أيِّ معلوماتٍ شخصيَّةٍ عنهم. في المدخل، هناك مكتب استقبال، والمكان مراقَبٌ من حرَّاسٍ من شركة حراسةٍ متخصِّصة على مدار الأربع والعشرين ساعة يوميًّا، علاوةً على وجود كاميرات مراقبة، لكنَّك اختفيتَ فجأةً وفي وضح النهار من دون أن يراك أحد، ولم تظهرِ مطلقًا في كاميرات المراقبة. كيف حدث ذلك؟»

«ثمَّة طريقٌ سرِّيّ».

«طريقٌ سرّيّ؟!»

«ممرٌّ يمكن الخروج منه دون أن يراك أحد».

«ولكنْ، كيف عرفتَ أنت بوجود ذلك الممرّ؟ أليست تلك هي المرّة الأولى التي تزور فيها المكان؟»

«أخبرني والدك عنه. بل ألمح لي. بطريقةٍ غير مباشرة طبعًا».

«والدي؟ لا أفهم ما تقول إطلاقًا. فعقلُ والدي الآن لا يختلف عن القنبيط المسلوق».

«هذا هو أحد الأمور التي لا أستطيع شرحها جيّدًا».

قال ماساهيكو وهو يتنهّد: «ما باليد حيلة. لو كنتَ عاديًّا، لغضبتُ منك وحذّرتك ألّا تسخر منّي. ولكنْ ليس بوسعي إلّا التّسليم بما تقول. فأنت في النهاية إنسانٌ ضائع مثل الياكوزا، تعيش حياتك على رسم لوحاتٍ زيتيّة».

«أشكرك. بالمناسبة كيف حال والدُك؟»

«يوم السبت، أنهيت المكالمة ورجعت إلى الغرفة، وكنتَ قد اختفيت، لم أجدك في أيِّ مكان، وكان أبي غارقًا في نومٍ عميق وليس هناك ما يدلّ على أنّه سيستيقظ. كان تنفُّسه ضعيفًا، فذُعرتُ متسائلًا ما الذي حدث. لا أعتقد أنّك ارتكبتَ فعلةً سيّئة، مع أنّي معذورٌ في حال اعتقدت».

«متأسّفٌ جدًّا». وكنتُ متأسّفًا بشكلٍ حقيقيّ. وفي الوقت نفسه، ارتحتُ وتنفّستُ الصُّعداء بخصوصِ عدم عثوره على جثّة الكومنداتور المطعون وبُحيْرة دمائه التي خلّفها على الأرض.

«شعورك بالأسف هو الوضع الطبيعيّ. عمومًا، اضطررتُ إلى حجز غرفةٍ في نزلٍ مجاور لأبقى بقربه. وحين عاد التنفُّس إلى طبيعته وأصبح في حالةٍ صحّيّة مستقرّة نسبيًّا، عدتُ إلى طوكيو بعد ظهر اليوم التالي. فالعمل متراكم لديَّ. وسأذهب في نهاية هذا الأسبوع لمرافقته».

«أنت أيضًا في حالٍ يُرثى لها».

«ما باليد حيلة. قلتُ لك مسبقًا إنَّ موت إنسانٍ هو عملٌ ليس بالسَّهل. لكنّي لا أستطيع التذمُّر، فالأمر صعبٌ على مَن يموت بالأحرى».

«إن كان هناك ما يُمكنني فعله لمساعدتك...».

«لا، شكرًا. لا يمكنك فعلُ شيء. ولكنّي سأكون شاكرًا لك إن لم تزدني أعباءً ثقيلة... أجل، أجل عندما عرجتُ على البيت في طريقي إلى طوكيو بسبب قلقي عليك، جاء السيّد منشكي إيّاه. ذلك الرجل الوسيم ذو الشعر الأبيض صاحب سيّارة جاغوار فضّيّةٍ رائعة».

«لقد قابلته بعدئذٍ. وقال لي إنَّك كنت في البيت وتحدَّث معك».

«تحدَّثتُ معه قليلًا عند المدخل. رجلٌ مثيرٌ للفضول قليلًا».

«بل كثيرًا» أصلحتُ قوله على استحياء.

«ماذا يعمل؟»

«لا يعمل شيئًا. لديْه أموال طائلة، لا يحتاج إلى العمل. ولكنْ، يبدو أنَّه يُتاجر في الأسهم والعملات من خلال الإنترنت. يقول إنَّها مجرَّد هواية أو تزجية للوقت ينتج عنها بعضُ الأرباح».

فقال ماساهيكو منبهرًا: «هذه حكايةٌ رائعة. كأنَّني أستمع إلى حكايةٍ عن الأنهار الجميلة على سطح المرّيخ. هناك يستخدم المرّيخيُّون مجاذيف من الذَّهب الخالص، ويجذّفون مراكبَ طويلةً ورفيعةً ذات مقدّمةٍ محدَّبة. ويدخّنون سجائرَ من العسل عن طريق فُتحة الأذن. سماع هذه الأشياء يُثلج صدري. بالمناسبة، هل عثرتَ على السكّين التي تركتها بالبيت في المرَّة السَّابقة؟»

«المعذرة، لم أجدها. ولا أعلم أين هي. سأشتري لك سكّينًا جديدة بديلًا عنها».

«كلًّا، لا تشغل بالك. فهي مثلك تمامًا، تختفي وتظهر وتفقد الذاكرة. لا بدَّ أن تظهر قريبًا».

قلتُ: «ربَّما». هذا يعني أنَّ السكِّين لم تبقَ في حُجْرة توموهيكو أمادا. لقد اختفت في مكانٍ ما مثل جثَّةِ الكومنداتور وبركة الدِّماء. ربَّما تظهر قريبًا في مكانٍ ما كما قال ماساهيكو.

أنهينا المكالمة عند ذاك الحدّ، وتواعدنا أن نلتقي في أقرب فرصة، ثمَّ أغلقنا الهاتف.

بعد ذلك، قدتُ سيَّارتي كارولا واغن المليئة بالغبار والأتربة وذهبتُ إلى مركزٍ تجاريّ للتَّسوُّق. ذهبتُ إلى محلّ البقالة، وبدأتُ جولتي مختلطًا بربَّات البيوت الساكنات في الجوار. لا يبدو على وجوههنَّ في فترة الصباح ملامحُ السَّعادة والسرور. ربَّما لأنَّ حياتهم لا تحتوي على إثارةٍ كبيرة: لا يركبن مركبًا لعبور نهرٍ في بلاد المجاز.

وضعت في السلَّة كلَّ ما وقعت عليه عيناي: لحم وسمك وحليب وجبن فول الصويا، ثمَّ وقفتُ في الصفّ ودفعتُ الحساب. وكنت قد أحضرتُ كيسًا معي، فلم آخذ من أكياس المتجر البلاستيكيَّة، وبذلك وفَّرتُ خمسة ينات. ثمَّ عرَّجتُ على متجر الخمور المُخفَّضة، واشتريت صندوق جعَّة نوع سابّورو الذي يحتوي على أربع وعشرين علبةٍ معدنيَّة. وعند عودتي، رتَّبت المشتريات ووضعتُها في الثلَّاجة. وغلَّفت الموادّ التي يجب تجميدها بالبلاستيك الشفَّاف ووضعها في حُجْرة المجمّدات. وبرَّدت ست علبٍ فقط من الجعَّة. ثمَّ سخَّنتُ ماءً في قِدْرٍ كبيرة، وسلقت فيها الهليون والبروكلي لاستخدامهما في السَلطة. وسلقتُ كذلك عددًا من البيضات. بأيِّ حال، استهلكت الوقت بتلك الطريقة، ففكَّرت بما تبقَّى منه أن أغسل السيَّارة مقلّدًا منشكي، لكنِّي فقدت تلك الرَّغبة عندما تخيَّلتُ أنَّها ستمتلئ بالغبار والأتربة مرَّةً ثانية بعد فترةٍ قصيرة. فمن المُجدي أكثر أن أقف في المطبخ وأسلق الخضروات.

وبعد أن تخطَّت الساعة الثانية عشرة بقليل، اتَّصلتُ بمكتب الهندسة المعماريَّة الذي تعمل فيه يوزو. كنت أريد أن أتحادث معها بعد مضيّ أيَّام على استقرار مشاعري، لكنّي أردت إبلاغها بما قرَّرته في الحُفرة المظلمة بأسرع وقت. لأنّي إن لم أفعل، ربَّما يحدث شيءٌ يغيّر مشاعري تلك. أحسستُ أنَّ سمَّاعة الهاتف ثَقُلَتْ فجأةً في يدي حين فكَّرتُ أنّني على وشك التَّحدُّث مع يوزو. ردَّت على الهاتف فتاةٌ شابَّة بصوتٍ مرح. أخبرتها باسم عائلتي، وقلتُ لها إنّني أودُّ التَّحدُّث مع يوزو.

سألتني: «هل أنت زوجها؟»

قلت لها أجل. للدقَّة، لم أَعُد زوجها، ولكنْ لا يمكن شرح تلك الظروف على الهاتف.

«أرجو منك الانتظار قليلًا»، قالت.

ثمَّ انتظرتُ على الهاتف وقتًا طويلًا جدًّا. ولكنْ بما أنَّه لا وجود لأمورٍ عاجلة أقوم بها، استندتُ إلى لوح المطبخ واضعًا السمَّاعة على أذني، وبقيتُ أنتظر. ظهر غرابٌ كبير خارجَ النافذة وهو يرفرف بجوارها تمامًا. برقت أجنحته السَّوداء اللَّامعة وهي تعكس أشعَّة الشمس.

«ألو»، قالت يوزو.

تبادلنا تحيَّةً بسيطة. لم أكن أدري كيف يلقي الزوجان التحيَّة بعد انفصالهما، وما المسافة التي ينبغي أن تكون بينهما أثناء الحوار! لذا حرصتُ على أن تكون التَّحيَّة أبسط ما يُمكن، بحدودها الدُّنيا: كيف حالكِ؟ بخير. وأنت؟ كانت كلماتنا قصيرةً مثل أمطار الطريق في ذروة الصيف حين تتبخَّر في لمح البصر من سطح أرضِ الواقعِ الجافَّة.

تجرَّأتُ قائلًا: «أريد أن أقابلك مرَّةً ونتحدَّث في عددٍ من الأمور وجهًا لوجه».

سألت يوزو: «عدد من الأمور؟ ما هي، تلك الأمور؟» لم أتوقّع أن يرتدّ إليّ هذا السّؤال (ولماذا لم أتوقّع؟)، فانكتمتْ كلماتي في فمي. عدد من الأمور؟ تُرى ما هي، تلك الأمور؟

قلتُ متلعثمًا: «لم أفكّر بعد في التفاصيل».

«ولكنّك تريد الحديث عن عددٍ من الأمور؟»

«أجل. فعندما فكّرتُ في أمرنا وجدتُ أنّنا انفصلنا من دون أن نتحاور حوارًا حقيقيًّا».

فكّرت يوزو قليلًا، ثمّ قالت: «أتدري! أنا حامل. لا مانع من أن نلتقي، لكنّ بطني بدأت تكبر جدًّا، فأرجو ألّا تُبدي دهشتك عندما تراها».

«أعرف أنّك حامل. أخبرني ماساهيكو بذلك. وقال ماساهيكو إنّك طلبتِ منه إبلاغي بهذا الأمر».

«هذا صحيح».

«فلندع حجمَ بطنك. سأكون سعيدًا بلقائك إن لم يزعجكِ ذلك».

«هل يمكنك أن تنتظر لحظات؟»

انتظرت. كان يبدو أنّها تُخرج مفكّرة المواعيد، وتقلّب صفحاتها. حاولتُ أثناء ذلك أن أتذكّر ما نوع الأغاني التي كانت فرقة غوغوز (GOGOS) تغنّيها. لا أعتقد أنّها فرقةٌ عظيمة للدرجة التي يؤكّد عليها ماساهيكو أمادا، ولكنْ ربّما كان محقًّا وربّما كانت نظرتي للعالم مشوّهة.

قالت يوزو: «ليس لديَّ شيءٌ مساءَ الاثنين القادم».

أجريت عمليّةً حسابيّة في ذهني. اليوم هو الأربعاء. والاثنين بعد خمسة أيّام. إنّه اليوم الذي يحمل فيه منشكي العلب المعدنيّة والقواريرَ الزجاجيّة الفارغة إلى موضع تجميع النفايات. وهو اليوم الذي يجب أن

أذهب فيه إلى درس تعليم الرّسم. من دون أن أقلّب في الأجندة، عرفت أنّه لا مواعيد لديّ. تُرى بأيّ ملابس يذهب منشكي لإلقاء النفايات؟

قلت لها: «لا مانع لديَّ من مساء الاثنين. حدّدي أنت الزمان والمكان».

قالت اسم كافيتريا قريبةٍ من محطّة «شينجوكو غوينماي». كانت تلك الكافيتريا قريبةً من مكان عملها، وكنّا نتواعد فيها عندما كنّا نعيش معًا كزوجيْن. كانت تنتهي من العمل، فنذهب معًا لتناول العشاء في مكانٍ لا يبعد عن تلك الكافيتريا كثيرًا، حيث مطعمٌ متخصّصٌ في المحار يقدّم وجباته بسعرٍ معقول. وكانت يوزو تحبّ تناول المحار الطازجِ النيْء الصّغير بعد أن تضع عليه كمّيّةً كبيرةً من فجل الخيل، وتشرب نبيذ شابليه المبرّد جيّدًا. تُرى هل لا يزال مطعم المحار هذا موجودًا في المكان نفسه؟

«هل يناسبكَ أن نلتقي هناك بعد السادسة؟»

«مناسبٌ جدًّا».

«آمل أن آتي من دون تأخير».

«لا مشكلة، سأنتظرك».

«حسنًا، إلى اللّقاء إذن» قالت، وأغلقت الهاتف.

تأمّلتُ السمّاعة التي في يدي. سألتقي يوزو إذن. يوزو التي لم تعد زوجتي، وتوشك أن تلد طفلًا من رجلٍ آخر. حُدِّد الزمان والمكان. وليس هناك أيّةُ مشكلة. لكنّي لست واثقًا حينها من أنّي فعلتُ الصّحيح أم لا. وما زلتُ أشعر أنّ السمّاعة ثقيلة، وكأنّها صُنعت في العصر الحجريّ.

ولكنْ، هل ثمّة وجودٌ حقًّا في هذا العالم لشيءٍ صحيحٍ صحّةً كاملة، أو خاطئٍ خطأً كاملًا؟ في هذا العالم الذي نعيش فيه، تهطل الأمطار بنسبة ثلاثين في المئة، وتهطل أيضًا بنسبة سبعين في المئة. وقد تكون الحقيقة نسبيةً هكذا. فثمّة حقيقةٌ بنسبة ثلاثين في المئة، وحقيقةٌ بنسبة سبعين في

المئة. هذا الأمر بالنّسبة للغربان مثلًا سهلٌ جدًّا: فإمّا أن تمطر أو لا تمطر. لا يمرّ بخاطرهم أيُّ شيء عمّا يسمّى نسبة هطول المطر!

لم أستطع فعلَ شيء بعد أن تحدّثتُ مع يوزو. جلستُ على كرسي مائدة الطعام، ومرّت ساعةٌ تقريبًا وأنا أتأمّل عقارب الساعة. سأقابل يوزو يوم الاثنين من الأسبوع القادم. ثمّ أتحدّث معها عن «عددٍ من الأمور». وسيكون لقاؤنا هذا هو الأوّل منذ مارس الماضي. كان ذلك ظهر يوم أحد في شهر مارس، هطلت فيه أمطارٌ باردة. وهي الآن حامل في شهرها السابع. وذلك تغيُّرٌ كبيرٌ. أمّا أنا، فلا تغيير من جهتي. منذ أيّام، شربتُ مياهَ نهرٍ في عالم المجاز، وعبرت النّهر الذي يفصل بين الوجود والعدم. ولكنْ ماذا عنّي؟ هل تغيّر فيّ شيءٌ ما بناءً على ذلك؟ وإن تغيّر، فما هو؟

بعد ذلك، أمسكتُ السمّاعة، واتّصلتُ ثانية ببيت شوكو أكيكاوا. فلم يردَّ أحدٌ أيضًا، سوى المجيب الآلي. يئستُ وجلستُ على الأريكة في غرفة المعيشة. بعد تلك المكالمات، لم يتبقَّ لي ما أفعله. لديَّ رغبةٌ في دخول المرسم ورسمِ لوحةٍ بعد غياب، لكنّني لم أعثر على فكرةٍ يُمكن رسمها.

وضعتُ أسطوانة «النهر» لبروس سبرينغستين على الدوّارة. واستلقيت على الأريكة، وأغمضتُ عينيَّ مصغيًا لتلك الموسيقى بعض الوقت. انتهيت من سماع الوجه الأوّل من الأسطوانة الأولى، فقلبتُها واستمعتُ للوجه الثاني. تأكّدتُ مجدّدًا أنَّ أسطوانة «النهر» لبروس سبرينغستين ينبغي سماعها بهذه الطريقة. بعد أن ينتهي الوجه الأوّل «يوم الاستقلال»، تُرفع الأسطوانة بكلتا اليديْن وتُقلب، وتُسقَط الإبرة برفقٍ على مقدّمة الوجه الثاني، فتنساب موسيقى «قلبٌ جائع». وإن تعذّر ذلك، فما قيمة ألبوم «النهر»! إن سُمح لي أن أدلي برأيي الشّخصيّ، فإنّ هذا الألبوم لم يُصنع للاستماع إليه على التوالي من أقراصٍ مدمجة. وحتى ألبوم «روح

تائهة» وألبوم «أصوات حيوانات أليفة». فللموسيقى العظيمة طريقةٌ خاصَّة بالاستماع، ووضعيَّةٌ خاصَّة أيضًا.

بأيِّ حال، كان عزفُ فرقة شارع ـ فِي هذه الألبوم لا تشوبه شائبة. تثير الفرقةُ حماسَ المطرب، ويلهم المطربُ خيالَ الفرقة. تمكَّنتُ من تناسي مشاكلي بعض الوقت، وأصغيتُ إلى الموسيقى بكلِّ تفاصيلها واحدةً بعد أخرى.

بعد أن استمعتُ إلى الأسطوانة الأولى، وفي اللَّحظة التي رفعتُ فيها إبرة المُشغِّل، فكَّرتُ أن أتَّصل بمنشكي. لم أتحدَّث إليه منذ أن أنقذني من الحفرة ليلةَ أمس. ولكنْ لسببٍ ما، لم أشعر برغبةٍ في الاتِّصال به. يعتريني مثل هذا الشعور أحيانًا تجاهه. إنَّه رجلٌ مثير للاهتمام، لكنَّه يسبِّب لي شعورًا بالإزعاج أحيانًا. كان الاختلاف بين الحالتيْن كبيرًا جدًّا. لكنِّي لا أعرف السَّبب. وحينها لم أكن راغبًا في سماع صوته.

في النهاية، أجَّلتُ الاتِّصال به. سأفعل ذلك فيما بعد. فاليوم قد بدأ توًّا. وضعتُ الأسطوانة على دوَّارة المُشغِّل. وما إن استلقيت على الأريكة للاستماع إلى «يوم الاستقلال» (All gonna meet down at the Cadillac Ranch «يومًا ما سنلتقي جميعًا في مزرعة كاديلاك رانش»)، رنَّ جرس الهاتف. رفعتُ الإبرة عن الأسطوانة، وذهبتُ إلى غرفة الطعام، وأمسكتُ بالسمَّاعة. توقَّعتُ أن يكون منشكي. فإذا هي شوكو أكيكاوا.

قالت بصوتٍ مُحْرَج: «هل اتَّصلت بنا عدَّة مرَّات هذا الصباح؟»

«أجل» قلتُ لها. «السَّيِّد منشكي أخبرني أمس أنَّ مارية عادت. فأردتُ أن أسأل عنها، كيف حالها؟»

«أجل. بالفعل، لقد عادت مارية سالمة، بعد ظهر أمس. ولقد اتَّصلتُ بك عدَّة مرَّات لأُخبرك، لكنَّك لم تكن بالبيت. لذا اتَّصلتُ بالسَّيِّد منشكي. هل ذهبتَ إلى مكانٍ ما؟»

«أجل. كان هناك أمرٌ ينبغي إنهاؤه بأيّ شكل، فذهبتُ إلى مكانٍ بعيد. وعدتُ مساء أمس. كنتُ أريد الاتّصال بكم، ولكنّي لم أجد هواتف هناك، وليس عندي هاتفُ جوّال». ولم أقل كذبًا على الإطلاق.

«لقد عادت مارية إلى البيت بمفردها بعد ظهر أمس وملابسها ملطّخة بالطين. ولكنْ لحسن الحظّ، لم تتعرّض لجروحٍ بالغة».

«وأين كانت طوال تلك المدّة؟»

فأجابت بصوتٍ خافت كأنّها تخشى أن يسترقَ السّمعَ إليه أحدٌ ما: «لا أعلم شيئًا عن ذلك بعد. مارية لا تودُّ أن تتحدّث عمّا جرى لها. ولأنّنا قدّمنا للشرطة بلاغًا للبحث عنها، جاءتنا الشرطة، وسألوها عدّة أسئلة لكنّها لم تجب على أيٍّ منها. بل التزمت الصمت. فاستسلم رجالُ الشرطة، وقرّروا العودة بعد أن تهدأ مشاعرها ليسألوها عمّا حدث. فلقد عادت إلى البيت فعلًا وتأكّدنا من سلامتها. لكنّها لا تجيب على أسئلتي، ولا على أسئلة أبيها، لأنّها كما تعلم، طفلةٌ عنيدةٌ جدًّا».

«ولكنّها كانت ملطّخة بالطين، أليس كذلك؟»

«بلى. وثمّة جوانب مقطّعة من زيّها المدرسيّ، وخدوشٌ طفيفة في أطرافها. ولكنّها ليست بالدّرجة التي تحتاج إلى المستشفى لتلقّي العلاج».

الحالة نفسها التي كنتُ عليها تمامًا. ملطّخٌ بالطين وملابسي متقطّعة. هل اجتازت مارية الجُحْر الأفقيّ نفسه وعادت إلى هذا العالم؟

سألتُها: «ألم تتحدّث بأيّ كلمة؟»

«لا. منذ أن عادت إلى البيت لم تنبس بكلمةٍ واحدة حتى الآن. بل لم أسمع صوتها مطلقًا. وكأنّ لسانها قد سُرِق».

«هل هذا يعني أنّها أُصيبت بصدمةٍ عنيفة، ففقدت القدرةَ على النُّطق؟»

«كلّا، لا أظنّ. أعتقد أنّها قرّرت من نفسها عدم النطق. حدث لها من قبل مثل هذا الموقف أكثر من مرّة. تكون غاضبةً بشدّة من شيءٍ ما فتصمت. كانت في طفولتها إن قرّرت ذلك، نفّذته تنفيذًا مُطلقًا».

«هذا يعني أنّه لا وجود لشبهةِ جريمةٍ في الأمر، أليس كذلك؟ أن يكون أحدٌ قد اختطفها مثلًا، أو احتجزها؟»

«لم نتوصّل لمعرفة هذا بعد. فهي لا تنطق بحرف. ولكنْ من المفترض أن تعود الشرطةُ للتّحقيق حين تستقرّ الأمور... أريد أن أطلب منك طلبًا قد يبدو أنانيًّا يا أستاذ».

«تفضّلي؟»

«إن كنتَ لا تمانع، هلّا التقيت مارية وتحدّثت معها؟ أنتما الاثنان فقط. أعتقد أنَّ هذه الطفلة تفتح قلبها لك أنت فقط يا أستاذ. فربّما تبوح لك بما حدث».

فكّرتُ في الأمر وأنا مُمسكٌ بسمّاعة الهاتف. لم أتصوّر كيف يُمكن للحديث أن يكون إذا التقيتُ بمارية بمفردنا. فأنا شخصيًّا لديَّ لغزٌ خاصٌّ بي، وهي كذلك (أو هذا ما يبدو). فهل إن بحثنا بهذا اللُّغز وذاك، وقاربنا بينهما، فهل سنصل إلى إجابة؟ ولكنْ عليَّ أن أقابلها. فثمّة عدّة أمورٍ يجب الحديث عنها معها.

قلتُ: «لا مانع بالتّأكيد. دعيني ألتقي بها وأتحدّث معها. أخبريني فقط أين يجب أن أذهب للقائها».

«لا، سنأتي نحن إليك كالمعتاد. أعتقد أنَّ هذا هو الأفضل. إن لم يكن لديْك مانع طبعًا يا أستاذ».

«هذا أفضل. فأنا ليس لديَّ مواعيد. تفضّلا بالحضور في الوقت الذي يُناسبكما».

«هل تمانع في أن نأتي إليك الآن؟ لأنّنا أخذنا لها اليوم عطلةً من المدرسة مؤقّتًا. هذا إن وافقت هي على المجيء».

«أرجو أن تقولي لها: لا ضرورة للتّحدُّث بأيِّ شيء، فأنا الذي أريد أن أحدّثها معك عن عدّة أمور».

«فهمت. سأخبرها ذلك على وجه الدقّة. أعتذر عن إزعاجك كثيرًا»، قالت عمّتها الجميلة، ثمّ أغلقت الهاتف في هدوء.

بعد عشرين دقيقةً، رنَّ الهاتف ثانيةً: شوكو أكيكاوا.

قالت: «يمكننا زيارتك في بيتك اليوم، الثالثة بعد الظهر تقريبًا. لقد وافقت مارية. أومأتْ بنعم من دون أن تتحدّث».

«إنّي بانتظاركما في الساعة الثالثة»، قلت لها.

«أشكرك. فنحن في حيرةٍ شديدة. لا ندري ما الذي حدث، ولا كيف نتصرّف».

كنتُ أريد أن أقول لها: وأنا أيضًا، لكنّي لم أفعلها بالطبع. فلا يبدو أنّها تنتظر منّي ردًّا كهذا.

«سأفعل ما بوسعي. مع أنّي لست متأكّدًا من سير الأمور»، قلت وأغلقتُ الهاتف.

بعد أن وضعتُ السمّاعة، نظرت حولي متسائلًا عن وجود الكومنداتور في مكانٍ ما. لم أره. اشتقتُ إلى مظهره، وطريقة كلامه الغريبة. لكنّي لن أراه ثانية أبدًا. لقد قتلته بيدي إذ طعنت قلبه بالسكّين الحادّة التي أحضرها ماساهيكو أمادا إلى بيتي. وكلّ ذلك من أجل معرفة أين كانت مارية أكيكاوا، ومن ثمّ إعادتها إلى بيتها.

- 59 -

حتى فرّق الموت بيننا

قبل أن تأتي مارية أكيكاوا، تأمّلتُ مرّةً أخرى لوحة البورتريه التي كانت توشك على الانتهاء. استطعتُ أن أتخيّل صورةً حيّةً وزاهية لتلك اللّوحة في حالة اكتمالها. لكنّها لن تكتمل إلى الأبد. مؤسفٌ جدًّا هذا الأمر، إلّا أنّه من غير المُمكن تفاديه. لم أستطع شرح السّبب، ولم يكن لديَّ إثباتٌ منطقيٌّ على ذلك. كان ما يراودني مجرّدَ حدس. وكنتُ سأدرك السّبب عاجلًا أم آجلًا. لكنّي حينذاك كنت أواجه طرفًا خطِرًا كبيرًا، ومن الواجب توخّي الحيطة.

خرجتُ إلى التّرّاس، وجلست على المقعد أتأمّل سارحًا ببيت منشكي الأبيض على الجهة المقابلة. السيّد منشكي الوسيم «عديمُ اللّون» ذو الشّعر ناصع البياض. قال عنه ماساهيكو إنّه رجلٌ مثيرٌ للفضول قليلًا، ثمّ صحّحتُ له قوله على استحياء: «بل يثير الفضول كثيرًا»، ثمّ صححتُ لنفسي: «بل كثيرًا جدًّا».

قبل الثالثة بقليل، صعدتْ سيّارة تويوتا بريوس زرقاء مألوفة المنحدر، وتوقّفت أمام البيت كالعادة. توقّف المحرّك، وفتحت شوكو أكيكاوا باب السّائق ونزلت. لفّتْ بحركةٍ نصف دائريّةٍ راقية تضمّ ركبتيْها بعضها إلى بعض. وبعد لحظاتٍ، نزلت مارية أكيكاوا من المقعد المجاور بحركةٍ متثاقلة جدًّا، توضح عدم رغبتها في فعل ذلك. انزاحت الغيوم التي

كانت تغطّي السّماء حتى الصباح إلى مكانٍ بعيد لتُفسح الامتداد لسماء بداية الشتاء الزرقاء. هزّت الرّيح الباردة والآتية من جهة الجبل شعرهما الناعم. فرفعت مارية خُصلةً من شعرها عن جبهتها للخلف بحركةٍ تدلّ على امتعاضها منها.

كانت مارية ترتدي تنُورةً وهو أمرٌ نادر. تنُورة كحليّة من الصوف تصل إلى ركبتيْها. وترتدي تحتها جواربَ ضيّقة بلونٍ أزرق غامق؛ وسُترةً من الكشمير بياقةٍ على شكل سبعة وتحتها بلوزة بيضاء. كان لونُ السترة عنابيًّا غامقًا. وتنتعل حذاءً جلديًّا بلا رباط بلونٍ بنّيٍّ محروق. بدتْ بهذه الملابس طفلةً جميلةً عاديّة، تربّت بعنايةٍ واهتمام في بيتٍ راقٍ. لا يظهر عنها أيُّ غرابةٍ أو شذوذ. وما زال صدرها خاليًا من أيِّ أثرٍ للنهود.

أمّا شوكو، فكانت ترتدي بنطلونًا ضيّقًا بلونٍ رماديٍّ فاتح، وحذاءً منخفضَ الكعب ملمّعًا بأحسن وجه، ومعطفًا صوفيًّا خفيفًا طويلًا له حزامٌ عند الخصر. يُظهر نهديْ صدرها الكبير بوضوح حتى من فوق المعطف. وتحمل في يدها ما يُشبه حافظةَ نقودٍ مصنوعةً من البورسلين. كانت دائمًا ما تُمسك في يديْها شيئًا ما مثل هذا. لا أستطيع أن أتخيّل ما فيه! في حين لم تكن مارية تُمسك في يدها أيَّ شيء. ولا جيوب لكي تضع يديْها فيهما كالمعتاد، فبدت محتارةً في التّصرُّف فيهما.

كانت الاثنتان، العمّة الشابّة وبنت الأخ اليانعة، أنثى جميلةً مع اختلاف عمرهما واختلاف درجة نضجهما. كنتُ أراقبهما من الفُتحة ما بين ستائر النافذة. وعندما وقفتا جنبًا إلى جنب، أحسستُ أنَّ العالم زاد إشراقه قليلًا: مثلما حين يأتي الكريسماس والعام الجديد دائمًا معًا.

دقّ جرسُ البابِ، ففتحت لهما. ألقت شوكو عليّ التحيّة باحترام. أدخلتهما إلى البيت. كانت مارية تُغلق فمها بإحكام ولم تنبس ببنت شفة.

وكأنَّ شخصًا ما قد خيّط الشفة العليا بالسُّفلى. يا لها من طفلةٍ ذات إرادةٍ صلبة! إن قرّرتْ أمرًا لا تتراجع عنه.

أرشدتُهما كالعادة إلى غرفة المعيشة. بدأت شوكو أكيكاوا في الاعتذار المؤدَّب الطويل، أنّها سبّبت لي الإزعاج هذه المرّة، فأوقفتها عند ذلك الحدّ، فلم يكن هناك متّسعٌ من الوقت لتبادل مثل هذه المجاملات.

دخلتُ في الموضوع مباشرةً وبلا مقدّمات، قائلًا: «هلّا تركتنا أنا وماريه بمفردنا بعض الوقت؟ أعتقد أنَّ هذا أفضل. بإمكانِكِ أن تعودي بعد قرابة السّاعتيْن لأخذها. هل لديكِ مانع؟»

فأجابت العمّةُ الشابّة مُحتارةً قليلًا: «أجل، بالتّأكيد، موافقة. إن لم يكن لدى ماريه مانع».

أومأت ماريه إيماءةً صغيرةً جدًّا ولمرّةٍ واحدة فقط. وكأنّها تقول لا مانع.

نظرتْ شوكو إلى ساعة يدها الفضّيّة الصغيرة.

«سأعود قبل الساعة الخامسة. وأثناء ذلك، سأنتظر في البيت، إن احتجتَ إليَّ أرجو أن تتّصل بي».

«لا بأس»، قلتُ لها.

ظلّت شوكو أكيكاوا واقفةً وهي مُمسكةٌ بحافظة البورسلين السّوداء، وكأنَّ شيئًا ما معلّقٌ بقلبها. ثمّ تنهّدت وكأنّها غيّرت رأيها، وأظهرت ابتسامةً واسعة، وتوجّهت نحو باب البيت. شغّلت محرّك سيّارة بريوس (لم أستطع سماعه جيّدًا، ولكنّه اشتغل على الأرجح)، ثمّ اختفت السيّارة في اتّجاه المنحدر. عدتُ إلى البيت، وأصبحنا أنا وماريه بمفردنا.

كانت جالسةً على الأريكة صامتةً تنظر إلى ركبتيْها المضمومتيْن. وكانت الشّترة مكويّةً جيّدًا.

استمرَّ الصَّمتُ العميق حتى قطعتُه قائلًا: «حسنًا. ليس عليكِ أن تتكلَّمي. إن كنتِ ترغبين في الصَّمت، لكِ ذلك. لذا لا ضرورة لكلِّ هذا التوتُّر. سأتكلَّم وحدي وما عليكِ إلَّا الاستماع. فهمتِ؟»

رفعتْ مارية وجهها ونظرت إليَّ، لكنَّها لم تقل شيئًا. ولم تومئ أو تهزّ رأسها بنعم. إنَّما تنظر نحوي بثبات. لم تُبرز على وجهها أيَّ تعبير. وكنت أنظر إليها وأشعر أنَّني أنظر إلى بدر الشتاء ناصعِ البياض. لا بدَّ أنَّها تصنع من قلبها قمرًا، ككتلةٍ صخريَّةٍ صلدة معلَّقةٍ في كبد السَّماء.

قلت: «في البداية، هناك ما أريد منكِ أن تساعديني فيه. تعالي معي إلى المَرْسم».

نهضتُ واتَّجهتُ نحو المَرْسم، فنهضت الفتاةُ بدورها وتبعتني. كان المَرْسم باردًا. فأشعلتُ مدفأةَ الكيروسين. وعندما فتحتُ ستائرَ النافذة، بدت شمسُ العصريَّة تنير الجبل. كانت لوحة البورتريه غير المُكتملة على الحامل. ألقت مارية نظرةً سريعةً عليها، ثمَّ أبعدت عنها عينيْها سريعًا وكأنَّها شيءٌ يجب ألَّا تراه.

انحنيتُ على الأرض وفككتُ غلاف لوحة توموهيكو أمادا «مقتل الكومنداتور»، وعلَّقتها على الحائط، ثمَّ جعلتُ مارية تجلس على المقعد العالي، وجعلتها تنظر إلى تلك اللَّوحة مباشرةً.

«لقد رأيتِ هذه اللَّوحة من قبل، أليس كذلك؟»

أومأتْ مارية إيماءةً صغيرة.

«عنوانها «مقتل الكومنداتور»، أو هذا ما كان مكتوبًا على بطاقة الغلاف على الأقل. لقد رسمها توموهيكو أمادا. لا أعرف متى، لكنَّها ذات مستوى رفيعٍ جدًّا. تصميمها رائع، وتقنيتها كاملة. كلُّ شخصيَّةٍ مرسومةٍ بواقعيَّة، ومُقنعةٍ بشكلٍ كبير».

توقّفتُ لحظةً، وانتظرتُ أن يستقرّ ما قلته في وعي مارية؛ ثمّ أكملت «لكنّها ظلّت مخبّأةً في سقيفة هذا البيت حتى الآن. وكانت مغلّفةً بالورق حتى لا تقع عينُ أحدٍ عليها، ولا بدَّ أنّها ظلّت قابعةً هناك طوال شهورٍ وأعوام يتراكم عليها الغبار. لكنّي عثرتُ عليها عن طريق الصدفة، فحملتها وأنزلتها إلى هنا. ولا أظنّ أنّ أحدًا غيرنا أنتِ وأنا رآها، باستثناء صاحبها. ربّما رأتها عمّتُك في الزيارة الأولى، لكنّها لم تلفت انتباهها. ولا أعرف سببَ إخفاء توموهيكو أمادا لهذه اللّوحة في السندرة. تُرى، لماذا حَرِصَ ألّا تراها عينُ إنسان، مع أنّها في منتهى الروعة، وقد تُصنّف من روائع أعماله الفنّيّة؟»

لم تقل مارية شيئًا. ظلّت جالسة على المقعد العالي، تُحملق بجدّيّةٍ في «مقتل الكومنداتور».

فقلتُ: «ثمّ بدأتْ عدّة أمورٍ تحدث بالتتالي منذ أن اكتشفتُ هذه اللّوحة، وكأنّها كانت إشارة البدء. أحداثٌ عجيبةٌ ومتنوّعة. أوّلًا، بدأ الشخص المدعوّ منشكي يقترب منّي حثيثًا. السيّد منشكي الذي يُقيم في الجانب المقابل من الوادي. سبق لكِ زيارةُ بيته، أليس كذلك؟»

أومأتْ مارية بنعم.

فتابعت: «وبعد ذلك، كشفتُ عن تلك الحُفرةِ العجيبة التي تقع خلف نموذج المعبد في الغابة. لقد سمعتُ رنينَ جَرَسٍ في منتصف اللّيل، وعندما تتبّعتُ مصدره، قادني إلى الحُفرة. بدا كأنّ الصّوتَ يأتي من تحت جثوة صخورٍ ضخمةٍ متراكمة. صخورٍ ثقيلة لا يُمكن إزاحتها بأيدٍ عارية. وعندها استدعى السيّد منشكي شركةً تستخدم المعداتِ الثقيلة لإزاحة الصخور. ولم أعرف ما السّبب الذي جعله يتشجّع لهذا الأمر المُكلف، وما زلت حتى الآن لا أعرف! بأيِّ حال، تحمّل السيّد منشكي هذا العبء ودفع تلك الأموال، وأزاح جثوةَ الصخور تمامًا. فظهرت الحُفرة الدائريّة بقطر

متريْن تقريبًا. معمولٌ عليها بدقّةٍ متناهية من الأحجار. وما زالت لغزًا، من الذي صنعها ولماذا؟ أنتِ تعرفين أمر هذه الحُفرة، أليس كذلك؟»

أومأتْ مارية.

«عندما فُتحت الحُفرة، خرج منها الكومنداتور. الشخصيّة التي تظهر في هذه اللّوحة».

اتّجهتُ إلى اللّوحة وأشرت بيدي إليه. ظلّت مارية تُحملق في ذلك الرّسم، ولم تتغيّر تعابير وجهها.

«ملامح وجهه نفسها وملابسه إيّاها. طوله لا يزيد عن ستّين سنتيمترًا. إنسانٌ مدمج تمامًا. ثمّ إنّ له طريقةً غريبةً في الكلام. وبدا أنّ لا أحد غيري يستطيع رؤيته. يعرّف نفسه على أنّه «فكرة». وقال إنّه كان محبوسًا داخل الحُفرة. بمعنى أنّني والسيّد منشكي حرّرناه منها. هل تعرفين ما (الفكرة)؟»

أومأت مارية نافية.

«(الفكرة) كلمةٌ تعني المفهوم. ولكنْ ليس كلّ مفهومٍ فكرة. مثلًا الحبّ نفسه قد لا يكون فكرة. ولكنّ الفكرة هي التي تُقيمه وتجعله مُمكنًا بالتّأكيد. لا حبّ بدون الفكرة. هذا حديثٌ لا ينتهي. ولكيْ أكونَ صادقًا، أنا نفسي أجهلُ التّعريفَ الصّحيح للفكرة. عمومًا، الفكرةُ مفهوم، والمفهوم ليس له شكل. لأنّه شيءٌ تجريديّ. ولكنْ بما أنّ المجرّد غير مرئيّ للبشر، استعارتْ تلك الفكرة مؤقّتًا شكلَ الكومنداتور من هذه اللّوحة، فظهرت على شكله. هل تفهمين حتى هنا؟»

فتحتْ مارية فمها بالكلام لأوّل مرّة قائلةً: «نوعًا ما. لأنّني قابلتُ هذا الشخص من قبل».

«قابلتِه من قبل؟» اندهشتُ بشدَّةٍ لما قالت مارية، ونظرتُ إلى وجهها مباشرةً. وفقدتُ النُّطق، ثمَّ تذكَّرتُ ما قاله لي الكومنداتور في مصحَّة المسنِّين: لقد قابلتها منذ قليل. وقال أيضًا: وتحدَّثتُ معها حديثًا قصيرًا.

«لقد قابلتِ الكومنداتور، أليس كذلك؟»

أومأت بنعم.

«متى؟ وأين؟»

«في بيت السيِّد منشكي».

«وماذا قال لكِ؟»

زمَّت مارية شفتيْها ثانيةً، ما يعني أنَّها لا تريد التَّحدُّث عن ذلك كثيرًا. لذا تراجعتُ عن حثِّها على التَّحدُّث، وقلتُ لها: «ثمَّ ظهر من هذه اللُّوحة أشخاصٌ آخرون. في أسفل اللُّوحة جهةَ اليسار، رجلٌ بوجهٍ غريب ولحيةٍ كثَّة؛ هذا هو. هل ترينه؟» قلتُ مشيرًا إلى طويل الوجه. «أسميته مؤقَّتًا (طويل الوجه)، شكله غريبٌ بكلِّ الأحوال. وكان حجمه صغيرًا، مضغوطًا، وطوله سبعون سنتيمترًا تقريبًا. خرج هو أيضًا من اللُّوحة وظهر لي، وكان مثلما هو باللُّوحة يرفع غطاءَ فُتحةٍ، أرشدني منها إلى بلاد العالم السُّفليّ؛ لكنَّه لم يُرشدني إلَّا بعد أن عنَّفته».

نظرت مارية إلى طويل الوجه، ولكنَّها لم تقل شيئًا.

فأكملتُ حديثي: «بعد ذلك، قطعتُ بلادَ العالم السُّفليّ المعتم مشيًا على الأقدام، مجتازًا هضبةً وعابرًا لنهرٍ سريع الاندفاع، ثمَّ قابلتُ فتاةً شابَّة وجميلة. إنَّها هذه الفتاة. قرَّرتُ أن أسمِّيها الدونَّة آنَّا تماشيًا مع الشَّخصيَّة التي تظهر في أوبرا «دون جوفاني» لموتسارت. وكما هو متوقَّع، كانت صغيرةَ الحجم. أرشدتني إلى الجُحْر الأفقيّ داخل الكهف. ثمَّ

شجّعتني وساعدتني هي وشقيقتي الراحلة على المرور من هناك. لولاهما لما استطعت اجتياز الجُحْر، وكنتُ سأبقى في بلاد العالم السُّفليّ إلى الأبد. قد تكون هي الدونّة آنّا (وهذا مجرّد تخمين)، هي حبيبة توموهيكو أمادا التي وقع في حبّها في شبابه أثناء الدراسة في ڤينّا. وقد أُعدمت بتهمةٍ سياسيّة قبل ما يقارب السبعين عامًا».

نظرتْ مارية إلى الدونّة آنّا التي في اللّوحة. ما زال وجهها يخلو من المشاعر مثل قمر الشتاء الأبيض. وقد تكون الدونّة آنّا هي والدة مارية التي ماتت من لسعات الدبابير. ربّما فعلت ذلك لتحمي مارية. قد تكون الدونّة آنّا رمزًا لعدّة أشخاصٍ في آنٍ معًا. لكنّي بالطبع لم أقل لها ذلك.

«وبعد، هناك رجلٌ آخر» عدّلت اللّوحةَ الأخرى المُسندة إلى الحائط، وجعلت سطحها إلى الأمام. ثمّ علّقتها على الجدار. بورتريه «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» غير المُكتملة. ليس فيها إلّا ثلاثة ألوان زيتيّة، ولكنْ في عمق تلك الألوان، يظهر شكلُ الرجل. بوسعي أن أراه، لكنّه لا يظهر على مرأى الآخرين.

«لقد رأيتِ هذه اللّوحة من قبل، أليس كذلك؟».

أومأت مارية من دون أن تقول شيئًا.

«قلتِ إنّها اكتملت ومن الأفضل أن أتركها على حالها».

أومأت مرّة أخرى.

«لقد رسمتُ في هذه اللّوحة، أو كان ينبغي أن أرسم، شخصيّةً تُدعى «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء». قابلتُ ذلك الرجل في مدينةٍ ساحليّةٍ صغيرة بمحافظة مياغي. قابلته مرّتين. كان لقاءً مليئًا بالألغاز ومحمّلًا بالمعاني. لكنّي لا أعرف أيَّ الرجال هو. لا أعرف اسمه. إنّما اجتاحتني

رغبةٌ عارمة في رسم وجهه. رغبةٌ عارمة جدًّا. فبدأتُ الرّسم مستحضرًا تفاصيل شكله ومظهره، لكنّي لم أستطع إنهاءَ الرّسم. لذا ظلّت اللّوحة بهذا الشّكل، مجرّد دهانٍ بالألوان الزيتيّة».

ما زالت شفتاها مضمومتيْن في خطٍّ مستقيم.

ثمّ هزّت مارية رأسها أفقيًا، وقالت: «هذا الرجل مُخيف».

«هذا الرجل؟» سألتها وتتبّعتُ نظراتِ عينيْها. كانت تُحملق في لوحة «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء».

«هل تقصدين هذه اللّوحة؟ تعنين رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء؟»

أومأت مارية بوضوح، وبدت عاجزةً عن إشاحة نظرها عن اللّوحة على الرّغم من خوفها منها.

«هل ترين ذلك الرجل؟»

أومأت مارية، وقالت: «يبدو الرجل في عمق الألوان. إنّه يقف هناك وينظر إليّ، مرتديًا قبّعةً سوداء».

أنزلتُ اللّوحة عن الحائط، وأعدتُها مثلما كانت.

وقلتُ: «أنتِ تستطيعين رؤية الرجل الذي يُفترض أنّ الشخصَ العاديّ لا يراه. من الأفضل ألّا تريه بعد. لا ضرورة لذلك».

أومأتْ مارية وكأنّها تُوافقني القول.

«لا أعلم إن كان (رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء) موجودًا في هذا العالم أم لا. قد يكون شخصًا أو شيئًا يستعير مظهر هذا الرجل مؤقّتًا. مثلما استعارت الفكرةُ مظهرَ الكومنداتور. أو ربّما كنتُ أرى إسقاطًا لظلّي في تلك الصّورة. ولكنْ في الحقيقة، لم يكن وسط الظلام الحالك مجرّد

ظلّ. كان شيئًا ما، حيًّا، يتحرّك وله ملمسٌ مؤكّد. يُسمّى في تلك الأرض (المجاز المزدوج). أريد أن أُكمّل هذه اللّوحة في يومٍ ما. ولكنْ ما يزال الوقت مبكرًا جدًّا. فهذا خطيرٌ الآن. في هذا العالم أشياءُ لا يجب إخراجها إلى النور. ولكنّي، ربّما...»

لم تقل مارية شيئًا، بل ظلّت تنظر إلى وجهي. فلم أستطع الاستمرار في الحديث.

«...على أيّ حال، حصلتُ على مساعدةِ بعضِ الأشخاص وقطعتُ بلادَ العالم السُّفليّ عَرْضًا، واجتزتها لأعود بشكلٍ ما إلى عالم الواقع هذا. وفي الوقت نفسه تقريبًا، تحرّرتِ أنت من مكانٍ ما ورجعتِ. لا أعتقد أنّ ذلك التلاقي مجرّد صُدفة. لقد اختفيتِ لمدّة أربعة أيّامٍ منذ يوم الجمعة. وأنا اختفيتُ لمدّة ثلاثة أيّام منذ يوم السبت. وعاد كلانا يوم الثلاثاء. يُفترض أنّ هذيْن الحدثيْن مرتبطان في مكانٍ ما. ولعب الكومنداتور ما يُمكن أن نسمّيه دورَ صلةِ الوصل. ولكنّه لم يَعُد موجودًا في هذا العالم. لقد أنهى دوره ورحل إلى مكانٍ ما. لم يَعُد إلّا أنا وأنتِ، وعلينا أن نغلق الدّائرة. هل تثقين فيما أقول؟»

أومأت مارية بالموافقة.

«هذا ما أردتُ أن أتحدّث به إليكِ. لذا طلبت أن نلتقي».

ما زالت تنظر إليّ بلا حراك. فقلتُ لها: «لأنّي أعتقد أنّ لا أحد سيفهمني إن صارحته بهذه الحقيقة. سيظنّ أنّ عقلي أصابه الجُنون. فالحقيقة بعيدةٌ عن الواقع، ولا تتوافق مع منطق العقل. ففكّرتُ أنّكِ وحدكِ ستفهمينني. ثمّ إنّه لا بدّ أن يرى مَن يسمعني لوحة «مقتل الكومنداتور» هذه. فبدونها لن يُفهم كلامي. لكنّي لم أشأ أن يرى هذه اللّوحة أحدٌ سواكِ».

بدا أنّ بريقَ الحياة يعود تدريجيًّا إلى عينيْها.

«لقد أفرغ توموهيكو أمادا في هذه اللّوحة روحَه ونفسَه. إنّها مُفعمةٌ بمشاعره العميقة والمختلفة. رسمها بدمائه مقتطعًا من لحمه. إنّها من اللّوحات التي لا يُمكن رسمُها إلّا مرّةً واحدة في العمر. رسمها من أجله شخصيًّا، ومن أجل أناسٍ رحلوا عن هذا العالم، أي أنّه يُمكن وصفُها بلوحةٍ لإراحة الموتى. عملٌ فنّيٌّ من أجل تطهير الدّماء الغزيرة التي نزفت حتى الآن».

«إراحة الموتى؟»

«أجل، لوحةٌ فنّيةٌ من أجل إراحة أرواح الموتى وجَلْبِ السكينة لهم، وتضميد جراحهم. لذا، لم يكن معنيًّا بتقييمات الناس المملّة لها، أو مدحها، أو الحصول على مقابل ماديّ عنها. بل رفض هذه الأمورَ كلّيًّا. كان يكفيه تمامًا أن يرسم اللّوحة، وأن يجعلها موجودةً في مكانٍ ما من هذا العالم، حتى إن غُلّفت بالورق وخُبّئت في السندرة، ولم يرَها أحدٌ غيره. لذا فإنّي أحترم مشاعره تلك وأنفّذها».

استمرّ الصمت بعض الوقت.

«كنتِ تأتين إلى هنا للّعب منذ زمنٍ بعيد. تدخلين الممرّ السرّيّ. أليس كذلك؟»

أومأت بنعم.

«هل سبق لكِ أن قابلتِ توموهيكو أمادا؟»

«سبق لي أن رأيته. ولكن لم أقابله أو أتحدّث معه. سوى أنّي رأيته من بعيد وأنا مُختبئة. تأمّلتُ ذلك العجوز وهو يرسمُ لوحاتِهِ. لأنّي كنتُ مقتحمةً لأملاك الآخرين من دون إذن».

أومأتُ واستطعتُ أن أتخيّل المشهد بوضوحٍ كأنّه أمامي. مارية تختبئ خلف الأشجار تتلصّص سرًّا على المَرْسم. وتوموهيكو يجلس على

المقعد العالي يحرّك الفرشاةَ مركّزًا كلّ وعيه على الرّسم. لا يمرّ بخاطره مُطلقًا أنّ هناك شخصًا ينظر إليه.

«قلتَ إنّك تطلب مساعدتي في شيءٍ ما يا أستاذ»، قالت مارية.

«أجل. أريد منك المساعدة. أريد أن أغلّف هاتيْن اللّوحتيْن بإحكامٍ وأخفيهما في السندرة حتى لا يراهما أحد. «مقتل الكومنداتور»، و«رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء»، لأنّي أعتقد أنّنا لن نحتاج إليهما بعد الآن. فساعديني في هذا من فضلك».

أومأت مارية صامتةً. في الواقع، لم أشأ أن أفعل ذلك بمفردي. لا من أجل مساعدتي فحسب، بل كنتُ أحتاج إلى شاهد عيان. شخصٍ كتومٌ يقتسم معي هذا السرّ.

أحضرت من المطبخ أحبالًا ورقيّةً ونصلًا قاطعًا. ثمّ غلّفنا لوحة الكومنداتور بإحكامٍ تامّ. غلّفناها بالورق اليابانيّ البنيّ الذي كان يغلّفها في الأصل، وربطناه بالأحبال الورقيّة وغطّيناها بقماشٍ أبيض، ثمّ ربطنا عليها الأحبال ثانيةً. غلّفناها بإحكامٍ شديد حتى لا يتفكّك الغلاف بسهولة. أمّا لوحة «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء»، فلم تكن الألوان الزيتيّة قد جفّت بالكامل، فاقتصر الأمرُ على تغليفها تغليفًا بسيطًا. ثمّ حملناهما ودخلنا الخزانة الواسعة التي في حُجرة الضيوف. وقفتُ على السُلّم المنتقل، وفتحتُ غطاء السندرة (عندما أفكّر بذلك أتذكّر الغطاء المربّع الذي يرفعه طويل الوجه إلى أعلى)، وارتقيتُ إلى السندرة. كان هواء السندرة باردًا بعض الشيء، لكنّها برودةً منعشة. ناولتني مارية اللّوحتيْن فأخذتهما، «مقتل الكومنداتور» أوّلًا، ثمّ «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء». ووضعتهما على الجدار متجاورتيْن.

فانتبهتُ فجأةً إلى أنّني لست بمفردي في السندرة. هناك طيفُ أحدٍ ما. ابتعلتُ ريقي. كانت البومةَ القرناء. أغلب الظنّ هي نفسها التي

رأيتها أوّل مرّة. كان طائرُ اللّيل هذا يستريح فوق الكمرة مثل المرّة السّابقة. اقتربتُ منها قليلًا، وبدت أنّها لا تُبالي. مثل المرّة السّابقة تمامًا.

تحدّثتُ إلى مارية بصوتٍ خفيضٍ قائلًا: «اسمعي! تعالي إلى هنا. سأُريكِ شيئًا جميلًا. حاولي الصّعود على السُّلّم من دون إحداث ضجّة».

صعدت مارية تتساءل عن ذلك الشيء. دخلت السندرة من الفُتحة. وسحبتها إلى أعلى بيدي. كانت الأرضيّةُ تغصّ بالأتربة البيضاء، لذا قد تتّسخ تنّورتها الصوفيّة الجديدة، لكنّها لم تكن لتعبأ بذلك مُطلقًا. جلستُ على الأرض وأشرتُ بإصبعي إلى الكمرة التي تقف عليها البومة. جثمت مارية بجواري، وتأمّلتْ ذلك المنظر وكأنّه سحرها. كان الطائر جميلًا ورائعًا. كأنّه قطٌّ نبتت له أجنحة.

قلتُ لها بصوتٍ خفيض: «هذه البومة تعيش هنا منذ زمنٍ طويل. تخرج إلى الغابة في اللّيل لتصطادَ فرائسها، وتعود إلى هنا في الصباح لتستريح. وتلك هي فُتحة دخولها وخروجها».

أشرتُ إلى فُتحة التهوية التي قُطّعت شبكتُها المعدنيّة. فأومأت مارية. ووصلت إلى أذني أنفاسُها الخفيفة الهادئة.

وبقينا نتأمّل البومة القرناء من دون أن نقول شيئًا. ولم تكن البومة تلقي إلى وجودنا بالًا، بل كانت تستريح بهدوءٍ كأنّها تفكّر في أمرٍ ما تفكيرًا عميقًا. كنتُ أقتسم معها هذا البيت في صمت. نقتسم مساحةَ الوعي: أنا أنشط خلال النهار، وهي لها اللّيل.

أمسكتْ مارية يدي بيدها الصّغيرة، ثمّ وضعتْ رأسها على كتفي. فأمسكتُ يدَها برفق. كنتُ أقضي وقتًا طويلًا مع شقيقتي بالشكل نفسه. كانت علاقتنا الأخويّة رائعة، واستطعنا أن نتبادل مشاعرنا بعفويّةٍ على الدوام. حتى فرّق الموت بيننا.

عرفت أنَّ التوتر يزول تدريجيًا من جسد مارية. فقد بدأ الشيء المتصلِّب بشدَّةٍ داخلها يرتخي شيئًا فشيئًا. مسحتُ على رأسها الحاني على كتفي. كان شعرها ناعمًا وسبطًا. وعندما لمستُ بيدي خدَّها، عرفتُ أنَّها تذرف دموعها. كانت دموعها حارَّةً مثل الدِّماء التي تنزف من القلب. حضنتها بعض الوقت بهذه الوضعيَّة. كانت الطفلةُ تحتاج إلى أن تذرفَ دموعها؛ منذ زمنٍ بعيد. وما زلنا نراقب البومةَ من دون أن ننبس بحرف.

دخلتْ أشعَّةُ شمس العصر من فُتحة التهوية. وأحاطنا الصمتُ والغبارُ من كلِّ جانب. صمتٌ وغبارٌ آتيان من زمنٍ سحيق. لا يُسمع حتى صوت الرياح. وتحتفظ البومةُ القرناء بحكمة الغابات في صمتها فوق الكمرة. كانت حكمةً متوارثة منذ زمنٍ سحيق أيضًا.

ظلَّت مارية أكيكاوا لفترةٍ تبكي من دون أن تُصدر أيَّ صوت. لكنَّني عرفت من ارتعاش جسدها الرَّقيق أنَّها مستمرَّةٌ في البكاء. وما زلت أمسح على شعرها الناعم بحنان، وكأنَّني أرتقي إلى أعالي نهر الزمن!

ـ 60 ـ

لو كان للمرء يدٌ طويلة

«لقد أمضيتُ تلك الأيّام الأربعة في بيت السيّد منشكي»، قالت مارية، بعد أن ذرفتْ دموعًا كثيرةً واستطاعت التكلُّم أخيرًا.

عدنا إلى المَرْسم ثانيةً. جلستْ على مقعد الرسم العالي، وضمّتْ ركبتيْها الظاهرتيْن تحت التنُّورة. وكنتُ مستندًا إلى عتبة النافذة. ساقاها جميلتان، يبدو ذلك حتى من فوق الجوارب السّميكة والضيّقة. لا ريب أنّها ستجذب أنظارَ رجالٍ كثيرين حينما تنضج. سينْهُد صدرُها حينذاك. لكنّها حاليًا مجرّد طفلةٍ صغيرةٍ مضطربة تقف حائرةً أمام بوّابة الحياة.

سألتها: «كنتِ في بيت السيّد منشكي؟! لم أفهم. هلّا فسّرتِ أكثر؟»

«كنتُ أريد أن أعرف عنه مزيدًا. أوّلًا، لماذا يتلصّص على بيتنا كلّ ليلةٍ باستخدام المنظار المكبّر! أردتُ معرفةَ سبب ذلك. أعتقد أنّه اشترى ذلك البيت الكبير خصّيصًا من أجل هذه الغاية، من أجل أن يراقب بيتنا الواقع على الجهة المقابلة من الوادي. لكنّي لم أفهم أبدًا سببَ اضطراره إلى ذلك؟ فهذا غيرُ طبيعيّ. فكّرتُ أنّ ثمّة سببًا عميقًا للأمر».

«ولهذا ذهبتِ لزيارته في بيته؟»

أومأتْ بنعم، وقالت: «لم تكن زيارة. بل تسلّلتُ خِفيةً، من دون إذن. ثمّ عجزتُ عن الخروج».

«تسلَّل من دون إذن؟»

«أجل مثل اللُّصوص. ولكنْ لم تكن تلك نيَّتي».

عند نهاية دروس الصَّباح في يوم الجمعة، هربتْ مارية من الباب الخلفيّ للمدرسة. لأنَّها إن تغيَّبت من الصباح عن المدرسة من دون إذنٍ ستتَّصل المدرسة على الفور ببيتها، لكنَّها هربت خلسةً من دورس بعد الظهر، فلن تتَّصل المدرسة بالبيت. لا يُعرَف سبب هذا العرف، إلَّا أنَّ هذه هي حال النظام القائم في مدرستها. ولأنَّها لم تفعل ذلك من قبل، فكان بإمكانها أن تقول لمدرِّسها أيَّ عُذرٍ إذا نهاها عن ذلك. عادت إلى مكانٍ قريبٍ من بيتها بالباص. لكنَّها لم ترجع إلى البيت، بل صعدت طريق الجبل المقابل للجبل حيث بيتها، متوجِّهةً إلى بيت منشكي.

ولم يكن في نيَّة مارية أن تتسلَّل إلى داخل بيته من دون إذن. لم تطرأ تلك الفكرة على ذهنها مُطلقًا. لكنَّها لم تشأ رنَّ جرسِ الباب وطلبَ اللِّقاء به رسميًّا. لم تكن لديْها أيُّ خطة، سوى أنَّها كانت تسير مُنجذبةً إلى ذلك البيت الأبيض، مثل قطعةٍ من الحديد يجذبها مغناطيسٌ ذو قوَّةٍ هائلة. لكنَّ رؤية البيت من خلف الأسوار لا تحلّ لها لغز السيِّد منشكي. لم تستطع السَّيطرةَ على فضولها. فتحرَّكت قدماها إلى هناك تلقائيًّا.

كان عليها أن تصعد طريقَ منحدرٍ طويلٍ جدًّا حتى تصل إلى ذلك البيت. وعندما نظرتْ إلى الخلف، رأتِ المحيط يلمع برَّاقًا بين الجبليْن. كان البيت مسوَّرًا بسورٍ عالٍ والبوَّابةُ متينةٌ تُفتح وتُغلق آليًّا. وعلى جانبيْها كاميراتُ مراقبة للحماية. وعلى أعمدتها شعاراتُ شركةِ حراسةٍ أمنية. لا يُمكن الاقترابُ من المكان عفوَ الخاطر. اختبأتْ مارية خلف الأشجار الموجودة بالقرب من البوَّابة، وظلَّت تراقب الوضعَ لفترة. لم تتهيَّأْ لها أيُّ حركةٍ داخل البيت أو حوله: فلم يدخل أحدٌ أو يخرج، ولا يأتي من الداخل أيُّ صوت.

قضت ثلاثين دقيقةً تقريبًا هناك بلا هدف، وعندما فكّرت في العودة يائسةً، اقتربت سيّارةٌ صاعدةٌ من طريق المنحدر: سيّارةٌ ڤان صغيرةٌ تابعة لشركة التوصيل السّريع للمنازل. توقّفت أمام البوّابة، ونزل منها شابٌّ يرتدي زيّ الشركة الموحّد ويحمل في يده لوحةَ الطلبات. ضغط على زرّ الجرس الملحق بالبوّابة، وتبادل حوارًا قصيرًا مع شخصٍ ما من خلال الإنترفون. ثمّ فُتحت البوّابة الخشبيّة الكبيرة ببطءٍ نحو الداخل، وأسرع الشابُّ إلى ركوب الڤان ليدخل بها من خلال البوّابة.

لا وقت للتّفكير. ما إن دخلت السيّارة، انطلقت مارية من خلف الأشجار، وركضت بكلّ قواها لتدخل من البوّابة التي بدأت تنغلق. كان الوقتُ على حافّته، لكنّها استطاعت الدخول برشاقةٍ قبل انغلاق البوّابة بشكلٍ كامل. وربّما التقطت كاميراتُ المراقبة صورتَها، لكنّها لم ترَ بأسًا من ذلك. كانت تخاف من وجودِ كلاب. ربّما هناك كلابُ حراسةٍ داخل السور غير مقيّدةٍ بالسلاسل. لم تكن تفكّر في الأمر وهي تجري، إنّما بعد أن دخلت الأسوار وأُغلقت البوّابة خلفها. وليس من المستغرب أن يُربّى كلابُ حراسةٍ في حديقة بيتٍ من هذا الحجم: كلب دوبرمان أو شيبرد طليق. ستكون في مأزقٍ شديدٍ إن صادفها كلبٌ ضخم، فهي تخاف الكلاب. ولحسن الحظ، لم يعترض طريقها أيُّ كلب، ولم تسمع له صوتًا. تذكر أنّها عندما صادفت منشكي هنا في المرّة السّابقة لم يتحدّث عن كلاب.

اختبأت خلف الأشجار الموجودة داخل السّور لتراقبَ الوضع. كان حلقها جافًا جدًّا. تقول لنفسها: لقد دخلتُ البيتَ كاللّصوص. إنّي أخرق القانون بلا شكّ، بجريمة اقتحام البيت بلا إذن. ولا بدّ أنّ الكاميرات ستكون الدّليل القاطع على ذلك.

ولم تتأكّد من حُسنِ سلوكها من عدمه. فقد اندفعتْ تجري إلى الداخل بحركةٍ لاإراديّة حين رأت سيّارةَ شركةِ التوصيل تدخل من خلال

البوّابة. ولم يكن لديْها متّسعٌ للتّفكير بعواقب تلك الحركة. فكّرت أنّ الفرصةَ لن تأتي ثانية، وأنّها الفرصةُ السانحة. فتحرّك جسمُها قبل أن تفكّر منطقيًّا. لكنّها لسببٍ ما لا تشعر بالندم.

أثناء اختبائها خلف الأشجار، عادت سيّارة القان على الطريق المعبّدة. وفُتحت البوابة ثانيةً لإخراج السيّارة. لو أرادت الخروجَ لن تجد فرصةً أفضل من تلك: أن تخرج قبل إغلاق البوّابة بالكامل. ولو فعلتها لعادت إلى عالمها الآمن. ولن تصبحَ مجرمة. لكنّها لم تفعل. بل اختبأت وراء الأشجار تتأمّل البوّابة وهي تنغلق ببطء، وتعضّ على شفتيْها.

انتظرتْ عشرَ دقائق. قاستها بدقّةٍ بواسطة ساعة كاسيو جي شوك صغيرةِ الحجم التي تضعها في رسغها. ثمّ خرجتْ من خلف الأشجار. وأحنت قامتها لتصعّب على الكاميرات رصدها، وهبطت بخطواتٍ سريعة في الطريق المنحدرة من البوّابة والمؤدّية إلى مدخل البيت. كانت الساعة قد أصبحت الثانية والنصف بعد الظهر.

تساءلتْ ماذا لو كشف منشكي أمري. لكنّها كانت واثقةً من قدرتها على تجاوز الأمر. فمنشكي يُبدي تجاهها اهتمامًا عميقًا (أو ما هو أكثر من ذلك). ستقول إنّها أتت إلى هنا للّعِب بمفردها، فرأت البوّابة تنفتح صدفةً فدخلت، لأنّها تريد اللّعب. فإن قالت ذلك بوجهٍ طفوليّ سيصدّقها منشكي بالتّأكيد. كانت تفكّر أنّ لديْه ميولًا لتصديقها، سيصدّق أيّ شيء تقوله له. لكنْ ما يحيّرها هو نشوء ذلك «الاهتمام العميق» ـ وهل هو جيّد أم سيّئ بالنّسبة إليها ـ هذا ما تريد معرفته.

كان مدخل البيت يقع عند انتهاء الطريق المعبّدة المنحنية في قوسٍ هابطٍ إلى أسفل. وثمّة جَرَسٌ على جانب الباب. لكنّها لم تضغط الجرس بطبيعة الحال. دارت دورةً كبيرةً لتتفادى المرور بالمساحة المخصّصة

لاقتراب السيّارات من المدخل، ووصلت حتى الحائط الخرسانيّ وهي تختبئ من ظلّ شجرةٍ إلى ظلّ أخرى، ثمّ تقدّمت مع الحائط باتّجاه عقارب الساعة. هناك مرأبٍ لسيّارتين، وبابُهُ مغلق. تقدّمتْ قليلًا فرأت مبنًى جميلًا يشبه الكوخ الرّيفيّ، بجوار البيت. بدا كأنّه مبنًى مستقلٌ للضيوف. وعلى الجانب الآخر منه، ملعبُ تِنس. للمرّة الأولى ترى عيناها بيتًا فيه ملعب تنس. تُرى من يلاعب السيّد منشكي التنس في هذا الملعب؟ بدا لها أنَّ الملعب لم يُستخدم منذ زمنٍ طويل. فلم تكن هناك شبكة، وقد تساقط كثيرٌ من أوراق الشجر على أرضيّة الملعب، وبَهُتَتْ خطوطُه البيضاء التي ترسم حدوده.

نوافذ البيت المطلّة على الجبل صغيرة، وكلُّها منسدلة الستائر الغامقة. لذا لم تستطع التّحقُّق عبر النوافذ. وكذلك لم يصدر عن البيت أيُّ صوت. أو نباحُ كلاب. ليس سوى تغريد الطيور فوق الأغصان العالية. تقدّمت قليلًا، فوجدت مرأبًا آخر للسيّارات خلف البيت. وكان مخصّصًا لسيّارتين أيضًا، ويبدو أنّه بُني إضافةً إلى المرأب الأوّل، ليتمكّن المالك من إيداع أكبر عددٍ من السيّارات.

أُنشئت حديقةٌ يابانيّةٌ خلف البيت باستغلال سطح الجبل المائل. وُزّعت أحجارٌ كبيرةٌ على درجاتِ سُلّم، وطريق التنزُّه مفتوحٌ بين كلّ ذلك. كانت أشجار الأضاليا منسّقةً بعنايةٍ وجمال، وأشجار الصنوبر ذات الألوان المشرقة تمدّ أغصانها فوق الرأس. هناك ما يشبه التعريشة في نهاية الطريق، وتحتها كراسٍ بمساندَ مريحة، بحيث يستطيع المرءُ الاسترخاء وممارسةَ هواية القراءة. وثمّة منضدةٌ للقهوة أيضًا، ومصابيحُ هنا وهناك، وقناديلُ مخصّصةٌ لإضاءة الحدائق.

ثمّ دارت مارية حول المبنى نصفَ دورةٍ ووصلت إلى جانب الوادي. كان المبنى من هناك ينفتح على ترّاسٍ واسع. وقد خرجت إلى الترّاس

عندما زارت البيت في المرّة السّابقة. من هناك يراقب منشكي بيتها. تأكّدت من ذلك حين وقفتْ هنا.

ضيّقت مارية عينيْها وحدّقت في اتّجاه بيتها الواقع أمامها مباشرةً، لا يفصلها عنه إلّا الوادي. لو كان للمرء يدٌ طويلة لاستطاع إمساك بيتها من هناك. بدا بيتُها مكشوفًا جدًّا إذا نظرت إليه من ذلك الجانب. في الوقت الذي بُني فيه البيت، لم يكن هناك أيُّ مبنًى على هذا الجانب من الوادي. ولم يبدأ البناء هناك إلّا مؤخرًا (ما يزيد على عشر سنوات) بعد أن خُفِّفت القيودُ على البناء. لذا لم تُتَّخذ في بيتها أيّة تدابير تحجب عنها أنظار السكّان المقابلين لهم. البيت مكشوفٌ جدًّا، وبالمنظار المكبّر الفائق، يمكن رؤيةُ كلّ شيءٍ في الداخل. حتى نافذة غرفتها مكشوفة. لكنّها كانت شديدةَ الحذر، فعندما تبدّل ملابسها مثلًا تُغلق ستائر النافذة جيّدًا. إلّا أنّها قد تنسى. فما الذي استطاع منشكي أن يراه حتى الآن؟

نزلتْ مارية منحدرَ الجبل من خلال درجات السُلّم، وذهبت إلى الطابق الأسفل حيث غرفة المكتب، لكنّ ستائر النوافذ في هذا الطابق منسدلةٌ بإحكام، فلم تستطع رؤيةَ أيِّ شيء. فنزلت أكثر، إلى طابق الأجهزة والمعدّات وغرفة الغسيل. في الجانب المقابل منه، هناك مساحةٌ لِكَيِّ الملابس، وغرفةٌ لإقامة الخادمة، وفي الناحية المقابلة، هناك غرفةُ تدريبٍ رياضيٍّ في غاية الاتّساع. تصطفّ بها خمسة أو ستة أجهزةٍ للتدريب العضليّ. ويبدو أنّها تُستخدم بكثرةٍ خلافًا لملعب التنس. كلّ الأجهزة مصقولةٌ بعناية، ولامعةٌ كأنّها مدهونةٌ بالزيت. وهناك كيسُ رملٍ للتمرّن على الملاكمة، معلّقٌ في السقف. ويبدو أنّ درجة الحذر ليست مُحكمة في هذا الطابق كالبقيّة. فالكثير من النوافذ بلا ستائر، ويُمكن رؤية المكان من الخارج. ورغم ذلك، كانت كلُّ الأبواب والنوافذ مغلقةً بالقفل، فلم تستطع

الدخول. وهناك أيضًا أُلصق على الأبواب شعارُ شركة الحراسة الأمنيَّة، لترهيب اللصوص من اقتحام البيت. فالأبواب مُعدَّةٌ بحيث تُرسل إنذارًا إلى شركة الحراسة إن حاول اللّصُّ فتحَ الباب بالقوّة.

كان بيتًا كبيرًا جدًّا. لم تصدّق إطلاقًا أنَّ شخصًا واحدًا يعيش بمفرده في هذه المساحة الواسعة. لا ريب أنّه يشعر بالوحدة في حياته تلك. كان مبنيًّا من الخرسانة بمتانةٍ شديدة، ومغلقًا باستخدام كلّ التدابير المتاحة. وإن كانت لم تعثر على كلبِ حراسةٍ ضخم (ربّما يكون كارهًا للكلاب)، إلّا أنّه استخدم كلّ وسائل الحماية ليمنع اقتحام البيت.

حسنًا، ماذا يجب أن تفعل الآن؟ لم تخطر في ذهنها أيُّ فكرة. فلا هي تستطيع دخول البيت، ولا تستطيع الخروج خارج الأسوار العالية. وليس هناك شكٌّ في وجود منشكي داخل البيت، لأنّه ضغط على الزرّ وفتح البوّابة ثمّ تسلّم المواد المُرسلة إليه. وليس هناك أحدٌ آخر غيره يسكن في البيت. فالمبدأ الأساسيّ ألّا يدخل هذا البيت أحدٌ غيره، باستثناء خَدَمة تنظيف المنازل التي تأتي مرّة في الأسبوع. لقد قال منشكي ذلك عندما زارته في المرّة السّابقة.

لا بدَّ أن تعثر على مخبأٍ خارج البيت طالما لا وسيلة لدخوله. فقد يراها وهي تهيم على وجهها حول البيت. وأثناء بحثها هنا وهناك، عثرت على كوخٍ صغيرٍ لإيداع الأدوات في أحد أركان الحديقة. لم يكن الباب مقفلًا. فيه أدوات الحديقة وخراطيم المياه، وأكياس السماد. دخلت مارية الكوخ وجلست فوق الأكياس. لم يكن مكانًا مُريحًا، لكنّها ظلّت فيه بلا حركة. فلن تلتقط الكاميرات صورتها، ولن يأتي أحدٌ إلى هنا خصّيصًا لاستطلاع المكان. ومن المؤكّد أنَّ شيئًا ما سيحدث خلال ذلك، وليس أمامها سوى الانتظار.

كانت مكبّلة الحركة، ولكنّها تشعر داخلها بقوّة حيويّة وإثارة. ففي ذلك الصباح، عندما أخذت حمّامًا سريعًا، وقفت أمام المرآة عارية، فلاحظت أنّ ثدييْها قد نهدا قليلًا. وربّما ساهم ذلك في زيادة شعورها بالإثارة. قد يكون مجرّد وهمٍ بالطبع، أو اعتقادًا خاطئًا منها نشأ من رغبتها الشديدة في حدوث ذلك. لكنّها شعرت بميلاد كتلةٍ طريّة لم تكن موجودةً من قبل، وهي تنظر بموضوعيّةٍ شديدة، ومن عدّة زوايا، وهي تلمس صدرها بيدها. ما تزال الحلمة صغيرة (لا يُمكن مقارنتها أبدًا بحلمة عمّتها التي تذكّر ببذرة الزيتون)، ولكنْ كان يفوح منها ما يشبه بشائر التبرعم.

قضت مارية وقتها في كوخ الأدوات تفكّر في نهود صدرها الصغير. وتخيّلت صدرها يكبر باطّراد. تُرى ما مشاعر العيش بثدييْن ناهديْن؟ تخيّلت نفسها ترتدي حمّالات صدرٍ حقيقيّة متينة كالتي ترتديها عمّتها. لكنْ ما زال أمامها وقتٌ طويل على ذلك. فالحيْض بدأ في ربيع هذا العامّ.

أحسّت بالعطش قليلًا، لكنّها لا تزال تستطيع الصبر لفترةٍ قادمة. ثمّ نظرت إلى الساعة السّميكة. تشير ساعة جي شوك إلى الثالثة وخمس دقائق. اليوم هو الجمعة، يوم حصّة الرّسم، لكنّها كانت قد قرّرت التغيُّبَ منذ البداية. فلم تحمل معها الحقيبة التي تحتوي على أدوات الرّسم. وإن لم تستطع العودة إلى البيت قبل العشاء فمن المؤكّد أنّ عمّتها ستقلق عليها. عليها التّفكير لاحقًا في حجّةٍ ملائمة لتأخُّرها.

غفت مارية قليلًا. لم تصدّق أنّها قد تنام في مكانٍ كهذا وفي وضعٍ كهذا. لكنّها غفت لفترةٍ من الوقت. قيلولةٌ قصيرة. عشرَ دقائق أو خمس عشرة دقيقة، أو ربّما مدّة أقصر. لكنّه كان نومًا عميقًا نوعًا ما. عندما استيقظتْ فجأةً، كان وعيها مُنقسمًا إلى جزأيْن. لم تُدرك أين هي الآن أو ماذا تفعل في هذا المكان. يبدو أنّها رأت حلمًا غير مترابط، يتعلّق بثديٍ ناهد وشوكولاتة

بالحليب. كان اللُّعاب قد تجمَّع داخل فمها. ثمَّ تذكَّرت على الفور: «لقد تسلَّلتُ إلى بيت منشكي وأختبئ الآن في كوخ أدوات الحديقة».

أيقظها صوتٌ ما. صوتُ ماكينةٍ متواصل. أو للدقَّة: صوت انفتاح بوَّابة المرأب. فمغلاق المرأب المجاور لمدخل البيت يرتفع آليًّا إلى أعلى مُصدرًا قرقرة. ربَّما ركب منشكي سيَّارته ونوى الذهاب إلى مكانٍ ما. خرجت مارية مُسرعةً من الكوخ، وتوجَّهت ناحية مدخل البيت بخطواتٍ متسلِّلة كيلا تصدر صوتًا. انتهى المغلاق من الصُّعود وتوقَّف صوت مُحرِّكه. بعد ذلك، اشتغل محرِّك السيَّارة، ثمَّ خرجت سيَّارةُ جاغوار الفضِّيَّة بمقدِّمتها المميَّزة ببطء. منشكي على مقعد القيادة. فُتحت نافذة مقعده، ولمع شعره ناصع البياض متلقِّيًا أشعَّةَ شمس العُصاري. راقبت مارية ذلك المشهد وهي تختبئ خلف الأشجار.

لو التفت منشكي إلى الأشجار المُصطفَّة على يمينه، لرآها مختفيةً في الظلّ. لأنَّ الأشجار أصغر من أن تخفي مارية تمامًا. لكنَّه ظلَّ ينظر إلى الأمام باتِّجاه مقدِّمة السيَّارة. وبدا كأنَّه يفكِّر بجدِّيَّةٍ في أمرٍ ما وهو يُمسك بالمقودَ. تحرَّكت الجاغوار ببطء، ثمَّ دارت مع منحنى الطريق حتى اختفت. وبدأ مغلاق المرأب ينزل ببطءٍ مرَّةً أخرى بعد أن أُغلِق بجهاز التَّحكُّم عن بعد. جرت مارية خارجةً من خلف الأشجار بأقصى سرعة، ثمَّ انزلقت بجسدها تحت ذلك المغلاق الذي كاد يصل إلى الأرض، ولم تبق إلَّا ثُغرةٌ صغيرة. مثلما فعل إنديانا جونز في فيلم «سارقو التابوت الضائع»، بحركةٍ انعكاسيَّةٍ لحظيَّة. لقد فكَّرتْ بسرعة أنَّها إن دخلت المرأب استطاعت دخول البيت بشكلٍ ما. لقط مجسّ المرأب حركتها، فتوقَّف آنيًا ثمَّ عاود نزوله إلى أن أُغلق تمامًا.

هناك سيَّارةٌ أخرى داخل المرأب. سيَّارةٌ رياضيَّة كحليَّة وأنيقة، سقفها متحرِّكٌ رمليّ اللَّون: السيَّارة التي انبهرت بها عمَّتها في المرَّة السَّابقة

ووقعت في غرامها. ولأنَّ مارية لا تهتمّ بالسيّارات أبدًا، فلم تنظر إليها. كانت مقدّمتها طويلةً طولًا مريعًا، وعليها شعار جاغوار كما هو متوقّع. خمّنت مارية التي ليس لديْها أيُّ معرفة بالسيّارات أنّها غاليةُ الثمن، ونادرة أيضًا.

ثمّة بابٌ يؤدّي إلى داخل البيت في عمق المرأب. وعندما أدارت مقبضه بترقُّب ورهبة، عرفتْ أنّه لم يكن مغلقًا بقفل. تنفّستْ عندها الصُّعداء. فمن الطبيعيّ أنَّ الإنسان لا يغلق بابَ البيت المؤدّي للمرأب بالمفتاح عندما يخرج في النهار، لكنَّ الشخص المدعوّ منشكي هذا إنسانٌ في غاية الحذر والحيطة. لذا لم يكن لديْها أملٌ كبيرٌ في ذلك. من المؤكّد أنَّ أمرًا هامًّا جدًّا بالنّسبة له جعله ينسى غلق الباب، وكان ذلك من حسن حظّها.

دخلت مارية من ذلك الباب إلى البيت. احتارت فيما تفعله بحذائها، لكنّها قرّرت أن تخلعه وتُمسكه بيدها. فلا يُمكن لها أن تتركه هناك. كان البيت غارقًا في هدوءٍ تامّ. وكأنَّ كلَّ الأشياء قد كتمت أنفاسها تمامًا. كانت متأكّدةً من أنَّ البيت الآن خالٍ من البشر بعد أن غادره منشكي.

أنا في هذا البيت وحدي. أنا حرّةٌ لفترةٍ من الوقت، أذهب إلى أيّ مكانٍ أشاء وأفعل ما أريد.

عندما جاءت مارية إلى هناك في المرّة السّابقة، أخذها منشكي بجولةٍ سريعةٍ في البيت. فهي تتذكّر جيّدًا ما شاهدته وقتها. وتحتفظ في رأسها بخارطةٍ تقريبيّة للبيت. ذهبت في البداية إلى غرفة المعيشة الكبرى التي تشغل أغلبَ مساحةِ الطابق الأوّل. من هناك يمكن الخروج إلى التّراس الواسع جدًّا، من خلال بابٍ منزلقٍ كبير من الزجاج. احتارت مارية: هل أفتح الباب أم لا؟ ربّما شَغّل منشكي أجهزة الإنذار عند خروجه. ولا بدّ أن ترنَّ إذا فُتح البابُ الزجاجيّ، وأن تومض أضواءُ التّحذير في شركة الحراسة

الأمنيّة. في البداية، تتّصل الشركة بالهاتف لتتأكّد من الوضع. ويجب على المتحدّث أن يُخبرهم بكلمة السرّ المتّفق عليها. كانت مارية تفكّر وهي تُمسك حذاءها الأسود في يدها.

توصّلت إلى استنتاج أنّ منشكي على الأرجح لم يشغّل أجهزة الإنذار. ليس في نيّته أن يذهب بعيدًا لدرجة أنّه لم يغلق الباب الداخليّ للمرأب. ربّما ذهب للتّسوّق في مكانٍ قريب أو شيءٍ من هذا القبيل. استجمعت مارية شجاعتها وفتحت قفلَ الباب الزجاجيّ. ثمّ انتظرت قليلًا، لم يرنّ جرسُ الإنذار، ولم يأتِ اتّصالٌ هاتفيٌّ من شركة الأمن. اطمأنّ قلبُها وخرجت إلى الترّاس (فلو كان موظّفو الأمن في طريقهم إلى البيت بالسيّارة، لن تستطيع أن تُفسّر الأمرَ على أنّه مُزاح). وضعت حذاءها على الأرضيّة، وأخرجت المنظار المكبّر الضّخم من غلافه البلاستيكيّ. كان المنظار ذا حجمٍ كبيرٍ بالنّسبة إليها، لذا استخدمت السياج بديلًا عن القاعدة، ولم تفلح في ذلك. وعندما دارت بنظرها في المكان، عثرتْ على ما يُشبه القاعدة المخصّصة للمنظار مسنودةً إلى الجدار. كانت تُشبه الأرجلَ الثلاثيّة للكاميرات، ولونها مثل المنظار أخضرُ زيتونيّ. ويُمكن تثبيت المنظار عليها باستخدام مسامير حلزونيّة. ثبّتت مارية المنظار على تلك القاعدة المخصّصة له، ثمّ جلست على مقعدٍ معدنيٍّ عالٍ كان بالقرب منها، ونظرت بالمنظار من مكانه، وبذلك استطاعت أن تؤمّن مجال الرؤيةِ بسهولة. المكانُ مصمّمٌ بحيث لا يُمكن رؤيته من الجانب الآخر. لا شكَّ أنّ منشكي يشاهد الطَّرَف المقابل من الوادي هكذا.

رأتْ داخلَ بيتها بوضوحٍ مُدهش. برزت كلُّ معالم البيت في مجال رؤيتها من خلال العدسة، أوضحَ وأكثرَ صفاءً من الواقع. للمنظار قدرةٌ ضوئيّةٌ خاصّة ربّما، تجعل ذلك ممكنًا. كانت ستائرُ بعض الغرف المطلّة على

الوادي غير منسدلة، لذا رأت كلّ شيء بالتّفصيل، وكادت تلمسه بيدها. استطاعت أن ترى حتى ما فوق الطاولة من مزهريّةٍ ومجلّات. ويُفترض أنّ عمّتها موجودةٌ في البيت آنذاك. لكنّها لم ترها.

من العجب أن ترى تفاصيلَ بيتك من مكانٍ بعيد. كأن تتأمّل البيت الذي كنتَ تسكنه في الماضي من العالم الآخر بعد أن تموتَ بالفعل (لا تدري حقًّا ماذا حدث، ولكنّك تجد نفسك أصبحت مع الأموات). إنّه المكان الذي كنتَ تنتمي إليه لفترةٍ طويلة، لكنّه لم يَعُدْ مكانك. إنّه مكانٌ تعرفه بألفةٍ وحميميّةٍ، لكنّك فقدت إمكانيّة العودة إليه. سيطرت على مارية مشاعرُ الاغتراب العجيبة تلك.

ثمّ شاهدتْ غرفتها. كانت نافذةُ الغرفة تُطلّ على هذه الناحية، ولكنّ الستائرَ مغلقةٌ من دون أيّ ثغرات. الستائر البرتقاليّة التي اعتادت عليها، لفحتها الشمس فاستحال لونها شاحبًا. لم تستطع رؤية ما خلف الستائر. ربّما في اللّيل، بعد أن تُضاء الأنوار، يُرى الظلّ بشكلٍ ضبابيّ. ولكنْ لا يُمكن التأكُّد من مدى ذلك إلّا بالمشاهدة الفعليّة بالمنظار، وبعد أن يحلّ اللّيل فعلًا. جرّبت مارية أن تلفّ المنظار هنا وهناك، فلا بدّ أنّ عمّتها موجودةٌ في مكانٍ ما. لكنّها لم ترها. ربّما كانت تَعُدُّ العشاء في المطبخ الذي يقع في عمق البيت، أو ربّما تستريح في غرفتها. عمومًا، لا يمكن رؤيةُ ذلك الجزء من البيت.

اشتاقت إلى العودة إلى بيتها سريعًا. اجتاحتها تلك المشاعر بعنفٍ فجأةً. تريد العودة إلى هناك، لتجلس على كرسيّ المائدة التي اعتادت الجلوسَ عليه، وتشرب الشاي السّاخن في الكوب المعتاد. تريد أن تتأمّل عمّتها وهي تقف في المطبخ تَعُدُّ وجبة الطعام. يا له من أمرٍ رائعٍ إن استطاعت فعل ذلك. هكذا كانت تفكّر. لم تفكّر إطلاقًا بأنّها قد تشعر

بالحنين إلى ذلك البيت. وما لبثت تراه موحشًا وقبيحًا. وكانت تكره الحياة فيه، وترجو أن تكبر سريعًا لتغادره وتعيش وحدها في بيتٍ يوافق ذوقها. ولكنّها، وهي تتأمّل داخل البيت، من خلال عدسة المنظار الصافية، ومن الجانب المقابل للوادي، ليس لها رجاءٌ إلّا أن تعود إليه بأيّ شكل. لأنّ ذلك البيت هو مكاني رغم كلّ شيء، ولأنّه المكانُ الذي يحميني.

حينها، تناهى إلى أذنها ما يشبه الطنينَ الخفيف، فأبعدت عينيْها عن المنظار. ورأت شيئًا أسودَ يطير في السماء. دبُور طويلٌ بجسد عملاق. من الدبابير السّامة، المهاجمة، ذات الإبرة الحادّة؛ التي كانت سببًا في وفاة أمّها. هربت مارية بسرعة إلى داخل البيت، وأقفلت البابَ الزجاجيّ بإحكام. ظلّ الدبُور يحوم خارج الباب كأنّه يحجّم حركتها، بل لدرجةٍ أنّه ارتطم أكثر من مرّةٍ بالزجاج. ثمّ يئس أخيرًا وطار راحلًا إلى مكانٍ بعيد. تنفّست مارية الصُّعداء، ولكنّها ما تزال متوتّرةً وصدرها يخفق. فالدبابير أحد أكثر الأشياء التي تُرعبها في هذا العالم. لقد سمعت من أبيها مرّاتٍ عديدة أحاديثَ عن مدى خطورة الدبابير وإلى أيّ درجةٍ هي مُخيفة، وتأكّدت مرّاتٍ ومرّات من منظرها هذا من خلال مرجع الحشرات المصوّر. ثمّ أصبحت في غفلةٍ من الزمن تحمل خوفًا من أنّها ستموت في يومٍ ما بلسعاتِ دبابيرَ سامّةٍ كما حدث لأمّها. ربّما ورثت من أمّها جينات الحساسيّة تجاه سمّ الدبابير! وإن كان لا مفرّ من الموت، فلعلّه يأتي بعد عمرٍ طويل. فهي تريد أن تتذوّق شعورها بثدييْن ناهديْن وحلمةٍ كبيرة ولو مرّةً واحدة فقط. ما أتعس الموتُ بلسعة دبُور قبل ذلك!

فكّرتْ أنّه من الأفضل عدم الخروج للترّاس قليلًا، فلا شكّ أنّ ذلك الدبُور الخطير لا يزال يحوم حول المكان، ثمّ إنّه بدا يجعلها هدفًا شخصيًا له. لذا يَئِسَت مارية من الخروج، وقرّرت تفحُّصَ البيت من الداخل أكثر.

دارت أوّلًا في أرجاء غرفة المعيشة الواسعة وفحصتها. مثلما هي في المرّة السّابقة: بيانو عملاق من إنتاج شركة شتاينواي. فوقه نوتاتٌ موسيقيّة، مؤلّفات إنفنشون لباخ، وسوناتا لموتسارت، وعملٌ قصير لبيتهوفن. لا تبدو أعمالًا صعبة من الناحية المهاريّة، ولكنْ عزفها يحتاج إلى براعة. مارية تعرف هذه الأشياء، سبق لها أن تعلّمت البيانو (لم تبرع فيه مُطلقًا، لأنّها انجذبت إلى الرّسم أكثر من الموسيقى).

تراكم عددٌ من الكتب فوق طاولة القهوة التي صُنعت قاعدتها من الرخام. كتبٌ لم تنتهِ القراءة منها بعد. هناك مؤشّرة القراءة بين الصفحات. كتابٌ في الفلسفة وآخرُ في التاريخ، وروايتان (إحداهما باللّغة الإنجليزيّة). لم تقع عيناها على عنوان أيٍّ من تلك الكتب من قبل، ولم تسمع بأسماء مؤلّفيها. حاولت أن تقلّب في صفحاتها بخفّة، فلم يُثِر محتواها أيّ اهتمام لديْها. مالك هذا البيت يقرأ كتبًا صعبة الفهم، ويهوى سماع الموسيقى الكلاسيكيّة. وفي هذه الأثناء يتلصّص على بيتها باستخدام منظارٍ فائقِ القدرات.

تُرى أهو مجرّد منحرف أم أنّ هناك سببًا أو هدفًا منطقيًّا لفعله ذلك؟ وهل يا تُرى لديْه اهتمامٌ بعمّتي؟ أم بي أنا؟ أم بنا نحن الاثنتيْن معًا؟ (وهل هذا معقول؟)

قرّرت مارية أن تبحث في غرف الطابق الأسفل. نزلت الدرج، وذهبت أوّلًا إلى غرفة مكتبِه. كان بورتريه منشكي معلّقًا هناك. وقفتْ مارية في منتصف الغرفة وتأمّلتْ تلك اللّوحة بعض الوقت. لقد سبق لها أن رأت اللّوحة من قبل (لقد جاءت إلى هذا البيت خصّيصًا لرؤيتها). لكنّها عندما تأمّلتها بإمعانٍ مجدّدًا، أصبحتْ تشعر أنّ منشكي موجودٌ في الغرفة حقًّا. لذا كفّت عن ذلك، وأخذت تتفحّص ما فوق المكتب غَرَضًا بعد غرض، وهي تُجهد نفسها كيلا تنظر إلى اللّوحة. هناك جهاز كومبيوتر أبل عالي القدرات،

لكنّها لم تُشغّله، لأنّها تَعْلم أنّه من المؤكّد أن يكون مغلقًا بكلمة سرٍّ صارمة، ولن تستطيع معرفتها. ما من أشياء عديدة فوق المكتب. تقويمٌ بجدول المواعيد والأعمال. فارغٌ تقريبًا، سوى من عدّة أرقامٍ وعلامات غير مفهومة هنا وهناك. فجدولُ المواعيد الشامل في الكومبيوتر على الأرجح، ويمكن مشاركته بين عدّة أجهزة. وبالطبع ستكون كلُّها محميّة. فالسيّد منشكي شخصٌ بالغُ الحذر. لا يترك وراءه أيَّ أثر.

إضافة إلى الأدوات المكتبيّة المعتادة والموجودة في كلّ المكاتب المشابهة: أقلام الرصاص بالطول نفسه، وأطرافها حادّة مبْريّة بجمال؛ مشابك الأوراق مقسّمة بحسب أحجامها بدقّةٍ شديدة؛ والمفكّرة بأوراقها البيضاء تنتظر بشغفٍ أن يُكتب عليها شيء؛ وساعة المكتب الرّقميّة تقطع الوقت بدقّة.. كلُّ شيء في ترتيبٍ وتنظيمٍ رائعيْن. تساءلت مارية في نفسها: «إن لم يكن منشكي إنسانًا آليًا، فهو إنسانٌ غريبٌ للغاية بلا شك!».

كانت كلُّ أدراج المكتب مقفلةً بالتأكيد. أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا. فلا يُمكن ألّا يغلق منشكي أدراج مكتبه بالمفتاح. لم يكن في غرفة المكتب شيءٌ آخر يتوجّب تفحُّصًا خاصًّا. لم تجذب اهتمامها رفوفُ الكتب المتراصّة، ولا رفوف الأقراص المدمجة، ولا منظومة الصوتيّات الحديثة وباهظة الثمن. فهذه الأشياء تُظهر أذواقه، ولا تساعد على معرفة شخصيّته الإنسانيّة، ولا ترتبط (على الأرجح) بالأسرار التي يخفيها داخله.

غادرت مارية غرفة المكتب ومشت في الممرّ الطويل المعتم، وفتحت أبوابَ عددٍ من الغرف. فلم تكن أيٌّ منها مقفلة. عندما جاءت مع عمّتها المرّة السّابقة، لم يُريهما منشكي أيَّ غرفةٍ منها. فلم تريا سوى غرفة المعيشة في الطابق الأوّل، وغرفة المكتب والمطبخ وغرفة الطعام في الطابق الأسفل (واستخدمت هي دورة المياه في الطابق الأوّل). فتحت

مارية أبواب تلك الغرف المجهولة واحدًا بعد الآخر. كانت إحداها هي غرفة نوم منشكي، أي غرفة النوم الرئيسة في البيت، وكانت في منتهى الاتّساع. وفيها خزانةُ ملابسَ واسعة يُمكن السّير فيها، وحمّامٌ، وسريرٌ كبيرٌ لزوجيْن، مرتّبٌ بعنايةٍ بالغة. وهناك غطاءٌ فوق السّرير. ولأنّه ما من خادمةٍ تُقيم في البيت، فربّما كان منشكي هو الذي يرتّب السّرير بنفسه. وإن كان الأمر كذلك، فلا يستوجب أيّ دهشة. وُضعت منامةٌ بلونٍ بنّيٍّ محروق من قماشٍ ليس فيه رسوم أو تصاميم، مطويّة بعنايةٍ بجانب الوسادة. وعُلّق على جدار الغرفة عددٌ من اللّوحات الصّغيرة والمنسوخة على الخشب. ويبدو أنّها مجموعةٌ من أعمال فنّانٍ واحد. ووُضعت بجوار الوسادة أيضًا عدّة كتب لم ينتهِ منها. إنّه يقرأ الكتب بانتظام في كلّ مكان. كانت النافذة تطلّ على الوادي، لكنّها صغيرة وستائرها متدلّية.

وعندما فتحت خزانةَ الملابس الضخمة، وجدت ملابسَ كثيرةً معلّقة على مساحة واسعة. كانت البدلات الرّسميّة قليلة، وكان العدد الأكبر للسترات التّقليديّة وغير التّقليديّة. ولم يكن عدد ربطات العنق كبيرًا أيضًا. يبدو أنّه ليس في حاجة إلى ارتداء الملابس الرّسميّة كثيرًا. بدت كلّ القمصان عائدة لتوّها من التّنظيف والكيّ، فهي مغلّفة بأكياسٍ بلاستيكيّةٍ شفّافة. ويصطفُّ عددٌ ضخمٌ من الأحذية العاديّة والأحذية الرّياضيّة في رفوفٍ خاصّة. وفي مكانٍ غير بعيد، تصطفُّ معاطفُ ثقيلة متنوّعة الأحجام والثقل، وملابسُ كثيرة، بعنايةٍ كبيرة، من ذوقٍ راقٍ، لدرجة أنّها تصلح للنشر في مجلّة أزياء. لم يكن عدد الملابس كبيرًا بإفراط، ولا صغيرًا بإفراط. بل كانت كلُّها مضبوطةً في نطاق المعقول والمقبول.

وفي أدراج الخزانة، تتجمّع الجوارب والمناديل والملابس والقمصان الداخليّة. جميعها مطويّة بلا أيّ تجاعيد، ومرتّبة جيّدًا. وثمّة أدراجٌ لبناطيل الجينز وقمصان البولو، وقمصان الرّياضة. ودُرْجٌ كبيرٌ للسترات، فيه أنواعٌ

ستراتٍ عديدة بألوانٍ جميلة ومتنوّعة. كلُّها من قماشٍ بلا رسوم أو تصاميم. ولكن لا دُرْج يفتح لها مغاليقَ أسرار منشكي. كان كلُّ شيء نظيفًا ومرتّبًا ومقسّمًا بحسب دوره. لا ذرّة ترابٍ على الأرض، وإطارات اللُّوحات على الجدران مستقيمة من دون أيّ ميل.

ثمّة حقيقةٌ واحدة بشأن منشكي استطاعت مارية أن تفهمها بوضوحٍ تامّ، مفادها: «يبدو أنّني لا أستطيع العيش مع رجلٍ كهذا مطلقًا»، بل إنّ هذا مستحيل لأيّ إنسانٍ عاديٍّ من لحمٍ ودم. عمّتي تحبُّ النظافة والنّظام كثيرًا، لكنّها لن تصل إلى هذا الكمال إطلاقًا.

الغرفة التالية هي غرفة نوم الضيوف على ما يبدو. فيها سريرٌ واحد مُرتّبٌ ومُجهّزٌ لزوجيْن.

وُضع بجوار النافذة مكتبٌ للكتابة ومقعدٌ خاصٌّ به، وثمّة جهازُ تلفازٍ صغير. ولكنّها لم تلحظ أيَّ أثرٍ لمبيت ضيوفٍ في هذه الغرفة. بدت كأنّها قد أُهملت إلى الأبد أكثر من أيّ شيءٍ آخر. يبدو أنّ السّيّد منشكي لا يرحّب بالضيوف كثيرًا. بل إنّها لضيوفٍ يأتون في حالات طارئة (لم تستطع أن تتخيّل تلك الحالات).

أمّا الغرفة التي تليها، فكانت عبارةً عن مخزن، ليس فيها أثاث، سوى سجّادةٍ خضراء فُرشت على الأرضيّة، وفوقها حوالى عشرة صناديق. من خلال وزنها، يبدو أنّها ممتلئةٌ بالكتب. وثمّة كلماتٌ تشبه الرُّموز، بقلمٍ جافّ، على البطاقات الملصقة على الصناديق. ثمّ أُغلق كلّ صندوقٍ منها بشريطٍ لاصق. خمّنت مارية أنّها قد تحتوي على كتبٍ وأوراقٍ خاصّة بالعمل، وربّما أسرارٌ مهمّة، لكنّها لا تخصُّني.

كانت كلّ الغرف مفتوحةً، وكلّ نوافذها تطلّ على الوادي، وستائرها متدلّية بإحكام كما هو متوقَّع. ولم يكن بها أحدٌ يستضيء بأشعّة الشمس

من تلك النوافذ، أو يستمتع برؤية مناظر الطبيعة الخلّابة! كانت الغُرف غارقةً في ظلامٍ خافت تشتكي الإهمال.

الغرفة الرابعة هي أكثر الغرف التي جذبت اهتمام مارية العميق، الذي لم يكن موجَّهًا إلى الغرفة نفسها بصفةٍ خاصّة. كانت بلا أثاثٍ تقريبًا؛ ليس إلّا كرسي مائدةٍ واحد وطاولة خشبيّة صغيرة وعاديّة. الجدران عارية من اللّوحات. كانت غرفةً موحشة، ليس فيها زينة. بدت كأنّها خارجة عن الاستخدام. عندما فتحت الخزانةَ الكبيرة، وجدتْ صفًّا من الملابس النسائيّة. لم تكن كثيرة، ولكنْ بما يكفي لامرأةٍ تقيم هناك لعدّة أيّام. خمّنت مارية أنّ ثمّة امرأةً تبيت في هذا البيت على فتراتٍ منتظمة، وأنّ تلك الملابس أُعدّت لها. قطّبت جبينها لاإراديًا. تُرى هل تعلم عمّتها بوجود تلك المرأة في حياة منشكي؟

لكنّها أدركت سريعًا أنّ تفكيرها خاطئ. فكلُّ الملابس التي عُلّقت في عُلّاقات واصطفّت في الخزانة قديمةُ الطّراز قليلًا. الفساتين والتنُّورات والسترات كلُّها لماركات شهيرة، وفي منتهى الأناقة، وغالية الثمن، ولكنْ ما من امرأةٍ في الوقت الحالي ترتدي مثل هذه الملابس. لم تكن لمارية معرفةٌ تفصيليّةٌ بعالم الأزياء، ولكنّها على الأقلّ متأكّدةٌ من ذلك. كانت ملابس منتشرة قبل أن تولد هي. ناهيك أنّها تفوح برائحة الموادّ الواقية من العثّة القويّة. يبدو أنّها معلّقةٌ في هذا المكان منذ زمنٍ بعيد. وربّما بسبب طريقة الحفظ والحماية الصارمة، لم تظهر عليها آثار التآكل من العثّة. ولا بدّ أنّ عمليات إزالة الرطوبة تقام دومًا هنا بطريقةٍ تُناسب كلّ فصول السنة، فلم تشحب ألوانها. الفساتين من مقاس 5. فعلى الأرجح أنّ طول المرأة في حدود 155 سنتيمترًا. وفي حدود مقاس التنُّورة، يبدو أنّها ذات قوامٍ رشيق. مقاس الأحذية 23 سنتيمترًا.

ووُضعت الملابس الداخليّة والجوارب وملابس النوم في عددٍ من الأدراج، وكلٌّ قطعةٍ منها في كيسٍ بلاستيكيّ لكيلا يغطّيها الغبار. أخرجت مارية عدّة ملابس داخليّة من أكياسها. كان مقاس حمّالة الصدر 65 بحجم C. حاولت أن تخمّن شكل ثدي المرأة من حجم حمّالة الصدر. أصغر قليلًا من ثدي عمّتها (بالطبع لا يُمكنها معرفة حجم الحلمة). كانت كلّ الملابس الداخليّة الموجودة هناك من النوع الفاخر الثمين. مشبّعةً بالإثارة الحسّيّة. ملابس راقية اشترتها امرأةٌ ناضجة مقتدرةُ الحال، من متجرٍ متخصّص، وهي تفكّر أنّها سترتديها خلال النوم مع رجلٍ تحبّه. ملابس لا تُلبس أثناء جزّ أعشاب حديقة المنزل مثلًا، بل كلُّها صُنعت من الحرير الرّقيق، بالدانتيلا، ويجب غسلُها بماءٍ دافئ. وكلُّها غارقة في رائحة الموادّ الواقية من العثّة. طوت مارية الملابسَ بعنايةٍ بالغة ووضعتها مثلما كانت في الكيس البلاستيكيّ وأعادتها إلى دُرج الخزانة.

هذه ملابس المرأة التي كان منشكي على علاقةٍ بها في الماضي - ربّما من خمس عشرة أو عشرين سنة - تلك هي الخلاصة التي توصّلت إليها مارية. ثمّ وقعت أحداث جعلت المرأة - التي ترتدي فساتين مقاس خمسة وحذاء مقاس 23 سنتيمترًا وحمّالة صدر مقاس 65C - تترك تلك الملابس ذات الذّوق الرّفيع وترحل. ولم تَعُدْ بعد ذلك. ولكنْ لماذا تركت ملابسها الفاخرة هنا إن كانت قد انفصلت عنه بسبب ظروفٍ معيّنة؟ فالمعتاد أن تأخذ معها كلّ أغراضها. وبالطبع، لم تعرف مارية مطلقًا سبب ذلك. وبأيّ حال، حافظ السّيّد منشكي على الملابس باهتمامٍ بالغ، مثلما حافظ أقزام نهر الراين للأجيال القادمة على الذهب الأسطوريّ الخالص. وعلى الأرجح أنّه يدخل الغرفة أحيانًا، يتأمّل الملابس لوقتٍ طويل، ويُمسكها بيده. ثمّ يبدّل المادّة الطاردة للحشرات مع كلّ موسمٍ من مواسم السنة (لا يُمكنه أن يعتمد على شخصٍ آخر لهذه الإجراءات).

تُرى أين هذه المرأة الآن؟ ربَّما أصبحت زوجةَ رجلٍ آخر. أو ربَّما ماتت نتيجة مرضٍ أو حادث. لكنَّه ما يزال يقتفي أثرها (لم تكن مارية تعلم أنَّ المرأة هي أمُّها بالتَّأكيد، ولم أجد في نفسي سببًا يحتِّم عليَّ إخبارها بالحقيقة. وليس لأحدٍ الحقّ في إخبارها بذلك عدا منشكي نفسه).

غرقت مارية في التَّفكير. تُرى هل يجب عليها بسبب ذلك الأمر أن تحمل شعورًا أكثر ودِّيَّة تجاه السَّيِّد منشكي؟ ـ تجاه استمراره في الحبّ العميق لتلك الدَّرجة لامرأةٍ واحدة طوال تلك الفترة من السنين؟ أم أنَّها يجب أن تشعر تجاه ذلك بقليلٍ من الرُّعب؟ ـ تجاه احتفاظه بملابس تلك المرأة بهذه الدَّرجة من الاهتمام الكامل؟

عندما فكَّرت إلى هذا الحدّ، وصل إلى سمْعها صوتُ ارتفاع باب المرأب. عاد منشكي إلى البيت. بسبب تركيزها في الملابس، لم تنتبه إلى فتح البوَّابة الرئيسة وصوت دخول السيَّارة. يجب الهرب والخروج من هنا فورًا. يجب الاختباء في مكانٍ آمن. لكنَّها انتبهت إلى حقيقةٍ هامَّة، حقيقةٍ هامَّةٍ بدرجة مُرعبة. وعندها وقعت أسيرة الذُّعر والاضطراب.

لقد تركت حذاءها على أرضيَّة التِّراس، وتركت المنظار على حاله خارج غطائه فوق القاعدة، حين خشيت من الدبُّور، وألقت بكلّ شيء وهربت إلى داخل البيت. فلو خرج منشكي إلى التِّراس ورأى (وسيفعلها آجلًا أم عاجلًا)، فسيعرف على الفور أنَّ أحدًا دخل البيت في فترة غيابه. منشكي بالغ الذكاء، ولن يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ حتى يعرف أنَّه حذاءُ مارية. سيبحث في أرجاء البيت من دون أن يترك ركنًا منه. ولا شكَّ أنَّه سيكتشفني وأنا مختفية هنا بسهولة.

وليس هناك متَّسعٌ من الوقت لكي تهرع إلى التِّراس وتأخذ حذاءها، وتعيد المنظار كما كان. فمن المؤكَّد أنَّها ستصطدم به في منتصف الطريق.

ولم تعرف ماذا تفعل! تصاعدت أنفاسها، وتسارع خفقان قلبها، ولم تستطع تحريك أطرافها كما ينبغي.

توقَّف محرِّك السيَّارة، ثمَّ سمعت صوتَ هبوطِ مغلاقِ المرأب. يُفترض أن يدخل منشكي البيتَ بعد لحظات. تُرى كيف ستتصرَّف؟ يا للهول! ماذا ستفعل؟ كان ذهنها خاويًا تمامًا من أيَّة فكرة. جلست على الأرض مغمضةَ العينيْن تغطِّي وجهها بكلتا يديْها.

«ابقوا هناك حيث أنتم» قال لها أحدٌ ما.

ظنَّت أنَّها تتوهَّم. لكنَّه لم يكن وهمًا. فعندما تجرَّأت وفتحت عينيْها، رأت أمامها رجلًا عجوزًا يبلغ طوله ستين سنتيمترًا تقريبًا. كان يجلس بهدوء فوق خزانةٍ منخفضة. يربط شعره المختلط بالشيب فوق رأسه، ويرتدي ملابسَ عتيقةً بيضاء، ويتدلَّى من خصره سيفٌ صغير. وبالطبع، ظنَّت في البداية أنَّها تتوهَّم. ظنَّت أنَّها ترى شيئًا يستحيل وجوده في الواقع، لأنَّها وقعت أسيرةَ الذُّعر والاضطراب.

قال الرجل العجوز بصوتٍ خفيض، ولكنَّه يُسمع جيِّدًا: «كلَّا، لستُ وهمًا. أنا الكومنداتور. وإنَّني هنا لأساعدكم».

- 61 -

عليكِ أن تصبحي فتاةً ذكيّةً وشجاعة

«لستُ وهمًا»، ردّد الكومنداتور. «يُثار حول وجودي الجدل، هل أنا موجودٌ حقًّا أم لا؟ لكنّي بكلّ الأحوال لستُ وهمًا. ثمّ إنّني جئتُ إلى هنا لكي أساعدكم. فلا بدّ أنّكم تطلبون المساعدة، أليس كذلك؟»

خمّنت مارية أنّ كلمة «أنّكم» تشير إليها هي. كانت طريقته في الكلام مريبةً نوعًا ما، لكنّي أطلب المساعدة بالتّأكيد.

«لا داعي للذهاب إلى التّراس وإحضار الحذاء» - قال الكومنداتور - «انسوا أمر المنظار أيضًا، فليس هناك ما يُقلق. سأبذل ما في وسعي لكيلا يخرج السّيّد منشكي إلى التّراس، أو لبعض الوقت على الأقلّ. ولكنْ إذا غابت الشمس فلن أستطيع. فعندما تظلم السّماء قد يخرج إلى التّراس وينظر إلى بيتكم على الجانب المقابل من الوادي بالمنظار. فهذه عادته اليوميّة. ويجب أن نحلّ المشكلة قبل ذلك. هل تفهمون ما أقول؟»

أومأتْ مارية أنّها تفهم بشكلٍ ما.

«عليكم بالاختفاء داخل خزانة الملابس تلك لبعض الوقت. اكتموا أنفاسكم، واخفوا أثركم. ما من سبيلٍ آخر. وعندما يحين الوقت المناسب، سأُخبركم. وحتى ذلك الحين، عليكم ألّا تتحرّكوا أبدًا، وألّا تصدروا أيّ صوتٍ مهما حدث. هل فهمتم؟»

أومأت مارية ثانيةً. تُرى هل أنا أحلم؟ أم أنَّ هذا الرجل جنِّيّ؟

قرأ الكومنداتور أفكارها، وقال: «لستُ حلمًا، ولا جنيًّا. إنّني عبارةً عن فكرة، وفي الأصل ليس لي شكلٌ أو هيئة. لكنّكم لن تتمكّنوا من رؤيتي بذلك، فمن أجل هذا اتّخذت شكلَ الكومنداتور مؤقّتًا».

كرّرت مارية كلماته في ذهنها من دون أن تنطق بها... فكرة! الكومنداتور! الرجل يقرأ أفكاري! وعندها تذكّرتْ فجأةً أنّه الشّخصيّة التي رأتها في بيت توموهيكو أمادا في لوحة النيهونغا الرّائعة. من المؤكّد أنّه خرج من تلك اللّوحة. ومن أجل ذلك فقط، كان جسمه صغيرًا بهذا الحجم.

«بالضبط»، قال «لقد استعرتُ هيئة إحدى الشّخصيّات الموجودة في تلك اللّوحة. الكومنداتور ـ وأنا شخصيًّا لا أعرف جيّدًا ماذا يعني ذلك الاسم ـ لكنّي أُدعى به الآن. أرجو منكم الانتظار هنا بصمت. وعندما يحين الوقت سآتي لاصطحابكم. لا داعي للخوف. الملابس ستحميكم».

الملابس ستحميني؟ لم تفهم مارية المعنى ولم يردّ على تساؤلها. وفي اللّحظة التالية، اختفى الكومنداتور مثلما يذوب البخار في الهواء.

كتمتْ أنفاسَها داخل خزانة الملابس. وكما أوصاها الكومنداتور، بذلت ما بوسعها كيلا تتحرّك أو يصدر عنها صوت. عاد منشكي إلى البيت ودَخَله بالفعل. يبدو أنّه ذهب للتسوّق، لأنّها سمعت صوتًا يدلّ على أكياس البضائع الورقيّة. كتمت أنفاسها تمامًا عندما سمعت صوتَ خطواتِهِ بعد أن بدّل الخُفّ المنزليّ بحذائهِ، ومرّ ببطءٍ من أمام الغرفة حيث تختبئ.

كانت أبواب الخزانة من نوع ستائر البندقيّة، يدخل الضوء من ثغراتها الضئيلة. لم يكن ضوءًا ينير كلّيًّا، وكلّما اقترب الغروب أظلمت الغرفة أكثر وأكثر. لا يُرى من ثغرات باب الخزانة إلّا السجّاد المفروش على الأرضيّة. وداخل الخزانة ضيّق، وممتلئ بالرّائحة النفّاذة للمواد الحامية من العثّة.

وكان محاطًا بالحيطان وليس هناك أيُّ منفذٍ للهرب، الأمر الذي جعلها تخاف كثيرًا.

لقد قال لها الكومنداتور: عندما يحين الوقت سآتي لاصطحابكم. ليس أمامها إلَّا تصديقُ كلامه والانتظار؛ ثمَّ إنَّه قال: «الملابس ستحميكم»، وهو يقصد الملابس الموجودة في هذه الخزانة. الملابس القديمة التي كانت ترتديها امرأةٌ مجهولة قبل أن تولد مارية. لماذا تحميني مثل هذه الملابس؟ مدَّت مارية يديْها ولمست طرفَ فستانٍ مرسومٍ بالورود بجانبها. كان القماش الورديّ ليّنًا ورقيق الملمس. ظلَّت ممسكة به برفق، إذ كان قلبها يستريح بمجرّد لمسها تلك الملابس، ولم تعرف سببًا لذلك.

قالت مارية لنفسها: ربّما أستطيع ارتداء هذا الفستان إن رغبتُ. فليس هناك اختلافٌ كبيرٌ بين طول قامة تلك المرأة وطول قامتي. وليس هناك أيّةُ غرابةٍ لو ارتديتُ فستانًا مقاس خمسة. بالطبع يجب تدبير أمر الصدر بسبب عدم نهود ثدييّ. ولكنْ إن رغبتُ في ذلك، أو كان هناك ما يضطرّني إلى ذلك، فسأبدّل الملابس الموجودة هنا بملابسي. عندما فكّرتْ بذلك رقص قلبها فرحًا.

مرَّ الوقت، والغروب يقترب لحظةً بلحظة، فيزداد الظلام شيئًا فشيئًا في الغرفة. نظرت مارية إلى ساعة يدها. لكنّها لم ترَ الأرقام بسبب الظلام. فأضاءت الميناء بالضغط على زر الإضاءة. كان الوقت يقترب من الرابعة والنصف. ويُفترض أنَّ الشمس توشك على الغروب. فاليوم يَقْصرُ بشكلٍ متسارع. وعندما يحلّ الظلام سيخرج منشكي إلى التّراس. وعندها سيفطن على الفور أنَّ أحدًا قد اقتحم بيته. يجب الذهاب إلى التّراس وتسوية أمر الحذاء والمنظار.

ظلَّت مارية تنتظر مجيء الكومنداتور لاصطحابها، وكان قلبها يخفق. لكنّه لم يظهر. ربّما لا تسير الأمور على ما يُرام. ربّما لا يعطيه منشكي أيّ

ثغرة يمكن استغلالها. ثمَّ إنَّها لا تستطيع تقديرَ مدى القوّة التي يمتلكها الشخص المدعوّ الكومنداتور ـ أو المدعوّ «فكرة» ـ على أرض الواقع، وإلى أيِّ مدى يمكن أن تعتمد عليه. ولكنْ ليس أمامها الآن إلّا الاعتماد عليه. جلست مارية على أرضيّة الخزانة، تحيط ركبتيْها بذراعيْها وتتأمّل السجّاد في أرضيّة الغرفة من خلال فتحات باب الخزانة. ومن حينٍ لآخر، تمدُّ يدها إلى طرف الفستان وتُمسكه برفق. وكأنّه طوْقُ النجاة الأهمّ بالنّسبة إليها.

وفي الوقت الذي ازداد الظلام داخلَ الغرفة، سمعت صوتَ الأقدام في الممرّ مرّةً ثانية. كان صوتُ أقدامٍ ليّنة تمشي ببطء. وصلت تلك الأقدام بجانب الغرفة التي تختبئ فيها مارية، ثمّ توقّفت فجأةً. وكأنّها شمّت رائحةً ما. مرّ بعض الوقت، ثمّ سمعتْ صوتَ باب الغرفة ينفتح. باب هذه الغرفة. لا ريب في ذلك. تجمّد قلبها من الخوف، وكاد أن يتوقّف عن النبْض. ثمّ دخل الشخص الغرفة (منشكي على الأرجح، إذ ما من أحدٍ غيره في البيت)، وأغلق الباب خلفه ببطء. الرجل في الغرفة نفسها، لا شكَّ في ذلك. كان مثلها تمامًا يكتم أنفاسه، ويصغي بأذنيْه، ويبحث عن طيفٍ ما. عرفتْ ذلك لأنّه لم يضئ الغرفة، بل ظلّ يحدّق بعينيْه تحت الظلام. لِمَ لا يشعل النور؟ أليس من المعتاد أنَّ أوّل ما يفعله المرء إذا دخل غرفةً مظلمة أن يضيء النور؟ لم تفهم مارية السّبب!

حدّقتْ في أرضيّة الغرفة من خلال فتحات باب الخزانة. يُفترض أنّها تستطيع رؤيةَ قدمِ الشخص إذا اقترب منها. ولكنّها لم ترَ شيئًا بعد. إنّما هناك طيْفُ شخصٍ في الغرفة. طيفُ رجل. ويبدو أنّه يُحدّق مليًّا في باب الخزانة وسط الظلام. يشعر بوجود شيءٍ ما هناك. شيءٍ ما داخل الخزانة يجعلها تختلف عمّا هي عليه في العادة. قد يفتح بابها كخطوةٍ تالية. فلا يُمكن

التّفكير أن يفعل شيئًا آخر. وذلك في منتهى السّهولة، لأنّه ليس مقفلًا. يكفي أن يمدّ يده ويجذب مِقبَض الباب ناحيته.

اقترب صوت الأقدام منها. اجتاحها رعبٌ عنيف، وانساب عرقٌ باردٌ من تحت إبطيْها على شكل خطّ رفيع. قالت في نفسها: ما كان ينبغي لي المجيء إلى هذا المكان. كان عليَّ أن أقرّ في بيتي مطيعةً. في البيت الذي أحِنُّ إليه، في الجانب المقابل من الوادي. ففي هذا المكان شيءٌ مُخيفٌ لا ينبغي الاقتراب منه بهذا الطَّيْش. فثمّة إحساسٌ أنَّ هذا المكان يملك وعيًا. وعلى الأرجح أنَّ الدبُّور الذي ظهر كان أيضًا يطير بناءً على ذلك الوعي. يحاول ذلك الشيء أن يمدَّ إليَّ يده مباشرة. بدت مقدِّمة القدم من فتحات باب الخزانة. قدمٌ ترتدي ما يبدو أنّه خُفٌّ منزليٌّ بنّيّ اللّون من الجلد. لكنّها لم تتمكّن من رؤية أبعد من ذلك بسبب شدّة الظلام.

مدّت يدها فطريًّا وأمسكت بطرف الفستان المعلّق بجوارها بكلّ ما في يدها من قوّة. الفستان مقاس خمسة ذي التّصميم الورديّ. ثمّ دعت من كلّ قلبها قائلةً: أرجوك أنقذني، أرجوك احمني بأيّ طريقة.

وقف الرجل لوقتٍ طويل أمام باب الخزانة ذي المصراعيْن. لم يصدر عنه أيُّ صوت، كاتم الأنفاس أيضًا. ظلّ بلا حراك وكأنّه تمثالٌ قُدّ من صخر، يراقب الوضع هناك. يسيطر على المكان صمتٌ ثقيلٌ وظلامٌ يزداد عمقًا. ارتعش جسد مارية المكوّر على نفسه، واصطكّت أسنانها مُصدرةً صوتًا خافتًا. أرادت إغماض عينيْها وسدّ أذنيها. أرادت أن تُلقي بأفكارها في مكانٍ بعيد، لكنّها لم تفعل. شعرت أنّه لا يجوز أن تفعل. يجب ألّا تجعل الرُّعب يسيطر عليها مهما كان مهولًا. يجب ألّا تعدم حواسّها. يجب ألّا تفقد أفكارها. لذا فتحت عينيْها على وسعهما وأصخت السّمع، وظلّت تحدّق في مقدّمة تلك القدم، وهي تقبض بقوّة على قماش الفستان الورديّ الرّقيق وكأنّها تتعلّق به.

أَمنت مارية بشدَّة قائلةً إنَّ الملابس ستحميني. الملابس الموجودة هنا ستقف في صفّي. ستلتفّ حولي جميع الملابس التي هنا، من مقاس 5 و23 سنتيمترا و65C، وتتجمَّع لتحميني، وستجعل وجودي شفّافًا. فأنا لستُ هنا. أنا لستُ هنا.

لا تعرف كم مضى من الوقت. لم يكن الوقت متجانسًا هناك، ولا يسير حتى في تسلسله الطبيعيّ. ومع ذلك، بدا أنَّ جزءًا من الوقت قد مضى. في نقطةٍ محدَّدة من الزمن، مدَّ الرجل يده، وأمسك بمقبض باب الخزانة محاولًا فتحه. أحسَّت مارية بهذا الطيْف المؤكَّد. كانت على أهبَّة الاستعداد. فإذا فتح الباب رآها ورأته. فما الذي سيحدث حينها؟ لم تستطع الإجابة على هذا التساؤل. قد لا يكون الرجل منشكي. طرأت تلك الفكرة على ذهنها للحظة. فمَن يكون إذن؟

لم يفتح الرجل الباب في النهاية. تردَّد وسَحَب يده، ورحل من أمام الباب. ولم تعرف مارية لماذا غيَّر رأيه في اللَّحظة الأخيرة. يبدو أنَّ شيئًا ما قد أوقفه. فتح الرجل بابَ الغرفة وخرج إلى الممرّ، ثمّ أغلق الباب. وأصبحت الغرفة خالية مرَّةً أخرى. لا ريب في ذلك. لم تكن لعبة: كانت مارية متأكّدة تمامًا: ما من أحدٍ في هذه الغرفة سواي. أغمضت عينيْها أخيرًا، وأطلقت الهواء المخزون في جسمها بتنهيدةٍ طويلة.

كان خَفَقان قلبها لا يزال سريعًا. لو كان مشهدًا في رواية لوُصف بالقول: يدقّ قلبها مثل إنذار الحرائق. لكنَّ مارية لا تعرف ما دقّات إنذار الحرائق على وجه الدقّة. كان موقفًا خطيرًا حقًّا. يبدو أنَّ شيئًا ما حماني في اللَّحظة الأخيرة فعلًا. ورغم أنَّ المكان خطيرٌ جدًّا، فقد شعر الشَّخص بطيفي في الغرفة. لا يُمكن الاختباء هناك دائمًا. هذه المرَّة مضت بسلام، لكن هذا لا يعني الأمان الدائم.

لكنّها ظلّت تنتظر. ازداد وطءُ الظلام في الغرفة وظلّت تنتظر، وتلتزم صمتها متحمّلةً القلق والرُّعب. لا يُفترض أنّ الكومنداتور نَسِيَها. لقد صدّقته مارية، بل لم يكن أمامها إلّا أن تصدّق ذلك الشخص الصغير الحجم الذي يتحدّث بطريقةٍ غريبة.

وعندها، انتبهت إلى أنّه بجوارها.

قال لها الكومنداتور وكأنّه يهمس: «اخرجوا من هنا. هذه أفضل فرصة للخروج. هيّا، انهضوا».

احتارت مارية. ظلّت جالسة على الأرض ولم تستطع النهوض. فحين حانت فرصةُ الخروج من الخزانة، اجتاحها رعبٌ جديد. ربّما ينتظرها شيءٌ أكثرُ رعبًا في العالم خارج تلك الخزانة.

قال الكومنداتور: «السيّد منشكي يستحمُّ الآن. إنّه كما رأيتم محبٌّ للنظافة، وسيقضي وقتًا طويلًا في الحمّام. لكنّه لن يظلّ هناك إلى الأبد بالطبع. الآن هي الفرصة الوحيدة. أسرعوا».

استجمعت مارية قواها واستطاعت النهوض بصعوبة. دفعت باب الخزانة وفتحته. كانت الغرفة خاليةً وغارقةً في ظلامٍ حالك. قبل أن تخرج، التفتت إلى الوراء وألقت نظرةً أخرى على تلك الملابس المتدلّية. ثمّ استنشقت هواءَ الخزانة، وشمّت رائحةَ موادّ الحماية من العثّة. لعلّها آخر مرّة ترى فيها تلك الملابس. ولسببٍ غامض، كانت تشعر بالقرب والحنين إلى تلك الملابس.

قال لها الكومنداتور: «هيّا يجب أن تسرعوا. ليس هناك متّسعٌ من الوقت. اخرجوا إلى الممرّ وانعطفوا يسارًا».

علّقت مارية حقيبتها على كتفها، وفتحت باب الغرفة، وخرجت. توجّهت في الممرّ يسارًا، وهرعت صاعدةً السُّلّم إلى غرفة المعيشة. قطعت

ذلك الطابق الواسع بالعرض، وفتحت الباب الزجاجيّ المطلّ على التّراس. ربّما ما يزال الدبُور موجودًا هناك. وربّما متوقّفٌ عن نشاطه، لأنّ المكان غارقٌ في ظلامٍ تامّ. لا، ربّما لا يعبأ بشأن الظلام. ولكنْ لا وقت للتّفكير. خرجتْ إلى التّراس، أدارتِ المسمار الحلزونيّ وفصلت المنظار عن قاعدته، ووضعته في جرابه الذي كان فيه. ثمّ طوت القاعدة وأسندتها إلى الحائط كما كانت سابقًا. استغرق ذلك وقتًا أطول ممّا قدّرت، لأنّ التوتّر أفقدها السّيطرة على أصابع يديْها. ثمّ التقطت حذاءها الأسود الذي بلا رباط من أرضيّة التّراس. كان الكومنداتور جالسًا على المقعد العالي يراقب الوضع. لم يكن الدبُور موجودًا في أيّ مكان، فتنفّستْ مارية الصعداء.

أومأ قائلًا: «هذا جيّد. ادخلوا البيت وأغلقوا البابَ الزجاجيّ. ثمّ اذهبوا إلى الممرّ، واهبطوا السُّلّم إلى الطابق الثاني».

أهبط السُّلّم إلى الطابق الثاني؟ معناه أنّني سأتوغّل في أعماق هذا البيت. أليس عليّ الهروب من هذا المكان؟

قرأ الكومنداتور ما طرأ على ذهنها، وقال وهو يهزّ رأسه: «لا يُمكن الهروب من هذا المكان الآن. البوّابة الخارجيّة مغلقة بإحكامٍ شديد. ليس أمامكم إلّا الاختباء لفترةٍ من الوقت. من الأفضل لكم حاليًا أن تفعلوا ما أقوله لكم».

لم يكن في وسعها إلّا أن تثق في كلامه. لذا خرجت من غرفة المعيشة وهبطت طابقيْن على السلالم وهي تتسلّل، كيلا تصدر أيّ صوت.

في الطابق الثاني تحت الأرض، هناك غرفةٌ مخصّصةٌ للخادمة، متّصلةٌ بغرفة الغسيل، وبجوارها غرفة الخزين. وفي نهاية الممرّ، غرفة التدريبات الرّياضيّة بما تحتويه من أجهزةٍ ومعدّات. أشار الكومنداتور إلى غرفة الخادمة، وقال: «عليكم بالاختباء بعض الوقت في هذه الغرفة.

فلن يدخلها السّيّد منشكي مطلقًا. إنّه ينزل إلى هذا الطابق مرّةً في اليوم للغسيل والتّمرين، لكنّه لا ينظر إلى غرفة الخادمة كلّ مرّة. لذا إن بقيتم في هدوء لن يعثر عليكم. في الغرفة حمّامٌ ملحق، وكذلك ثلّاجة. وفي غرفة الخزين كمّيّات كافية من المياه المعدنيّة والأطعمة، تحسّبًا لحدوث زلازل. لذا لن تموتوا من الجوع. يمكنكم قضاءُ أيّامٍ بحالها هنا بلا قلق».

قضاء أيّام؟ سألت مارية (من دون أن تنطق ذلك بلسانها) باندهاشٍ وهي تُدلّي حذاءها من يدها. سأظلّ هنا لأيّام؟؟

قال الكومنداتور وهو يهزُّ رأسه: «مؤسف، لكنّكم لن تستطيعوا الخروج من هنا على الفوْر. فحراسة هذا المكان صارمة، ومراقبٌ بشدّة. وفي هذه الحال، لا يُمكنني فعل شيء. للأسف، هناك حدودٌ للقدرات المُعطاة للفكرة».

سألتْ مارية بصوتٍ خفيض: «إلى أيّ مدى سيطول الأمر؟ عليّ العودة للبيت سريعًا. ستقلق عمّتي وربّما تتّصل بالشرطة للإبلاغ عن أنّني مفقودة، ولا يُعرف مصيري. وإن حدث ذلك سيتعقّد الأمر جدًّا».

هزَّ الكومنداتور رأسه، وقال: «للأسف، من الصّعب عليّ فعل شيءٍ إزاء ذلك. ما من سبيلٍ إلّا الانتظار هنا من دون حركة».

«هل السّيّد منشكي رجلٌ خطير؟»

«تلك مشكلةٌ يصعب شرحها» قال، واتّخذتْ ملامحُ وجهه تعبيراتٍ متجهّمةً جدًّا، وأضاف: «السّيّد منشكي ليس شرّيرًا مطلقًا. بل ربّما كان شخصًا صالحًا يمتلك قدراتٍ عاليةً عن الناس العاديّين. لا يُمكن إغفال الجزء الفاضل فيه. وفي الوقت نفسه، ثمّة فجوةٌ في قلبه، مساحةٌ فارغة تجعل ثمّة احتماليّةً لاستدعاء الشرور والمخاطر. وتصبح تلك مشكلة».

ولم تفهم مارية بالطبع ماذا يعني، وخاصّة بقوله: الشرور والمخاطر.

سألته: «هل الشخص الذي وقف أمام الخزانة هو السيّد منشكي؟»

«كان هو السيّد منشكي، وفي الوقت نفسه لم يكن هو».

«وهل يدرك السيّد منشكي نفسه هذا الأمر؟»

«على الأرجح. على الأرجح. لكنّه عاجزٌ عن فعل أيِّ شيءٍ حيال هذا».

شرور ومخاطر؟ فكّرت مارية أنّ الدبّور الذي رأته هو أحد أشكال تلك المخاطر.

فقرأ الكومنداتور ما خطر في ذهنها، وقال: «بالضبط. أرجو منكم الحذر جيّدًا من الدبابير. إنّه كائن مميت على أيِّ حال».

«مميت؟»

شرح لها الكومنداتور الكلمة قائلًا: «أيْ بمعنى أنّه يؤدّي إلى الموت في بعض الحالات. ليس في وسعكم إلّا البقاء هنا بالتزام الهدوء. إن خرجتم من هذه الغرفة فسوف يتأزّم الوضع».

كرّرت مارية كلمة «مميت» في ذهنها. وأحسّت بصدى مشؤومٍ في هذه الكلمة.

فتحت باب غرفة الخادمة ودخلتها. كانت مساحتها أوسع قليلًا من خزانة ملابس غرفة منشكي. وفيها مطبخٌ صغير، فيه ثلّاجةٌ وموقدٌ كهربائيٌّ وفرن ميكروويف صغير الحجم وصنبورُ ماء وحوض. وهناك غرفة استحمامٍ صغيرة، وسريرٍ أيضًا. كان السّرير عاريًا تمامًا، ولكنْ ثمّة فرشٌ وبطّانيّة ووسادة في رفوف خزانة الغرفة. وهناك طاولةٌ يمكن تناول الوجبات البسيطة عليها. ولكنْ لا وجود إلّا لمقعدٍ واحد. والنافذة الصّغيرة تطلّ على الوادي، أمكنها رؤيته من بين الستائر.

قال الكومنداتور: «إن كنتم ترغبون ألّا يعثر عليكم أحد، ليس أمامكم إلّا البقاء هنا بهدوء من دون إصدار أيِّ صوت. هل فهمتم؟»

أومأت مارية.

فقال: «إنّكم فتاةٌ شجاعة. ربّما كان بكم بعض التّهوُّر، إلّا أنّه لديكم شجاعة. وهو أمرٌ جيّد في الأساس. ولكنْ طالما كنتم هنا، يجب الحَذَر كثيرًا. أرجو منكم عدم التهاون، لأنَّ هذا المكان يختلف عن غيره من الأماكن العاديّة هنا وهناك. تتسكّع فيه أشياء مزعجة».

«تتسكّع؟»

«بمعنى تدور وتطوف بلا هدف».

أومأت مارية. بالطبع، كانت تريد أن تعرف «كيف يختلف هذا المكان عن غيره من الأماكن العاديّة هنا وهناك»، وتريد أن تعرف أكثر عمّا هي الأشياء المزعجة التي تتسكّع هنا. إلّا أنّها لم تستطع أن تسأل ذلك كما ينبغي. فما تجهله كثير جدًّا، ولم تعلم من أين تبدأ.

قال الكومنداتور وكأنّه يبوحُ لها بسرّ: «ربّما لا أستطيع أن آتي إلى هنا مرّةً أخرى. فثمّة مكانٌ عليّ الذهاب إليه الآن، وثمّة عملٌ آخر عليّ القيام به. أمرٌ في منتهى الأهمّيّة. لذا أعتذر بشدّة، لا يبدو أنّني سأستطيع مساعدتكم من الآن فصاعدًا. وليس أمامكم إلّا الهروب من هنا بقوّتكم الذاتيّة بأيِّ طريقة».

«ولكن كيف يمكنني الهروب بقوّتي وحدها من هذا المكان؟»

ضيّق الكومنداتور حدَقَة عينيْه ونظر إليها، وقال: «تصخون السّمع بأذنكم جيّدًا، وتُحدّقون بعينكم، وتجعلون قلبكم حادّ البصيرة. ما من سبيلٍ آخر. بعد ذلك، عندما يحين الوقت، يُفترض أنّكم ستعرفون. آه، هذا هو الوقت المناسب! فأنتم فتاةٌ ذكيّةٌ وشجاعة. من المؤكّد أنّكم ستعرفون، يكفي أن تتيقظوا جيّدًا».

أومأت مارية. عليّ أن أكون فتاةً ذكيّةً وشجاعة.

قال كأنّه يشجّعها: «كونوا بخير»، ثمّ أضاف كأنّه تذكّر فجأةً: «لا تقلقوا، فصدركم سينهد أكثر عمّا قريب».

«وهل سيصل إلى حجمٍ يساعدني على ارتداء حمّالة صدر مقاس 65C؟»

عوج الكومنداتور رأسه كمن وقع في مأزقٍ، وقال: «أنا لستُ أكثر من فكرة. لا أملك معلومات عن مقاسات الملابس الداخليّة النسائيّة. ولكنْ، بأيّ حال، لا شكّ أنّه سيكبر عمّا هو عليه الآن. ولا داعي للقلق، فالزمن سيحلّ كلّ المشاكل. الزمنُ عظيمٌ جدًّا بالنّسبة للأشياء التي لها شكل. الزمنُ غير متاحٍ دائمًا، لكنّه في حالة وجوده يُظهِر نتائجَ جيّدة. لذا ما عليكم سوى الانتظار».

قالت مارية له «شكرًا». كان خبرًا مفرحًا بالنّسبة لها بلا أدنى شكّ. وكانت في حاجة إلى شيءٍ مثل هذا يبثّ فيها الشجاعة.

ثمّ اختفى الكومنداتور فجأةً. بالضبط مثل بخارٍ يذوب في الهواء. وبعد أن اختفى من أمام عينيْها، ازداد ثقل الصّمت من حولها. وعندما فكّرت أنّها لن تستطيع لقاءه مرّةً أخرى أحسّت بالوحدة. ما من أحدٍ تعتمد عليه. نامت مارية على السّرير العاري، وراحت تتأمّل السّقف. كان منخفضًا وأُلصقت عليه ألواحٌ من الجصّ. وهناك مصباحٌ من النيون في المنتصف تمامًا. ولكنّها لم تشعله بالطبع، لا يمكن لها أن تضيء الغرفة.

تُرى كم من الوقت سأضطرُّ إلى البقاء هنا؟ المساء يقترب حثيثًا. إن لم أعد إلى البيت قبل السّابعة والنصف، فمن المؤكّد أنّ عمّتي ستتّصل بفصل تعليم الرّسم، وستعرف أنّني تغيّبت عن الدرس اليوم.

عندما فكّرت مارية في ذلك شعرت بقلبها ينقبض.

لا شكَّ أنَّ عمَّتي ستقلق عليَّ بشدَّة، وتفكِّر تُرى ما الذي حدث لي. عليَّ إبلاغُها أنّي بخير بأيِّ طريقة. وعندها تذكَّرت أنَّها تحمل الهاتف الجوَّال في جيب معطفها، لكنَّها كانت تُغلقه دائمًا.

أخرجته من جيب المعطف، وضغطتْ على زرّ التشغيل. فظهرت على شاشته عبارة «البطَّارية غير كافية». ثمَّ انطفأت الشاشة مباشرةً. لقد نسيت أن تشحن بطارية الهاتف منذ فترةٍ طويلة (لم تكن تحتاج إلى الهاتف احتياجًا يوميًا، ولا هي تكنّ اهتمامًا تجاه تلك الآلة)، فليس من الغريب أن تنضب البطَّارية، ولا يُمكنها أن تشتكي من ذلك.

تنهَّدت تنهيدةً عميقة. كان عليها أن تشحن بطارية الهاتف من حينٍ لآخر، لأنَّها لا تعلم ما الذي يُمكن أن يحدث. ولكنْ لن يفيد هذا الكلام بشيءٍ الآن. أعادت الهاتف الجوَّال الذي لفظ أنفاسه الأخيرة إلى جيْب المعطف. ثمَّ تذكَّرت شيئًا ما فجأةً، فأخرجته ثانيةً. لا وجود لتميمة البطريق التي تعلِّقها بالهاتف دائمًا. البطريق الذي حصلت عليه كهديَّةٍ مجّانيَّةٍ من محلّ دونتس بعد أن ادّخرت النقاط المطلوبة، وظلَّت لفترةٍ طويلة تتَّخذه تميمةَ حمايةٍ لها. على الأرجح أنَّ رباطه انقطع. تُرى أين وقع منها؟ ليس لديْها أيُّ فكرة، إذ إنَّها لا تُخرج الهاتف من جيبها كثيرًا.

أحسَّت بالقلق إزاء فقدان تلك التميمة الصَّغيرة. ثمَّ تمعَّنت بالأمر وغيَّرت رأيها. لعلّي نسيت تميمة البطريق سهوًا في مكانٍ ما. وفي المقابل، أصبحتْ ملابسُ الخزانة تميمةَ حمايةٍ جديدة، وأنقذتني. وكذلك فإنَّ الكومنداتور ذا الحجم الصغير الذي يتكلَّم بطريقةٍ غريبة، قادني إلى هنا. لا أزال محميَّةً بواسطة شيءٍ ما. عليَّ أن أكفَّ عن القلق لضياع تميمة البطريق.

كانت مارية تحمل في جيبها حافظةَ نقود، ومنديلًا وكيسَ النقود المعدنيَّة ومفتاحَ البيت وعلكةَ النعناع الذي تبقَّى نصفها. وتحمل في حقيبة

الكتف أدواتِ الكتابة والقراطيس وعددًا من الكتب الدراسيّة. ما من شيءٍ يمكن الاستفادة منه.

خرجتْ من غرفة الخادمة متسلّلةً، وفحصت محتويات غرفة الخزين. كما قال الكومنداتور، تمّ تخزين كمّيّاتٍ كافيةٍ من أطعمة الطوارئ تحسّبًا لوقوع زلزال. إنّ القاعدة الأرضيّة لهذه المنطقة الجبليّة من أوداوارا مستقرّة نسبيًّا، ويُفترض أنّ أضرار الزلازل ليست كبيرة. فعندما حدث زلزال كانتو الكبير عام 1923 أصيبت مدينة أوداوارا بأضرارٍ بالغة، إلّا أنّ هذه المنطقة اقتصرت على أضرارٍ ضئيلة جدًّا نسبيًّا (سبق لها أن أجْرت بحثًا في العطلة الصيفيّة في إحدى سنوات المرحلة الابتدائيّة عن حالة الأضرار التي وقعت في محيط مدينة أوداوارا أثناء زلزال كانتو الكبير). ولكن بعد الزلزال مباشرةً، شحّ الطعام والماء. خاصّةً في المناطق ـ أعلى الجبال مثل هذه. لذا يعمد منشكي لتخزين الأطعمة تحسّبًا لوقوع زلازل. إنّه إنسانٌ حذرٌ في كلّ شيء.

أخذتْ من غرفة الخزين زجاجتيْن من المياه المعدنيّة وعلبة بسكويت وقطعة شوكولاتة، ثمّ عادت إلى غرفة الخادمة. يُفترض أنّه لن يلاحظ فقدان تلك الكمّيّة البسيط. فمهما كان حذرًا، لن يُحصي زجاجات المياه المعدنيّة بالعدد. كانت مارية تحرص على عدم الشرب من الصنبور قدر الإمكان. فهي لا تعرف ما الصوت الذي ستحدثه المياه عند خروجها من الصنبور. وعملًا بوصيّة الكومنداتور: يجب ألّا تصدروا صوتًا قدر الإمكان. يجب الحذر.

قفلت مارية باب الغرفة من الداخل. لا بدّ أنّ منشكي معه المفتاح، ولكنّها قد تكسب بعض الوقت، وتطمئنُّ نفسيًّا بذلك على الأقلّ.

لم تكن لديْها شهيّةٌ للأكل، لكنّها قضمت من البسكويت، وشربت من الماء. كان البسكويت عاديًّا جدًّا والماء كذلك. تفحّصت الأغلفة، فكان كلٌّ منهما في نطاق فترة الصلاحيّة. حسنًا لن أموت جوعًا في هذا المكان.

أظلم اللّيل تمامًا. فتحت مارية ستائر النافذة قليلًا وألقت نظرةً على الجانب المقابل من الوادي. أمكنها رؤية بيتها هناك. لم تستطع رؤية ما في داخله لعدم وجود منظار، لكنّها رأت الأنوار مضاءةً في عدّة غرف. ورأت ظلّ الأشخاص حين ضيّقت حَدَقَة عينيْها. يُفترض أنّ عمّتها هناك وفي غاية القلق عليها، لأنّها لم تَعُد في موعدها. ألا يمكن الاتّصال بها من مكانٍ ما؟ لا بدّ من وجود هاتفٍ منزليّ في هذا البيت. يكفي أن تقول لها بإيجاز: «أنا بخير لا تقلقي عليّ» ثمّ تغلق. إن أنهت المكالمة بسرعة، لن يلحظ منشكي شيئًا. لكنّها لم تجد هاتفًا في الغرفة ولا في الجوار.

ألا يمكن الهروب من هنا أثناء اللّيل، تحت جنح الظلام؟ العثور على سلّم وتخطّي الأسوار والهرب؟ تذكّرت أنّها لمحت سلّمًا قابلًا للطيّ في كوخ أدوات الحديقة. لكنّها تذكّرت قول الكومنداتور: حراسة هذا المكان صارمة، ومراقبٌ بشدّة. هذا يعني ما هو أكثر من جَرَس إنذار.

من الأفضل أن أثق بما قاله الكومنداتور، هكذا فكّرت مارية. فهذا المكان ليس عاديًّا. إنّه مكانٌ تتسكّع فيه أشياء متنوّعة. يجب أن أبقى على حذرٍ بالغ. يجب أن أتحمّل وأصبر. لن أستهتر بالأمور ولن أطيش. سأبقى هنا أراقب الوضع بهدوء، كما قال الكومنداتور. وأنتظر الفرصة.

عندما يحين الوقت، يُفترض أنّكم ستعرفون. آه هذا هو الوقت! فأنتم فتاةٌ ذكيّةٌ وشجاعة. من المؤكّد أنّكم ستعرفون.

أجل، يجب أن أكون فتاةً ذكيّةً وشجاعة، وأن أعيش أكثر لأرى صدري ينهد أكثر من ذلك.

هكذا فكّرتْ وهي راقدةً على السرير العاري من فرشه. كان الظلام يطغى على المكان، ويوشك على ابتلاعه.

ـ 62 ـ
كالدُّخول في متاهةٍ معقَّدة

يمرُّ الوقتُ من دون أيِّ اعتبار لإرادة مارية بل طبقًا لمنطقه هو. كانت ترقد على السرير، تراقب الوقتَ وهو يمرّ أمام عينيْها بخطواتٍ ثقيلةٍ متباطئة ثمّ يمضي بعيدًا. ما من شيءٍ تفعله، ففكّرت من الأفضل لو أنّها قرأت كتابًا، فلم تجد أيَّ كتابٍ بالقرب منها، وحتى لو وجدت، لم يكن بإمكانها إشعال الضوء لتقرأه. ليس أمامها إلّا الثباتُ بلا حركة تحت الظلام. لقد عثرتْ في غرفة الخزين على مصباحٍ يدويّ وبطاريّات احتياطيّة، لكنّها كانت حريصةً على عدم تشغيله أيضًا.

تعمّق اللّيل أخيرًا، وشعرت مارية بالنُّعاس. كانت تخشى أن تنام في مكانٍ لا تعرفه، وتودّ لو تظلّ مستيقظةً على الدّوام إن استطاعت. لكنّها في لحظةٍ معيّنة، غامرها النُّعاس فلم تستطع تحمُّله، ولم تَعُد قادرة على فتح عينيْها. ولأنَّ السرير كان باردًا فقد سحبت اللّحاف والفراش من الرفّ، ولفّت بهما نفسها تمامًا مثل الكعكة الملفوفة. وأغمضت عينيْها. لم يكن في الغرفة مدفأةٌ، ومن المستحيل تشغيل المُكيّف. (عليَّ أن أتدخّل هنا لأكتب هامشًا يتعلّق بمرور الوقت: بينما كانت مارية نائمة، خرج منشكي من البيت وجاء إلى بيتي. وبات اللّيل عندي ثمّ عاد إلى بيته في الصباح التالي. لم يكن منشكي في بيته تلك اللّيلة إذن. ولا بدَّ أنَّ البيت كان خاليًا، لكنَّ مارية لم تكن تعلم ذلك).

استيقظت مارية مرّةً في اللّيل وذهبت إلى المرحاض، لكنّها في ذلك الوقت لم تستخدم المياه. ربّما يختلف الأمر بالنهار، لكنّ صوت ماء المرحاض في ليلةٍ هادئة يُسمَعُ جيّدًا. ولم يكن منشكي الحَذِر إلّا لينتبه إلى الصوت. فلا داعي للمجازفة.

نظرتْ في ساعة يدها، كان الوقت يشير إلى الثانية من صباح يوم السبت. مرّ يوم الجمعة. نظرت من خلال فُتحة الستائر تجاه بيتها خلف الوادي، كانت الأنوار ما تزال مضيئةً في غرفة المعيشة. لن يستطيع أهلي ـ أي أبي وعمّتي ـ أن يناما وأنا لم أعد إلى البيت وقد تخطّت الساعةُ منتصف اللّيل. ندمتْ مارية على فعلتها، وأحسّت بالأسف نحو والدها (وهو أمرٌ نادر). ما كان ينبغي لها أن تتهوّر إلى تلك الدّرجة، لاسيّما أنّها لم تكن تنوي ذلك! لكنّها تصرّفت بما تمليه مشاعرها فأدّى ذلك إلى هذه النتيجة.

لكنّ النّدم ولوم الذات لن يجعلاها تطير وتعبر الوادي وتعود إلى بيتها. فجسمها يختلف عن الغربان. لم يُخلَق ليطير في السماء. وكذلك لا يستطيع الاختفاء من جهةٍ والظهور من جهةٍ أخرى كالكومنداتور. فهي بليدةٌ ومسجونةٌ في جسدٍ لا يزال في طور النمو، مقيّدةٌ بشروط المكان وظروف الزمان. حتى إنّ ثدييْها لم ينهدا بعد. ما يزالان كعكةَ خبزٍ فاشلة.

كانت خائفةً وهي وحيدةٌ تحت ظلام اللّيل. وكانت بالطبع تشعر بضعفها إلى حدّ الألم. وتمنّت لو أنّ الكومنداتور بجانبها. لديْها تساؤلات كثيرة، تودُّ أن يُجيبها عنها. ولا تعلم إن كان سيردّ عليها أم لا. لكنّها على الأقل تستطيع التّحدُّث معه، رغم طريقة كلامه الغريبة جدًّا مقارنةً باللُّغة اليابانيّة المعاصرة، لكنّها كانت تفهم معنى ما يقول. لن يظهر الكومنداتور لها ثانيةً. لقد قال لها: «هناك مكانٌ عليّ الذهاب إليه الآن، وهناك عملٌ آخر عليّ القيام به». أحسّت مارية بالوحدة.

سمعتْ صوتًا عميقًا لطيور اللّيل خارج النافذة. بومةٌ عاديّةٌ أو بومةٌ فرناء. ذلك النوع من الطيور يُخفي هيئته في ظلام اللّيل، ويُعمِل حكمته. عليّ أنا أيضًا أن أُعمِل حكمتي وألّا أكون أقلّ منها. يجب أن أكون فتاةً ذكيّةً وشجاعة. لكنّ النُّعاس اجتاحها مرّةً أخرى، فالتحفت باللّحاف والبطّانيّة ورقدت على السّرير ثمّ أغمضت عينيْها. ونامت نومًا عميقًا بلا أحلام. وعندما استيقظت في المرّة التالية، كان اللّيل قد بدأ ينتهي شيئًا فشيئًا، وعقارب السّاعة تخطّت السادسة والنصف.

لقد استقبل العالم شروق يوم السبت.

قضت مارية يوم السبت كلّه بهدوءٍ في غرفة الخادمة. قضمت من البسكويت وأكلت بضعًا من الشوكولاتة بديلًا عن وجبة الفطور، وشربت المياه المعدنيّة. ثمّ خرجت من الغرفة وذهبت متخفّيةً إلى غرفة الرياضة، وحملت بعض أعداد مجلّة «ناشيونال جيوغرافيك» القديمة المتراكمة هناك، وعادت بها سريعًا (يبدو أنّ منشكي يتدرّب على جهاز الدرّاجة أو يسير على جهاز الخطوات وهو يقرأ هذه المجلّة، فآثارُ عرقِهِ باديةٌ على المجلّات هنا وهناك). ظلّت تقرأها وتعيد قراءتها عدّة مرّات. كانت المجلّة تنشر مقالاتٍ عن معيشة الذئب السيبيري، والأسرار الرّوحانيّة لمراحل اكتمال القمر، وحياة قبائل الإنويت، وغابات الأمازون الحارّة ـ المطيرة التي تتناقص عامًا بعد عامٍ. من المستحيل أن تقرأ مارية مثل تلك المقالات في العادة، ولكنْ بسبب انعدام أشياءٍ أخرى، قرّرت قراءة تلك المقالات بحماس لدرجةِ حِفْظها عن ظهر قلب. وظلّت تتأمّل الصُّور أيضًا حتى أوشكتْ نظراتُها أن تثقب أوراق المجلّة.

كانت تتعب من القراءة، فتغفو على السرير. ثمّ تأمّلتْ بيتها من بين الستائر، وتمنّت لو أنّ المنظار معها. كانت ستستطيع مشاهدةَ ما في الداخل

بالتَّفصيل، وتحرُّكاتِ مَن كان هناك. تمنَّت لو استطاعت العودةَ إلى غرفتها المغلقة بالستائر البرتقاليّة، لتستحمّ حمّامًا ساخنًا، وتغسل كلّ جزءٍ من جسمها وتنظّفه بعنايةٍ بالغة، وترتدي ملابسَ جديدةً، ثمّ تدخل فراشها الدافئ مع قطّتها التي تربّيها.

سمعت في الساعة التاسعة تمامًا صوتَ أحدٍ يهبط درجات السُّلّم ببطء. صوتَ أقدامِ رجلٍ يرتدي خُف البيت. منشكي على الأرجح. طريقته في المشي مميّزة. أرادت أن تنظر إلى خارج الغرفة من خلال ثقب المفتاح، ولكنْ لم يكن في الباب ثقبٌ للمفتاح. جلست على الأرض في الزاوية مكوّرةً جسمها ومتخشّبة. فليس هناك أيُّ مهرب إن فُتح باب الغرفة. لقد قال الكومنداتور إنَّ منشكي لن يدخل الغرفة أغلب الظنّ. ليس أمامها إلّا تصديق كلامه. ولكنْ لا أحد يعرف ما الذي قد يحدث. فليس في هذا العالم شيءٌ واحدٌ مؤكّدٌ بنسبة مئةٍ في المئة. كتمتْ أنفاسَها وقتلتْ طيْفها، وتخيّلت الملابس التي في الخزانة، ورجت ألّا يحدث شيء. كان حلقها جافًا من أعمق أعماقه.

يبدو أنَّ منشكي حَمَل معه الغسيل. إنّه يقوم في هذا التوقيت من صباح كلّ يوم بغسلِ ملابسِ اليوم بأكمله. يضع الغسيلَ في الغسّالة، ثمّ مسحوق التّنظيف، ويلفّ القرص لضبط نسق الغَسْل، ويضغط على زرّ التشغيل. كانت يده معتادةً على تلك السلسلة من الحركات. أصغت مارية إلى صوت تلك الحركات، واستمعت إليها بوضوحٍ يثير الدّهشة. ثمّ بدأت الغسّالة بالدَّوَران ببطء. بعد أن أنجز ذلك، انتقل إلى غرفة الرياضة، وبدأ يتمرّن بالأجهزة. يبدو أنَّ ممارسته الرّياضة أثناء دَوَران الغسّالة تندرج في روتينه اليوميّ كلّ صباح. كان يسمع موسيقى كلاسيكيّة أثناء الرّياضة، من السمّاعات المثبّتة في السقف: موسيقى الباروك، أو باخ، أو هندل، أو

ڤيڤالدي أو ما شابه. لم تكن لمارية معرفةٌ تفصيليَّةٌ بالموسيقى الكلاسيكيَّة، ولا تستطيع التفرقة بين باخ وهندل وڤيڤالدي.

قضت تلك الساعة من الزمن وهي تستمع إلى صوت الغسَّالة الميكانيكيّ، وصوت الأجهزة الرّياضيَّة المنتظم وموسيقى باخ أو هندل أو ڤيڤالدي. وكانت مرتبكة. يبدو أنَّ منشكي لم يلحظ اختفاء أعدادِ مجلَّة «ناشيونال جيوغرافيك»، ونقصًا في زجاجات المياه المعدنيَّة، وعلب البسكويت والشوكولاتة من غرفة الخزين، لأنّها كانت مجرَّد تغييرٍ ضئيلٍ في الكمّيَّة الإجماليَّة. ولكنْ لا أحد يعلم ما الذي قد يحدث. يجب ألا تستهين أو تخفِّف من الحَذَر أبدًا.

وأخيرًا، أطلقت الغسَّالة تنبيهًا وتوقَّفت. جاء منشكي بخطواتٍ وئيدة إلى غرفة الغسيل، وأخرج الغسيلَ من الغسَّالة، ونَقَله هذه المرَّة إلى آلة التجفيف، ثمَّ ضغط على زرّ التشغيل. بدأ وعاء آلة التَّجفيف في الدوران مُصدرًا صوته. بعد أن تأكَّد منشكي من ذلك، صعد إلى الطابق العلْويّ ببطء. أنهى تدريباته الصباحيَّة على ما يبدو، ولا بدَّ أنَّه سيستحمّ مستغرقًا كلَّ وقته.

أغمضت مارية عينيْها، وتنفَّستِ الصُّعداء مطمئنةً. سيعود منشكي إلى هناك بعد ساعةٍ تقريبًا، ليأخذ ملابسه التي جفَّت. ولكنَّ اللَّحظات الخطيرة قد مرَّت. هذا ما أحسَّت به. لم ينتبه منشكي إلى اختبائي في هذه الغرفة. لم يشعر بطيْفي هنا. هذا ما جعلها تطمئنّ.

حسنًا، إن كان كذلك، تُرى مَن الذي وقف أمام باب الخزانة؟ لقد قال الكومنداتور إنَّه السَّيِّد منشكي، وفي الوقت نفسه ليس السَّيِّد منشكي. تُرى ماذا يعني؟! لم تستطع مارية فهم ما حاول الكومنداتور قوله. جملةٌ صعبةٌ جدًّا بالنِّسبة إليّ. لكنَّ هذا الشخص كان يعلم جيِّدًا أنَّها موجودة

(هي أو أحدٌ غيرها) داخل الخزانة. أو شعر بوجود طيْفها على الأقل. لم يفتح الشخص الخزانة لسببٍ ما. تُرى ما هو؟ هل حمتني تلك الملابس الجميلة القديمة حقًّا؟

أرادت مارية أن تستمع لشرح الكومنداتور. لكنّه ولّى إلى مكانٍ مجهول. وما من أحدٍ يفسّر لها الأمر.

وطوال يوم السبت ذاك، لم يخطُ منشكي خطوةً واحدةً خارج البيت. لم تسمع مارية فتح بوّابة المرأب، أو تشغيل محرّك السيّارة. جاء منشكي إلى الطابق السُّفليّ لأخذ الغسيل الذي جفّ، وحَمَله وصعد السُّلّم ببطء. هذا ما فعله فقط. لم يأتِ أحدٌ لزيارة البيت الذي يقع في نهاية الطريق المؤدّية إلى قمّة الجبل. ولم يأتِ ساعي البريد أو خَدَمةُ التوصيل إلى المنازل. ظلّ جَرَسُ المدخل محافظًا على صمته. لكنّها سمعت جَرَسَ الهاتف مرّتيْن. كان صوتًا خافتًا يُسمَع من بعيد، لكنّها استطاعت سماعه. التقط منشكي السمّاعة بعد أن رنَّ الهاتف مرّتيْن في الأولى، وبعد ثلاث رنّات في الثانية (وهكذا عرفت أنّه ما يزال في البيت). صعدت سيّارةُ جمع النفايات التابعة للبلديّة طريق المنحدر ببطءٍ على أنغامِ أغنيةِ «آني لوري»، ثمّ رحلت إلى أسفل ببطء (يوم السبت هو يوم جمع النفايات المنزليّة العادية). لم تسمع مارية أيَّ صوتٍ عدا ذلك تقريبًا. غَرِق البيتُ في صمتٍ عميقٍ أغلب الوقت.

مرّت الظهيرة وجاء العصر، ثمّ اقترب الغروب. (عليَّ أن أتدخّل هنا للمرّة الثانية لإضافة هامشٍ يتعلّق بمرور الوقت: أثناء بقاء مارية مكتومةَ الأنفاس في تلك الغرفة الضيّقة، قتلتُ الكومنداتور طعنًا بالسكّين في مؤسّسة رعاية المسنّين بمرتفعات إيزو، وأمسكتُ بـ «طويل الوجه» الذي أطلّ بوجهه من تحت الأرض، ثمّ نزلتُ إلى العالم السُّفليّ). لم تستطع مارية

إيجاد التوقيت المناسب للهرب. لقد أخبرها الكومنداتور أن تنتظر وتصبر حتى تسنح الفرصة، قائلًا: «عندما يحين الوقت، يُفترض أنّكم ستعرفون. آه.. هذا هو الوقت المناسب!»

ولكنّ ذلك الوقت المناسب لم يَحُن. بدأت مارية تتعب من الانتظار، إذ لم تعتد ذلك. إلى متى عليّ الانتظار كاتمةً أنفاسي في هذا المكان؟

وقبل الغروب بقليل، بدأ منشكي تدريباتِ عزف البيانو. يبدو أنّ نوافذ غرفة المعيشة مفتوحةٌ، فوصل الصوت إلى المكان الذي تختبئ فيها مارية. سوناتا لموتسارت على الأرجح. سوناتا للبيانو من المفتاح الكبير. تتذكّر مارية أنّ النوتة الموسيقية لتلك السوناتا كانت موضوعةً فوق البيانو. وبعد أن عزف تلك الحركات الموسيقيّة البطيئة مارًّا عليها مرورًا عابرًا، كرّر التّدريب على بعض أجزائها مرّةً بعد مرّة. وضبط حركةَ أصابعه كثيرًا حتى وصل إلى حدّ الاقتناع. ويبدو أنّ أذنه لم تكن راضيةً عن بعض المقاطع التي تصعب فيها حركة الأصابع فتصدر صوتًا غير متجانس. لا يمكن القول بصفةٍ عامّة إنّ سوناتات موتسارت صعبةٌ في أغلبها، ولكنْ إن حاول المرء عزفها ببراعة، صارت كالدخول في متاهةٍ معقّدة. وكان منشكي يهوى دخول مثل تلك المتاهة. أصغت مارية إلى خطواته وهو يذهب ويعود داخل المتاهة. استمرّ التّدريبُ لمدّة ساعةٍ واحدة. ثمّ وصل إلى سمعها صوتُ غلقِ غطاءِ البيانو الكبير. استطاعت مارية أن تسمع في صدى ذلك الصوت ما يشبه الغضب. لكنّه لم يكن شديدًا، بل كان غضبًا راقيًا بدرجةٍ لائقة. السّيّد منشكي حتى وهو يعيش وحده تمامًا (أو يظنّ أنّه وحده) في بيته الواسع لا ينسى أن يسيطر على نفسه.

أمّا ما تبقّى، فكان تكرارًا ليومِ أمس. بعد أن غربت الشمس، أظلم المكان وعادت الغربان إلى أوكارها في الغابة وهي تنعق. وأضيئت الأنوار

في البيوت على الجانب المقابل من الوادي تدريجيًا. لم تنطفئ أنوارُ بيت مارية حتى بعد أن انتصف اللّيل. لسببٍ واضحٍ متعلّقٍ بقلق أهلها عليها، أو هذا ما فهمته مارية على الأقلّ. وكان يعزّ عليها عجزها عن فعلِ شيءٍ لطمأنة قلوبهم المتألّمة.

أمّا بيت توموهيكو أمادا، (حيث أقيم) لم تُنر أضواؤه. كأنّه صار مهجورًا تمامًا، فلا مصباحٌ واحدٌ مضاءٌ بعد غروب الشمس. ولا أثرٌ على وجود أحدٍ داخله. عوجت رأسها مندهشةً وهي تقول لنفسها: شيءٌ عجيب! أين ذهب الأستاذ؟ تُرى هل يعلم الأستاذ أنّني غائبةٌ عن البيت؟

شعرت مارية في منتصف اللّيل برغبةٍ شديدةٍ في النوم مرّةً أخرى، فالتحفت باللّحاف والبطّانيّة، ونامت وهي ترتعش مرتديةً معطف الزيّ المدرسيّ. وقبل أن تنام، فكّرت فجأةً أنّ وجود قطّة معها قد يجعلها تدفأ ولو قليلًا. فقطتها في بيتها، لسببٍ ما، لا تصدر أيّ صوتٍ تقريبًا. بل تقرقر بحلقها فقط من حين لآخر. لذا كان يمكنهما الاختباء معًا في هذا المكان. لكنّ القطّةَ ليست هناك بالطبع. ومارية وحيدة إلى أقصى حدّ، محبوسة في غرفةٍ صغيرةٍ مُظلمة، ولا تستطيع الهرب إلى أيّ مكان.

أشرقت شمس يوم الأحد. كانت الغرفةُ لا تزال معتمة. وساعة يدها تشير إلى السادسة. يبدو أنّ النهار يقصر أكثر وأكثر. كانت السّماء تمطر، وأمطار الشتاء هادئةٌ وصامتة. حتى إنّها لم تعرف إن كانت تُمطر إلّا بعد أن رأت قطراتِ الماء تسقط من الأغصان. وكان هواءُ الغرفة رطبًا وباردًا. تمنّت لو أنّها حملت معها سترةً ثقيلة. كانت ترتدي تحت معطف الزيّ المدرسيّ صدريّةً شبكيّةً خفيفة من الصوف وكنزةً من القطن فقط. وتحتها قميصٌ بنصف كم. ملابس تناسب النهار الدافئ. ستكون ممتنّةً لو كان لديْها سترةٌ واحدة من الصوف!

تذكَّرت مارية أنّها رأت سترةً في خزانة تلك الغرفة. سترة من الكاشمير بلونٍ أبيض شاحب تبدو مدفِّئة. تمنَّت لو أنّها تستطيع الصعود إلى الطابق الأعلى وإحضارها. كانت ستشعر بالدِّفء كثيرًا. ولكنْ لا شيء أخطر من الخروج والذهاب إلى الطابق الأعلى! خاصَّة تلك الغرفة. لذا ليس أمامها إلّا الصبر والتَّحمُّل بملابسها تلك. لم يكن البردُ من جهته قارسًا. فهي لم تكن في بيئةٍ قاسية تهبُّ عليها رياحٌ باردة مثل التي تعيش فيها قبائل الإنويت. فنحن هنا في ضواحي مدينة أوداوارا وقد دخل علينا شهر ديسمبر توًّا.

ولكنَّ برد ذلك الصباح الماطر يخترق الجلد، وينخر العظام. أغمضتْ مارية عينيْها، وفكَّرت في هاواي. لقد زارتها وهي صغيرة للسياحة مع عمَّتها وصديقة عمَّتها من أيَّام الدراسة. كانت تستأجر لوحًا صغيرًا في شاطئ وايكيكي وتلعب على الأمواج، وبعد أن تتعب من اللَّعب، تنام على شاطئ الرِّمال البيضاء لتستمتع بحمَّام شمس. كان الجوّ دافئًا جدًّا ويعمّ السَّلام وراحة القلب على كلِّ شيء. يتمايل سعفُ النَّخيل العالي مع الرياح التجاريَّة. وناحية البحر، كانت السُّحب البيضاء تتدفَّق في السماء. شربتْ مارية الليموناضة المثلَّجة وهي تتأمَّل ذلك المنظر، وآلمها صدغُها بسببِ شدَّة برودتها. تذكَّرت ذلك كلَّه بتفاصيله الدَّقيقة. تُرى هل ستستطيع الذهاب إلى ذلك المكان مرَّةً أخرى؟ فكَّرت أنّها مستعدَّةٌ للتضحية بأيِّ شيء مقابل أن تذهب إلى هناك مجدَّدًا.

سمعت مارية في الساعة التاسعة صوتَ الخفّ المنزليّ مرَّةً أخرى، فقد هبط منشكي. ضُغط على زرّ الغسالة، وتدفَّقت الموسيقى الكلاسيكيَّة (هذه المرَّة سيمفونيَّة لبرامز على الأرجح)، واستمرّ التَّدريب البدنيّ على الأجهزة الرياضيَّة لمدَّة ساعة. وتكرَّرت الأفعال نفسها، وليس هناك ذرةُ

اختلاف فيها عدا نوع الموسيقى. ليس هناك أدنى شكّ أنّ قاطن هذا البيت رجلٌ روتينيّ تمامًا. نقل منشكي الغسيل من الغسّالة إلى آلة التّجفيف، وبعد ساعةٍ، عاد ليأخذها. ولم ينزل بعد ذلك إلى الطابق السُّفليّ مُطلقًا، ولم يُبدِ أيَّ اهتمامٍ بغرفة الخادمة. (للمرّة الثالثة، الأمر يحتاج هامشًا منّي. لقد زار منشكي بيتي بعد ظهر ذلك اليوم، وقابل صدفةً ماساهيكو أمادا الذي كان قد جاء لتفقُّد البيت، وتبادل معه حديثًا قصيرًا. ولكنْ لسببٍ مجهولٍ، لم تفطن مارية هذا المرّة أيضًا إلى أنّه خرج من البيت).

ولقد امتنّت مارية لعاداته التي لا تتغيّر، لأنّها كانت تستعدّ نفسيًا، وتضع خططها للحركة بناءً على عاداته. فإنّ أكثر ما يُتعب الأعصاب ويُتلفها هو توالي الأحداث غير المتوقّعة. حفظت مارية نمطَ حياة منشكي عن ظهر قلب وتكيّفت معها. لم يخرج من البيت تقريبًا (على الأقلّ في حدود ما تعلمه مارية). يعمل في غرفة المكتب، ويغسل ملابسه بنفسه، ويَعُدّ وجباته بنفسه، وفي وقت الغروب، يجلس قبالة بيانو شتاينواي ليتدرّب على البيانو. تأتيه أحيانًا اتّصالاتٌ هاتفيّة: بضع مكالماتٍ في اليوم الواحد. يبدو أنّه لا يفضّل المكالماتِ الهاتفيّة. وعلى الأرجح، يقوم بالتواصل الضروريّ المتعلّق بالعمل ـ لا تعرف حجم ذلك التواصل بالضّبط ـ من خلال جهاز الكمبيوتر الذي في غرفة مكتبه.

كان منشكي هو الذي يقوم بنفسه بتنظيف البيت بشكلٍ أساسيّ، لكنّه يطلب خدمة تنظيف البيوت مرّةً واحدة في الأسبوع. تتذكّر مارية أنّها سمعت ذلك من فمه عندما زارت هذا البيت في المرّة السّابقة. لقد قال منشكي إنّه لا يكره القيام بالتّنظيف، وإنّ التّنظيف مثل الطبخ: فرصةٌ جيّدةٌ لتغيير المزاج. لكنّه من المستحيل عمليًا أن ينظّف هذا البيت الواسع بمفرده. لذا كان يستعين بشركةٍ محترفة في التّنظيف. وقال إنّه يترك البيت

لمدّة نصف يوم تقريبًا عندما يأتي عمّال الشركة. فأيُّ يومٍ هو يا ترى؟ قد أتمكّن من الهروب أثناء التّنظيف: سيدخل العمّال بمعدّاتهم من البوّابة، أي ستنفتح البوّابة وتنغلق عدّة مرّات. وكذلك سيغيب منشكي عن البيت لفترةٍ من الوقت. وقد لا يكون صعبًا عليها الخروج. بل ربّما لن أجد فرصةً أخرى للهرب.

ولكنْ، ليس هناك ما يدلّ على اقتراب مجيء عمّال شركة التّنظيف. مرّ يوم الاثنين كيوم الأحد، لم يحدث فيهما شيء. أصبح عزف منشكي لموتسارت أكثر دقّةً مع الأيّام، وأصبح يأخذ شكلًا مكتملًا. إنّه حَذِرٌ جدًّا وفي الوقت نفسه صبور. إن حدّد هدفًا ما، يتقدّم نحو تحقيقه بثباتٍ وبلا تردُّد. لا يمكن إلّا الانبهار به. ولكنْ حتى لو أتقن عزف موتسارت، فإلى أيّ مدى يمكن للموسيقى أن تُمتع القلب؟ فكّرت مارية في هذا السؤال وهي تُصغي إلى الموسيقى التي تصلها من الطابق العلْويّ.

بقيت مارية على قيد الحياة بفضل البسكويت والشوكولاتة والمياه المعدنيّة. وأكلت أيضًا قطعةً من مُكمّلات القيم الغذائيّة مطعّمةً بالمكسّرات. وجرّبت أكل كمّيّةٍ من التونة المعلّبة. لم تعثر على فرشاةٍ للأسنان في أيّ مكان، لذا استخدمت أصابعها في تنظيف أسنانها بالمياه المعدنيّة. وقرأت جميعَ أعدادِ الطبعة اليابانيّة من مجلّة «ناشيونال جيوغرافيك» التي كانت متراكمةً في غرفة التدريبات الرّياضيّة. لقد حصلت مارية على معلوماتٍ كثيرة عن نمر البنغال الذي يأكل البشر، وقِرَدة مدغشقر النادرة، وتغيُّرات الغراند كانيون، واستخراجِ الغاز الطبيعيّ في سيبيريا، ومتوسّطِ أعمار البطاريق في القطب الجنوبيّ، وحياةِ البدو الرُّحّل الذين يعيشون في هضاب أفغانستان، وطقوسِ البلوغ الصعبة التي يجب على الشابّ في أعماق غينيا الجديدة تخطّيها. بل وحصلت على معلوماتٍ أساسيّة عن الإيدز وحمّى الإيبولا.

ربّما تفيدها تلك المعلومات المتنوّعة عن الطبيعة ذات يومٍ بشكلٍ ما، وقد لا تفيدها على الإطلاق. ولكنْ ما من كتبٍ أخرى تقرأها. استمرّت مارية في قراءة الأعداد القديمة من النسخة اليابانيّة من مجلّة «ناشيونال جيوغرافيك» كأنّها تبتلعها ابتلاعًا.

وكانت أحيانًا تضع يدها تحت القميص وتفحص حالة نهود ثدييْها. لكنّهما لم يكبرا بما يرضيها. بل شعرت أنّهما يصغران. وبعد ذلك، فكّرت في الحيْض. أجرت حساباتها، وأدركت أنّه سيأتيها في غضونِ عشرةِ أيّام. لا وجود للمحارم الصحّيّة في أيِّ مكان (هناك ورق التواليت في الخزين الخاصّ بالطوارئ، أمّا المحارم الصحّيّة فلا، وذلك لعدم وجود امرأة في هذا البيت). إن بدأ الحيْض أثناء اختبائي هنا ستكون ورطةً حقيقيّة. وربّما أستطيع الهروب قبل ذلك. ربّما! فمن المستحيل أن أظلّ في مثل هذا المكان عشرة أيّامٍ أخرى.

قبل العاشرة من صباح يوم الثلاثاء بقليل، جاءت أخيرًا سيّارة شركة التّنظيف. سمعتْ مارية صوتَ العاملاتِ المرح يأتي من حديقة البيت وهنَّ ينقلن معدّات التّنظيف من سيّارة النقل. لم يغسل منشكي ملابسه في صباح ذلك اليوم، ولم يتدرّب أيضًا. لم ينزل مطلقًا إلى الطابق السّفليّ. لذا تفاءلت مارية (هناك سببٌ وجيهٌ لكي يغيّر منشكي روتينه اليوميّ). وحدث ما توقّعتْ بالضبط. ركب منشكي سيّارته الجاغوار وغادر البيت إلى مكانٍ ما، فيما كانت سيّارة الفان الكبيرة تدخل.

رتّبت مارية غرفة الخادمة سريعًا، وجمعت زجاجاتِ المياه، وأغلفة البسكويت والشوكولاتة، ووضعتها جميعًا في كيس النفايات. ثمّ أخرجته ووضعته في مكانٍ لافتٍ للنظر. يُفترض أنَّ عاملات التّنظيف سيأخذنه ويتخلّصن منه. طوت البطّانيّةَ واللّحاف كما كانا ووضعتهما في الرفّ. وبذلك أزالت تمامًا كلّ أثر لإقامتها هناك. وبعد ذلك، علّقت الحقيبةَ على كتفها،

وصعدت إلى الطابق العلْويّ خِفْيةً. وقطعت الممرّ في الوقت المناسب بحيث لا تلاحظ عاملات التّنظيف وجودها. خفق قلبها بشدّة عندما فكّرت في الغرفة إيّاها. وفي الوقت نفسه، أحسّت بالحنين إلى الملابس المعلّقة في داخل الخزانة. كانت تريد أن تتأمّلها بتأنٍّ مرّةً أخرى وأن تلمسها بيدها. ولكنْ لا وقت لذلك. عليها أن تسرع.

خرجتْ من باب البيت حريصةً على ألّا يراها أحد، وأسرعت بالجرْي صاعدةً طريق السيّارات المنحني. وكما توقّعت تُركت البوّابة الرّئيسة مفتوحة على مصراعيْها. فلا يعقل أن تنفتح وتنغلقَ مع دخول وخروج أحد العمّال أثناء القيام بالتّنظيف. خرجت مارية من تلك البوّابة بلامبالاة، وتوجّهت إلى الطريق الخارجيّة.

فكّرت في أثناء ذلك: هل يُفترض أن يكون خروجها بهذه السهولة؟ أما كان لها أن تلقى مصاعبَ شديدة؟ شيءٌ يشبه الآلام الرهيبة التي تُفرض على شبّان قبائل غينيا الجديدة في طقس البلوغ التي نشرتها مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»؟ ألا يجب أن يُدمغ جسدُها بوشمٍ ليبقى كعلامةٍ للنجاة؟ مرّت تلك الأفكار في عقلها الباطن بلحظةٍ واحدة، وغمرها شعورٌ بالتحرُّر إذ استطاعت الهرب من هناك.

كانت السّماء ملبّدةً بالغيوم التي توشك على همر المطر البارد. نظرت مارية إلى السّماء وأخذت شهيقًا وزفيرًا عميقيْن عدّة مرّات، وشعرت بمشاعر سعيدة إلى أقصى حدّ. وكأنّها تنظر عاليًا إلى أشجار النّخيل التي تتمايل مع النسيم على شاطئ وايكيكي. إنّني حرّة. أستطيع الذهاب سيْرًا على قدميّ إلى أيِّ مكان. لا حاجةَ إلى التقوقع في الظلام مرتعشةً من البرد بعد الآن. أحسّت مارية بدرجةٍ كبيرة من السّعادة والامتنان لمجرّد بقائها على قيد الحياة. مع أنّها فترةُ أربعة أيّام فقط، إلّا أنَّ العالم الخارجيّ الذي تراه

بعد غياب، بدا منعشًا ومفعمًا بالحيويَّة. بدت الأشجار والأعشاب هنا وهناك مفعمةً بالحياة والنشاط. وأحسّ قلبها في رائحة النَّسيم بالمرح والسعادة.

ولكنْ يجب ألَّا تضيِّع الوقت. قد يعود منشكي لسببٍ ما. يجب الابتعاد سريعًا عن هذا المكان. حاولتْ بقدر استطاعتها بسط تجاعيد زيِّها المدرسيّ حتى لا يظنّ أحدٌ بها الظنون عند رؤيتها بتلك الحالة (إذ ظلَّت تنام ملفوفة باللّحاف وهي مرتديةً الزيَ المدرسيّ)، وأصلحت شعرها بيديْها الاثنتيْن، ورسمت على وجهها مشاعر الارتياح كأنَّ شيئًا لم يكن! وهبطت من الجبل بخطواتٍ مُسرعة.

ثمَّ صعدت الجهة المقابلة من الوادي، لكنَّها لم تتَّجه إلى بيتها، بل جاءت أوَّلًا إلى بيتي. كان لديْها هدفٌ تسعى إليه. لم تجد أحدًا في البيت. رنَّت الجرس مرارًا فلم تحصل على جواب.

استسلمت مارية ودخلت الغابة البرِّيَّة خلف البيت، واقتربت من الحُفرة التي خلف نموذج المعبد. الحُفرة مغلَّفة بفرشٍ بلاستيكيٍّ لم يكن موجودًا من قبل. كان مربوطًا بأحبالٍ في عددٍ من الأوتاد المثبَّتة في الأرض، وفوقها أحجار التثقيل المعتادة. بات من الصَّعب النظر إلى داخل الحُفرة. لقد سدَّ أحدُهم ـ لا تعرف من هو ـ الحُفرةَ أثناء غيابها. لا بدَّ أنَّه رأى خطورةً في تركها مفتوحة. وقفتْ مارية هناك، وأصخت السَّمع. داخل الحُفرة هادئ تمامًا (هامش منِّي: نظرًا إلى أنَّها لم تسمع صوتَ الجرس، فهذا يعني أنَّني لم أكن قد وصلتُ إلى الحُفرة بعد. أو ربَّما كنتُ نائمًا في الحُفرة).

بدأت السماء تُمطر تدريجيًا مطرًا باردًا. فكَّرت مارية بوجوب العودة إلى البيت. فيُفترض أنَّ أهلها في غاية القلق. عليها أن تفسّر للجميع أين كانت طوال تلك الأيَّام الأربعة. ومن المستحيل أن تقول لهم إنَّها تسلَّلت لبيت منشكي واختبأت فيه. سيكون أمرًا جللًا إن قالت ذلك. وعلى الأرجح

أنَّ الشرطة أُبلغت باختفائها. فإن عرفت الشرطةُ أنّني دخلت بيت منشكي عاقبتني بتهمةِ خرْقِ القوانين.

وعندها فكَّرت مارية في أن تقول إنَّها سقطت سهوًا داخل هذه الحُفرة، ولم تستطع الخروج منها طوال أربعة أيّام. وعثر عليها الأستاذ ـ أي أنا ـ صدفةً وأنقذها. وضعت مارية ملامح السيناريو، وأمِلَتْ أن أتعاون معها في حبكته. لكنّي لم أكن موجودًا في البيت وقتها، وكانت الحُفرة مُغطاةً من قبلُ بالفرش البلاستيكيّ الأزرق بحيث من الصَّعب النزول فيها. لا يُمكن لهذا السيناريو أن يتمّ إذن (وإلّا كان عليّ أن أخبر الشرطة عن سبب إحضاري للمعدّات الثقيلة وحفر تلك الحُفرة خصّيصًا. وربّما كان ذلك سيعقّد الأمور أكثر!).

لم تجد مارية فكرةً إلّا التظاهر بفقدان الذاكرة. بمعنى أنّها لا تذكر ما حدث لها طوال الأيّام الأربعة مُطلقًا. أصبحت ذاكرتها خالية تمامًا. وعندما عادت إليها الذاكرة وجدتْ نفسها وحيدةً في الجبل الخلفيّ. ليس أمامها إلّا الإصرار على قول ذلك. لقد سَبَق لها أن شاهدت في التلفزيون مسلسلًا دراميًا تدور قصّته حول ذلك النوع من فقدان الذاكرة. لا تعلم مارية الآن أيصدّق الناسُ ذلك أم لا. ستنهال عليها الأسئلة عن هذا وذاك، سواء من أهلها أو من الشرطة. وربّما ستؤخذ إلى طبيبٍ نفسيّ أو ما شابه. ولكنْ لم يكن أمامها إلّا الإصرار على أنّها لا تذكر أيّ شيء. عليها أن تشعّث شعرها وتمرّغ أطرافها بالطين وتصنع جروحًا وكدمات بسيطةً لتُظهر أنّها قضت تلك الفترة في الغابة. عليها أن تمثّل هذا الدور لا محالة.

نفَّذت مارية فكرتها بالفعل. مثّلت الدّور ببراعةٍ لا تضاهى.

تلك هي الحكاية التي باحت لي بها مارية. وعندما انتهت من قصّها، عادت شوكو. سمعتُ صوتَ سيارتها تويوتا بريوس أمام مدخل بيتي.

قلتُ لمارية: «من الأفضل ألا تبوحي لأحدٍ عمّا حدث معك. وألّا تتحدّثي مع أحدٍ غيري بهذا. يجب أن يكون سرًّا بيننا نحن الاثنيْن فقط».

«بالتّأكيد. بالتّأكيد لن أحكي لأحدٍ مطلقًا. وعلى كلّ حال، لن يصدّقني أحد».

«أنا أصدّقك».

«هل بذلك ستُغلق الدّائرة؟»

«لا أعرف. أظنّ أنّها لم تُغلق بعد. ولكنْ قد نتمكّن من تدبير الأمور الباقية. الخطر الأكبر قد فات».

«الجزء المُميت؟»

أومأتُ ثمّ قلت: «بالضبط. الجزء المُميت».

ظلّت مارية تحملق في وجهي لمدّة عشر ثوانٍ تقريبًا، ثمّ قالت بصوتٍ خفيض: «للكومنداتور وجودٌ حقيقيّ».

«أجل» للكومنداتور وجودٌ حقيقيّ. ثمّ قتلتُ الكومنداتور هذا طعنًا بيدي. قتلته حقًّا. لكنّي لم أنطق أمامها بذلك طبعًا.

أومأت مارية. ستظلّ محتفظةً بهذا السرّ ولن تبوح به لأحد. سيصبح ذلك سرًّا هامًّا بيننا نحن الاثنين فقط.

كان بودّي أن أُخبرها عن حقيقة الملابس في الخزانة التي حمتها، وأنّها في الماضي كانت ترتديها أمّها الرّاحلة قبل زواجها، لكنّي لم أستطع. فأنا لا أملك الحقّ. الكومنداتور أيضًا لا يملك الحقّ. منشكي فقط هو الذي يملك هذا الحقّ في هذا العالم. ولا يبدو أنّه سيستخدمه.

كلٌّ منّا يعيش وهو يحمل سرًّا لا يستطيع البوْحَ به لأحد.

- 63 -

الأمرُ ليس كما تراه

تبادلنا أنا وماريّة أسرارنا. أسرارٌ مهمّة لن يعرفها أحدٌ في هذا العالم غيرنا. رويتُ لها تجربتي في العالم السّفليّ، وروتْ لي تجربتها في بيت منشكي. لا أحد غيرنا يعرف أنّ لوحتيْ «مقتل الكومنداتور» و«رجل سيّارة سوبارو فورستر» مغلّفتان بإحكامٍ ومخبّأتان في السندرة في بيت توموهيكو أمادا. البومة القرناء تعرف ذلك طبعًا، لكنّها لن تبوح بشيء، بل ستبتلع الأسرار وسْط الصمت.

كانت ماريّة تأتي أحيانًا إلى بيتي لتلهو معي (من خلال الممرّ السرّيّ من دون أن تُخبر عمّتها). ثمّ كنّا نتفحّص التسلسل الزّمنيّ بالتّفصيل للتجربتيْن اللّتيْن خضناهما بالتزامن، ونقارن بينهما، كأنّنا نقرّب جبهة من جبهة لكي نعثر على المشترك بينهما.

كنتُ قلقًا من أن تحمل عمّتها شكوكًا فيما يتعلّق بالأجزاء المتوافقة من الأيّام الأربعة التي اختفت فيها ماريّة، بالأيّام الثلاثة التي «خرجتُ فيها في رحلة سفرٍ بعيد». يبدو أنّ ذلك لم يدر بخَلَدها مطلقًا. وبالتّأكيد، لم تنتبه الشرطة إلى تلك الحقيقة، فهم لا يعلمون شيئًا عن «الممرّ السرّيّ»، والبيت الذي أسكن فيه بالنّسبة إليهم يقع عمومًا «في الطرف الآخر من الجبل». لست جارهم، وبالتالي لم يزر بيتي أيُّ محقّقٍ لسماع أقوالي في الحادث. يبدو أنّ شوكو لم تُخبر الشرطة أنّ ماريّة تعمل موديلًا لِلوحتي. وربّما لم ترَ

تلك المعلومة ضروريّةً. فلو قارنت الشرطة بين فترة اختفاء مارية وفترة غيابي عن البيت ووجدتهما متزامنتيْن لكنتُ وُضعتُ في موقفٍ مريب!

في النهاية، لم أُكْمِل بورتريه مارية أكيكاوا. مع أنّها كانت في المراحل الأخيرة، وتكفيها بعض اللّمسات. لكنّني تخوّفت من الوضع الذي سينجم عند اكتمالها! فلا شكّ أنّ منشكي سيفعل ما بوسعه ليحصل عليها. تصوَّرتُ ماذا سيقول، ثمّ إنّي لم أشأ أن أعطيه البورتريه. من المستحيل أن أرسل تلك اللُّوحة إلى «معبده». قد يكون ذلك خطيرًا جدًّا. لذا قرّرتُ أن أتركها كما هي. لكنّ مارية أرادت أن تحتفظ بها عندها، لأنّها أعجبتها كثيرًا. قالت: «إنّها تُظهر ما أفكّر فيه بشكلٍ جيّد جدًّا». فأهديتُها لها بكلّ سرور على الرّغم من عدم اكتمالها، وأرفقتُ معها المسوّدات الثلاث التي اعتمدتُ عليها كما وعدتها. قالت مارية إنّ اللّوحة بهذا الشّكل أفضل، من وجهة نظرها.

«إنّ اللّوحةَ غير المُكتملة تجعلني أنا أيضًا على الدّوام غير مكتملة. ألا ترى ذلك جميلًا؟» قالت.

«ما من إنسانٍ كاملٍ على هذه الأرض. سيظلّ البشر ناقصين على الدوام» أجبتُ.

«وهل السّيّد منشكي كذلك أيضًا؟ لقد بدا لي أنّه إنسانٌ كاملٌ».

«هو أيضًا ليس بكامل».

منشكي ليس إنسانًا كاملًا بالتّأكيد. هذا هو رأيي. ولهذا السّبب ذاته، يدأب في كلّ ليلة على مراقبة مارية أكيكاوا على الجهة المقابلة من الوادي بالمنظار فائق القدرات. ليس أمامه إلّا فعلُ ذلك. إنّه يتحكّم في توازنه في هذا العالم من خلال عبء ذلك السرّ. الأمر بالنّسبة إليه كالعصا الطويلة التي يمسكها لاعب السّيرك وهو يمشي على الحبل.

كانت مارية تعلم أنّه يراقب بيتها بالمنظار، لكنّها لم تُخبر أحدًا سواي. وما زالت تجهل اضطراره إلى ذلك. لكنّها لسببٍ أجهله، لم تحاول أن تبحث عن سرّه، سوى أنّها قرّرت إغلاق ستائر نافذة غرفتها بإحكامٍ على الدوام، وتحرص على إطفاء النور في الغرفة عندما تبدّل ملابسها ليلًا. ولكنْ فيما تبقّى، لم يكن يهمُّها أنْ يتلصّص عليها في حياتها اليوميّة المعتادة، بل كانت تشعر ببعض المتعة من فكرة أنّها مراقبة، أو ربّما لأنّها الوحيدة التي تعرف ذلك.

وفقًا لما قالته مارية، فالعلاقة بين شوكو ومنشكي لا تزال مستمرّة. تذهب بسيّارتها إلى بيته مرّةً أو مرّتيْن في الأسبوع. ويبدو أنّهما يمارسان الجنس في كلّ مرّة (عبّرت مارية عن ذلك بتلميحاتٍ غير مباشرة). لم تقل لها عمّتها إلى أين تذهب، لكنّها كانت تعرف وجهتها. وعندما تعود إلى البيت، كان وجهها نضرًا أكثر من المعتاد. على أيِّ حال ـ مهما كانت فجوةُ الشرور والمخاطر الموجودة داخل منشكي نفسه ـ لم تكن مارية تملك أيّ خطّة لعرقلة تلك العلاقة. ما من حلٍّ إلّا أن يسير الاثنان في طريقهما كما يحلو لهما. على ألّا تتورّط مارية فيها، وأن تتجنّب تلك الدوّامة.

أمّا برأيي، فقد كان مرادها في غاية الصعوبة. عاجلًا أم آجلًا، ستتورّط مارية في تلك الدوّامة. تجد نفسها انتقلت من الطرف البعيد إلى مركز الدوّامة تمامًا. يُفترض أن منشكي يتقدّم حثيثًا في علاقته بشوكو آخذًا بالحسبان وجود مارية. وسواء أكان هناك خطّةٌ مسبقة أم لا، محالٌ ألّا يفعل منشكي ذلك. وقد كنتُ أنا من عرّف الاثنيْن على بعضهما بعضًا في المحصّلة، حتى وإن لم يكن ذلك قصدي. لقد التقى منشكي وشوكو أكيكاوا للمرّة الأولى في هذا البيت. كان ذلك بناءً على طلبه، وهو الذي يحصل على ما يريد دومًا.

لا تعرف مارية ما نيّة منشكي في التّصرُّف بمجموعة الفساتين من مقاس خمسة والأحذية الموجودة في الخزانة. لكنّها تتوقّع أنَّ ملابس

حبيبته السّابقة ستُخفى بعنايةٍ في مكانٍ ما ليحتفظ بها هناك إلى الأبد. لن يستطيع التخلُّص منها أو حرقها مهما تطوّرت علاقتُه بشوكو أكيكاوا. والسّبب أنَّ تلك الملابس أصبحت جزءًا من روحه فعلًا. أصبحت شيئًا يجب عبادته داخل «معبده» وتقديسه إلى الأبد.

توقّفتُ عن الذهاب إلى دروس الرّسم. شرحتُ الأمر للمدير قائلًا: «أعتذر بشدَّة، ولكنّي أريد أن أركّز في إبداعي الفنّيّ». تقبّل المدير تفسيري بصعوبة، وقال لي: «سُمْعتُك كمدرّسٍ جيّدة جدًّا». ويبدو أنّه لم يكن يجامل. أبلغته شكري العميق. ودرّست حتى نهاية العام، ريثما عثروا على مدرّسٍ جديد ليحلّ محلّي: أستاذة في منتصف الستينيّات من عمرها، عملت في السّابق مدرّسةً للفنون بالمدارس الثانوية. امرأة طيّبة، وعيناها كأعين الفِيَلة.

ظلّ منشكي يتّصل بي بين حينٍ وآخر. لم يكن هناك ما نتحادث به، سوى بعض الدردشة. سألني إن طرأ تغيير على الحُفرة، فأجبته بلا. وكان ذلك صحيحًا. ما تزال مغلقةً بالفَرْش البلاستيكيّ الأزرق. كنتُ أحيانًا أذهب لتفقُّدها في نزهتي اليوميّة، ولم أجد أثرًا لإزاحة الفرش. أحجارُ التثقيل على حالها. ولم تحدث أمورٌ غريبةٌ تخصّ الحُفرة بعد ذلك أبدًا. لم يُسمَع رنين الجرس في منتصف اللّيل، ولم يظهر الكومنداتور (أو أحدٌ غيره). بقيت الحُفرة موجودةً في الغابة البرّيّة في سكون. وبدأت أغصان الغاب التي دهستها جنازير المعدّات الثقيلة وأسقطتها، تسترجع قوّتها وحيويّتها تدريجيًّا، وعادت الحُفرة لتختفي خلف الأجمة المحيطة بها.

ظنّ منشكي أنّي بقيت في الحُفرة طوال فترة اختفائي. لم أستطع أن أشرح له كيف دخلتُ الحُفرة، لكنَّ وجودي فيها حقيقةٌ لا تقبل الشكّ، ولا أستطيع إنكارها. لذا لم يربط منشكي بين اختفاء مارية أكيكاوا واختفائي. تزامن الحَدَثان صدفةٌ عارضةٌ بالنّسبة إليه.

حاولتُ أن أعرف بحَذَرٍ إن كان قد شعر بوجودِ أحدٍ مختبئٍ في بيته مدّة أربعة أيّام، فاستنتجت أنّه لم يلحظ شيئًا من ذلك. إن كان هذا صحيحًا، فليس هو الذي وقف أمام باب خزانة الملابس. فمن يكون إذن؟

ما زال يتّصل بي رغم انقطاع زياراته المفاجئة إلى بيتي أيضًا. ربّما لم يَعُدْ يرى داعيًا لاستمرار العلاقة بيننا بعد أن وطّد علاقته بشوكو. وربّما فقد فضوله تجاهي. وربّما الأمران معًا. لم أهتم كثيرًا، مع أنّي شعرتُ بالوحدة أحيانًا لانقطاع صوت محرّك سيّارته الجاغوار.

وبالنّظر إلى استمراره بالاتّصال بي من وقتٍ لآخر (كان يتّصل دائمًا قبل الثامنة ليلًا)، يتّضح أنّه ما يزال بحاجةٍ إلى إبقاء العلاقة بيننا. لعلّه قلِقٌ لأنّه باح لي بكونه والد مارية أكيكاوا الحقيقيّ، لكنّي لا أعتقد أنّه كان يخشى أن أبوح بهذا السرّ إلى أحد، سواء شوكو أو مارية. لأنّه يعلم جيّدًا إلى أيّ مدًى أنا كتوم وأحفظ الأسرار. لديه فراسةٌ بمعرفة طباع البشر. أستغرب كيف لرجلٍ حذرٍ مثله أن يطلعني على سرٍّ كبيرٍ كهذا، إلّا أنّ الإنسان مهما كانت إرادته حديديّة قد يتعب من حَمْل سرٍّ في قلبه بمفرده. وربّما كان حينها في حاجةٍ ماسّةٍ وعاجلة إلى تدخُّلي، إذ رآني رجلًا لا يلحق الضررَ بأحد.

وبالرّغم من أنّه كان ينوي استغلالي منذ البداية، عليّ أن أشعر بالامتنان تجاهه، فهو الذي أنقذني من داخل الحُفرة. لو لم يأتِ ويُنزل لي السُّلّم ويرفعني من تحت الأرض، لبقيتُ هناك حتى الموت من دون أن ينتبه أحد. لعلّ كلًّا منّا ساعد الآخر، فالنتيجة بيننا تعادل.

عندما أخبرتُه أنّني أهديتُ البورتريه لمارية من دون أن يكتمل، أومأ ولم يقل شيئًا. كان منشكي هو الذي طلب رسم تلك اللّوحة، لكنّه ربّما لم يعد بحاجةٍ إليها، أو ليس لديْه اهتمام بلوحةٍ غير مكتملة.. أو ربّما كان يفكّر في أمرٍ آخر!

بعد أن حدَّثته عنها، غلَّفتُ لوحة «حُفرة داخل غابة بريَّة» تغليفًا بسيطًا، وأهديتها له. وضعتُها في صندوق الأمتعة بسيَّارة كورولا، وحملتها بنفسي إلى بيته (وكانت تلك المرَّة الأخيرة التي أقابله فيها وجهًا لوجه).

قلتُ له: «هذه الهديَّة على سبيل الشكر، لأنَّك أنقذتَ حياتي. أرجو منك أن تقبلها».

أُعجب منشكي باللَّوحة إعجابًا كبيرًا (وأنا شخصيًّا، أعتقد أنَّها ليست سيِّئةً من حيث جودتها الفنِّيَّة). طلب منِّي بإلحاح أن آخذ ثمنها، لكنِّي رفضتُ رفضًا قاطعًا. فلقد أخذتُ منه مبلغًا أعلى ممَّا ينبغي، ولم يكن في نيَّتي أخذ المزيد. لم أشأ خلقَ مزيدٍ من الديون بيننا. فما نحن إلَّا جيران نسكن على جانبيْ وادٍ واحد، ولو كان بوسعي لكنتُ تركت العلاقة في حدودها هذه على الدوام.

لفظ تومو هيكو أمادا أنفاسه الأخيرة يوم السبت من الأسبوع الذي أُنقذتُ فيه من الحُفرة. توقَّف قلبه في غيبوبةٍ استمرَّت ثلاثة أيَّام من يوم الخميس. توقَّف ببطءٍ مثل القاطرة التي تصل إلى محطَّتها النهائيَّة. وظلَّ ماساهيكو بجانبه طوال الوقت. وعندما توفي والده اتَّصل بي.

«لقد مات في سكينةٍ وسلام»، قال ماساهيكو «أنا أيضًا، أتمنَّى أن أموت بمثل هذا الهدوء. حتى إنَّه أبرز ابتسامةً خفيفةً وهو يموت».

حاولت التأكُّد منه مرَّةً ثانية: «ابتسامة؟»

«ربَّما لا تكون ابتسامة، لكنَّها بدت لي كذلك نوعًا ما».

اخترتُ كلماتي بعنايةٍ وقلتُ: «وفاته خسارة كبيرة، ولعلَّه استراح بلفظ أنفاسه الأخيرة في هدوءٍ وسكينة».

«عاد إليه وعيه حتى منتصف الأسبوع، لكنَّه لم يكن لديْه ما يقوله. فقد عاش بضعًا وتسعين عامًا، أمضاها في صنع ما يحبّ. ومن المؤكَّد أنَّه لم يكن لديْه ما يندم عليه».

بلى، وكيف لا. كان لديْه ما يندم عليه: كان يحمل حزنًا رهيبًا في صدره، لا أحد غيره يعرف تفاصيله. وبموته، لن يعرفه أحد إلى الأبد.

قال ماساهيكو: «قد أنشغل لفترةٍ طويلة من الوقت. فوالدي كان شهيرًا، وهناك كثيرٌ من الأمور يجب أن أفعلها حيال ذلك. ولأنّني ابنه الوحيد الذي سيرثه، عليَّ حمل ذلك الإرث أيضًا. أرجو أن نتحدّث فيما بعد حينما تهدأ الأمور».

شكرته على إبلاغي بموت والده، ثمّ أغلقتُ الهاتف.

ألقى موت توموهيكو أمادا على البيت صمتًا ثقيلًا وعميقًا. وهو أمر طبيعيّ على أيِّ حال. فهنا قضى توموهيكو أمادا أعوامًا طوالًا. ولقد قضيتُ أيّامًا في ذلك الصّمت الكثيف، ولم أشعر بأيِّ إزعاج. كان سكونًا خالصًا لا يرتبط بأيِّ شيءٍ آخر، يولّد انطباعًا بنهاية سلسلةٍ من الأحداث. سكونٌ يهبط بعد اكتمال الحادثة.

بعد أسبوعيْن على وفاته، زارتني مارية أكيكاوا متسلّلةً مثل قطّةٍ حذرة، وتحدّثت معي قليلًا ثمّ عادت إلى بيتها. لم تمكث طويلًا، فلقد اشتدّت عليها مراقبة أهلها، ولم تعُد تستطيع الإفلات من البيت بِحرّيّة كما في السّابق.

قالت لي: «يبدو أنّ صدري بدأ ينهد تدريجيًا. لذا ذهبتُ مؤخّرًا مع عمّتي لشراء حمّالات صدر. هناك حمّالات صدر خاصّة للفتاة التي تستخدمها للمرّة الأولى. هل كنتَ تعلم ذلك؟»

قلتُ لها لا أعلم. نظرت إلى صدرها، فلم أميِّز نهوده من فوق السترة الخضراء المصنوعة من صوف شيتلاند.

«لا أميّز الفرق بعد»، قلت لها.

«لأنّني الآن لا أضع إلّا شريطًا هزيلًا. ولو كان واضحًا أنّه كبر منذ البداية لظنّ الجميع أنّني حشوته. لذا أضع الآن شريطًا هزيلًا، ثمّ يكبر شيئًا فشيئًا. عليّ أن أعامله بحرص».

تمّ استجوابها بالتّفصيل من إحدى أفراد الشرطة النسائيّة عن المكان الذي قضت فيه الأيام الأربعة. تعاملت معها الشرطيّة برقّةٍ وحنان، رغم بعض الوعيد. لكنّها أصرّت حتى النهاية على القول إنّها ضلّت الطريق في منتصف الغابة ولم تَعُد تذكر شيئًا، وتعتقد أنّها تناولت الشوكولاتة والمياه المعدنيّة التي تضعها دائمًا في حقيبتها. لم تقل إلّا الضروريّ، وأغلقت فمها إغلاقًا تامًّا كأنّه خزانةُ ذهبٍ مضادّة للحرائق. وهي في الأصل بارعةٌ في الكتمان. عندما علمت الشرطةُ أنّها لم تكن جريمة اختطاف طلبًا لفدية، ذهبوا بها إلى المستشفى، وأجروا لها الفحوصات اللّازمة للجروح، وأرادوا معرفة إن تعرّضت لاعتداء جنسيّ. وعندما اتّضح عدم وجود أيّ آثار لذلك، بدا أنّ الشرطةَ أغلقت الملفّ: لا شيء سوى أنّ الفتاة التي في أوائل عقدها الثاني لم تَعُدْ إلى البيت وظلّت تتسكّع في الخارج عدّة أيّام! لم يكن حدثًا نادرًا أو غريبًا في تلك الأوساط.

لقد تخلّصتْ تماما من الملابس التي كانت ترتديها حينذاك: المعطف الكحليّ، تنّورة المربّعات، السّترة البيضاء، الصدرة الشبكيّة، والحذاء الذي بلا رباط، كلُّ شيء، كلُّ شيء. ثمّ اشترت زيًّا مدرسيًّا جديدًا، لكي تجدّد مشاعرها. وعادت إلى حياتها السّابقة كأنّ شيئًا لم يكن. لكنّها توقّفت عن التردّد على دروس الرّسم (وبأيّ حال، كانت تلك الدروس للأطفال، ما يعني أنّها لم تَعُدْ قادرةً على الاشتراك بها). علّقتْ لوحتها الشّخصيّة التي رسمتُها لها (تلك التي لم تكتمل) في غرفتها.

لم أستطع أن أتخيّل كيف ستنشأ مارية لتصبح امرأةً ناضجة. فالبنات في ذلك العمر يتغيّر مظهرهنّ الخارجيّ ومشاعرهنّ في لمح البصر. ربّما إن قابلتها

بعد أعوام، لن أعرف من هي. لذا أنا سعيد أنّني استطعتُ الإبقاء على شكلها وصورتها وهي في الثالثة عشرة من عمرها في بورتريه (على الرّغم من عدم اكتماله). لا شيء يبقى على حاله وشكله إلى الأبد في هذا العالم الواقعيّ.

اتّصلتُ بوكيل الأعمال في طوكيو الذي كنتُ أعمل معه في الماضي، وقلتُ له إنّني أريد العودة إلى رسم البورتريه. أسعده طلبي، فهو في حاجةٍ إلى رسّامين ماهرين دائمًا.

قال لي: «ولكنْ، ألم تقل إنّك لن ترسم البورتريه لأغراضٍ تجاريّة؟»

«تغيّرتْ فكرتي قليلًا» قلتُ له، ولم أشرح كيف تغيّرت فكرتي، ولا هو سألني.

ما أردتُ إلّا أن أحرّك يديّ حركةً آليّة من دون التّفكير في شيء، وأن أنتج لوحات بورتريه «تجاريّة» واحدةً بعد أخرى بكمّيّاتٍ كبيرة. كان يُفترض أنّ هذا العمل سيحقّق لي استقرارًا من الناحية الاقتصاديّة. وأنا نفسي لا أعرف إلى متى أستطيع الاستمرار هكذا. فلا يُمكن توقّع ما هو قادم. وبأيّ حال، هذا ما أردت فعله حينها. مجرّد استخدام التقنية التي اعتدتُ عليها بتلقائيّة، من دون إدخال أيّ شيءٍ زائدٍ عن الحاجة إلى وجداني. وألّا تكون لي أيّ علاقة بالفكرة والمجاز. وألّا أتورّط في ظروفٍ شخصيّةٍ معقّدة لإنسانٍ غنيٍّ غامضٍ يسكن على الجانب المقابل من الوادي، وألّا أكشف عن لوحةٍ عظيمةٍ في وضح النهار فتجرجرني إلى داخل جُحْرٍ أفقيٍّ ضيّقٍ ومُظلمٍ تحت الأرض. هذا ما كنتُ أطلبه حينها، لا أكثر.

قابلت يوزو وتحدّثت معها. تحاورنا في مقهى بالقرب من عملها، وتناولنا القهوة ومياه بيريه المعدنيّة. لم تكن بطنها كبيرة بالحجم الذي تخيّلتُه.

سألتها في البداية: «ألا تنوين الزواج من ذلك الشريك؟»

هزّت رأسها وقالت: «ليس لديّ نيّة في الوقت الحالي».

«لِمَ؟»

«لمجرَّد إحساسي أنَّه من الأفضل ألَّا أفعل ذلك»

«لكنَّكِ قرَّرتِ إنجاب الطفل؟»

أومأت يوزو إيماءة خفيفة، وقالت: «بالتَّأكيد. لا يُمكن العودة إلى الوراء».

«هل تعيشين معه حاليًّا؟»

«كلَّا، لا نعيش معًا. منذ أن رحلتَ أنت وأنا أعيش وحدي».

«لِمَ؟»

«السَّبب الأوَّل أنَّ الطلاق بيننا لم يتمّ بعد».

«لكنِّي وقَّعتُ على أوراق الطلاق وأرسلتها منذ فترةٍ وختمتها بخاتمي. ظننتُ أنَّ الطلاق بيننا قد تمَّ بالفعل».

صمتت يوزو قليلًا تفكِّر، ثمَّ قالت: «في الواقع، لم أقدِّم أوراق الطلاق بعد. لسببٍ ما، لم أجد رغبةً في ذلك، لذا تركتها كما هي. وبهذا، من الناحية القانونيَّة، أنا وأنت لا نزال زوجيْن بدون أيِّ تغيير. وسواء تطلَّقنا من الناحية القانونيَّة أم لا، فالطفل الذي سيولد هو طفلك أنت. ولكنْ بالتَّأكيد لستَ مضطرًّا لتحمُّل أيِّ مسؤوليةٍ تجاه الأمر».

لم أفهم شيئًا. قلت: «ولكنْ، الطفل الذي سيولد قريبًا هو طفل شريكك الآخر، أليس كذلك؟ من الناحية البيولوجيَّة».

ظلَّت تُحملق في وجهي صامتة، ثمَّ قالت: «الأمر ليس بهذه السُّهولة».

«كيف؟»

«كيف أعبِّر عن ذلك؟ إنَّني حاليًا لا أمتلك إثباتًا مؤكَّدًا أنَّ ذلك الرجل يكون والد هذا الطفل».

هذه المرّة جاء دوري لكي أحدّق في وجهها: «أهذا يعني أنّكِ لا تعرفين مَن الرجل الذي تسبّب في حملك؟»

أومأت يوزو بمعنى أنّها لا تعرف.

«ولكنْ لا تفكّر في الأمر. فأنا لست من النساء اللّواتي ينمن مع هذا وذاك من الرجال من دون أيّ اعتبار. أنا لا أقيم علاقةً جنسيّةً إلّا مع رجلٍ واحدٍ في وقتٍ واحد. لم أنم معك منذ وقتٍ محدّدٍ، أليس كذلك؟»

أومأتُ بنعم.

«مع إحساسي بالذنب طبعًا».

أومأتُ مرّةً أخرى.

فقالت: «ورغم هذا، كنتُ معه أحرص بشدّة، وأتّخذ كلّ الاحتياطات لمنع الحمل. لأنّني لم أشأ إنجاب أطفال. وأعتقد أنّك تعرف عنّي ذلك، فأنا حذرةٌ في مثل تلك الأمور. ولكنْ، عندما انتبهت، وجدتُ نفسي حاملًا حملًا مؤكّدًا».

«أيْ كان الحرص والحذر، فالفشل في منع الحمل أمرٌ واردٌ جدًّا».

هزّت رأسها بنعم ثانية. «حين يحدث ذلك، تنتبه المرأة بشكلٍ أو بآخر. تتنشّط عندها ما يشبه الحاسّة السادسة. الرجال لا يفهمون الأمر بالطبع».

هذا صحيح، فأنا لا أفهم ذلك مطلقًا.

قلتُ لها: «في كلّ الأحوال، لقد قرّرتِ إنجاب الطفل».

أومأت يوزو.

«ولكنّكِ كنتِ رافضةً على الدوام فكرة إنجاب أطفال، أو على الأقل منّي أنا».

«أجل. ما زلتُ غيرَ راغبةٍ في الأطفال. لا منك ولا من غيرك».

«ولكنَّكِ الآن على وشك أن تلقي إلى هذا العالم طفلًا لست متأكّدة تمامًا مَن يكون والده. مع أنّك لو أردتِ لأمكنك إجهاضه باكرًا».

«بالطبع، فكُرتُ في ذلك وتردَّدت كثيرًا».

«ولكنَّكِ لم تفعلي».

«لقد أصبحتُ مؤخَّرًا كما يلي: ما أعيشه هو حياتي بالطبع، لكنْ ما يحدث فيها يُقرَّر في مكانٍ ما لا علاقة لي به، ولا يشاورني في أمري. ويتطوَّر من دون أن يأخذ رأيي. بمعنى، يبدو أنّني أمتلك ما يشبه الإرادة الحرّة، ولكن في النهاية، ربّما لم أختر القرارات المهمّة في حياتي بنفسي. وقد يكون حملي تأكيدًا على ذلك».

استمعتُ إلى حديثها من دون أن أقول شيئًا.

«ربَّما يبدو كلامي على أنّه نظرية القدر المعتادة. لكنّي أشعر بذلك حقًّا. أشعر به بصدقٍ شديد وعمقٍ أشدّ. آمنت بذلك. وإن كان كذلك، فسألد الطفل وأربّيه وحدي مهما كان الثمن. ثمّ سأرى ما النتائج المترتّبة بنفسي. أعتقد أنّه أمرٌ في منتهى الأهمّيّة».

تجرّأتُ قائلًا: «هناك شيءٌ أريد أن أسألك بشأنه».

«ما هو؟»

«سؤالٌ سهل، لذا أرجو منك الإجابة بنعم أو بلا. ولن أقول أكثر».

«تفضّل. اسأل».

«هل تمانعين أن أعود إليكِ مرّةً ثانية؟»

عقدت حاجبيْها قليلًا، ثمّ ظلّتْ تُحملق في وجهي وقالت: «أن نعود زوجًا وزوجةً مرّةً أخرى؟»

«إن أمكن».

قالت بصوتٍ هادئٍ وبلا أيّ تردُّدٍ ملحوظ: «لا مانع. فأنت ما تزال زوجي، ولقد تركتُ غرفتك على حالها منذ أن رحلتَ. بإمكانك العودة متى أردت».

«هل علاقتك بشريكك مستمرّة؟»

هزّت رأسها بهدوء، وقالت: «كلّا. لقد انتهت».

«والسّبب؟»

«لم أكن أريد أن أعطيه حقّ تربية الطفل».

التزمتُ الصّمت.

قالت: «عندما أخبرته بذلك، صُدم بشدّة. وهذا طبيعيّ ربّما»، ثمّ مسحتْ وجهها بكفّيْها أكثر من مرّة.

«أهذا يعني أنّكِ لا تمانعين في إعطاء الحقّ لي؟»

وضعت يديْها على المائدة، ولم تزل تحدّق فيّ.

«تُرى هل تغيّرتَ قليلًا؟ أعني ملامح وجهك أو ما شابه؟»

«لا أعرف شيئًا عن ملامح وجهي، ولكنّي أعتقد أنّني تعلّمتُ أمورًا كثيرة».

«وأنا كذلك».

مسكتُ الكوب في يدي، وشربت ما تبقّى من القهوة، ثمّ قلت: «أعتقدُ أنّ ماساهيكو في حالٍ يُرثى لها بعد وفاة والده، وأنّ الأمور تحتاج بعض الوقت حتى تهدأ وتستقرّ. ولكنْ، متى استقرّت، أعتقد أنّني سأستطيع العودة إلى شقّة هيرُو بعد أن أوضّب أمتعتي وأخرج من البيت بعد بداية العام الجديد بقليل. هل تمانعين؟»

نظرت إليّ، كأنّها تنظر إلى مَن تشتاق إليه ثمّ رأته بعد فراق. مدّتْ يدها على الطاولة، ووضعتها فوق يدي.

قالت: «أعتقد أنّني أرغب في المصالحة معك. أريد أن أجرّب أن أتصالح معك. ولقد فكّرتُ كثيرًا في ذلك في الواقع».

«وأنا أيضًا كنتُ أفكّر في ذلك».

«ولكنّي لا أعلم هل ستسير الأمور هكذا على ما يرام».

«أنا أيضًا لا أعلم. ولكن لا بأس بالمحاولة».

«إنّني على وشك إنجاب طفلٍ لا يُعرَف مَن هو أبوه بشكلٍ قاطع. وسأربّيه. ألا يؤسفك؟»

«لا يؤسفني. قد تظنّين أنّي جننتُ، ولكنّي أعتقد أنّني الوالد المستتر لطفلك التي ستنجبين. أشعر بهذا حقًّا. أشعر أنّه إرادتي ربّما هي التي جعلتك تحملين هذا الجنين، من مكانٍ بعيد، على أنّها فكرةٌ مرّت من ممرٍّ خاصّ».

«على أنّها فكرة؟»

«على أنّها إحدى الفرضيّات».

فكّرت يوزو في كلامي قليلًا، ثمّ قالت: «إن كانت فرضيّةً، أرى أنّها فرضيّةٌ رائعة حقًّا».

«ربّما، فما من أمرٍ مؤكّدٍ في هذا العالم. ولكنْ على الأقلّ، نستطيع الإيمان بشيءٍ ما».

ابتسمتْ يوزو. وكانت تلك نهاية حوارنا في ذلك اليوم. عادت إلى بيتها بالمترو، وعدت إلى البيت الجبليّ بسيّارتي تويوتا واغن المغطّاة بالغبار.

- 64 -

على شكل النّعمة

بعد عدّة سنوات من عودتي للعيش مع زوجتي، وقع في 11 مارس زلزالٌ كبير في أغلب مناطق شرق اليابان. جلست أمام التلفاز أشاهد انهيار المدن الساحليّة واحدةً بعد أخرى، بداية من إيواته وحتى مياغي. إنّها المنطقة التي سافرت خلالها بلا هدف مستقلًا سيّارتي البيچو 205 القديمة، وفي إحدى تلك المُدن، قابلت «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء». رأيت على الشاشة أطلالَ عددٍ من المدن التي دمّرتها أمواجُ تسونامي كأنّها وحشٌ عملاق، فتحطّمت إلى قِطعٍ متناثرةٍ هنا وهناك. لم أعثر على أيّ شيءٍ يدلّ على تلك المدينة التي مررت بها. لأنّي لا أتذكّر حتى اسمها، فلم يكن لديّ وسيلةٌ للتأكّد من الأضرار التي ألحقتها بها تلك الكارثة وكيف غيّرتها!

كنتُ لا أفارق التلفاز لأيّامٍ متواصلة فاقدًا النُّطق، غير قادر على فعل شيء. أردت أن أجد مشهدًا واحدًا يرتبط بذاكرتي هناك، فقد تندثر ذاكرتي بما فيها من أشياءٍ مهمّة. وأردت أن أستقلّ السيّارة، وأذهب إلى ذلك المكان في التوّ والحال، لكي أتأكّد بأمّ عيني ممّا تبقّى وسواه. وكان ذلك من المحال: فالطرق الرّئيسة تهدّمت أو انهارت ولم تعُد موجودة. وفي الجزء الجنوبيّ من الإقليم سقط عددٌ من مفاعلات الطاقة النوويّة في حالة انصهارٍ نوويٍّ في محافظة فوكوشيما (قرب المنطقة التي تركت فيها سيّارتي البيچو التي لفظت أنفاسها الأخيرة)، لم يكن الوضع يسمح بالاقتراب مُطلقًا.

لم أكن سعيدًا على الإطلاق حينما كنتُ أتجوّل مسافرًا في تلك المناطق، بل كنتُ في حالةِ وَحدةٍ لا نهاية لها، وأحمل مشاعرَ تعيسةً وحزينة لا أجد لها مصرفًا. وأعتقد أنّني كنتُ مفقودًا بمعانٍ كثيرة. ومع ذلك، أثناء استمراري في الترحال، اختلطتُ بعددٍ كبير من الغرباء ومررتُ خلال ملامح حياتهم المختلفة. وربّما حمل ذلك معنى أهمّ بكثير ممّا كنتُ أفكّر فيه وقتها. تخلّيتُ حينذاك - بلا وعي في معظم الحالات - عن أشياء والتقطتُ أشياءً أخرى. وبعد مروري على تلك الأماكن، أصبحتُ شخصًا مختلفًا عمّا كنتُ في السّابق.

فكّرتُ في لوحة «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» التي أخفيتها في السندرة في بيت أوداوارا. تُرى ألا يزال ذلك الرجل - لو كان إنسانًا حقيقيًا لا من وحي خيالي - يعيش في تلك المدينة الساحليّة حتى الآن؟ ألا تزال تلك الفتاة النحيفة التي قضيتُ معها ليلةً عجيبة، تسكن في تلك المدينة؟ أم أنّهما استطاعا الهرب من الزلزال ومن أمواج التسونامي وما زالا على قيد الحياة؟ تُرى ماذا حدث لفندق العشّاق ومطعم العائلات؟

ذهبتُ في الخامسة مساءً لإحضار طفلتي من دار الحضانة. كانت تلك عادتي اليوميّة (عادت زوجتي للعمل في مكتب الهندسة المعماريّة). تقع دار الحضانة على بعد عشر دقائق سيْرًا على الأقدام بخطوات الكبار. أُمسك يديْ ابنتي ونسير معًا ببطءٍ في طريق العودة حتى بيتنا. وإن لم تمطر السماء، نعرّج في منتصف الطريق على حديقةٍ عامّةٍ صغيرة نرتاح على أحد المقاعد، ونشاهد كلاب الجيران. كانت ابنتي تريد تربية كلبٍ من نوعٍ صغير الحجم، لكنّ البناية التي أسكن فيها تمنع سكانها من تربية الحيوانات الأليفة. لذا وجب عليّ الصّبر على مشاهدتها للكلاب في الحديقة العامّة. وأحيانًا، يسمح لها مالك أحد الكلاب الصّغيرة الهادئة أن تلمسه.

اسم ابنتي هو «مورو». يوزو اختارت هذا الاسم. لقد رأته في حلمٍ لها قبل الولادة بأيّامٍ قليلة. كانت وحدها في غرفةٍ يابانيّةٍ تقليديّةٍ رحبة تطلّ على حديقةٍ يابانيّةٍ جميلةٍ وواسعة. وفي الغرفة درج كتابةٍ على الطراز القديم، وفوقه ورقة بيضاء واحدة. وكُتب على تلك الورقة كلمة «مورو» فقط بحجمٍ كبير وبحبرٍ أسود زاهٍ. لا تعلم من الذي كتبها، لكنّها كانت تبدو كلمةً عظيمة. هذا هو محتوى الحلم. واستطاعت يوزو تذكُّر تفاصيل الحلم بوضوحٍ كامل بعد استيقاظها من النوم، وأكّدت على أنّ ذلك هو الاسم الذي يجب أن نطلقه على الطفلة التي ستولد. وبالتّأكيد، لم يكن لديَّ أيّ اعتراض، إذ إنّ الطفلة التي ستولد هي طفلتها. وفجأةً، فكّرتُ أنّه قد يكون توموهيكو أمادا هو الذي كتب تلك الكلمة. مجرّد فكرة، لأنّه مجرّد حلمٍ من الأحلام.

وأسعدني كثيرًا أنّ المولود كانت بنتًا، لأنّني بسبب قضائي فترة طفولتي مع أختي كومي، ارتحتُ نفسيًّا لوجود بنتٍ صغيرة قريبةٍ منّي. وكان ذلك بالنّسبة إليّ هو الأمر الطبيعيّ المعتاد. أسعدني أيضًا أنّها جاءت إلى هذا العالم باسمٍ مؤكّدٍ بلا حيرةٍ أو تردُّد. فالاسم في غاية الأهمّيّة.

بعد أن أعود بمورو إلى البيت، تشاهد نشرة أخبار التلفزيون معي. حاولتُ قدر الإمكان ألّا أجعلها ترى مشاهد أمواج التسونامي وهي تجتاح كلّ شيء، لأنّها لا تناسب الصّغار. فعندما تتحوّل الشاشة إلى مشاهد التسونامي، كنتُ أمدُّ يدي سريعًا وأضعها على عينيْها لأحجبها.

وكانت مورو تسألني: «لِمَ؟»

«من الأفضل لكِ ألّا تريْنَ ذلك. لا تزالين صغيرة».

«ولكنّها مشاهدُ حقيقيّة! أليس كذلك؟»

«بلى. إنّها أحداثٌ تقع فعلًا في مكانٍ بعيدٍ من هنا. ولكنْ ليس من الضروريّ أن تري بنفسك كلّ ما يقع في الحقيقة».

فكّرتْ مورو قليلًا فيما قلته لها. لكنّها بالتّأكيد لم تفهم معنى الكلام. فهي لا تفهم ما معنى الزلازل والتسونامي، وبالتّأكيد لم تكن تفهم ماذا يحمل الموت من معنى. بأيِّ حالٍ، كنتُ أحجبُ عنها الرؤية بكلتا يديّ، ولم أجعلها ترى تلك المشاهد.

في أحد الأيّام، شاهدتُ «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» يظهر في لقطةٍ سريعة في التلفاز. أو ربّما خُيِّل إليّ أنّني شاهدته. لقد حُملت الكاميرا بسبب أمواج التسونامي حتى أعلى هضبةٍ بعيدةٍ عن البحر، وظهر هناك مركب صيدٍ كبير تُرك في المكان، وكان الرجل يقف بجانب المركب. يشبه فيلًا عاجزًا عن القيام بدوره، والرجل واقفٌ بجواره كأنّه مدرّبه. تغيّر المشهد سريعًا إلى مشهدٍ آخر. لذا لا أملك تأكيدًا قاطعًا أكان هو أم لا؟ لكنّه لم يبدُ لي إلّا هو، طويل القامة بمعطفه الجلديّ الأسود وقبّعته السّوداء الموسومة بشعار شركة يونيكس.

لم يظهر على الشاشة بعد، ولم أره إلّا بما يقارب اللّحظة الخاطفة، ثمّ انتقلت الكاميرا فورًا إلى زاويةٍ مختلفة.

كنتُ ما أزال أرسم لوحات البورتريه «التجاريّة» لكسب قوت اليوم. وما أزال أحرّك يدي على لوح القنّب بحركةٍ شبه آليّة من دون التّفكير في شيء. كانت تلك هي الحياة التي رغبتُ فيها. وهي الحياة التي يطلبها منّي الآخرون. وهو العمل الذي يوفّر لي دخلًا مؤكّدًا. وذلك ما كنتُ أحتاج إليه أيضًا، إذ لديّ أسرة أعيلها.

بعد شهرين من زلزال شرق اليابان، عرفتُ أنّ البيت الذي كنتُ أقيم فيه في أوداوارا انهار في حريق. البيت الذي عاش به تومohيكو أمادا نصف عمره. أخبرني ماساهيكو بذلك هاتفيًا. فبعد أن تركت البيت، ظلّ خاليًا بلا ساكن لفترةٍ طويلة، وكان ماساهيكو قلقًا للغاية من طريقة إدارته، فتحقّق

قلقه وخوفه في شكل الحريق الذي وقع. اشتعلت النار في نهاية العطلات المتوالية في شهر مايو، وهرع رجال الإطفاء إلى المكان بعد تلقيهم بلاغًا بالحريق، ولكن عندما وصلوا كان البيت القديم المبنيّ من الأخشاب قد انهار أغلبه من الحريق (ناهيك أنَّ الطريق الصاعدة الضيّقة والملتوية كثيرة التعرُّجات جعلت سيْر عربات الإطفاء في منتهى الصعوبة). ولحسن الحظّ، وربَّما بسبب هطول الأمطار في اللّيلة السّابقة، لم تمتد النيران إلى الغابة المحيطة. أجرت إدارة الإطفاء تحقيقًا في الحادث لكنَّها لم تصل إلى سبب اندلاع الحريق. ربَّما كان بسبب شرارةٍ كهربائيّة، وربَّما كان حرقًا عمدًا.

أوّل شيءٍ طرأ على ذهني، عندما سمعت الخبر، هو لوح «مقتل الكومنداتور». على الأرجح، حُرقت مع البيت، وكذلك لوحتي «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء». وعدد ضخم من مختارات الأسطوانات الموسيقيّة. تُرى هل استطاعت البومة القرناء التي تسكن السندرة الهرب؟

إنَّ لوحة «مقتل الكومنداتور» هي بلا شكّ أحد أعظم الأعمال الفنّيّة التي تركها توموهيكو أمادا، ويُفترض أنَّ فقدانها في الحريق يمثّل خسارةً لا تُعوَّض بالنّسبة لفنّ الرّسم في اليابان. ومن رأى تلك اللّوحة هم قلّة (أنا ومارية أكيكاوا، وشوكو أكيكاوا أيضًا بنظرةٍ سريعة. وبالطبع توموهيكو أمادا نفسه الذي أبدعها. وعلى الأرجح، لا أحدَ غيرنا شاهدها). احترقت تلك اللّوحة الثمينة التي لم يُعلن عنها، واختفت ليفقدها هذا العالم إلى الأبد. لا يُمكن إلّا أن أشعر بالمسؤوليّة تجاه ذلك. ألم يكن من المحتّم عليَّ أن أُعلن عنها على الملأ بوصفها «تحفة رائعة من أعمال توموهيكو أمادا التي لم يُكشَف عنها من قبل»؟ إلّا أنّي كنت قد أعدتُها إلى السندرة بعد أن غلّفتها مرّةً أخرى. وبذلك لا بدَّ أنَّها تحوّلت إلى رماد (لقد رسمتُ في دفتر مسوّداتي مسوّدات سريعة لكلّ شخصيّةٍ تظهر فيها اللّوحة، وهذا هو الشيء الوحيد

المتبقّي والمتعلّق بلوحة «مقتل الكومنداتور» الرّائعة). عندما أفكّر في الأمر، يتألّم قلبي، يتألّم كشخصٍ ينتمي إلى عالم الرسّامين. وكنتُ أقول لنفسي: لقد فرّطتُ في لوحةٍ بهذا القدر من الرّوعة. ربّما هذه خيانةٌ تجاه الفنّ.

ولكنْ في الوقت نفسه، أفكّر أنّها ربّما يجب أن تُفتقد. على ما رأيت، لقد صبّ توموهيكو أمادا فيها روحه بقوّةٍ أكثر من اللّازم وأعمقَ من اللّازم. إنّها بالتّأكيد لوحةٌ عظيمة، لكنّها كانت تمتلك قدرةً كبيرةً على الجذب والاستدعاء. يمكننا وصفها بالقدرة الخطرة. حقيقةً، من خلال اكتشافي لتلك اللّوحة، فتحتُ إحدى الدّوائر المغلقة. لذا، لم يكن من المناسب الكشف عنها وتعريضها لعيون العامّة. ألم يشعر صانعها نفسه بذلك على الأقل؟ ألم يكن هذا هو السّبب ذاته الذي جعله يتعمّد عدم الإعلان عنها وإخفاءها؟ فإنّي بذلك أكون قد احترمتُ إرادة توموهيكو أمادا. وعلى كلّ حال، فُقدت اللّوحة بالفعل في النيران، ولا يُمكن لأيّ إنسان إعادة الزمن إلى الوراء!

أمّا بالنّسبة لفقدان لوحة «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء»، فلم أشعر بأيّ حزنٍ أو أسف. بسبب اعتقادي أنّني قادر على إعادة رسمها في وقتٍ ما. ومن أجل ذلك، يجب أن أخلق من نفسي إنسانًا ثابتًا على قدر المسؤوليّة ورسّامًا عملاقًا. عندما أشعر أنّني أريد أن أبدع لوحتي أنا، يُفترض أنّني سأعيد رسم بورتريه «رجل سيّارة سوبارو فورستر البيضاء» بأسلوبٍ مختلف تمامًا، ومن زاويةٍ مختلفةٍ تمامًا. وربّما تكون تلك اللّوحة بمثابة لوحة «مقتل الكومنداتور» بالنّسبة إليّ. وإن حدث ذلك حقًّا، سأكون قد ورثتُ من توموهيكو أمادا ميراثًا ثمينًا.

بعد الحريق مباشرةً، اتّصلت مارية أكيكاوا بي، وتحدّثنا لمدّة نصف ساعة تقريبًا عن المنزل الذي انهار محترقًا. كانت مارية تضع المنزل الصغير

القديم والمناظر الذي يحتويها والأيّام التي تجذّرت داخل حياتها، موضعَ أهمّيّةٍ خاصّة جدًّا في قلبها، بما فيها منظر تomوهيكو أمادا أيّام وجوده على قيد الحياة. الرسّام الذي كانت تراه دائمًا في مَرْسمه وحيدًا، يركّز كلّ ذهنه في إبداع اللّوحات. لقد رأته مرارًا على تلك الشاكلة خلف زجاج النافذة. ويبدو أنّ فقدان ذلك المنظر إلى الأبد أحزنها من أعماق قلبها. استطعتُ أن أشاركها حزنها، فالمنزل (وإن كانت الفترة التي قضيتها فيه تقل عن ثمانية أشهر) يحمل معنًى عميقًا جدًّا بالنّسبة إليّ.

في نهاية حديثنا بالهاتف هذه المرّة، أخبرتني مارية بنهود صدرها إلى درجةٍ ما. لقد أصبحت الآن في الصف الثاني الثانويّ، ولم أقابلها منذ حادثة خروجها من المنزل حتى الآن أبدًا. لا نتواصل إلّا عبر الهاتف من وقتٍ لآخر. فلم تكن لديّ رغبةٌ في زيارة البيت ثانية، وما من ضرورةٍ تُجبرني على الذهاب إلى هناك. كانت مارية هي التي تتّصل بي في كلّ مرّة.

تحدّثتْ مارية وكأنّها تبوح لي بسرٍّ من أسرارها. واستغرق الأمر منّي وقتًا حتى أدرك أنّها تتحدّث عن حجم صدرها: «الحجم ليس كافيًا بعد، لكنّه كَبُر كثيرًا عن ذي قبل. بالضّبط كما توقّع الكومنداتور».

قلتُ لها هذا جيّد. ثمّ كنتُ على وشكَ أن أسألها إن صاحبت شابًّا بعمرها، لكنّي عدلتُ عن السؤال.

وما تزال عمّتها حتى الآن على علاقة مع منشكي. باحت لها بالأمر في لحظةٍ معيّنة، وقالت لها إنّهما على علاقةٍ حميمةٍ جدًّا. وقالت أيضًا إنّهما قد يتزوّجان قريبًا جدًّا.

سألتْها عمّتها: «هل ترضين يا مارية أن تعيشي معنا عندما نتزوّج؟»

تظاهرتْ مارية ـ كما تفعل دائمًا ـ بعدم سماع السّؤال.

أثار الأمر فيّ قليلًا من الفضول، فسألتُ مارية: «هل لديك نيّةٌ في الإقامة مع السّيّد منشكي؟»

أجابت: «لا أعتقد»، لكنّها أكملت وكأنّها تضيف شيئًا آخر: «الآن لا أعلم جيّدًا».

لا تعلم جيّدًا؟!

سألتها وقد أصابتني الحيرة: «ما فهمته منكِ أنّه ليس لديْك ذكريات جيّدة عن منزل السّيّد منشكي».

«لقد حدث ذلك وأنا طفلةٌ صغيرة، وصرت أعتبره حدثًا من الماضي البعيد. وفي كلّ الأحوال، لا يمكنني التّفكير في العيش بمفردي مع أبي».

في الماضي؟!

كنتُ أشعر أنّ تلك الأحداث وقعت بالأمس القريب. أخبرتها بما أشعر، فلم تعلّق بشيء. ربّما كانت ترغب في نسيان كلّ تلك الأحداث الغريبة التي وقعت لها في ذلك المنزل، أو ربّما حين كبرت، بدأت تشعر باهتمامٍ نحو شخصيّة منشكي. ربّما باتت تشعر بشكلٍ ما أنّ هناك شيئًا يجري في عروقه وعروقها.

قالت: «أنا مهتمّةٌ بمعرفة مصير الملابس التي في خزانة منزل السّيّد منشكي».

«تلك الغرفة، يجذبكِ سحرها! أليس كذلك؟»

«لأنّها الملابس التي حمتني. ولكنْ لا أدري بعد. إن دخلت الجامعة فربّما أعيش بمفردي في مكانٍ آخر».

قلت لها إنّ ذلك هو الاختيار الأفضل. ثمّ سألتها: «حسنًا، ماذا حدث للحُفرة التي خلف نموذج المعبد؟»

«على حالها. حتى بعد الحريق، ظلَّت مُغطَّاةً بالمفرش البلاستيكيّ الأزرق على الدوام. وتراكم فوقه كثيرٌ من أوراق الشجر، وربَّما لم يَعُد أحدٌ يُدرك أنَّ هناك حُفرةً في ذلك المكان».

من المفترض أنَّ الجرس القديم ما يزال في قاع الحُفرة، مع المصباح المحمول الذي استعرتُه من غرفة توموهيكو أمادا.

سألتُها: «ألم يَعُد يظهر لكِ الكومنداتور؟»

«لم أقابله يومًا بعد تلك المرَّة. لا أصدِّق الآن أنَّ الكومنداتور كان له وجودٌ حقيقيّ».

«كان له وجودٌ حقيقيّ. من الأفضل أن تؤمني بذلك».

فكَّرتُ أنَّها قد تنسى تلك الأمور تدريجيًّا. لقد دخلت الجزء الأخير من عقدها الثاني، ومن المؤكَّد أنَّ حياتها ستزدحم بأشياء كثيرةٍ وبسرعةٍ كبيرة. وربَّما لا تجد متَّسعًا للتَّعلُّق بأشياء لا يُفهَم أصلُها من فصلها مثل الفكرة والمجاز.

أحيانًا أفكِّر: تُرى ماذا حدث لتميمة البطريق؟ لقد أعطيتها لعديم الوجه الذي كان يعمل حارسًا على عبور النهر، بديلًا من أُجرة العبور. اضطررتُ إلى ذلك لكي أعبر النهر ذي التيَّار المتدفِّق. لم يَعُدْ بإمكاني إلَّا الدُّعاء أن يكون ذلك البطريق الصغير في مكانٍ ما ـ ربَّما متأرجحًا بين الوجود والعدم ـ يحرسها ويحميها حتى الآن.

أنا لا أعرف من يكون والد مورو حتى الآن. من المؤكَّد أنَّني سأعرف إن أجريت فحص الحامض النوويّ بشكلٍ رسميّ، لكنِّي لا أفكِّر مُطلقًا بمعرفة ذلك بتلك الطريقة. قد يحدث أمرٌ يجعلني أعرف يومًا ما. وقد يأتي اليوم الذي تظهر فيه حقيقةُ والد الطفلة. ولكنْ ما معنى تلك «الحقيقة»؟

مورو ابنتي رسميًّا بواقع القانون، وأنا أحبُّها من أعماق قلبي. وأحنّ عليها كثيرًا في الوقت الذي أقضيه معها. أيًّا كان والدها البيولوجيّ، فهذا شأنٌ لا يعنيني. أمرٌ تافهٌ للغاية. ولن يتغيّر أيُّ شيءٍ بناءً عليه.

أثناء تنقُّلي وحيدًا من مدينةٍ إلى مدينة في إقليم طوهوكو، ضاجعتُ يوزو في الحلم وهي نائمة. تسلَّلتُ داخل حلمها، ونتيجةً لذلك، حملتْ جنينًا، وبعد تسعة أشهر، وَلدت طفلة ـ هكذا كنتُ أفكّرُ (بسرّيّة تامّة طبعًا). أنا والد تلك الطفلة من حيث (الفكرة) ومن حيث (المجاز). كما زارني الكومنداتور، وكما أرشدتني الدونّة آنّا في الظلام، فأنا الذي أحبلتُ يوزو في عالمٍ موازٍ.

ولكنّي لن أصبح مثل منشكي الذي يعيش حياته على التوازن القائم بين احتماليْن، احتمال أن تكون مارية أكيكاوا ابنته، واحتمال ألّا تكون. يضع كلا الاحتماليْن على كفّتيْ ميزان، ثمّ يحاول إيجاد معنًى لوجوده داخل تلك الهزّة الطفيفة التي لا نهاية لها بين الكفّتيْن. ولكنْ لا ضرورة لهذا العمل الشاقّ بالنّسبة إليّ (الشاقّ لأنّه يصعب وصفه بالطبيعيّ). والسّبب أنّني أمتلك قوّةَ الإيمان. لأنّني أؤمن مخلصًا أنّه مهما وُضعتُ في مكانٍ مظلمٍ وضيّق، ومهما وُضعت في أرضٍ قاحلةٍ في قلب العاصفة، سأجد مَن يرشدني. لقد تعلّمتُ ذلك أثناء سكني في ذلك البيت فوق قمّة الجبل المُطلّ على ضواحي مدينة أوداوارا، ومن خلال خوضٍ تجاربَ غير طبيعيّة.

لقد تسبّبتْ نيرانٌ مجهولةٌ في فقدان لوحة «مقتل الكومنداتور» إلى الأبد، لكنّ ذلك العمل الفنّيّ الرائع ما يزال محفورًا في قلبي حتى الآن. أستطيع أن أجعل الكومنداتور والدُّونّة آنّا وطويل الوجه يظهرون أمام عينيّ بكلّ وضوح وجلاء. يظهرون بشكلٍ محدّد، حتى إنّي أكاد ألمسهم إذا مددتُ يدي. وعندما أفكّر بهم تمامًا، مثلما أتأمّل الأمطار التي تهطل

باستمرار فوق سطحٍ واسعٍ لبحيرة تخزين مياه، أستطيع أن أشعر بالهدوء والسّكينة طوال الوقت. لن يتوقّف هطول تلك الأمطار داخل قلبي.

سأقضي بقيّة حياتي في صحبتهم. أفكّر دائمًا أنّ طفلتي مورو الصّغيرة هي الهديّة التي أعطوها لي على شكل النعمة.

قلتُ لمورو التي تغطّ بجانبي في نومٍ عميق: «كان للكومنداتور وجودٌ حقيقيّ»، ثمّ أضفتُ: «من الأفضل أن تؤمني بذلك!»

تنويه

تتوجّه أسرة دار الآداب بجزيل الشُّكر للمترجم السوريّ معاوية عبد المجيد الذي عمل جاهدًا على تحرير الترجمة العربيّة لرواية هاروكي موراكامي «مقتل الكومنداتور» بجزأيها: الأوّل فكرةٌ تظهر، والثاني مجازٌ يتحوّل.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

رسّام متمكّن من التقاط الأسرار المتخفّية خلف وجوه الأشخاص الذين يرسمهم. لوحة مُربكة رسمها فنّانٌ كبيرٌ، عُثِرَ عليها بعد عشرات السنوات في سقيفة بيت. دبيبٌ في غابةٍ محاطةٍ بجيرانٍ غريبي الأطوار. وثمَّة جرسٌ برنينه المهيب والمحزن ينسلّ بين أشجار الغابة في قلب الليل.

رواية حول قوّة الفنّ البنّاءة وقوّة العنف الهدّامة؛ حول القدرة على جعل هشاشتنا ذهبًا، مهما بدتْ أيّامُنا قاتمةً.

«كعادته، موراكامي يَفْتننا بكشفه للخارقِ فينا داخل رتابتنا، عاثرًا على السحر في تفاصيل حياتنا اليوميّة».

The Guardian

في «مقتل الكومنداتور»، تتحرّك عبقريّةُ موراكامي بأسلوبٍ بديعٍ بين الواقع والهذيان.

Der Spiegel



